



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



الرعد
عليه صاب

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مَجْلَدُ الْإِسْرَائِيلَ

وَمَجْلَدُ الْفَصْلِ

بِإِسْنَادِ الْإِسْلَامِ

المجلد الخامس



دار الفکر للطباعة والنشر

بغداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٣	مختصر الميزان فى تفسير القرآن المجلد ٥
١٣	اشاره
١٣	اشاره
١٩	سوره الروم مكيه و هى ستون آيه
١٩	اشاره
١٩	[سوره الروم (٣٠): الآيات ١ الى ١٩]
١٩	اشاره
٢١	بيان:
٢٧	[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]
٣٣	[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٧ الى ٣٩]
٤٥	[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٧]
٥١	[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٨ الى ٥٣]
٥٤	[سوره الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]
٥٨	سوره لقمان مكيه و هى أربع و ثلاثون آيه
٥٨	اشاره
٥٨	[سوره لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]
٥٨	اشاره
٥٩	بيان:
٦٣	[سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]
٦٩	[سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٤]
٨٢	سوره السجده مكيه و هى ثلاثون آيه
٨٢	اشاره
٨٢	[سوره السجده (٣٢): الآيات ١ الى ١٤]

- ٨٢ اشاره
- ٨٣ بيان:
- ٩٥ [سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٣٠] -
- ١٠٣ سوره الأحزاب مدنيه و هي ثلاث و سبعون آيه
- ١٠٣ اشاره
- ١٠٣ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١ الى ٨] -
- ١٠٣ اشاره
- ١٠٤ بيان:
- ١١١ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧] -
- ١٢٢ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥] -
- ١٢٢ اشاره
- ١٣٤ بحث روائى:
- ١٤٠ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠] -
- ١٤٠ اشاره
- ١٤٦ بحث روائى:
- ١٤٨ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٨] -
- ١٥٢ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٦٢] -
- ١٦١ [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣] -
- ١٧٠ سوره سبأ مكيه و هي أربع و خمسون آيه
- ١٧٠ اشاره
- ١٧٠ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١ الى ٩] -
- ١٧٠ اشاره
- ١٧١ بيان:
- ١٧٦ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ١٠ الى ٢١] -
- ١٨٣ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠] -
- ١٩١ [سوره سبأ (٣٤): الآيات ٣١ الى ٥٤] -

- سوره فاطر مكيه و هي خمس و أربعون آيه ----- ٢٠٧
- اشاره ----- ٢٠٧
- [سوره فاطر (٣٥): آيه ١] ----- ٢٠٧
- اشاره ----- ٢٠٧
- بيان: ----- ٢٠٧
- [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢ الى ٨] ----- ٢١٠
- [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤] ----- ٢١٧
- [سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ٢٦] ----- ٢٢٧
- [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٣٨] ----- ٢٣٢
- [سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ الى ٤٥] ----- ٢٤١
- سوره يس مكيه و هي ثلاث و ثمانون آيه ----- ٢٥١
- اشاره ----- ٢٥١
- [سوره يس (٣٦): الآيات ١ الى ١٢] ----- ٢٥١
- اشاره ----- ٢٥١
- بيان: ----- ٢٥٢
- [سوره يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٣٢] ----- ٢٥٧
- [سوره يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٤٧] ----- ٢٦٨
- [سوره يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٦٥] ----- ٢٧٩
- [سوره يس (٣٦): الآيات ٦٦ الى ٨٣] ----- ٢٨٥
- سوره الصافات مكيه و هي مائه و اثنان و ثمانون آيه ----- ٢٩٧
- اشاره ----- ٢٩٧
- [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١ الى ١١] ----- ٢٩٧
- اشاره ----- ٢٩٧
- بيان: ----- ٢٩٨
- [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٢ الى ٧٠] ----- ٣٠٣
- [سوره الصافات (٣٧): الآيات ٧١ الى ١١٣] ----- ٣١٩

- ٣٣٠ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٣٢]
- ٣٣٣ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٤٨]
- ٣٣٨ [سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٨٢]
- ٣٤٨ سوره ص مكيه و هي ثمان و ثمانون آيه
- ٣٤٨ اشاره
- ٣٤٨ [سوره ص (٣٨): الآيات ١ الى ١٦]
- ٣٤٨ اشاره
- ٣٤٩ بيان:
- ٣٥٤ [سوره ص (٣٨): الآيات ١٧ الى ٢٩]
- ٣٦٤ [سوره ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]
- ٣٦٨ [سوره ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٨]
- ٣٧٣ [سوره ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٦٤]
- ٣٧٨ [سوره ص (٣٨): الآيات ٦٥ الى ٨٨]
- ٣٨٦ سوره الزمر مكيه و هي خمس و سبعون آيه
- ٣٨٦ اشاره
- ٣٨٦ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ١ الى ١٠]
- ٣٨٦ اشاره
- ٣٨٧ بيان:
- ٣٩٩ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ١١ الى ٢٠]
- ٤٠٥ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٢١ الى ٣٧]
- ٤١٤ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]
- ٤٢٧ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٥٣ الى ٦١]
- ٤٣٥ [سوره الزمر (٣٩): الآيات ٦٢ الى ٧٥]
- ٤٤٩ سوره المؤمن مكيه و هي خمس و ثمانون آيه
- ٤٤٩ اشاره
- ٤٤٩ [سوره غافر (٤٠): الآيات ١ الى ٦]

- ٤٤٩ اشاره
- ٤٥٠ بيان:
- ٤٥٤ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٢]
- ٤٦٢ [سوره غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ٢٠]
- ٤٦٨ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٥٤]
- ٤٨٦ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٥٥ الى ٦٠]
- ٤٩٠ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦١ الى ٦٨]
- ٤٩٤ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧٨]
- ٥٠٠ [سوره غافر (٤٠): الآيات ٧٩ الى ٨٥]
- ٥٠٣ سوره فصلت مكيه و هي اربع و خمسون آيه
- ٥٠٣ اشاره
- ٥٠٣ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١ الى ١٢]
- ٥٠٣ اشاره
- ٥٠٤ بيان:
- ٥١٥ [سوره فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ٢٥]
- ٥٢٥ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٢٦ الى ٣٩]
- ٥٣٣ [سوره فصلت (٤١): الآيات ٤٠ الى ٥٤]
- ٥٤٦ سوره الشورى مكيه و هي ثلاث و خمسون آيه
- ٥٤٦ اشاره
- ٥٤٦ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١ الى ٦]
- ٥٤٦ اشاره
- ٥٤٧ بيان:
- ٥٥٤ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ٧ الى ١٢]
- ٥٦٣ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٣ الى ١٦]
- ٥٧١ [سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ٢٦]
- ٥٧١ اشاره

٥٨٥	بحث روائى:
٥٨٧	[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]
٦٠٥	[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]
٦١٣	سوره الزخرف مكيه و هى تسع و ثمانون آيه
٦١٣	اشاره
٦١٣	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١ الى ١٤]
٦١٣	اشاره
٦١٤	بيان:
٦١٩	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]
٦٢٥	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٤٥]
٦٣٦	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]
٦٤٠	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]
٦٤٥	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٨]
٦٥٠	[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨٩]
٦٥٥	سوره الدخان مكيه و هى تسع و خمسون آيه
٦٥٥	اشاره
٦٥٥	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ١ الى ٨]
٦٥٥	اشاره
٦٥٥	بيان:
٦٦٠	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ٣٣]
٦٦٧	[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]
٦٧٦	سوره الجاثيه مكيه و هى سبع و ثلاثون آيه
٦٧٦	اشاره
٦٧٦	[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١ الى ١٣]
٦٧٦	اشاره
٦٧٧	بيان:

- ٦٨٤ [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]
- ٦٩٠ [سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]
- ٧٠٥ سوره الأحقاف مكيه و هي خمس و ثلاثون آيه
- ٧٠٥ اشاره
- ٧٠٥ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١ الى ١٤]
- ٧٠٥ اشاره
- ٧٠٦ بيان:
- ٧١٦ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠]
- ٧٢٤ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢١ الى ٢٨]
- ٧٢٩ [سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]
- ٧٣٤ سوره محمد مدنيه و هي ثمان و ثلاثون آيه
- ٧٣٤ اشاره
- ٧٣٤ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١ الى ٦]
- ٧٣٤ اشاره
- ٧٣٥ بيان:
- ٧٣٩ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥]
- ٧٤٥ [سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٣٢]
- ٧٥٦ [سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]
- ٧٦١ سوره الفتح مدنيه و هي تسع و عشرون آيه
- ٧٦١ اشاره
- ٧٦١ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١ الى ٧]
- ٧٦١ اشاره
- ٧٦٢ بيان:
- ٧٦٩ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]
- ٧٧٢ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١١ الى ١٧]
- ٧٧٨ [سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]

٧٨٧ [سوره الفتح (٤٨): آيه ٢٩]

٧٩١ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، محمدحسین، ۱۳۶۰ - ۱۲۴۱

عنوان قراردادی : [الميزان في تفسير القرآن. برگزیده]

عنوان و نام پدیدآور : مختصر الميزان في تفسير القرآن / [محمدحسین الطباطبائی]؛ تالیف الیاس کلانتری

مشخصات نشر : تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات اسوه، ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۶

شابک : ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۲-۱۵۰۰۰Xریال: (دوره)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۳-۰۸ (ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۴-۰۶ (ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۵-۰۵-۰۵ (ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۶-۰۲ (ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۷-۰۰ (ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۰۶۶-۰۸-۰۹ (ج.۶)

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلی

یادداشت : عربی

عنوان دیگر : الميزان في تفسير القرآن. برگزیده

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ - ، خلاصه کننده

شناسه افزوده : سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات اسوه

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۵۸۷۹

ص : ۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَمْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَمْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُا السُّوَايَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

تفتتح السوره بوعد من الله و هو أن الروم ستغلب الفرس فى بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السوره عن الفرس ثم تنتقل منه الى ذكر ميعاد أكبر و هو الوعد بيوم يرجع الكل فيه الى الله و تقيم الحجه على المعاد ثم تنعطف الى ذكر آيات الربوبيه و تصف صفاته تعالى الخاصه به ثم تختتم السوره بوعد النصر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تؤكد القول فيه إذ تقول: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ وَ قَدْ قِيلَ قَبِيلَ ذَلِكَ: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

فغرض السوره هو الوعد القطعى منه تعالى بنصره دينه و قد قدّم عليه نصر الروم على الفرس فى بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، و كذا يحتج به و من طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامه لا ريب فيه.

قوله تعالى: غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطوريه وسيعه منبسطة الى الشامات وقعت بينهم و بين الفرس حرب عوان فى بعض نواحي الشام قريبا من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم، و الظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز و اللام للعهد.

قوله تعالى: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ ضمير الجمع الأول للروم و كذا الثالث و أما الثانى فقد قيل إنه للفرس و المعنى: و الروم من بعد غلبه الفرس سيغلبون، و يمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول و الضمير للروم كالضميرين قبلها و بعدها فلا تختلف الضمائر و المعنى: و الروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون. و البضع من العدد من ثلاثه الى تسعه.

قوله تعالى: لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدِ قَبْلُ و بعد مبيان على الضمّ فهناك مضاف اليه مقدّر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم و من بعد أن غلبت يأمر بما يشاء

فينصر من يشاء و يخذل من يشاء.

وقيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين أى وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين و المعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

قوله تعالى: وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الظرف متعلق بيفرح و كذا قوله: «يَنْصُرُ» و المعنى: و يوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف و قال: «يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ» تقريرا لقوله: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» .

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء.

قوله تعالى: وَعِدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «وَعِدَ اللَّهُ» مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله وعدا و إخلاف الوعد خلاف إنجازه و قوله: «وَعِدَ اللَّهُ» تأكيد و تقرير للوعد السابق فى قوله: «سَيَغْلِبُونَ» و «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» كما أن قوله: «لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ» تأكيد و تقرير لقوله: «وَعِدَ اللَّهُ» .

و قوله: لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعِدَهُ كقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (الرعد ٣١) و خلف الوعد و إن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضروره فلا يحسن منه خلف الوعد فى حال.

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر فى كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عز من قائل: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤).

و قوله: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أى هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون

بوعده و يقيسونه الى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف.

قوله تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** جملة «يَعْلَمُونَ» على ما ذكره في الكشاف بدل من قوله: «لَا يَعْلَمُونَ» و في هذا الإبدال من النكته أنه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل و بين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى.

و قيل: الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق و أن لله الأمر من قبل و من بعد و أنه ينصر المؤمنين على الكافرين. انتهى و هذا أظهر.

و تنكير «ظاهراً» للتحقير و ظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها و هو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينه الحياة فيرشدهم الى اقتنائها و العكوف عليها و الإخلاق إليها و نسيان ما وراءها من الحياة الآخرة و المعارف المتعلقة بها و الغفلة عما فيه خيرهم و نفعهم بحقيقه معنى الكلمه.

قوله تعالى: **أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى** الخ؛ المراد من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما - ذلك جملة العالم المشهود - بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد و لعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض و غاية فهو تعالى إنما خلقها لغايه تترتب عليها.

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لا حق غايه للجزء السابق و كل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناك غايه مقصوده من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم و هذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: **«مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا»** بقوله: **«وَأَجَلٍ مُّسَمًّى»** بعد تقييده بقوله: **«إِلَّا بِالْحَقِّ»**.

فقوله: **أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ** الاستفهام للتعجب، و كونهم في أنفسهم استعاره كناية عن فراغ البال و حضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بامور الدنيا و سعيهم للمعيشه و تشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين في أنفسهم فيكون تفكيرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرق فيهديهم الى الحق و يرشدهم الى الواقع.

وقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى هُوَ الْفِكْرَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَمْنَعُوا فِيهِ النَّظَرَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَقْرِيرَهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ كَلًّا وَلَا بَعْضًا إِلَّا خَلَقًا مَلَابَسًا لِلْحَقِّ أَوْ مَصَاحِبًا لِلْحَقِّ أَى لَغَايِهِ حَقِيقِيهِ لَا عِبْثًا لَا غَايَةَ لَهُ وَلَا إِلَى أَجْلِ مَعِينٍ فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ بَلْ يَفْنَى وَيَنْقَطِعُ وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَنْ أَجْزَائِهِ وَالْمَجْمُوعُ مَخْلُوقًا ذَا غَايَةَ تَتْرَبُ عَلَيْهَا وَلَا يَسْ شَيْءٌ مِنْهَا دَائِمًا الْوُجُودَ كَانَتْ غَايَتُهُ مَتْرَبَةً عَلَيْهِ بَعْدَ انْقِطَاعِ وَجُودِهِ وَفَنَائِهِ، وَهَذَا هُوَ الْآخِرُ الَّتِي سَتُظْهِرُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب، والمراد بقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجبًا فكيف يمكن أن يبتدءوا منه ثم لا ينتهوا إليه، ولذلك أكدته بإن إشارته إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَّا ذَكَرَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِالْمَعَادِ وَذَلِكَ أَمْرٌ يَلْغُو مَعَهُ الدِّينَ الْحَقَّ ذَكَرَهُمْ حَالُ الْأُمَّمِ الْكَافِرَةِ وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَتَّبِعُونَ بِهَا فَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ. وَإِثَارَةُ الْأَرْضِ قَلْبَهَا ظَهَرَ الْبَطْنُ لِلْحَرْثِ وَالتَّعْمِيرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى بالكفر والمعاصى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَؤُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين و لذا عبّر بثم، و «عَاقِبَةُ» بالنصب خبر كان و اسمه «السُّوْأَى» قدّم الخبر عليه لإفاده الحصر و «أَسَؤُوا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، و السوْأَى الخلة التى يسوء صاحبها و المراد بها سوء العذاب و «أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» بحذف لام التعليل و التقدير لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

و المعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذى انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم

عاقبه غيرها لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

قوله تعالى: [□]اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بعد ما ذكر الحجه و تكذيب كثير من الناس لخص القول فى نتيجتها و هو أن البدء و العود بيده سبحانه و سيرجع اليه الجميع، و المراد بالخلق المخلوقون، و لذا أرجع اليه ضمير الجمع فى «تُرْجَعُونَ» .

قوله تعالى: [□]وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْبِئُ الْمُجْرِمُونَ ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعه و هى ساعه الرجوع اليه تعالى للحساب و الجزاء، و الإبلاس اليأس من الله و فيه كل الشقاء.

قوله تعالى: [□]وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ [□]وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ [□]كَافِرِينَ يريد أنهم على ياسهم من الرحمه من ناحيه أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون فى الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعباده شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: [□]وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْبِئُ الْمُجْرِمُونَ -الى قوله- [□]مُخَضَّرُونَ قال فى المجمع: الروضه البستان المتناهى منظرا و طيبا. انتهى. و قال فى المفردات: الجبر الأثر المستحسن -الى أن قال- و قوله عزّ و جل: «فِي رَوْضِهِ يُحْبَرُونَ» أى يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم. انتهى.

و المراد بتفرّق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول اولئك الجنة على ما يشير اليه الآيتان التاليتان.

و لزوم هذا التميّز و التفرّق فى الوجود هو الذى أخذه الله سبحانه حجه على ثبوت المعاد حيث قال: [□]أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً [□]مَحْيَاهُمْ [□]وَمَمَاتُهُمْ [□]سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الجاثية ٢١).

قوله تعالى: [□]فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ [□]وَ حِينَ تُضَيِّبُونَ [□]وَلَهُ الْحَمْدُ [□]فِي السَّمَاوَاتِ [□]وَ الْأَرْضِ [□]وَ عَشِيًّا [□]وَ حِينَ تُظْهِرُونَ لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم

و يرجعهم للقائه فيفترقهم طائفتين: أهل الجنة و النعمه و أهل النار و العذاب، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصلحاحات و أما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله و قد ذكر أنهم كانوا فى الدنيا أهل قوه و نعمه لكنهم نسوا الآخره و كذبوا بآيات الله و استهزءوا بها حتى انتهى بهم الأمر الى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فتحصّل من ذلك أن فى دار الخلقه تدبيراً إلهياً متقناً صالحاً جميلاً- على أجمل ما يكون و أن للانسان على توالى الأزمنه و الدهور آثاماً و خطيئات من العقيدته السيئه فى حق ربه و اتخاذ شركاء له و إنكار لقائه الى سائر المعاصى.

ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد و تحميدته على صنعه و تدبيره فى السماوات و الأرض و هو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطله و الأعمال الرديّه و محمود فى جميع ما خلقه و دبّره فى السماوات و الأرض.

و من هناك يظهر:

أولاً: أن التسبيح و التحميد فى الآيتين إنشاء تنزيه و ثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله فقد تكرر فى كلامه تعالى تسبيحه و تحميدته لنفسه كقوله: **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ (الصفافات ١٨٠/)** و قوله: **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (الفرقان ١/)**.

و ثانياً: أن المراد بالتسبيح و التحميد معناه المطلق دون الصلوات اليوميه المفروضه كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدراً. و المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله.

و ثالثاً: أن قوله: **«وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** معترضه واقعه بين المعطوف و المعطوف عليه، و قوله: **«وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ»** معطوفان على محل **«حِينَ تُمْسُونَ»** لا- على قوله: **«فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** حتى يختص المساء و الصباح بالتسبيح و السماوات و الأرض و العشى و الظهيره بالتحميد بل الأوقات و ما فيها للتسبيح و الأمكنه و ما فيها للتحميد.

فالسباق يشير الى أن ما فى السماوات و الأرض من خلق و أمر هو لله يستدعى بحسنه حمدا و ثناء لله سبحانه و أن للانسان على مر الدهور و تغيير الأزمنه و الأوقات من الشرك و المعصيه ما يتنزّه عنه ساحه قدسه تعالى و تقدس.

نعم هاهنا اعتبار آخر يتداخل فيه التّحميد و التّسبيح و هو أن الأزمنه و الأوقات على تغييرها و تصرّمها من جمله ما فى السماوات و الأرض فهى بوجودها يثنى على الله تعالى، ثم كل ما فى السماوات و الأرض بفقرها اليه تعالى و ذلّتها دونه و نقصها بالنسبه الى كماله تعالى تسبّحه كما قال: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤)**، لكن هذا الاعتبار غير منظور اليه فى الآيتين اللتين نحن فيهما.

قوله تعالى: **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ظاهر إخراج الحى من الميت و بالعكس خلق ذوى الحياه من الأرض الميتة ثم تبديل ذوى الحياه أرضا ميتة، و قد فسّر بخلق المؤمن من الكافر و خلق الكافر من المؤمن فإنه يعدّ المؤمن حيا و الكافر ميتا، قال تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا (الأنعام ١٢٢)**.

و أما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات فى الربيع و الصيف بعد خمودها فى الخريف و الشتاء، و قوله: **وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** أى تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها، و قد تقدم تفسير نظير صدر الآيه و ذيلها مرارا (١).

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَ مِنْ آيَاتِهِ مَذَامِكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ ابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبُرُوقَ حَافِئًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَهُ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلِّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦)

ص: ١٥

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقه الإنسان الى الأرض فإن مراتب تكوّن الإنسان من مضغه أو علقه أو نطفه أو غيرها مركبات أرضيه تنتهي الى العناصر الأرضيه.

وقوله: ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ إِذَا فجائيه أى يفاجئكم أنكم اناسى تنتشرون فى الأرض أى يخلقكم من تركيبات أرضيه المترقب منها كينونه أرضيه ميتة أخرى

مثلها لكن يفاجئكم دفعه أنه يصير بشرا ذوى حياه و شعور عقلى ينتشرون فى الأرض فى سبيل تدمير أمر الحياه فقوله: «ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» فى معنى قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤).

فخلق الإنسان أى جمع أجزائه من الأرض و تأليفها آيه و كينونه هذا المجموع إنسانا ذا حياه و شعور عقلى آيه أو آيات أخر تدل على صانع حى عليم يدبر الأمر و يجرى هذا النظام العجيب.

و قد ظهر بهذا المعنى أن «ثُمَّ» للتراخى الرتبى و الجملة معطوفه على قوله: «خَلَقَكُمْ» لا على قوله: «أَنْ خَلَقَكُمْ» .

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى من الحيوانات المتزاوجه: زوج و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج، قال تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى وَ قَالَ: وَ زَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَ زَوْجَهُ لَغُهُ رَدِيئُهُ وَ جَمَعَهَا زَوْجَاتٍ- إلى أن قال- و جمع الزوج أزواج. انتهى.

فقوله: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا أى خلق لأجلكم -أو لينفعكم- من جنسكم قرائن و ذلك أن كل واحد من الرجل و المرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنه الآخر و يتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكل واحد منهما ناقص فى نفسه مفتقر الى الآخر و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل، و لهذا النقص و الافتقار يتحرك الواحد منهما الى الآخر حتى إذا اتصل به سكن اليه لأن كل ناقص مشتاق الى كماله و كل مفتقر مائل الى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع فى كل من هذين القرينين.

و قوله: وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً الموده كأنها الحب الظاهر أثره فى مقام العمل فنسبه الموده الى الحب كنسبه الخضوع الظاهر أثره فى مقام العمل الى الخضوع الذى هو

نوع تأثر نفسانى عن العظمه و الكبرياء.

و الرحمه نوع تأثر نفسانى عن مشاهده حرمان المحروم عن الكمال و حاجته الى رفع نقيصته يدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجل موارد الموده و الرحمه المجتمع المنزلى فإن الزوجين يتلازمان بالموده و المحبه و هما معا و خاصه الزوجه يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيويه فيقومان بواجب العمل فى حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لو لا هذه الرحمه لا نقطع النسل و لم يعيش النوع قط.

و نظير هذه الموده و الرحمه مشهود فى المجتمع الكبير المدنى بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالموده و يرحم المساكين و العجزة و الضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياه.

و المراد بالموده و الرحمه فى الآيه الاوليان على ما يعطيه مناسبه السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآيه.

و قوله: **لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** لانهم إذا تفكروا فى الاصول التكوينية التى يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكوره و الانوثة الداعيتين الى الاجتماع المنزلى و الموده و الرحمه الباعثتين على الاجتماع المدنى ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان فى حياته الدنيا و الاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهيه فى تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** الى آخر الآيه؛ الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربيه و الفارسيه و الاردويه و غيرها و باختلاف الألوان اختلاف الامم فى ألوانهم كالبياض و السواد و الصفرة و الحمرة.

و يمكن أن يستفاد اختلاف الألسنه من جهه النغم و الأصوات و نحو التكلم و النطق و باختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون فى نظام الخلقه على آيات دقيقه داله على أن الصنع و الإيجاد مع النظام الجارى فيه لا يقوم إلا بالله و لا ينتهى إلا اليه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ ائْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛الفضل الزيادة على مقدار الحاجه و يطلق على العطيهِ لأن المعطى إنما يعطى ما فضل من مقدار حاجته،و المراد به فى الآيه الكريمه الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

و فى خلق الإنسان ذا قوى فعّاله تبعته الى طلب الرزق و رفع حوائج الحياه للبقاء بالحركه و السعى ثم هدايته الى الاستراحه و السكون لرفع متاعب السعى و تجديد تجهيز القوى و تخصيص الليل و النهار المتعاقبين للسعى و السكون و التسبيب الى وجود الليل و النهار بأوضاع سماويه قائمه بالأرض و الشمس لآيات نافعه لمن له سمع و اع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبُرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعِيدًا مَوْتِهَا الظاهر أن الفعل نَزَلَ منزله المصدر و لذلك لم يصدر بأن المصدريه كما صدر به قوله: «أَنْ خَلَقَكُمْ» و قوله: «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ» و تنزيل الفعل منزله المصدر لغه عربيه جيده و عليه يحمل المثل السائر«و تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه»و لا ضير فى حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي فى مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله:

﴿مَنَامُكُمْ﴾

﴿يُرِيكُمْ﴾

﴿أَنْ تَقُومَ﴾ .

و قوله: «خَوْفًا وَ طَمَعًا» أى خوفًا من الصاعقه و طمعا فى المطر، و قوله: «وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعِيدًا مَوْتِهَا» تقدم تفسيره كرارا، و قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ» أى إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عنايه متعلقه بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق و صدفه.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ القيام مقابل القعود و لما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على عامه أعماله استعير لثبوت الشىء و استقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر، قال تعالى: أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد/ ٣٣).

و المراد بقيام السماء و الأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة و سكون و تغير و ثبات بأمره تعالى و قد عرّف أمره بقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس/ ٨٢).

و قوله: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ «إِذَا» الاولى شرطيه و «إِذَا» الثانيه فجائيه قائمه مقام فاء الجزاء و «مِنَ الْأَرْضِ» متعلق بقوله: «دَعْوَةً» و الجمله معطوفه على محل الجمله الاولى لأن المراد بالجمله أعنى قوله: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ» الخ؛ البعث و الرجوع الى الله و ليس فى عداد الآيات بل الجمله إخبار بأمر احتج عليه سابقا و سيحتج عليه لاحقا.

و أما قول القائل: إن الجمله على تأويل المفرد و هى معطوفه على «أَنْ تَقُومَ» و التقدير و من آياته قيام السماء و الأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوه من الأرض.

فلازمه كون البعث معدودا من الآيات و ليس منها على أن البعث أحد الاصول الثلاثة التى يحتج بالآيات عليه، و لا يحتج به على التوحيد مثلا بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

و قد رتب الفواصل أعنى قوله: «يَتَفَكَّرُونَ» لِلْعَالَمِينَ «يَسْمَعُونَ» «يَعْقِلُونَ» على هذا

الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالماً ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق وعاه ثم عقله و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ كانت الآيات المذكوره مسوقه لإثبات ربوبيته تعالى و ألوهيته كما تقدمت الإشارة اليه و لما انتهى الكلام الى ذكر البعث و الرجوع الى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه و الحجه مأخوذه من الخلق و التدبير المذكورين فى الآيات السابقه.

فقوله: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إشاره الى إحاطه ملكه الحقيقى لجميع من فى السماوات و الارض و هم المحشورون اليه و ذلك لان وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر و حاجه لا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه و هذا هو الملك الحقيقى الذى أثره جواز تصرف المالك فى ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف فى مملوكيه بنقلهم من النشأه الدنيا الى النشأه الآخره.

و قد أكد ذلك بقوله: «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ» و القنوت لزوم الطاعه مع الخضوع-على ما ذكره الراغب فى المفردات-و المراد بالطاعه مع الخضوع الطاعه التكوينيّه-على ما يعطيه السياق- دون التشريعيه التى ربما تخلفت.

و ذلك أنهم الملائكه و الجن و الإنس فأما الملائكه فليس عندهم إلا خضوع الطاعه، و أما الجن و الإنس فهم مطيعون منقادون للعلل و الاسباب الكونيه و كلما احتالوا فى الغاء أثر عله من العلل أو سبب من الاسباب الكونيه توسلوا الى عله أخرى و سبب آخر كونى ثم علمهم و ارادتهم كاختيارهم جميعاً من الاسباب الكونيه فلا يكون إلا ما شاء الله أى الذى تمت عله فى الخارج و لا يتحقق مما شاءوا إلا ما أذن فيه و شاءه فهو المالك لهم و لا يملكونه.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٢٧ الى ٣٩]

وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِن تَصَبَّحْتُمْ بِمِائَةِ سَيِّئَةٍ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْإِثْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُزْبِتُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزْبُتُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ بَدَأَ الْخَلْقَ إِشْأَوْهُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَالْإِعَادَةَ إِشْأَاءً بَعْدَ إِشْأَاءٍ.

وقوله: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: «يُعِيدُهُ» والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق (١).

والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعنى قوله: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» معلل بقوله بعده: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو الحجة المثبتة لقوله: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

والمستفاد من قوله: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» الخ؛ أن كل وصف كمالى يمثل به شىء فى السماوات والأرض كالحياه والقدره و العلم والملك والجود والكرم والعظمه والكبرياء وغيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبه تلك الموجودات المحدوده كما قال: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

و ذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات و الأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه و هو في نفسه خال عنه فالحيّ منها ميت في ذاته و القادر منها عاجز في ذاته و لذلك كان الوصف فيها محدودا مقيدا بشيء دون شيء و حال دون حال، و هكذا فالعلم فيها مثلا- ليس مطلقا غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه و كذلك الحياه و القدره و الملك و العظمه و غيرها.

و الله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله و الذى له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود و صرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه و لا ممات يقابل حياته و هكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماويه و الأرضيه- و هي صفات غير ممخضه و لا مطلقه- ما هو أعلاها أى مطلقها و محضها.

فكل صفة توجد فيه تعالى و في غيره من المخلوقات، فالذى فيه أعلاها و أفضلها و الذى في غيره مفضول بالنسبه الى ما عنده.

و لما كانت الإيعاده متصفه بالهون إذا قيس الى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أى هون محض غير مخلوط بصعوبه و مشقه بخلاف ما عندنا معاشر الخلق و لا- يلزم منه أن يكون فى الإنشاء صعوبه و مشقه عليه تعالى لأن المشقه و الصعوبه فى الفعل تتبع قدره الفاعل بالتعاكس فكما قلت القدره كثرت المشقه و كلما كثرت قلت حتى إذا كانت القدره غير متناهيه انعدمت المشقه من رأس، و قدرته تعالى غير متناهيه فلا يشقّ عليه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن القدره إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهيه فافهم ذلك.

و قوله: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تَقَدَّمَ أَنَّهُ فِي مَقَامِ الْحُجَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» و محصله أن كل صفة كماليه يتصف به شيء مما فى

السموات و الأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أى مطلقها من غير تقييد و محضها من غير شوب و صرفها من غير خلط.

و قوله: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فى مقام التعليل بالنسبه الى قوله: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» الخ؛ أى إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شىء حكيم لا- يعرض فعله فتور، و لو لم تكن صفه من صفاته مثلا- أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدوده غير مطلقه و مخلوطه غير صرفه غير خاليه من النقص و القصور فاستدلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق و أحدث ذاك النقص فى فعله ثلمه و فتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق.

قوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَيْلٌ لَكُمْ مِنْ مَلَكْتِكُمْ أَلَيْسَ إِنَّكُمْ مِنْ شُرَكَاءِ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْخ؛ «مِنْ» فى قوله: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لا ابتداء الغايه أى ضرب لكم مثلا متخذًا من أنفسكم منتزعا من الحالات التى لديكم، و قوله: «هَيْلٌ لَكُمْ» شروع فى المثل المضروب و الاستفهام للإنكار، و «مَا» فى «مِنْ مَا مَلَكْتُمْ» للنوع أى من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد و الإماء، و «مِنْ» فى «مِنْ شُرَكَاءِ» زائده و هو مبتدأ، و قوله: «فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ» تفریع على الشركه، و «فَأَنْتُمْ» خطاب شامل للمالكين و المملوكين على طريق التغليب، و قوله: «تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» أى تخافون المماليك الشركاء أن تستبدوا فى تصرف المال المشترك من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الاحرار.

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء فى الالوهيه و الربوبيه و قد ألقى المثل فى صوره الاستفهام الإنكارى: هل يوجد بين ممالیککم من العبيد و الإماء من يكونون شركاء لكم فى الاموال التى رزقناکم- و الحال أنهم ممالیککم لكم تملكونهم و ما فى أيديهم- بحيث تخافونهم من التصرف فى أموالکم بغير اذن منهم و رضى كما تخافون

لا يكون ذلك أبداً ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله و إذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة و الجن و هم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه و آلهه و أربابا من دونه؟

ثم تمم الكلام بقوله: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ إضراب عما يستفاد من ذيل الآيه السابقه و التقدير و هؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا و إنما بدله من قوله: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سببهم بالضلال في قوله: «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي، قال تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧).

فقوله: فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ استفهام إنكارى مدلوله الإيأس من نعمه الهدايه للمشركين المتبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم و قد تكرر في كلامه تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» .

و قوله: وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ نفى لنجاتهم بنصره الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاه من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم و نفى الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

و قول القائل إن معنى نفى الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابله الجمع بالجمع غير مطرد.

و معنى الآيه: بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقل فأضلهم الله بظلمهم

و لا هادى يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم.

قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ الكلام متفرع على ما تحصيل من الآيات السابقة المثبتة للمبدإ و المعاد أى إذا ثبت أن الخلق و التدبير لله وحده لا شريك له و هو سبيح و يحاسب و لا نجاه لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهك للدين و الزمه فإنه الدين الذى تدعو اليه الخلقه الإلهيه.

فقوله: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ المراد بإقامه الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفله منه كالمقبل على الشىء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا و شمالا و الظاهر أن اللام فى الدين للعهد و المراد به الإسلام.

و قوله: حَنِيفًا حال من فاعل أقم و جوز أن يكون حالا من الدين أو حالا من الوجه و الأول أظهر و أنسب للسياق، و الحنف ميل القدمين الى الوسط و المراد به الاعتدال.

و قوله: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا الفطره بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع و «فِطْرَتَ اللَّهِ» منصوب على الإغراء أى الزم الفطره فيه إشارة الى أن هذا الدين الذى يجب إقامه الوجه له هو الذى يهتف به الخلقه و يهدى اليه الفطره الإلهيه التى لا تبدل لها.

و ذلك أنه ليس الدين إلا سنّه الحياه و السبيل التى يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد فى حياته فلا غايه للانسان يتبعها إلا السعاده و قد هدى كل نوع من أنواع الخليقه الى سعاده التى هى بغيه حياته بفطرته و نوع خلقته و جهّز فى وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، و قال: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (الأعلى ٣).

فالانسان كسائر الأنواع المخلوقه مفطور بفطرته تهديه الى تتميم نواقصه و رفع حوائجه

و تهتف له بما ينفعه و ما يضره في حياته، قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَّ مَا سَوَّاهَا فَالْتَمَّهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨)، و هو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (عبس ٢٠).

فلانسان فطره خاصه تهديه الى سنه خاصه في الحياه و سبيل معينه ذات غايه مشخصه ليس له إلا أن يسلكها خاصه و هو قوله: «فَطَرَتِ اللّٰهُ التّٰى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا» و ليس الانسان العائش في هذه النشأه إلا نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه و ما يضره بالنظر الى هذه البنيه المؤلفه من روح و بدن فما للانسان من جهه أنه إنسان إلا سعادته واحده و شفاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنه واحده ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت.

و ليكن ذاك الهادى هو الفطره و نوع الخلقه و لذلك عَقَّبَ قوله: «فَطَرَتِ اللّٰهُ التّٰى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا» بقوله: «لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللّٰهِ» .

فلو اختلفت سعادته الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادته الأفراد المجتمعين، و لو اختلفت السعاده باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الامم المختلفه بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنه الاجتماعيه أعنى الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقه كان الانسان أنواعا مختلفه باختلاف الأقطار، و لو اختلفت السعاده باختلاف الأزمنه بمعنى أن تكون الأعصار و القرون هي الأساس الوحيد للسنه الدينيه اختلفت نوعيه كل قرن و جيل مع من ورثوا من آباءهم أو أخلفوا من أبنائهم و لم يسر الاجتماع الانساني سير التكامل و لم تكن الانسانيه متوجهه من النقص الى الكمال إذ لا- يتحقق النقص و الكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنه أو الأزمنه بعض التأثير في انتظام السنه الدينيه في الجمله بل إثبات أن الأساس للسنه الدينيه هو البنيه الانسانيه التي هي حقيقه واحده ثابتة مشتركه بين الأفراد، فلانسانيه سنه واحده ثابتة بثبات أساسها

الذى هو الانسان و هى التى تدير رعى الانسانيه مع ما يلحق بها من السنن الجزئيه المختلفه باختلاف الافراد أو الأمكنه أو الأزمنه.

و هذا هو الذى يشير الى قوله بعد: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» و سنزید المقام إيضاحاً فى بحث مستقل إن شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم نظير قوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ (الطلاق/١)، و قوله: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ وَ لَا تَطْغَوْا (هود/١١٢)، فيثول المعنى الى نحو من قولنا: فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت و من معك مبينين الى الله، و الإنابه الرجوع بالتوبه.

و قوله: وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ التقوى بحسب دلاله المقام يشمل امتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامه الصلاه من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهى عمود الدين.

و قوله: وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ القول فى اختصاصه من بين سائر المحرمات بالذكر نظير القول فى الصلاه فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقه، و قد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء/٤٨)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَمْ دِيهِمْ فَرِحُونَ «مِنَ» للتبيين و «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» الخ؛ بيان للمشركين و فيه تعريفهم بأخص صفاتهم فى دينهم و هو تفرقهم فى دينهم و عودهم شيعه شيعه و حزبا حزبا يفرح و يسر كل شيعه و حزب بما عندهم من الدين و السبب فى ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: بَلِ

ص: ٢٩

(١ - ١). الروم ٢٧-٣٩: بحث حول قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»؛ الفطره.

إَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَبَيْنَ أَنَّهُمْ بَنَوْا دِينَهُمْ عَلَىٰ أُسَاسٍ الْأَهْوَاءِ وَ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ وَلَا هَادِيَ غَيْرَهُ.

قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ التعبير بالمس للدلالة على القله والخفه و تنكير ضر و رحمه أيضا لذلك و المعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر و لو قليلا كمرض ما و فقر ما و شدة ما دعوا ربهم و هو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمه إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعون و يعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد و الشركاء.

أى إنهم كفرون للنعمة طبعاً و إن اعترفوا بها عند الضر و قد أخذ لذلك فريقاً منهم لأن منهم من ليس كذلك.

قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ تهديد لاولئك المشركين عند إذاقه الرحمه و اللام فى «لِيَكْفُرُوا» للأمر الغائب و قوله: «فَتَمَتَّعُوا» متفرع على سابقه و هو أمر آخر و الأمران جميعاً للتهديد، و الالتفات من الأمر الغائب الى الأمر الحاضر لثوران الوجد و السخط من تفریطهم فى جنب الله و استهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر و يكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ «أَمْ» منقطعه و المراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازاً، و السلطان البرهان، و المراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى: بل أعلمناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

و يمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان و هو الملك فلا- مجاز فى الإنزال و التكلم و المعنى: بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم.

قوله تعالى: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ الإِذَاقَةَ كَالْمَسِّ تَدُلُّ عَلَى قَلِيلِ النَّيْلِ وَ يَسِيرِهِ، وَالْقَنُوطُ الْيَأْسُ.

وَ إِذَا الْاَوَّلَى شَرْطِيهِ وَ الثَّانِيهِ فَجَائِيهِ، وَ الْمَقَابِلَهُ بَيْنَ «إِذَا» فِي إِذَاقَةِ الرَّحْمَةِ وَ «إِنْ» فِي إِصَابَةِ السَّيْئَةِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ كَثِيرَةً قَطْعِيهِ وَ السَّيْئَةَ قَلِيلَةً اِحْتِمَالِيهِ، وَ نَسْبَهُ الرَّحْمَةَ إِلَيْهِ تَعَالَى دُونَ السَّيْئَةِ لِأَنَّ الرَّحْمَةَ وَجُودِيَهُ مَفَاضُهُ مِنْهُ تَعَالَى وَ السَّيْئَةَ عَدَمِيَهُ هِيَ عَدَمُ الْإِفَاضَةِ وَ لِذَا عَلَّمَهَا بِقَوْلِهِ:

«بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ»، وَ فِي تَعْلِيلِ السَّيْئَةِ بِذَلِكَ وَ عَدَمِ التَّعْلِيلِ فِي جَانِبِ الرَّحْمَةِ بِشَيْءٍ إِشَارَهُ إِلَى أَنَّ الرَّحْمَةَ تَفْضُلُ.

وَ التَّعْبِيرُ فِي الرَّحْمَةِ بِقَوْلِهِ: «فَرِحُوا» وَ فِي السَّيْئَةِ بِقَوْلِهِ: «إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى حَدُوثِ الْقَنُوطِ وَ لَمْ يَكُنْ بِمُتَرَقِّبٍ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ وَ السَّيْئَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَ الرَّحْمَةَ وَاسِعَةً وَ لِهَذَا عَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى الْحَالِ لِتَمَثِيلِ حَالِهِمْ.

وَ الْمُرَادُ بِالآيَةِ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْدُو نَظَرَهُمْ ظَاهِرًا مَا يَشَاهِدُونَهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَ النِّقْمَةِ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَبَصَّرُوا وَ يَعْقِلُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ غَيْرِهِمْ وَ بِمَشِيهِ مِنْ رَبِّهِمْ إِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَ إِذَا فَقَدُوا قَنَطُوا كَأَنَّ لَيْسَ ذَلِكَ بِإِذْنِ مَنْ رَبَّهُمْ وَ إِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْذَنْ وَ فَتَحَ بَابَ النِّعْمَةِ فَهَمَّ ظَاهِرِيُونَ سَطْحِيُونَ.

وَ بِهَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ لَا تَدَافِعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَ بَيْنَ قَوْلِهِ السَّابِقِ: وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ؛ وَ ذَلِكَ أَنَّ مَدْلُولَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ أَفْهَامَهُمْ سَطْحِيهِ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا وَ إِذَا فَقَدُوا قَنَطُوا وَ مَدْلُولُ تِلْكَ أَنَّهُمْ إِذَا وَجَدُوا فَرَحُوا وَ إِذَا فَقَدُوا دَعَا اللَّهَ وَ هُمْ قَانِطُونَ مِنَ الشَّيْءِ وَ أَسْبَابُهُ مُنِيبِينَ رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ فَلَا تَدَافِعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ بَيَانٌ لِخَطْئِهِمْ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى الْفَرَحِ وَ الْقَنُوطِ عِنْدَ إِذَاقَةِ الرَّحْمَةِ وَ إِصَابَةِ السَّيْئَةِ فَإِنَّ الرِّزْقَ فِي سَعْتِهِ وَ ضَيْقِهِ تَابِعٌ لِمَشِيهِ اللَّهُ فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الرَّحْمَةَ الَّتِي

ذاقها و السيئه التي أصابته ممكنه الزوال بمشيئه الله سبحانه و لا موجب للفرح بما لا يؤمن فقدوه و لا للقنوط مما يرجى زواله.

و أما أنه أمر ظاهر للانسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذى يناله الانسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط ليس الانسان الذى يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب و لا السبب الذى يركن اليه و يطيب به نفسا إلا بعض تلك الأسباب و عامه الأسباب منتهيه اليه سبحانه فهو الذى يعطى و يمنع و هو الذى يبسط و يقدر أى يوسع و يضيق، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنَ السَّبِيلِ** الخ؛ ذو القربى صاحب القرابه من الأرحام و المسكين أسوأ حالا من الفقير و ابن السبيل المسافر ذو الحاجه، و إضافه الحق الى الضمير تدل على أن لذى القربى حقا ثابتا، و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، فظاهر الآيه بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس و التكليف للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و يتبعه غيره ممن كلف بالخمس، و القرابه على أى حال قرابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم كما فى آيه الخمس، هذا كله على تقدير كون الآيه مدنيه و أما على تقدير كونها مكيه كسائر آيات السوره فالمراد مطلق الإحسان للقرابه و المسكين و ابن السبيل.

و لعموم الآيه معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: **«ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»**.

قوله تعالى: **وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** الربا نماء المال، و قوله: **«لِيَرْبُوا»** الخ؛ يشير الى وجه التسميه، فالمراد أن المال الذى تؤتونه الناس ليزيد فى أموالهم لا إرادته لوجه الله-بقريته ذكر إرادته الوجه فى مقابله-فليس يزيد و ينمو عند الله أى لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

وقوله: **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ** المراد بالزكاة مطلق الصدقة أى إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير، والمضعف ذو الضعف، والمعنى: وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فاولئك هم الذين يضعفون لهم ما لهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا و الزكاة بقريته المقابله و ما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال و هو العطيته من غير قربه، و الصدقه و هى إعطاء المال مع قصد القربه. هذا كله على تقدير كون الآيه مكيه و أما على تقدير كونها مدنيه فالمراد بالربا الربا المحرم و بالزكاة هى الزكاة المفروضه.

و هذه الآيه و التى قبلها أشبه بالمدينيات منهما بالمكيات و لا اعتبار بما يدعى من الروايه أو الإجماع المنقول (١)(٢).

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٠ الى ٤٧]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)

ص: ٣٣

١ - ١) الروم ٢٧-٣٩: بحث روائى فى: التوحيد؛ الدين الفطرى؛ فطره الله التى فطر الناس عليها؛ عله بكاء الاطفال؛ ذى القربى؛ فدك؛ حكمه بعض العبادات.

٢ - ٢) الروم ٢٧-٣٩: كلام فى معنى كون الدين فطريا فى فصول.

قوله تعالى: [□]اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ الخ؛ اسم الجلاله مبتدأ و «الَّذِي خَلَقَكُمْ» خبره، وكذا قوله: «مَنْ يَفْعَلُ» الخ؛ مبتدأ خبره «مَنْ شُرَكَائِكُمْ» المقدم عليه والاستفهام إنكارى وقد ذكر فى تركيب الآيه احتمالات أخر.

و المعنى: أن الله سبحانه هو الذى اتصف بكذا وكذا ووصفا من أوصاف الألوهيه و الربوبيه فهل من الآلهه الذين تدعون أنهم آلهه من يفعل شيئا من ذلكم يعنى من الخلق و الرزق و الإماتة و الإحياء و إذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم و ربكم لا إله إلا هو.

قوله تعالى: [□]ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الآيه؛ بظاهر لفظها عامه لا- تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعه خاصه، فالمراد بالبرّ و البحر معناهما المعروف و يستوعبان سطح الكره الأرضيه.

و المراد بالفساد الظاهر المصائب و البلايا الظاهره فيهما الشامله لمنطقه من مناطق الأرض من الزلازل و قطع الأمطار و السنين و الأمراض الساريه و الحروب و الغارات و ارتفاع الأمن و بالجمله كل ما يفسد النظام الصالح الجارى فى العالم الأرضى سواء كان مستندا الى اختيار بعض الناس أو غير مستند اليه. فكل ذلك فساد ظاهر فى البر أو البحر مخل بطيب العيش الانسانى.

و قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ أَى بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا مِنْ شَرِكٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ الآيه (الأعراف ٩٦)؛ و أيضا فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب أن بين أعمال الناس و الحوادث الكونيه رابطه مستقيمه يتأثر إحداهما من صلاح الاخرى و فسادها.

و قوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَلْغَايَةِ، أَى ظَهَرَ مَا ظَهَرَ لِأَجْلِ أَنْ يُذِيقَهُمُ اللَّهُ وَبِالْبَعْضِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةَ بَل لِيُذِيقَهُمْ نَفْسَ مَا عَمِلُوا وَقَدْ ظَهَرَ فِي صُورِهِ الْوَبَالَ وَ إِنَّمَا كَانَ بَعْضُ مَا عَمِلُوا لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِرَحْمَتِهِ يَعْفُو عَنْ بَعْضِ مَا قَالَ: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى ٣٠)».

و الآيه ناظره الى الوبال الدينوى و إذاقه بعضه لأ- كله من غير نظر الى وبال الأعمال الا-خروى فما قيل: إن المراد إذاقه الوبال الدينوى و تأخير الوبال الا-خروى الى يوم القيامة لا- دليل عليه و لعله جعل تقدير الكلام «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا» مع أن التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا»، لأن الذى يحوجنا الى تقدير المضاف- لو أحوجنا- هو أن الراجع

اليهم ثانيا في صورة الفساد هو جزاء اعمالهم لا نفس اعمالهم فالذى أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم و معاصيهم الى التوحيد و الطاعة.

قوله تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ أَمْرًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَى آثَارِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ حَيْثُ خَرِبَتْ ديارهم و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم و انقطع دابرهم بأنواع من النوائب و البلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا الى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ تَفْرِيعَ عَلَى مَا تَقْدِمُهُ أَي إِذَا كَانَ الشَّرْكَ وَ الْكُفْرَ بِالْحَقِّ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ وَ لَهُ وَبَالَ سِيلِحِقٍ بِالْمَتَلْبَسِ بِهِ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ متعلق بقوله: «فَأَقِمَّ» و المراد مصدر ميمي بمعنى الرد و هو بمعنى الراد و اليوم الذى لا مرد له من الله يوم القيامة.

و قوله: يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ أصله يتصدعون، و التصدع فى الأصل تفرق أجزاء الأوانى ثم استعمل فى مطلق التفرق كما قيل، و المراد به - كما قيل - تفرقهم يومئذ الى الجنة و النار.

قوله تعالى: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ الظاهر أنه تفسير لقوله فى الآية السابقة: «يَتَفَرَّقُونَ» و قوله: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» أى وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذى سينقلب عليه نارا يخلد فيها و هذا أحد الفريقين.

و قوله: وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ مهد الفراش بسطه و إبطاؤه،

وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا و عملوا الصالحات، وقد جرىء بالجزاء «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» جمعا نظرا الى المعنى، كما أنه جرىء به مفردا فى الشرطيه السابقه «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» نظرا الى اللفظ، و اكتفى فى الشرط بذكر العمل الصالح و لم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور فى الآيه التاليه.

و المعنى: و الذين عملوا عملا صالحا-بعد الإيمان-فلاأنفسهم يوطئون ما يعيشون به و يستقرّون عليه.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ قال الراغب:الجزاء الغناء و الكفايه،قال الله تعالى: لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا، و قال: لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا و الجزاء ما فيه الكفايه من المقابله إن خيرا فخير و إن شرا فشرّ،يقال:جزيته كذا و بكذا.

انتهى.

و قوله: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ اللام للغايه و لا ينافى عدّا ما يؤتيهم جزاء-و فيه معنى المقابله-عدّه من فضله و فيه معنى عدم الاستحقاق و ذلك لأنهم بأعيانهم و ما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئا حتى يستحقوا به أجرا،و أين العبوديه من الملك و الاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

لكنه سبحانه بفضله و رحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم فى عين أنه يملكهم و يملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقا يستحقونه،و جعل ما ينالونه من الجنه و الزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم و هذا الحق المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه.

و منشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبّوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم و اتّبعوا الرسول فيما دعا اليه فأحبّهم الله كما قال: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

و لذا كانت الآيه تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابله و المبادله و تعد ذلك من فضله نظرا الى أن نفس هذه المقابله و المبادله فضل منه سبحانه و منشأه حبه تعالى لهم كما يومئ اليه تذييل الآيه بقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» .

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

و قوله: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل و التقدير يرسل الرياح لتبشركم و ليذيقكم من رحمته و المراد بإذاقه الرحمه إصابه أنواع النعم المترتبه على جريان الرياح كتلقيح الأشجار و دفع العفونات و تصفيه الأجواء و غير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة.

و قوله: وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُوكَ بِأَمْرِهِ أى لجريان الرياح و هبوبها. و قوله: «وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى لتطلبوا من رزقه الذى هو من فضله.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ غايه معنويه كما أن الغايات المذكوره من قبل غايات صوريه، و الشكر هو استعمال النعمه بنحو ينبئ عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظى عليه بذكر إنعامه، و ينطبق بالأخره على عبادته و لذلك جىء بلعل المفيده للرجاء فإن الغايات المعنويه الاعتباريه ربما تخلفت.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قال الراغب: أصل الجرم-بالفتح فالسكون-قطع الثمره عن الشجر-الى أن قال-و أجرم صار ذا جرم نحو أثمر و أثمر و ألبن و استعير ذلك لكل اكتساب مكروه، و لا يكاد يقال فى عامه كلامهم للكيس

و الآيه كالمعترضه و كأنها مسوقه لبيان أن للمؤمنين حقا على ربهم و هو نصرهم فى الدنيا و الآخره و منه الانتقام من المجرمين، و هذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا- يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا فى نفسه مقهورا محكوما لغيره.

و قوله: فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا الفاء فصيحه أى فآمن بعضهم و أجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين و كان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب و إهلاك مخالفينهم، و فى الآيه بعض الاشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

[سوره الروم (٣٠): الآيات ٤٨ الى ٥٣]

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سُدُوحًا فَيُبْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُمْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسماة جهة العلو فكل ما علاك وأظلك فهو سماة والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفه وهى القطعه والودق القطر من المطر والخلال جمع خله وهى الفرجه.

والمعنى: الله الذى يرسل الرياح فتحرك وتنشر سحابا و يبسط ذلك السحاب فى جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه و يجعله قطعات متراكبه متراكمه فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه ماله حياتهم و حياه الحيوان و النبات.

قوله تعالى: وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ الْإِبْلَاسِ: اليأس و القنوط.

و ضمير «يُنَزَّلُ» للمطر و كذا ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» على ما قيل، و عليه يكون «مِنْ قَبْلِهِ» تأكيداً لقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» و فائده التأكيد-على ما قيل-الإعلام بسرعه تقلب قلوب البشر من اليأس الى الاستبشار، و ذلك أن قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» يحتمل الفسحه فى الزمان فجاء «مِنْ قَبْلِهِ» للدلاله على الاتصال و دفع ذلك الاحتمال.

قوله تعالى: فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الْآثَار جمع الأثر و هو ما يبقى بعد الشىء فيدلّ عليه كأثر القدم و أثر البناء و استعير لكل ما يتفرع على شىء، و المراد برحمه الله المطر النازل من السحاب الذى بسطته الرياح، و آثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات و الأشجار و الأثمار و هى بعينها آثار حياه الأرض بعد موتها.

و لذا قال: «فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها، فحياء الأرض بعد موتها من آثار الرحمة و النباتات و الأشجار و الأثمار من آثار حياتها و هي أيضا من آثار الرحمة و التدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقه الرياح و السحاب و المطر.

و قوله: «إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ» الإشارة بذلك اليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها، و في الإشارة البعيدة تعظيم، و المراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان و غيره من ذوى الحياه.

و المراد بقوله: «إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ» الدلاله على المماثله بين إحياء الأرض الميتة و إحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياه من شىء محفوظ و حياه هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها، و قد تحقق الإحياء فى الأرض و النبات و حياه الإنسان و غيره من ذوى الحياه مثلها و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد، فإذا جاز الإحياء فى بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز فى البعض الآخر.

و قوله: «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر و هو عموم القدره فإن القدره غير محدوده و لا متناهيه فيشمل الإحياء بعد الموت و إلا لزم تقيدها و قد فرضت مطلقه غير محدوده.

قوله تعالى: «وَلئنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصِيفًا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ضمير «فَرَأَوْهُ» للنبات المفهوم من السياق، و قوله: «لَظَلُّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء، و المعنى: و أقسم لئن أرسلنا ريحا بارده فضربت زروعهم و أشجارهم بالصفار و رأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ففى الآيه تويخهم بالتقلب السريع فى النعمه و النقمه، فإذا لاحت لهم النعمه بادروا الى الاستبشار، و إذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من

النعمة.

قوله تعالى: فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى -الى قوله- مُسْمِعُونَ تَعْلِيلٌ لِمَا يَفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ السَّابِقِ كَأَنَّهُ قِيلَ: لَا تَشْتَغَلْ وَلَا تَحْزَنْ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَبَدَّلَ بِهِمُ الْأَحْوَالُ مِنْ إِبْلَاسٍ وَاسْتَبْشَارٍ وَكُفْرٍ وَمِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِنَا وَعَدَمِ تَعَقُّلِهَا فَإِنَّهُمْ مَوْتَى وَصَمٌّ وَعَمَى وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ وَإِنَّمَا تَسْمَعُ وَتَهْدِي مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا أَيْ يَعْقِلُ هَذِهِ الْحُجُجَ وَيَصَدِّقُهَا فَهَمُ مُسْلِمُونَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ فِي سُورَةِ النَّملِ.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥٤ الى ٦٠]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ ضَعْفَ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةً ضَعْفًا وَشَبَّهَهُ بِخُلُقٍ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

ص: ٤٢

قوله تعالى: [□]اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً الْخِ؛ الضعف والقوه متقابلان، و «مِنْ» فى قوله: من ضعف للابتداء أى ابتداء خلقكم من ضعف أى ابتداءكم ضعفاء، و مصداقه على ما تفيده المقابله أول الطفوليّه و إن أمكن صدقه على النطفه.

و المراد بالقوه بعد الضعف بلوغ الأشدّ و بالضعف بعد القوه الشيخوخه و لذا عطف عليه «شَيْبَةً» عطف تفسير، و تنكير «ضَعْفٍ» و «قُوَّةً» للدلاله على الإبهام و عدم تعيين المقدار لاختلاف الأفراد فى ذلك.

و قوله: [□]يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ [□]أى كما شاء الضعف فخلقه ثم القوه بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه و فى ذلك أتمّ الإشاره الى أن تتالى هذه الأحوال من الخلق و إذ كان هذا النقل من حال الى حال فى عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع الى إله الإنسان، مثلا كما يقوله الوثنيه.

ثم تم الكلام بالعلم و القدره فقال: «وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» .

قوله تعالى: [□]وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُجْرِمُونَ [□]مَا لَبِثُوا [□]غَيْرَ سَاعَةٍ [□]كَذَلِكَ [□]كَانُوا يُؤْفَكُونَ، هذه الآيات كالذنابه للآيات السابقه العاده للآيات و الحجج على وحدانيته تعالى و البعث، و كالتمهيد و التوطئه للآيه التى تختتم بها السوره فإنه لما عدّ شيئا من الآيات و الحجج و أشار الى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع فى إيمانهم أراد أن يبين أنهم فى جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلا و الآيات الصريحه الدلاله منجزه عن دلالتها و كذلك يؤفكون و لا عذر لهم يعتذرون به.

و هذا الإفك و التقلب من الحق الى الباطل يدوم عليهم و يلازمهم حتى قيام الساعه

فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت و البعث غير ساعه من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلا.

فقوله: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، يحكى عنهم اشتباه الأمر عليهم فى أمر الفصل بين الدنيا و يوم البعث حتى ظنوه ساعه من ساعات الدنيا.

و قوله: كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ أى يصرفون من الحق الى الباطل فيدعون الى الحق و يقام عليه الحجج و الآيات فيظنونه باطلا من القول و خرافه من الرأى.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ الْخ؛ردّ منهم لقوم المجرمين «مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فإن المجرمين لإخلاصهم الى الأرض و توغلهم فى نشأه الدنيا يرون يوم البعث و الفصل بينه و بين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعه و هو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد فى الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

فرد عليهم أهل العلم و الإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا و يوم البعث و هو الفصل الذى يشير اليه قوله: وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون ١٠٠/).

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث و لكن المجرمين لما كانوا فى ريب من البعث و لم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعه من ساعات الدنيا و هذا معنى قولهم: «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»، أى كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم و لذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ»، اليقين و الالتزام بمقتضاه و أن العلم بمعنى اليقين بالله و بآياته و الإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبه الإلهيه، و من هنا

يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب (١) السماويه أو خصوص القرآن لا غيره و قول بعضهم:

إن في الآيه تقديما و تأخيرا و التقدير و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان في كتاب الله لقد لبثتم الى يوم البعث لا يعتد به.

قوله تعالى: **فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِيدَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** الاستعتاب طلب العتبي، و العتبي إزاله العتاب أى لا ينفعهم المعذره عن ظلمهم و لا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** الخ؛ إشاره الى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، و لذا عقبه بقوله: **«وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ»** أى جاءون بالباطل و هذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا و وضع الموصول و الصله موضع الضمير للدلاله على سبب القول.

قوله تعالى: **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** أى يجهلون بالله و آياته و منها البعث و هم يصرون على جهلهم و ارتياهم.

قوله تعالى: **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ، أى فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم: **«إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ»** و سائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أوماً اليه بقوله: **«وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»** ، و لا يستخفئك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

ص: ٤٥

١- ١). و يمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلك استدلالا على قولهم بكتاب الله و يكون نظير ما فى قوله: **«هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ»** (الجاثية/٢٩) بناء على ما سيأتى من معناه «منه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يُتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسُّهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَ أَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)

غرض السوره كما يومى اليه فاتحتها و خاتمتها و يشير اليه سياق عامه آياتها الدعوه الى التوحيد و الايقان بالمعاد و الأخذ بكليات شرائع الدين.

و يلوح من صدر السوره أنها نزلت فى بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقه ملهيه كما ورد فيه الأثر فى سبب نزول قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» الآية؛ و سيوافى حديثه. فنزلت السوره تبين أصول عقائد الدين و كليات شرائعه الحقه و قصّت شيئا من خبر لقمان الحكيم و مواعظه تجاه أحاديثهم الملهيه.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها. و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ» الآية.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ -الى قوله- يُوقِنُونَ تقدم تفسير مفردات هذه الآيات فى السور السابقه.

و قد وصف الكتاب بالحكيم إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شىء بل كتاب لا انثلام

فيه ليداخله لهو الحديث و باطل القول، و وصفه أيضا بأنه هدى و رحمه للمحسنين تتيما لصفه حكمته فهو يهدى الى الواقع الحق و يوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما يهيمه، و هو رحمه لا نقمه صارفه عن النعمه.

و وصف المحسنين بإقامه الصلاه و إيتاء الزكاه اللتين هما العمدتان فى الأعمال و بالإيقان بالآخره و يستلزم التوحيد و الرساله و عامه التقوى، كل ذلك مقابله الكتاب للهو الحديث المصغى اليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: [□] وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا [□] الخ؛ اللهو ما يشغلك عما يهيمك، و لهو الحديث: الحديث الذى يلهى عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافيه و القصص الداعيه الى الفساد و الفجور، أو بما يقارنه كالتغنى بالشعر أو بالملاهى و المزامير و المعازف فكل ذلك يشمل لهو الحديد.

و قوله: [□] لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقه الاعتقاديه و العلميه و خاصه قصص الأنبياء و أمهم الخاليه فإن لهو الحديث و الأساطير المزوّقه المختلفه تعارض أولا هذه القصص ثم تهدم بنیان سائر المعارف الحقه و توهنها فى أنظار الناس.

و يؤيد ذلك قوله بعد: «وَ يَتَّخِذَهَا هُزُوًا» فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولا الحديث و يتخذة سخريا.

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن و أن يتخذ القرآن هزوا بأنه حديث مثله و أساطير كأساطيره.

و قوله: [□] بِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بيضلّ و هو فى الحقيقه وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين و إن كانوا أيضا لا- علم لهم ثم هددهم بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» أى مذل

يوهنهم و يذلهم حذاء استكبارهم فى الدنيا.

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيٰ مُسِيئَتُهُمْ أَنَّ لَمْ يَشْعُرْ بِهَا كَأَنَّ فِيْ أُذُنَيْهِ وَقْرًا لِّخ؛ وصف لذاك الذى يشتري لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن و يهزأ به و الوقر الحمل الثقيل و المراد بكون الوقر على أذنيه أن يشدّ عليهما ما يمنع من السمع و قيل: هو كناية عن الصمم.

و المعنى: و إذا تلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أى القرآن ولى و أعرض عنها و هو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

و قد اعيد الى من يشتري ضمير الأفراد أولا- كما فى «يَشْتَرِي» و «لِيُضِلَّ» و «يَتَّخِذَهَا» باعتبار اللفظ و ضمير الجمع، ثانيا باعتبار المعنى ثم ضمير الأفراد باعتبار اللفظ كما فى «عَلَيْهِ» و غيره كذا قيل، و من الممكن أن يكون ضمير «لَهُمْ» فى الآيه السابقه راجعا الى مجموع المضل و الضالين المدلول عليهم بالسباق فتكون الضمائر الراجعه الى «مِنْ» مفرده جميعا.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَزَاءٌ نَّعِيمٌ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ رجوع بعد إنذار ذاك المشتري و تهديده بالعذاب المهين ثم العذاب الأليم الى تبشير المحسنين و تطيب أنفسهم بجنه النعيم الخالده الموعوده من قبله تعالى و وعده الحق.

و لما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضل به بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطله كأساطيره و يهين به و كان لا يعنى بما تلى عليه من الآيات مستكبرا و ذلك استهانه بالله سبحانه أكد أولا ما وعده للمحسنين بقوله: «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا» ثم وصف ثانيا نفسه بالعزه المطلقه، فلا- يطرأ عليه ذله و إهانته و الحكمه المطلقه فلا- يداخل كلامه باطل و لا هزل و خرافه.

ثم وصفه ثالثا بأنه الذى يدبر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنه اولئك بالعذاب و هو قوله: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا» الخ.

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا الخ؛ تقدم فى تفسير قوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا (الرعد ٢)، أن قوله: «تَرْوُنَهَا» يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا، والمعنى أنكم ترونها و لا أعمده لها، و أن يكون قيدا احترازيا و المعنى خلقها بغير أعمده مرثيه إشعارا بأن هناك أعمده غير مرثيه.

و قوله: وَ أَلْقَى فِي الْمَأْرُضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، أى ألقى فيها جبالا- شامخه لئلا تضطرب بكم و فيه إشعار بأن بين الجبال و الزلازل رابطة مستقيمه.

و قوله: وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ أَى نشر فى الأرض من كل حيوان يدب عليها.

و قوله: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أَى و أنزلنا من جهه العلو ماء و هو المطر و أنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتى شريف فيه منافع و له فوائد، و فيه إشارة الى تزوج النبات و قد تقدم الكلام فيه فى نظيره.

و الالتفات فيها من الغيبه الى التكلم مع الغير للإشارة الى كمال العناية بأمره كما قيل.

قوله تعالى: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، لما أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسموات و الأرض و ما عليها فأثبت به ربوبيته و الوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهه و أربابا فإن لم يقدروا على إراءه شىء ثبت بذلك وحدانيته تعالى فى الوهيته و ربوبيته.

و إنما كلفهم بإراءه شىء من خلق آلهتهم- و هم يعترفون أن الخلق لله وحده و لا يسندون الى آلهتهم خلقا و إنما ينسبون اليهم التدبير فقط، لأنه نسب الى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك، فلو كان لآلهتهم تدبير فى العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره و إذ ليس لهم خلق

فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره.

وقد سيقت الآيه خطابا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن نوع هذا الخطاب «فأرؤني» ما ذا خلق الذين من دونه لا يستقيم من غيره صلى الله عليه وآله وسلم (١).

[سوره لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلِيًّا وَهْنٌ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِلْوَالِدَيْنِ إِكْرَامًا إِلَى الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي ۖ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّلَّةِ ۖ وَأَتِ أَوْ فِي الْمَأْرُضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ إِصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكُمْ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَ لَا تَصْعُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ أَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَ اعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

ص: ٥١

(١-١). لقمان ١-١١: بحث روائي في قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ».

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ** الخ؛ الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة و هي وسط الاعتدال بين الجهل و الجزيره. و قوله: **«أَنْ اشْكُرْ لِي»** قيل: هو بتقدير القول أي و قلنا: أن اشكر لي.

و الظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، و ذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير الى إنعام المنعم، و إيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفه المنعم و معرفه نعمه بما هي نعمه و كيفيه وضعها موضعه بحيث يحكى عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له الى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمه.

و في قوله: **أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ** التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و ذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمه بالتكلم عن قبل نفسه و خدمه و قول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر و هو ظاهر.

و قوله: **«وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ»** استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع الى نفس الشاكر و الكفر لا يتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه و من يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه و لا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق و من كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً و لا ضرراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

و فى التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار و فى الكفر بالماضى الدال على المزمه إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالزمه منه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ عظمه كل عمل بعظمه أثره و عظمه المعصيه بعظمه المعصى فإن مؤاخذه العظيم عظيمه فأعظم المعاصى معصيه الله لعظمته و كبريائه فوق كل عظمه و كبرياء بأنه الله لا شريك له و أعظم معاصيه معصيته فى أنه الله لا شريك له.

و قوله: إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه الى سائر المعاصى يدل على أن له من العظمه ما لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِإِلَادَيْهِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان و ليس من كلام لقمان و إنما اطردها هنا للدلاله على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه الى وصيته و أمره تعالى، فشكرهما عباده له تعالى و عبادته شكر.

و قوله: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ذَكَرَ بَعْضُ مَا تَحَمَلَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْمِحْنَةِ وَالْأَذَى فِي حَمَلِهِ وَتَرْبِيَتِهِ لِيَكُونَ دَاعِيًا لَهُ إِلَى شُكْرِهِمَا وَخَاصِهِ الْإِمَامِ.

و الوهن الضعف و هو حال بمعنى ذات و هن أو مفعول مطلق و التقدير تهن و هنا على و هن، و الفصال الفطم و ترك الإرضاع، و معنى كون الفصال فى عامين بتحقيقه بتحقيق العامين فيثول الى كون الإرضاع عامين، و إذا ضم الى قوله تعالى: وَحَمَلَتْهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (الأحقاف / ٤٦)، بقى لأقل الحمل ستة أشهر، و ستكرر الإشارة اليه فيما سيأتى (١).

و قوله: أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ تفسير لقوله: «وَصَيَّنَّا» الخ؛ فى

ص: ٥٣

أول الآيه أى كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، و قوله: «إِلَى الْمَصِيرِ» إنذار و تأكيد للأمر بالشكر.

و القول فى الالتفات الواقع فى الآيه فى قوله: «أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِرَبِّكَ إِلَى الْمَصِيرِ» الخ؛ من سياق التكلم مع الغير الى سياق التكلم وحده كالقول فى الالتفات فى قوله السابق: «أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ» .

قوله تعالى: وَ إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا الى آخر الآيه؛ أى إن ألحَا عليك بالمجاهده أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكا لى فلا تطعهما و لا تشرك بى، و المراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا يتعلق به علم فيقول المعنى: لا تشرك بى ما ليس بشىء، هذا محصل ما ذكره فى الكشف و ربما أيده قوله تعالى: أَلَمْ تَتَّبِعُوا اللَّهَ بِمَا لَمْ يَغْلَمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ (يونس ١٨).

و قيل «تُشْرِكَ» بمعنى تكفر و «مَا» بمعنى الذى، و المعنى: و إن جاهدَاك أن تكفر بى كفرا لا حجه لك به فلا تطعهما و يؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك فى كلامه تعالى كقوله: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (يوسف / ٤٠)، الى غير ذلك من الآيات.

و قوله: وَ صَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَى الْجَمَلَتَانِ كالتلخيص و التوضيح لما تقدم فى الآيتين من الوصيه بهما و النهى عن إطاعتهما إن جاهدَا على الشرك بالله.

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما فى الامور الدنيويه غير الدين الذى هو سبيل الله صحابا معروفا و معاشره متعارفه غير منكروه من رعايه حالهما بالرفق و اللين من غير جفاء و خشونه و تحمل المشاق التى تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياما معدوده

متصرمه، و أما الدين فإن كانا ممن أناب الى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فسبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

و من هنا يظهر أن في قوله: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ» إيجازا لطيفا فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين الى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فلا يطاعا و لتتبع سبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

و قوله: ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أى هذا الذى ذكر، تكليفكم فى الدنيا ثم ترجعون الى يوم القيامة فاطهر لكم حقيقه أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا فأقضى بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

و بما مرّ يظهر أن قوله: «فِي الدُّنْيَا» يفيد أولا قصر المصاحبه بالمعروف فى الامور الدنيويه دون الدينيه، و ثانيا: تهوين أمر الصحبه و أنها ليست إلا فى أيام قلائل فلا كثير ضير فى تحمل مشاق خدمتهما، و ثالثا المقابله ليوم الرجوع الى الله المشار اليه بقوله: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» الخ.

قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ الْخَبْءَ ذَكَرُوا أَنَّ الضمير فى «إِنَّهَا» للخصله من الخير و الشر لدلاله السياق على ذلك و هو أيضا اسم كان و «مِثْقَالَ حَبَّةٍ» خبره، و المراد بكونها فى صخره اختفاؤها بالاستقرار فى جوف الصخره الصماء أو فى السماوات أو فى الأرض، و المراد بالإتيان بها إحضارها للحساب و الجزاء.

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا الى التوحيد و نفى الشريك و ما فى هذه الآيه فصل ثان فى المعاد و فيه حساب الأعمال، و المعنى: يا بنى إسرائيل إن تكن الخصله التى عملت من خير أو شر أخف الأشياء و أدقها كمثقال حبه من خردل فتكن تلك الخصله الصغيره مستقره فى جوف صخره أو فى أى مكان من السماوات و الأرض يأت بها الله للحساب و الجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه فى أعماق الأشياء و يصل الى كل خفى خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الْآيَةَ؛ وما بعدها من كلامه راجع الى نبذه من الأعمال و الأخلاق الفاضله.

فمن الأعمال الصلاه التي هي عمود الدين و يتلوها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و من الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبه.

و قوله: إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ الإشاره الى الصبر و الإشاره البعيده للتعظيم و الترفيع و قول بعضهم: إن الإشاره الى جميع ما تقدم من الصلاه و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الصبر ليس في محله لتكرر عدّ الصبر من عزم الامور في كلامه تعالى كقوله: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣)، و قوله: إِنَّ تَصَبُّرًا وَ تَقْوًا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (آل عمران ١٨٦).

و العزم-على ما ذكره الراغب-عقد القلب على إمضاء الأمر و كون الصبر-و هو حبس النفس في الأمر-من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل و ينقسم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد و المحافظه عليه و هو من قدره النفس و شهامتها.

قوله تعالى: وَلَا تَصِيغْرُ خَدَّكَ لِلدَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ قال الراغب: الصعر ميل في العنق و التصغير إمالته عن النظر كبرا قال: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» و قال:المرح شده الفرح و التوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا و لا تمش في الأرض مشيه من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء-و هو التكبر بتخيل الفضيله-و يكثر من الفخر. و قال بعضهم إن معنى «لَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» لا تلو عنقك لهم تذلا عند الحاجه و فيه أنه لا يلائمه ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ أَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ القصد في الشيء الاعتدال فيه و الغض - على ما ذكره الراغب - النقصان من الطرف و الصوت فغض الصوت النقص و القصر فيه.

و المعنى: و خذ بالاعتدال في مشيك و بالنقص و القصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه (١)(٢).

[سوره لقمان (٣١): الآيات ٢٠ الى ٣٤]

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِنَّ سَاءَ أَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قَبْلَ الْحَمْدِ لَلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسًا وَّاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتَ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَ بِهِمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَ إِخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَ مَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

ص: ٥٧

١- ١). لقمان ١٢-١٩: بحث روائي في عقوق الوالدين؛ حق الله و حق الوالدين للانسان؛ الصلاة.

٢- ٢). لقمان ١٢-١٩: كلام في قصه لقمان و نبذ من حكمه في فصلين.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً رَجوع الى ما قبل قصه لقمان و هو الدليل على أن الخطاب للمشركين و إن كان ذيل الآيه يشعر بعموم الخطاب.

و عليه فصدر الآيه من تتمه كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يتصل بقوله: «هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» و لا التفات في قوله: «أَلَمْ تَرَوْا» .

و على تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: «أَلَمْ تَرَوْا» التفات من سياق الغيبه الذى فى قوله: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» الى الخطاب، و الالتفات فى مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم و تأكيد غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم فى غيهم بحيث لا ينفعهم دلاله و لا ينجح فيهم إشاره فيواجهون بذكر ما هو بمرأى منهم و مسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم و ينتزعوا عن غفلتهم.

و قوله: «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً الإِسْبَاغُ الإِتْمَامُ و الإيساع أى أتم و أوسع عليكم نعمه، و النعم جمع نعمه و هو فى الأصل بناء النوع و غلب عليه استعماله فى ما يلائم الإنسان فيستلذ منه، و المراد بالنعم الظاهره و الباطنه بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهره للحس كالسمع و البصر و سائر الجوارح و الصحه و العافيه و الطيبات من الرزق و النعم الغائبه عن الحس كالشعور و الإراده و العقل.

و بناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهره من النعم هى ما ظهر للحس كما تقدم و كالدين الذى به ينتظم أمور دنياهم و آخرتهم و الباطنه منها كما تقدم و كالمقامات المعنويه التى تنال بإخلاص العمل.

وقوله: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ رجوع الخطاب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على ما كان في السياق السابق، والمجادله المخاصمه النظرية بطريق المغالبه، والمقابله بين العلم والهدى والكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجه عقليه، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحى أو الإلهام، وبالكتاب الكتاب السماوى المنتهى اليه تعالى بالوحى النبوى ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله: يجادل في الله بغير كذا وكذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية بغير حجه يصح الركون إليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا الْخُ؛ ضمائر الجمع راجعه الى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمير الأفراد فى الآيه السابقه راجع اليه باعتبار اللفظ.

وقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فى التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال: اتبعوا الكتاب أو القرآن إشاره الى كون الدعوه دعوه ذات حجه لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجه النبوه فكأنه قيل: وإذا دعوا الى دين التوحيد الذى يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه، وبعبارته أخرى إذا ألقى اليهم القول مع الحجه قابلوه بالتحكم من غير حجه فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

وقوله: أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ أى أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع الى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصله معطوفه على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان ولو دعاهم.

و محصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل و كان اتباعا يدعوهم به الى الشقاء و عذاب السعير و هو كذلك فإنه اتباع فى عباده غير الله و لا

قوله تعالى: وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول «يَدْعُوهُمْ» و فى معنى الجملة الحالية ضمير عائد اليهم، والمعنى: أولو كان الشيطان يدعوهم الى كذا و الحال أن من أسلم وجهه الى الله كذا فقد نجا و أفلح و الحال أن عاقبه الامور ترجع الى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

و إسلام الوجه الى الله تسليمه له و هو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعباده و إعراضه عن سواه. و الإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به فى أول السوره:

هُدًى وَ رَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ وَ العروه الوثقى المستمسك الذى لا انفصام له.

و المعنى: و من حدّ الله و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة فى عاقبه أمره لأنها الى الله و هو الذى يعده بالنجاه و الفلاح.

قوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ - الى قوله - إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ تَسْلِيهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ تطيب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالآخرة راجعون اليه تعالى فينبئهم بما عملوا أى يظهر لهم حقيقه أعمالهم و تبعاتها و هى النار.

و قوله: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ كشف عن حقيقه حالهم بيان آخر فإن البيان السابق «إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين فى الدنيا خارجون من قدره الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جىء بهذا البيان للدلاله على أنهم غير خارجين من التدبير قط و إنما يمتعهم فى الدنيا قليلا ثم يضطرهم الى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال و أمرهم الى الله دائما لن يعجزوا الله فى حال التنعم و لا غيرها.

قوله تعالى: وَ لَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إشاره الى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدير لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، وإذا كان مدير الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحده من حيث لا يعلمون.

و لذلك أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمده الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثم أشار الى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال:

«يَلِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤).

قوله تعالى: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية والالوهية إذا كان التدبير والتصرف اليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحججه و استحمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدأ كل خلق و معطى كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غنى على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهه من الجهات لم يكن مبدأ له معطيا لكماله هذا خلف، وإذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان مالكة ذلك الغير دونه و إذا كان التدبير و التصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه.

و هذا هو الذى يشير اليه قوله: «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» فقوله: «لِلَّهِ مَا فِي» الخ؛ حجه على وحدانيته و قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» تعليل للملك.

و أما قوله: «الْحَمِيدُ» أى المحمود فى أفعاله فهو مبدأ آخر للحجه و ذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختيارى و كل جميل فى العالم فهو له سبحانه فاليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شىء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب اليه لكان الحمد و الثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبه الى كل شىء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ الْخ»؛ «مِنْ شَجَرَةٍ» بيان للموصول و الشجره واحد الشجر و تفيد فى المقام-و هى فى سياق «لَوْ»-الاستغراق أى كل شجره فى الأرض، و المراد بالبحر مطلق البحر، و قوله: «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» أى يعينه بالانضياف اليه سبعة أمثال و الظاهر أن المراد بالسبعه التكثير دون خصوص هذا العدد و الكلمه هى اللفظ الدال على معنى، و قد أطلق فى كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، و قد قال: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (يس ٨٢/)، و قد أطلق على المسيح عليه السلام الكلمه فى قوله: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ» (النساء ١٧١/).

فالمعنى: و لو جعل جميع أشجار الأرض أقلاما و أخذ البحر و أضيف اليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله- بتبديلها ألفاظا داله عليها-بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهيه.

قوله تعالى: «مَا خَلَقُكُمْ وَ لَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» سوق للكلام الى إمكان الحشر و خاصه من جهه استبعادهم المعاد لكثرتهم عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تمييز بعضهم من بعض.

فقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ فِي الْإِمَّاٰنِ وَالتَّاتِي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبه اليه الواحد والجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلاله على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهوله والصعوبه بل لا يتصف فعله بالسهوله والصعوبه.

و يشهد لما ذكر إضافه الخلق والبعث الى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحده، والمعنى: ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلا كخلق نفس واحده وبعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحده سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهه الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنه ليس بجهل شيئاً منها لأنه سمع لأقوالكم بصير بأعمالكم وعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهده.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّمُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّمُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الخ؛ استشهد لما تقدم في الآيه السابقه من علمه بالأعمال بأن التدبير الجارى فى نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفه وبقاع الأرض المتفرقه فى نظم ثابت جار على اختلافه، وكذا التدبير الجارى فى الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما وغروبهما واختلاف جريانهما ومسيرهما بحسب الحس وكل منهما يجرى لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوش فى النظام الدقيق الذى لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبره من مدبرها.

فالمراد بإيلاج الليل فى النهار أخذ الليل فى الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وإيلاج النهار فى الليل عكس ذلك، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين الى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما الى وقت محدود مقدر ثم عودهما الى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجارى وأمعن فيه لم يشك فى أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل

و ليس ذلك عن صدفة و اتفاق.

و قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** عطف على موضع **«أَنَّ اللَّهَ يُورِثُ»** و التقدير أ لم تر أن الله بما تعملون خبير و ذلك لأن من شاهد نظام الليل و النهار و الشمس و القمر لم يكذب يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله و دقائقها، كذا قبل.

و فيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجارى فى الليل و النهار و الشمس و القمر و إن صحَّ فى نفسه فهو علم حدسى لا مصحح لتسميتها رؤيه و هو ظاهر.

و لعل المراد من مشاهدته خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن فى النظام الجارى فى أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنسانى موزَّعه من جهه الى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهره من سَمْع و بصر و شَمَّ و ذوق و لمس و الصادرة عن القوى الباطنه المدركه أو الفعَّياله أو من جهه الى بعض القوى و الأدوات أو كلها و من جهه الى جاذبه و دافعه و من جهه الى سنى العمر من طفوليه و رهاق و شباب و شيب الى غير ذلك.

ثم فى ارتباط بعضها ببعض و استخدام بعضها لبعض و اهتداء النفس الى وضع كلِّ فى موضعه الذى يليق به و حركته بهذه القافله من القوى و الأعمال نحو غايتها من الكمال و سعادتها فى المآل و تورطها فى ورطات عالم الماده و موطن الزينه و الفتنة فمن ناج أو هالك.

فإذا أمعن فى هذا النظام المحيِّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه و نظام نظمه صانعه العليم التقدير و مشاهدته هذا النظام العلمى العجيب مشاهدته أنه بما يعملون خبير، و الله العالم.

قوله تعالى: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شىء فيستند اليه فى وجوده و تدبير أمره و أن اليه عود كل شىء من غير فرق بين الواحد و الكثير و أنه ليس الى من يدعون من دونه خلق و لا أمر، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا الى ما تقدّم: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ»** الخ.

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته و الباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته، وقوله: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» بما فيه من ضمير الفصل و تعريف الخبر باللام يفيد القصر أعنى حصر المبتدأ فى الخير.

فقوله: بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ قصر له تعالى فى الثبوت، أى هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان و بعبارة اخرى هو ثابت من جميع الجهات و بعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد و لا مشروط بشرط فوجوده ضرورى و عدمه ممتنع و غيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير و هو تقدير وجود سببه و هو الوجود المقيد الذى يوجد بغيره من غير ضروره فى ذاته.

و إذا كان حقيه الشىء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته و غيره إنما يحق و يتحقق به.

و إذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً: أن الأشياء بأجمعها تستند فى وجودها اليه تعالى و أيضاً تستند فى النظام الجارى فيها عامه و فى النظمات الجزئيه الجاريه فى كل نوع من أنواعها و كل فرد من أفرادها اليه تعالى.

و ثانياً: أن الكمالات الوجوديه التى هى صفات الوجود كالعلم و القدره و الحياه و السمع و البصر و الوحده و الخلق و الملك و الغنى و الحمد و الخبره-مما عدّ فى الآيات السابقه أو لم يعدّ-صفات قائمه به تعالى على حسب ما يليق بساحه كبريائه و عز قدسه لأنها صفات وجوديه و الوجود قائم به تعالى فهى إما عين ذاته كالعلم و القدره و إما صفات خارجه عن ذاته منتزعه عن فعله كالخلق و الرزق و الرحمه.

و ثالثاً: أن قبول الشريك فى ذاته أو فى تدبيره و كل ما يحمل معنى الفقد و النقص مسلوب عنه تعالى و هذه هى الصفات السلبيه كنفى الشريك و نفى التعدد و نفى الجسم و المكان و الزمان و الجهل و العجز و البطلان و الزوال الى غيرها.

فإن إطلاق وجوده و عدم تقيده بقيد ينفى عنه كل معنى عدمى أى إثبات الوجود مطلقاً

فإن مرجع نفي النفي الى الإثبات.

□
و لعل قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم «الْعَلِيُّ» يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية و الكبير يفيد سعته لكل كمال وجودى فهو مجمع الصفات الثبوتيه.

و أن صدر الآيه برهان على ذيلها و ذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتيه و السلبيه جميعا على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عز اسمه.

□
و قوله: «وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ يَجْرَى فِيهِ مَا يَقَابِلُ مَا جَرَى فِي قَوْلِهِ:

□
«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» فالذى يدعونه من الآلهه ليس لهم من الحقيقه شىء و لا اليهم من الخلق و التدبير شىء لأن الشريك فى الالوهيه و الربوبيه باطلا لا حق فيه و إذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند اليه خلق و لا تدبير مطلقا.

و الحق و العلى و الكبير ثلاثه من الأسماء الحسنى و قد تحقق مما تقدم أن الحق فى معنى الواجب الوجود و أن العلى من الصفات السلبيه و الكبير من الصفات الثبوتيه قريب المعنى من قولنا: المستجمع لصفات الكمال.

□
قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ الْبَخْبَاءِ» فى «بِنِعْمَتِ اللَّهِ» للسببيه و ذكر النعمه كالتوطئه لآخر الآيه و فيه تلويح الى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

و المعنى: أ لم تر أن الفلك تجرى و تسير فى البحر بسبب نعمه الله و هى أسباب جريانها من الريح و رطوبه الماء و غير ذلك.

و احتمال بعضهم أن الباء للتعديه أو المعيه و المراد بالنعمه ما تحمله السفن من الطعام و سائر أمتعه الحياه.

وقد تمم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» والصَّبَّارُ الشكور أى كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل.

قوله تعالى: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛ قال الراغب: الظله سحابه تظل و أكثر ما يقال فيما يستوخم و يكره، قال: «كَانَهُ ظُلَّةً» «عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ» انتهى.

و المعنى: و إذا غشيهم و أحاط بهم فى البحر موج كقطع السحاب انقطعوا الى الله و دعوه للنجاه حال كونهم مخلصين له الدين أى و فى ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

و قوله: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ المقصد سالك القصد أى الطريق المستقيم و المراد به التوحيد الذى دلتهم عليه فطرتهم إذ ذلك، و فى التعبير بمن التبعضيه استقلال عدتهم أى فلما نجى الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص الى البر فقليل منهم المقتصدون.

و قوله: وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ الختار مبالغه من الختر و هو شده الغدر و فى السياق دليل على الاستكثار و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ لما ساق الحجج و المواعظ الشافيه الوافيه جمعهم فى خاتمتها فى خطاب عام يدعوهم الى التقوى و ينذرهم بيوم القيامة الذى لا يغنى فيه مغن إلا الإيمان و التقوى.

قال الراغب: الجزء الغنى و الكفايه، و قال: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد و الغره غفله فى اليقظه و الغرار غفله مع غفوه، الى أن قال: فالغرور كل ما يغر الانسان من مال و جاه و شهوه و شيطان و قد فسر بالشیطان إذ هو أخبث الغارين و بالدنيا لما قيل: الدنيا تغر و تضر و تمر انتهى.

فمعنى الآيه «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ» و هو الله سبحانه «وَأَخْشَوْا يَوْمًا» و هو يوم القيامة

«لَا يَجْزِي» لا يفنى «وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لَأَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ» مِغْنِ كَافٍ «عَنْ وَالِدِهِ» شَيْئًا «إِنَّ وَعِيدَ اللَّهِ» بِالْبَعثِ «حَقٌّ» ثَابِتٌ لَا يَخْلَفُ «فَلَا تَعَزَّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» بِزَيْنَتِهَا الْغَاوِرَةِ «وَلَا يُعَزَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ» أَيْ جِنْسٌ مَا يَغْرِ الْإِنْسَانَ مِنْ شَأْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَوْ خِصُوصَ الشَّيْطَانِ.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ الْغَيْثُ الْمَطَرُ وَمَعْنَى جَمَلِ الْآيَةِ ظَاهِرٌ.

وَقَدْ عَدَّ سَبْحَانَهُ أُمُورًا ثَلَاثَةً مِمَّا تَعْلَقُ بِهِ عِلْمُهُ وَ هِيَ الْعِلْمُ بِالسَّاعَةِ وَ هُوَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ عِلْمَهُ لِنَفْسِهِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ وَ يَدُ لَعْلَى الْقَصْرِ قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» وَ تَنْزِيلُ الْغَيْثِ وَ عِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَ يَخْتَصِنُ بِهِ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يَعْلَمَهُ غَيْرُهُ.

وَ عَدَّ أُمُورِينَ آخِرِينَ يَجْهَلُ بِهِمَا الْإِنْسَانُ وَ بِذَلِكَ يَجْهَلُ كُلُّ مَا سَيَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَ هُوَ قَوْلُهُ: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ».

وَ كَأَنَّ الْمُرَادَ تَذَكْرَهُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ مَا دَقَّ وَ جَلَّ حَتَّى مِثْلَ السَّاعَةِ الَّتِي لَا يَتَيَسَّرُ عِلْمُهَا لِلخَلْقِ وَ أَنْتُمْ تَجْهَلُونَ أَهْمَ مَا يَهْمِكُمْ مِنَ الْعِلْمِ فَاللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَيَاكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بِهِ وَ تَتَمَرَّدُوا عَنْ أَمْرِهِ وَ تَعْرَضُوا عَنْ دَعْوَتِهِ فَتَهْلِكُوا بِجَهْلِكُمْ (1).

ص: ٦٩

(١ - ١). لِقَمَانِ ٢٠-٣٤: بَحْثُ رِوَايَاتٍ حَوْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً»؛ الشُّكْرُ؛ الْحَيَاةُ فِي الدُّنْيَا؛ خَمْسَةٌ لَمْ يَطَّلِعَ اللَّهُ عَلَيْهَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ /الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سِنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكُمْ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسِيلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِذَا لَفِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)

غرض السوره تقرير المبدأ و المعاد و إقامة الحجه عليهما و دفع ما يختلج القلوب فى ذلك مع إشاره الى النبوه و الكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقا و الفاسقون الخارجون عن زىّ العبوديه و وعد أولئك بما هو فوق تصوّر المتصورين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد و أنهم سيدوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، و تختتم السوره بتأكيد الوعيد و أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالانتظار كما هم منتظرون.

و هي مكيه إلا ثلاث آيات نزلت - كما قيل - بالمدينه و هي قوله تعالى: أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا الى تمام ثلاث آيات.

و الذى أوردناه من آياتها يتضمّن الفصل الأول من فصلى غرض السوره الذى أشرنا اليه.

قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أى هذا تنزيل الكتاب، و التنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول و إضافته الى الكتاب من إضافه الصفه الى الموصوف، و المعنى: هذا هو الكتاب المنزّل لا ريب فيه.

و قوله: مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فيه براعه استهلال لما فى غرض السوره أن يتعاطى بيانه من الوجدانيه و المعاد اللذين ينكرهما الوثنيه لما مرّ مرارا أنهم لا يقولون برب العالمين بل يثبتون لكل عالم إلهها و لمجموع الآلهه إلهها هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخ؛ أم منقطعه، و المعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله و ليس من عنده فردّه بقوله: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ» الخ.

و قوله: لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ قيل: يعنى قريشا فإنهم لم يأتهم نبي قبله صلى الله عليه و آله و سلم بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العيسى و حنظله على ما فى الروايات.

و قوله: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ غايه رجائيه لإرسال الرسول و الترجى قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم فى نظائره.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - الى قوله - أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ تقدم الكلام فى تفسير قوله: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» فى نظائره من الآيات و تقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات

بنظام عام إجمالى يحكم على الجميع و لذا أتبع العرش فى أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ** عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف / ٥٤) وقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** (يونس / ٣)، وقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلُجُّ فِي الْأَرْضِ** (الحديد / ٤)، وقوله: **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** (البروج / ١٦).

و الوجه فى ذكر الاستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات و الأرض إن الكلام فى اختصاص الربوبية و الالهيه بالله وحده و مجرد استناد الخلقه اليه تعالى لا ينفع فى إبطال ما يقول به الوثنيه شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلقه اليه وحده و إنما يقولون باستناد التدبير و هو الربوبية للعالم الى آلهتهم ثم اختصاص الالهيه و هى المعبوديه بآلهتهم و لله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب و إله الآلهه.

فكان من الواجب عند إقامه الحججه لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلقه ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما و عدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء و خالقها هو الذى يربها و يدبر أمرها فيكون ربا وحده و إلهها وحده كما أنه موجد خالق وحده.

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقه فى الآيه التى نحن فيها إذ قيل «**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ**» فالولاية و الشفاعة كالاستواء على العرش من شئون التدبير.

و قوله: **مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ** الولى هو الذى يملك تدبير أمر الشىء و من المعلم أن أمورنا و الشئون التى تقوم به حياتنا قائمه بالوجود محكومته مدبره للنظام العام الحاكم فى الأشياء عامه و ما يخص بنا من نظام خاص، و النظام أيا ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء و الخلقه كيفما كانت مستنده اليه تعالى فهو تعالى و لينا القائم بأمرنا المدبر لشئوننا و أمورنا، كما هو و لى كل شىء كذلك وحده لا شريك له.

و الشفيع-على ما تقدم فى مباحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب-هو الذى ينضم الى سبب ناقص فيتم سببته و تأثيره،و الشفاعة تتميم السبب الناقص فى تأثيره و إذا طبقناها على الأسباب و المسببات الخارجيه كانت أجزاء الأسباب المركبه و شرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصه من الأثر منسوبه اليه كما أن كلا من السحاب و المطر و الشمس و الظل و غيرها شفيع للنبات.

و إذ كان موجد الأسباب و أجزائها و الرابط بينها و بين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقه الذى يتم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقه لا شفيع غيره.

و بيان آخر أدق قد تقدم فى البحث عن الأسماء الحسنى فى الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى و سائط بينه و بين خلقه فى إيصال الفيض اليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا- بما أنه رازق جواد غنى رحيم و يشفى المريض بما أنه شاف معاف رؤف رحيم و يهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا.

فما من شىء من المخلوقات المركبه الوجود إلا و يتوسط لوجوده عدّه من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض و بعضها فى عرض بعض و كل ما هو أخص منها يتوسط بين الشىء و بين الأعم منها كما أن الشافى يتوسط بين المريض و بين الرؤف الرحيم و الرحيم يتوسط بينه و بين القدير و هكذا.

و التوسط المذكور فى الحقيقه تتميم لتأثير السبب فيه و إن شئت فقل هو تقريب للشىء من السبب لفعليه تأثيره و ينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع فى الحقيقه فافهم.

و قد تبين بما مر أن لا إشكال فى إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسط صفه من صفاته الكريمه بين الشىء و صفه من صفاته كما يستعاذ من

سخطه الى رحمته و من عدله الى فضله، و أما كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

و قوله: أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدله العقول حتى يتذكروا أن الملك و التدبير لله سبحانه و هو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولى و لا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم.

قوله تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ تميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرينه على أن المراد بالأمر في الآيه الشأن دون الأمر المقابل للنهى.

و التدبير وضع الشيء فى دابر الشيء و الإتيان بالأمر بعد الأمر ف يرجع الى إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد كالسلسله المتصله بين السماء و الارض و قد قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١)، و قال: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر ٤٩).

و قوله: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ بعد قوله: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» لا- يخلو من إشعار بأن «يُدَبِّرُ» مضمن معنى التنزيل و المعنى: يدبر الأمر منزلا أو ينزله مدبرا- من السماء الى الأرض و لعله الأمر الذى يشير اليه قوله: فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا (حم السجده ١٢).

و فى قوله: يَعْرُجُ إِلَيْهِ إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذى تنتهى اليه أزمه الامور دون السماء بمعنى جهه العلو أو ناحيه من نواحى العالم الجسمانى فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التى نزل منها، و لم يذكر هناك إلا- علو هو السماء، و سفلى هو الأرض و نزول و عروج فالنزول من السماء و العروج الى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذى يصدر منه تدبير الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضى هو

السماء و الله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضى من هذا الموطن، و لعل هذا هو الأقرب الى الفهم بالنظر الى قوله: «وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» .

و قوله: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ معناه على أى حال أنه فى ظرف لو طبّق على ما فى الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذى يقدره ما نعدّه من الليل و النهار و الشهور و السنين لا يتجاوز العالم الأرضى.

و إذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب و الحضور و هو مما لا سبيل للزمان اليه كان المراد أنه وعاء لو طبّق على مقدار حركه الحوادث فى الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدّون.

و أما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول و اللبث و العروج أو مقدار مجموع النزول و العروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول و العروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن «فِي يَوْمٍ» قيد لقوله: «يَعْرُجُ إِلَيْهِ» فقط كما وقع فى قوله: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج ٧٤).

ثم على تقدير كون الظرف قيّدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث الى الله أو العروج يوم القيامة و هو مقدار يوم القيامة، و أما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة الى الكافر من حيث الشقه أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة و هو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنة.

ثم المراد بقوله: «مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ» هل هو التحديد حقيقه أو المراد مجرد التكثير كما فى قوله: يَوْمَ أُحُدٍمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ (البقره ١٩٦)، أى يعمر عمرا طويلا جدا و إن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق.

و الآيه- كما ترى- تحتل الاحتمالات جميعا و لكل منها وجه و الأقرب من بينها الى الذهن كون «فِي يَوْمٍ» قيّدا لقوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» و كون المراد بيوم عروج الأمر مشهدا من خمسين

مشهدا من مشاهد يوم القيامة، والله أعلم.

قوله تعالى: **ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** تقدم تفسير مفردات الآيه، و مناسبة الأسماء الثلاثة الكريمه للمقام ظاهره.

قوله تعالى: **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** قال الراغب: الحسن عبارته عن كل مبهج-بصيغه الفاعل-مرغوب فيه و ذلك ثلاث أضرب: مستحسن من جهة العقل و مستحسن من جهة الهوى و مستحسن من جهة الحس. انتهى. و هذا تعريف له من جهة خاصته و انقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

و حقيقته ملائمته أجزاء الشئ بعضها لبعض و المجموع للغرض و الغايه الخارجه منه فحسن الوجه تلاؤم أجزاءه من العين و الحاجب و الأنف و الفم و غيرها، و حسن العدل ملائمته للغرض من الاجتماع المدنى و هو نيل كل ذى حق حقه، و هكذا.

التدبر فى خلقه الأشياء و كل منها فى نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض و المجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله و سعاده تجهيزا لا أتم و لا أكمل منه يعطى أن كلا منها حسن فى نفسه حسنا لا أتم و أكمل منه بالنظر الى نفسه.

و أما ما نرى من المساءه و القبح فى الأشياء فلأحد أمرين: أما لكون الشئ السيئ ذا عنوان عدمى يعود اليه المساءه لا لوجوده فى نفسه كالظلم و الزنا فإن الظلم ليس بسىء قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت و الزنا ليس بسىء قبيح من جهة نفس العمل الخارجى الذى هو مشترك بينه و بين النكاح بل بما أن فيه مخالفه للنهى الشرعى أو للمصلحه الاجتماعيه.

أو بقياسه الى شئ آخر فيعرضه المساءه و القبح من طريق المقاييسه كقياس الحنظل الى البطيخ و قياس الشوك الى الورد و قياس العقرب الى الإنسان فإن المساءه إنما تطرأ هذه الأشياء من طريق القياس الى مقابلاتها ثم قياسها الى طبعنا، و يرجع هذا الوجه من المساءه

الى الوجه الأول بالحقيقه.

و كيف كان فالشئ بما أنه موجود مخلوق لا- يتصف بالمساءه و يدل عليه الآيه «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» إذا انضمم الى قوله: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢) فينتجان أولاً: أن الخلقه تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

و ثانياً: ان كل سيئ و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصي و السيئات من حيث هي معاص و سيئات و الأشياء السيئه من جهه القياس.

قوله تعالى: وَ يَدَّأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده الى من خلق من طين من غير تناسل من أب و أم كآدم و زوجه عليهما السلام، و الدليل على ذلك قوله بعده: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُيْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فالنسل الولاده بانفصال المولود عن الوالدين و المقابله بين بدء الخلق و بين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين، و لو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال: ثم جعله سلاله من ماء مهين فافهمه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُيْلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ السلاله كما في المجمع الصفوه التي تنسل أى تنزع من غيرها و يسمى ماء الرجل سلاله لانسلاله من صلبه، و المهين من الهون و هو الضعف و الحقاره و ثم للتراخي الزمانى.

و المعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوه من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ التسويه التصوير و تتميم العمل، و فى قوله: «نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» استعاره بالكنايه بتشبيهه الروح بالنفس الذى يتنفس به ثم نفخه فى قالب من سواه، و إضافه الروح اليه تعالى إضافه تشرifiه، و المعنى: ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين و المجمعول نسله من سلاله من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب اليه تعالى.

قوله تعالى: وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ امتنان بنعمه الإدراك الحسى و الفكرى فالسمع و البصر للمحسوسات و القلوب للفكریات أعم من الإدراكات الجزئیه الخياليه و الكلبيہ العقليه.

و قوله: قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ أى تشكرون شكرا قليلا، و الجملة اعتراضيه فى محل التوبيخ و قيل: الجملة حالیه، و المعنى: جعل لكم الأبصار و الأفئده و الحال أنكم تشكرون قليلا، و الجملة على أى حال مسوقه للبت و الشكوى و التوبيخ.

قوله تعالى: وَ قَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ حجه من منكرى البعث مبنيه على الاستبعاد. و الضلال فى الأرض قيل: هو الضيعة كما يقال: ضلّت النعمه أى ضاعت، و قيل: هو بمعنى الغيبه، و كيف كان فمرادهم به، إنا إذا متنا و انتشرت أجزاء أبداننا فى الأرض و صرنا بحيث لا تميز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض و لا خبر عنا نقع فى خلق جديد و نخلق ثانيا خلقنا الأول؟

و الاستفهام للإنكار، و الخلق الجديد هو البعث.

و قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» إضراب عن فحوى قولهم: «أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» كأنه قيل: إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا عن ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع الينا و لقائنا و لذا جىء فى الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع.

قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ توفى الشىء أخذه تاما كاملا كتوفى الحق و توفى الدّين من المديون.

و قوله: مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ قيل: أى و كل بإماتتكم و قبض أرواحكم و الآيه مطلقه ظاهره فى أعم من ذلك.

و قد نسب التوفى فى الآيه الى ملك الموت، و فى قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (الزمر ٤٢) اليه تعالى، و فى قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام)

٦١)، وقوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ (النحل ٢٨)، إلى الرسل و الملائكة نظرا إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت و فوقهم ملك الموت الأمر بذلك المجرى لأمر الله و الله من ورائهم محيط و هو السبب الأعلى و مسبب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابه الإنسان بالقلم فالقلم كاتب و اليد كاتبه و الإنسان كاتب.

و قوله: ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ هو الرجوع الذى عبر عنه فى الآيه السابقه باللقاء و موطنه البعث المترتب على التوفى و المتراخى عنه، كما يدل عليه العطف بثم الداله على التراخى.

و الآيه-على أى تقدير-جواب عن الاحتياج بضلال الموتى فى الأرض على نفى البعث و من المعلوم أن إماته ملك الموت لهم ليس يحسم ماده الإشكال فيبقى قوله: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» دعوى خاليه عن الدليل فى مقابل دعواهم المدلل و الكلام الإلهى أنزه ساحه أن يتعاطى هذا النوع من المحاجه.

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنيه على الاستبعاد بأن حقيقه الموت ليس بطلانا لكم و ضلالا منكم فى الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أى ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان و أرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أى ما يعنى بلفظه «كم» محفوظون لا يضل منكم شىء فى الأرض و إنما يضل الأبدان و تتغير من حال إلى حال و قد كانت فى معرض التغير من اول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها.

و بهذا يندفع حجتهم على نفى المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشى البدن يبطل شخصيه الإنسان فينعدم و لا معنى لإعاده المعدوم فإن حقيقه الإنسان هى نفسه التى يحكى عنها بقول «أنا» و هى غير البدن و البدن تابع لها فى شخصيته

و هي لا- تتلاشى بالموت و لا- تنعدم بل محفوظة في قدره الله حتى يؤذن في رجوعها الى ربها للحساب و الجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

و ظهر بما تقدم أولا وجه اتصال قوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ» الخ؛ بقوله: «إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» الخ؛ و أنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهه، و قد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفى بمطلق الإماتة من غير التفات الى نكته التعبير بلفظ التوفى فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم.

و ثانيا: أن الآيه من أوضح الآيات القرآنيه الداله على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن.

قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ» نكس الرأس إطراره و طأطأته، و المراد بالمجرمين بقرينه ذيل الآيه خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أى هؤلاء الذين يجحدون المعاد و يقولون «أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» الخ.

و فى التعبير عن البعث بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» محاذاه لما تقدم من قوله: «يَلُ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ» أى واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره، و قولهم: «أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا» و مسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاه فى الإيمان و العمل الصالح و قد حصل لهم الإيمان اليقيني و بقى العمل الصالح و لذا يعترفون باليقين و يسألون الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحا فيتم لهم سببا النجاه.

و المعنى: و لو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقو رءوسهم عند ربهم فى موقف اللقاء من الخزى و الذل و الندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهده و سمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون و المحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزى و الذل فنكسوا رءوسهم و اعترفوا بما ينكرونه اليوم و سألوا العود الى هاهنا

و لن يعودوا.

قوله تعالى: **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى** إلى آخر الآية؛ أى لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنه و الكافره الهدى الذى يختص بها و يناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر و إرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار و الإراده كما شئنا فى المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه و إرادته من دون أن ينجر الى الإلجاء و الاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء.

و قوله: **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** أى و لكن هناك قضاء سابق منى محتوم و هو إملاء جهنم من الجنه و الناس أجمعين و هو قوله لإبليس لما امتنع من سجده آدم و قال: **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا جِبَدَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** (ص ٨٥)، فقضى أن يدخل متبعى إبليس العذاب المخلد.

و لازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زى العبوديه كما قال: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** و الله لا يهدى القوم الفاسقين (التوبه ٨٠)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ** الى آخر الآية؛ تفريع على قوله: **وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** و النسيان ذهول صورته الشىء عن الذاكره و يكفى به عن عدم الاعتناء بما يهيم الشىء و هو المراد فى الآية.

و المعنى: فإذا كان من القضاء إذاقه العذاب لمتبعى إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بقاء هذا اليوم حتى جحدتموه و لم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأننا لم نعتن بما يهيمكم فى هذا اليوم من السعاده و النجاه، و قوله: **«وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»** تأكيد و توضيح لسابقه أى إن الذوق الذى أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا

[سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٣٠]

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَمْ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَذِّ الَّذِي دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِلَهُهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

ص: ٨٣

١- ١). السجده ١-١٤: بحث روائي في: سور العزائم، كيفية قبض روح المؤمن و الظالم.

٢- ٢). السجده ١-١٤: كلام في كينونه الانسان الاول.

بيان:

قوله تعالى: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** لما ذكر شطرا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان و العمل الصالح أخذ في صفه الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكروا و وعظوا.

فقوله: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا** حصر للإيمان بحقيقته معناه فيهم و معناه أن علامه التهيؤ

ص: ٨٤

للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا.

وقوله: الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ شَيْئًا مِنْ أَوْصَافِهِمْ وَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسيححه و حمده و هو قوله: «إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» أى الداله على وحدانيته فى ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوه النبويه الى الايمان و العمل الصالح «خَرُّوا سُجَّدًا» أى سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللا و استكانه «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» أى نزهوه مقارنا للثناء الجميل عليه. و السجده و التسييح و التحميد و إن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفه التذلل و الخضوع لمقام الربوبية و الالوهيه، و لذا أرفها بصفه تلازمها فقال: «وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» .

قوله تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ هذا معرفهم من حيث أعمالهم كما أن ما فى الآيه السابقه كان معرفهم من حيث أوصافهم.

فقوله: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ التَّجَافَى التَّنَحَّى و الجنوب جمع جنب و هو الشق، و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم، و التجافى عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

وقوله: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا حال من ضمير جنوبهم و المراد اشتغالهم بدعاء ربهم فى جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الانفاس لا- خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمه الله و لا طمعا فى ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه و مكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون فى دعائهم أدب العبوديه على ما يعثهم اليه الهدى و هذا التجافى و الدعاء ينطبق على النوافل الليلية.

وقوله: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و فى سبيله.

قوله تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّمَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرِّهِ أَعْيُنٍ جِزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ تفرّيع لما لهم من الأوصاف و الأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب.

و وقوع نفس و هى نكره فى سياق النفى يفيد العموم، و إضافه قرّه الى أعين لا- أعينهم تفيد أن فيما أفى لهم قرّه عين كل ذى عين.

و المعنى: فلا تعلم نفس من النفوس- أى هو فوق علمهم و تصوّره- ما أخفاه الله لهم مما تقرّ به عين كل ذى عين جزاء فى قبال ما كانوا يعملون فى الدنيا.

قوله تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ الإيمان سكون علمى خاص من النفس بالشىء و لازمه الالتزام العملى بما آمن به و الفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمره إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن زى العبوديه.

و الاستفهام فى الآيه للانكار، و قوله: «لَا يَسْتَوُونَ» نفى لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيدته الإنكار السابق.

قوله تعالى: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ المأوى المكان الذى يأوى اليه و يسكن فيه الانسان، و النزول بضمّتين كل ما يعدّ للنازل فى بيت من الطعام و الشراب، ثم عمّم كما قيل لكل عطيه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ الى آخر الآيه؛ كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها و لذلك عقبه بقوله: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا»، و قوله:

«وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد و خطابهم و هم فى النار بهذا الخطاب شماته بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون فى الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: وَ لَنذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لما كان غايه إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو و الرجوع المرجو هو الرجوع الى الله بالتوبه و الإنابه كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف و الإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذى بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

و المعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أى الأقرب مثل السنين و الأمراض و القتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبه من شركهم و جحودهم.

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ كانه فى مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلمه بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين و الله منتقم منهم.

فقوله: وَ مَنْ أَظْلَمُ الْخ؛ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ»، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون و العذاب انتقام منهم، و الله منتقم من المجرمين.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ المراد بالكتاب التوراه و المريه الشك و الريب.

و قد اختلفوا فى مرجع الضمير فى قوله: «مِّنْ لِّقَائِهِ» و معنى الكلمه فقيل: الضمير لموسى و هو مفعول اللقاء و التقدير فلا تكن فى مريه من لقاءك موسى و لقد لقيه ليله المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السوره نازله بعد المعراج فهو تذكره لما قد وقع و إن كانت نازله قبله فهو وعد منه تعالى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه سيراه.

و من الممكن -و الله أعلم- أن يرجع ضمير لقائه اليه تعالى و المراد بلقائه البعث بعنايه أنه

يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم، وقد عبر عنه باللقاء قبل عده آيات في قوله: **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله: **«نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ»**.

فيكون المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مريه من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن عليه صلى الله عليه وآله وسلم بنزول التوراه على موسى في مواضع من القرآن، ويؤيده قوله بعد: **«وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»** الخ.

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام اليه تعالى عند وحى القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعا الى ما في صدر السوره من قوله: **«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»**، و ذيل الآية أشد تأييدا لهذا الوجه من سابقه والله أعلم. وقوله: **«وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** أى هاديا فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدرى مبالغه.

قوله تعالى: **«وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** أى وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداه للناس حين صبروا فى الدين و كانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا.

وقد تقدم البحث عن معنى الامامه و هدايه الامام بأمر الله فى تفسير قوله: **«قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا»** (البقره ١٢٤/١)، وقوله: **«وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا»** (الأنبياء / ٧٣)، وغير ذلك من الموارد المناسبه.

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمه المنبسطه بالتوراه أنها هدى فى نفسه يهدى من اتبعه الى الحق، و أنها أنشأت فى حجر تربيتها أناسا اجتباهم الله للإمامه فصاروا يهدون بأمره فهى مباركه للعمل بها و مباركه بعد العمل.

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغيا بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ - إلى أن قال - فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثية ١٧).

فالمراد بقوله: «يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ الخ؛ العطف على محذوف كأنه قيل: أ لم يبين لهم كذا و كذا، أو لم يهد لهم، الخ؛ و الهداية بمعنى التبيين أو من مضمّن معنى التبيين و لذا عدّى باللام.

و قوله: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ مشير الى الفاعل قائم مقامه، و المعنى: أو لم يبين لهم كثره من أهلكتنا من القرون و الحال أنهم يمشون في مساكنهم.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدى الى طاعه الحق و قبوله.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ الخ؛ قال في المجمع: السوق الحث على السير من ساقه يسوقه، و قال: الجرز الارض اليابسه التى ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها.

انتهى. و الزرع مصدر فى الأصل و المراد به هنا المزروع.

و الآيه تذكر آيه أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء و خاصه ذوى الحياه منها كالأنعام و الإنسان، و المراد بسوق الماء الى الأرض الخاليه من النبات سوق السحب الحامله للأمطار إليها، ففى نزول ماء المطر منها حياه الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام التى يسخرها و يربّيها لمقاصد حياته.

وقوله: أَفَلَا يُبْصِرُونَ تنبيه و توبيخ و تخصيص هذه الآيه بالإبصار، و الآيه السابقه بالسمع لما أن العلم يهلك المم الماضين إنما هو بالاخبار التى تنال من طريق السمع و أما العلم بسوق الامطار الى الارض الجرز و إخراج الزرع و اغتذاء الانعام و الإنسان فالطريق اليه حاسه البصر.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْفَتْحُ -الى قوله- وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ قال الراغب:الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال-الى أن قال- و فتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها،قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». انتهى.

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بين الامه و يكون ذلك فى آخر الزمان كما تقدمت الإشارة اليه فى تفسير قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ الْآيَه؛(يونس ٤٧).

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح و الجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفسا إيمانها و لا أن العذاب يمهلهم و ينظرهم.

قوله تعالى: فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَ انْتَبَظُوا إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح كما أنهم ينتظرون و إنما كانوا منتظرين موته أو قتله عليه السلام و بالجمله انقطاع دابر دعوته الحقه فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل و المحق على المبطل.

و من هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوى (١).

ص : ٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيهَا أَنْ تَخْطَئُوا بِهِ وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٨﴾ لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾

تتضمن السوره تفاريق من المعارف و الأحكام و القصص و العبر و المواعظ و فيها قصه غزوه الخندق و إشاره الى قصه بنى القريظه من اليهود، و سياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا أمر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتقوى الله و فيه تمهيد للنهي الذي بعده «وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» .

و فى سياق النهى-و قد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم-كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم فى مسألتهم و يلحون أمرا كان الله سبحانه بعلمه و حكمته قد قضى بخلافه و قد نزل الوحي الإلهى بخلافه،

أمرًا خطيرًا لا- يؤمن مساعده الأسباب على خلافه إلا- أن يشاء الله فحذر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن إجابتهم الى ملتسمهم و أمر بمتابعه ما أوحى الله اليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن عده من صنديد قريش بعد وقعه أحد دخلوا المدينة بأمان من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتركهم و آلهتهم فيتركوه و إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبي الى ذلك و سيأتى فى البحث الروائى التالى.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآيه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» و كذا تعقيب الآيه بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا الآيه عامه فى حد نفسها لكنها من حيث وقوعها فى سياق النهى تأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون و المنافقون و اتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله:

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» .

قوله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا الآيه كالآيه السابقه فى أنها عامه فى حد نفسها، لكنها لوقوعها فى سياق النهى السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر الى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضه المخافه و الاضطراب إلا المتوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذى لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ كُنَايَه عن امتناع الجمع بين المتنافيين فى الاعتقاد فإن القلب الواحد أى النفس الواحده لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: «فِي جَوْفِهِ» يفيد زياده التقرير كقوله: وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

و معنى هدايته السبيل أنه يحمل من هدايه على سبيل الحق التي فيها الخير و السعاده و فى الجملتين تلويح الى أن دعوا أقوالكم و خذوا بقوله.

قوله تعالى: اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اللام فى «لِآبَائِهِمْ» للاختصاص أى ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أى انسبوهم الى آبائهم و قوله:

«هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»، الضمير الى المصدر المفهوم من قوله: «اذْعُوهُمْ» نظير قوله: «اغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» و «أَقْسَطُ» صيغه تفضيل من القسط بمعنى العدل.

و المعنى: انسبوهم الى آبائهم- إذا دعوتهم- لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

و قوله: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ، المراد بعدم علمهم آبائهم عدم معرفتهم أعيانهم، و الموالى هم الأولياء، و المعنى: و إن لم تعرفوا آبائهم فلا تنسبوهم الى غير آبائهم بل ادعوهم بالاخوة و الولايه الدينيه.

و قوله: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ أَى لا- ذنب لكم فى الذى أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتهم لغير آبائهم و لكن الذى تعمدته قلوبكم ذنب أو و لكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

و قوله: وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا راجع الى ما أخطئ به.

قوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ أَنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبى أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم: و معنى الأولويه هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه و بين ما هو أولى منه فالمحصيل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلامه و المحبه و الكرامه و استجابته الدعوه و إنفاذ الإراده فالنبى أولى بذلك من نفسه و لو دار الأمر بين النبى و بين نفسه فى شىء من ذلك كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه.

ففيما إذا توجه شىء من المخاطر الى نفس النبى فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه و ليكن

النبي أحب إليه من نفسه و أكرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه الى شىء و النبي الى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً و أراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ طاعته وَ تقديمه على نفسه.

و كذا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيويه أو الدينيه كل ذلك لمكان الإطلاق فى قوله: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» .

و قوله: وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ جعل تشريعى أى إنهن منهم بمنزله أمهاتهم فى وجوب تعظيمهن و حرمة نكاحهن بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كما سيأتى التصريح به فى قوله: «وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» .

فالتنزيل إنما هو فى بعض آثار الامومه لا- فى جميع الآثار كالتوارث بينهن و بين المؤمنين و النظر فى وجوههن كالامهات و حرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم و كصيروره آبائهن و أمهاتهن أجدادا و جدات و إخوتهن و أخواتهن أخوالا و خالات للمؤمنين.

قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ الخ؛ الأرحام جمع رحم و هى العضو الذى يحمل النطفه حتى تصير جنينا فيتولد، و إذ كانت القرابه النسبيه لازمه الانتهاء الى رحم واحده عبّر عن القرابه بالرحم فسمى ذوو القرابه أولى الأرحام.

و المراد بكون أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولويه فى التوارث، و قوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ» المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره، و قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ» مفضّل عليه و المراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، و المعنى: و ذوو القرابه بعضهم أولى ببعض من المهاجرين و سائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاه الدينيه، و هذه الأولويه فى كتاب الله و ربما احتمل كون قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ» بيانا لقوله: «وَ أُولُوا

و الآية ناسخه لما كان فى صدر الاسلام من التوارث بالهجره و الموالاه فى الدين .

وقوله: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيَّ أُولِيَّكُمْ مَعْرُوفًا» الاستثناء منقطع، و المراد بفعل المعروف الى الأولياء الوصيه لهم بشىء من التركه، و قد حدّ شرعا بثلث المال فما دونه، و قوله: «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» أى حكم فعل المعروف بالوصيه مسطور فى اللوح المحفوظ أو القرآن أو السوره .

قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا إضافة الميثاق الى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوه مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبئون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامه البشر الذى يشير اليه فى قوله: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (الأعراف ١٧٢).

و قد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال:

«وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنه قيل: و إذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسه و من باقى النبيين .

و لم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمه شأنهم و رفعه مكانهم فإنهم أولو عزم و أصحاب شرائع و كتب و قد عدّهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليهم السّلام، لكن قدّم ذكر النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه على الجميع .

وقوله: وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله: وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (هود ٥٨).

قوله تعالى: لَيْسَئِلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا اللام في «لَيْسَئِلَ» للتعليل أو للغايه و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وَإِذْ أَخَذْنَا» وقوله: «وَأَعَدَّ» معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير فعل ذلك أى أخذ الميثاق ليمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل: و ليعد للكافرين عذابا، إشاره أن عذابهم ليس من العلل الغائيه لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقول: المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ (المائدة ١٠٩).

وقيل: المراد سؤال الصادقين فى توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أى عما كانوا يقولون فيه، وقيل: المراد سؤال الصادقين فى أقوالهم عن صدقهم فى أفعالهم، وقيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه الله أو غيره؟ الى غير ذلك من الوجوه و هى كما ترى.

و التأمل فيما يفيدته قوله: «لَيْسَئِلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» يرشد الى خلاف ما ذكره، ففرق بين قولنا: سألت الغنى عن غناه و سألت العالم عن علمه، و بين قولنا: سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أنى طالبتة أن يظهر غناه و أن يظهر علمه، و من الأخيرين أنى طالبتة أن يخبرنى هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لى ما له من المال أو من العلم.

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما فى باطنهم من الصدق فى مرتبه القول و الفعل و هو عملهم الصالح فى الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق اليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن فى نفوسهم و هذا فى

الدنيا لا فى الآخرة فأخذ الميثاق فى نشأه اخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الدر و إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ الْآيَات.

و بالجمله الآيتان من الآيات المنبئه عن عالم الدر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السّلام و ترتب شأنهم و عملهم فى الدنيا على ذلك فى ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبه أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين و الكلام فى الميثاق المأخوذ منهم فكانه قيل: أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلّغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهدايه إظهار صدقهم فى الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدر لهم الثواب و أعدّ للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبه فى قوله: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ الظَّالِمِينَ» الخ؛ و ذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له و إن كان أخذه منه تعالى بواسطه من الملائكه المصحح لقوله: «أَخَذْنَا» و «أَخَذْنَا» فالمطالب لصدق الصادقين و المعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقه هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُبَدِّقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَ مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سَبَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَ مَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذَا لَمْ تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لَاحِظْ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الدِّيَارَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّهٗ عَلَيْكُمْ فَبِأَيِّ خَوْفٍ رَأَيْتَهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْفِ حَدَادٍ أَشِحَّهٗ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَخْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَلْبَانِكُمْ وَ لَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يَعْذِبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَ قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطُوعُهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

١ - ١). الاحزاب ١-٨: بحث روائي حول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ وقوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ».

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ الْخِزْيَانِ بِأَيِّامِ الْخُسُوفِ﴾[□] بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم و قد كانوا جنودا مجنده من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش و الأحابيش و كنانة و يهود بنى قريظه و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلب الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم.

و هو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ ظَفَرْنَا لَكُمْ فِي الْحَرْبِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَنَاجِرِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَنَاجِرِ وَالْأَنْفُسِ وَالْحَنَاجِرِ﴾[□] جند كغطفان و قريش و غيرهما «فَأَرْسَلْنَا» بيان للنعمه و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم «عَلَيْهِمْ رِيحًا» و هى الصبا و كانت بارده فى ليل شاتيه «وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» و هى الملائكة لخدلان المشركين «وَوَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا».

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ خِزْيَانِ لَّهُمْ قُرْآنٌ مَّعْرُوفٌ﴾[□] قريظه و بنى النضير و الجاءون من أسفل منهم و هو الجانب الغربى لها قريش و من انضم اليهم من الأحابيش و كنانة فقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾.

و قوله: ﴿إِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، عطف بيان آخر لقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ الخ؛ و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هى الأنفس و الحناجر جمع حنجر و هو جوف الحلقوم.

و الوصفان أعنى زيغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كناية عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم الى حال المختصر الذى يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

و قوله: وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا أَى يظن المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون و يستولون على المدينة، و بعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق و الدين سيضيع، و بعضهم يقول: إن الجاهليه ستعود كما كانت، و بعضهم يقول: إن الله عزهم و رسوله الى غير ذلك من الظنون.

قوله تعالى: هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا هُنَالِكَ إشاره بعيده الى زمان أو مكان و المراد الإشاره الى زمان مجيء الجنود و كان شديدا عليهم لغايه بعيده، و الابتلاء الامتحان، و الزلزله و الزلزال الاضطراب، و الشده القوه و تختلفان فى أن الغالب على الشده أن تكون محسوسا بخلاف القوه، قيل: و لذلك يطلق القوى عليه تعالى دون الشديد.

و المعنى فى ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شديدا.

قوله تعالى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُم ضِعْفَاءُ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ هُم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و إنما سمعى المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمل الإنسان على الشر يراءته فى صوره الخير و الاغترار احتمالاه له. قال الراغب: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد، و الغرّه -بكسر الغين- غفله فى اليقظه. انتهى.

و الوعد الذى يعدونه غرورا من الله و رسوله لهم بقرينه المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كله و قد تكرر فى كلامه تعالى كما ورد ان المنافقين قالوا: يعدنا محمد أن

يفتح مدائن كسرى وقيصر و نحن لا نأمن أن نذهب الى الخلاء.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينه الرسول بعد الهجره ثم المدينه، و المقام بضم الميم الإقامه، و قولهم: لا مقام لكم فارجعوا أى لا وجه لإقامتكم هاهنا قبال جنود المشركين فالغلبه لهم لا محاله فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفا على قوله:قالت طائفه: «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ» أى من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض «النَّبِيِّ» فى الرجوع «يَقُولُونَ» استئذانا «إِنَّ بَيْنَهُمْ تَدَا عَوْرَةً» أى فيها خلل لا يمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو «وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ» أى ما يريدون بقولهم هذا «إِلَّا فِرَارًا» .

قوله تعالى: وَ لَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سِئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّتْوَا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب، و الضمير فى «دَخِلَتْ» للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، و الأقطار جمع قطر و هو الجانب، و المراد بالفتنه بقريته المقام الرده و الرجعه من الدين و المراد بسؤالها طلبها منهم، و التلبث التأخر.

و المعنى: و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالرده إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أى إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشده و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئَلًا اللام لقسم، و قوله: «لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ» أى لا يفرّون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء

به: الجهاد الذى يحرم الفرار فيه و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا إِذْ لَا بَدَ لِكُلِّ نَفْسٍ مِنَ الْمَوْتِ لِأَجْلِ مَقْضَىٰ مَحْتَمٍ لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ سَاعَةٌ وَلَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ فَالْفِرَارُ لَا يُوَثِّرُ فِي تَأْخِيرِ الْأَجْلِ شَيْئًا.

و قوله: وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا أَي و إن نفعكم الفرار فمتعم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتع إلا تمتعا قليلا أو فى زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محاله.

له تعالى: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا كانت الآيه السابقه تنبيهها لهم على أن حياه الإنسان مقضى مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و فى هذه الآيه تنبيه على أن الشر و الخير تابعان لإيراده الله محضا لا- يمنع عن نفوذها سبب من الاسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر الى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

و لما كانت قلوبهم مرضى أو مشغوله بكفر مستبطن عدل عن أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بتكليمهم الى تكليم نفسه فقال: «وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» .

قوله تعالى: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ -الى قوله- يَسِيرًا التّعويق التّشيط و الصرف، و هلم اسم فعل بمعنى أقبل، و لا يثنى و لا يجمع فى لغه الحجاز، و البأس الشده و الحرب، و أشخه جمع شحيح بمعنى البخيل، و الذى يغشى عليه هو الذى أخذته الغشوه فغابت حواسه و أخذت عيناه تدوران، و السلق بالفتح فالسكون الضرب و الطعن.

و معنى الآيتين: أن الله ليعلم الذين يثبطون منكم الناس و يصرفونهم عن القتال و هم المنافقون و يعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفه الإيمان تعالوا و أقبلا و لا يحضرون الحرب إلا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم.

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظرا لا إرادته لهم فيه و لا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم و طعنوكم بالسنه حداد قاطعه حال كونهم بخلاء على الخير الذى نلتموه.

أولئك لم يؤمنوا و لم يستقر الإيمان فى قلوبهم و إن أظهروه فى ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم و أحبطها و كان ذلك على الله يسيرا.

قوله تعالى: يَحْسِبُونَ الْمُخْرَبَ لَمْ يَذْهَبُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أى يظنون من شدة الخوف أن الأخراب-و هم جنود المشركين المتحزبون على النبي صلى الله عليه و آله و سلم-لم يذهبوا بعد «وَإِنْ يَأْتِ الْاُخْرَابُ» مره ثانيه بعد ذهابهم و تركهم المدينة «يَوَدُّوا» و يحبوا «أَنْهُمْ بِأُدُونٍ» أى خارجون من المدينة الى البدو «فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنِ الْبَائِكُمْ» و أخباركم «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ» و لم يخرجوا منها بادين «فَاتُّلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى و لا كثير فائده فى لزومهم إياكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا فلا يعتد به.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا الْاِسْوَه الْقَدْوَه وَ هِيَ الْاِقْتِدَاءُ وَ الْاِتِّبَاعُ، و قوله:

«فِي رَسُولِ اللَّهِ» أى فى مورد رسول الله و الاسوه التى فى مورده هى تأسيهم به و اتباعهم له و التعبير بقوله: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ» الدال على الاستقرار و الاستمرار فى الماضى إشاره الى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

و المعنى: و من حكم رساله الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به فى قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه فى جنب الله و حضوره فى القتال و جهاده فى الله حق جهاده.

و قوله: لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا بدل من ضمير الخطاب فى «لَكُمْ» للدلاله على أن التأسى برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خصله جميله زاكيه لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، و إنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقه الإيمان فكان يرجو

اللّٰهُ و الیوم الآخر اى تعلق قلبه باللّٰه فآمن به و تعلق قلبه بالیوم الآخر فعلم صالحا و مع ذلك ذكر اللّٰه كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي فى أفعاله و أعماله.

قوله تعالى: وَ لَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصّرهم فى الإيمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سئى القول، و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم باللّٰه و رسوله.

و قوله: قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ الْإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى مَا شَاهَدُوهُ مَجْرَدًا عَنْ سَائِرِ الْخُصُوصِيَّاتِ، كما فى قوله: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَتْ هَذَا رَبِّي (الأنعام / ٢٨).

و الوعد الذى أشاروا اليه قيل: هو ما كان رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم و قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذى وعدهم.

و قوله: وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ شَهَادَةُ مِنْهُمْ عَلَى صِدْقِ الْوَعْدِ، و قوله: «وَ مَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَ تَسْلِيمًا» أى إيماننا باللّٰه و رسوله و تسليما لأمر اللّٰه بنصره دينه و الجهاد فى سبيله.

قوله تعالى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا يَدُلُّوا تَبْدِيلًا، قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه أى و فى بنذره قال تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» ، و يعتبر بذلك عن مات كقولهم: قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته. انتهى.

و قوله: صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ أى حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لاقوا العدو، و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن فى الآيه محاذاه لقوله السابق فى

المنافقين و الضعفاء الإيمان: «وَلَقَدْ كَانُوا لَمَّا هَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ» كما أن في الآيه السابقه محاذاه لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله.

و قوله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ النّخ؛ أى منهم من قضى أجله يموت أو قتل فى سبيل الله و منهم من ينتظر ذلك و ما بدّلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا اللام للغايه و ما تضمنه الآيه غايه لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين.

فقوله: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ المراد بالصادقين المؤمنين و قد ذكر صدقهم قبل، و الباء فى «بِصِدْقِهِمْ» للسببيه أى ليجزى المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

و قوله: وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أى و ليعذب المنافقين إِنْ شَاءَ تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إِنْ تابوا إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

و فى الآيه من حيث كونها بيان غايه نكته لطيفه هى أن المعاصى ربما كانت مقدمه للسعاده و المغفره لا بما أنها معاص بل لكونها سائقه للنفس من الظلمه و الشقوه الى حيث تتوحش النفس و تتنبه فتتوب الى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها فى الغايه.

قوله تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَدُلُّوا خَيْرًا وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا الغيظ الغم و الحنق و المراد بالخير ما كان يعده الكفار خيرا و هو الظفر بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين.

و المعنى: و ردّ الله الذين كفروا مع غمهم و حنقهم و الحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونونه و كفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيّٰصِيهِمْ -الى

قوله- قديراً المظاهره المعاونه،و الصياصى جمع صيصيه و هى الحصن الذى يمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون و يشرفون منها و من أعالي الجدران على أعدائهم فى خارجها و محاصريهم.

و المعنى «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ» أى عاونوا المشركين و هم بنو قريظه «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» و هم اليهود «مِنْ صِيَاصِيهِمْ» و حصونهم «وَقَذَفَ» و ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الخوف «فَرِيقًا تَقْتُلُونَ» و هم الرجال «وَأَسْرَضُونَ فَرِيقًا» و هم الذرارى و النساء «وَأَوْرَثَكُمْ» أى و ملككم بعدهم «أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا» و هى أرض خيبر أو الأرض التى أفاء الله مما لم يوجب عليها بخيل و لا ركاب،و أما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح الى يوم القيامة أو أرض مكه أو أرض الروم و فارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (١).

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعُكُمْ وَ أَسْرِحُكُمْ سِرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَ مَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَنْ عَنِ الْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَ قَوْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَ اقِمْنَ الصَّلَاةَ وَ آتِينَ الزَّكَاةَ وَ اطَّعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَ أذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ وَ الْمُتَضِعِّينَ وَ الْمُتَضِعِّاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

ص: ١٠٩

١ - ١). الاحزاب ٩-٢٧: بحث روائى فى غزوه الاحزاب؛حفر الخندق؛فضيله سلمان؛براز على عليه السلام لعمر بن عبد ود و قتله؛قول رسول الله فى ان عمل على عليه السلام أفضل من عباده امه محمد؛دور نعيم بن مسعود فى غزوه الاحزاب؛ ذهاب الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم الى حرب بنى قريظه.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ إِلَىٰ تَمَامِ الْآيَاتِينَ، سِيَاقُ الْآيَاتِينَ يَلُوِّحُ أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أَوْ بَعْضَهُنَّ كَانَتْ لَا تَرْتَضِي مَا فِي عَيْشَتِهِنَّ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الضِّيقِ

ص: ١١٠

و الضنك فاشتكت اليه ذلك و اقترحت عليه أن يسعدهن فى الحياه بالتوسعه فيها و إيتائهن من زينتها؟

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيّرهن بين أن يفارقه و لهن ما يردن و بين أن يبقين عنده و لهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

و قد ردّ أمرهن بين أن يرد الحياه الدنيا و زينتها و بين أن يردن الله و رسوله و الدار الآخره، و هذا التردد يدل أولاً: أن الجمع بين سعه العيش و صفائها بالتمتع من الحياه و زينتها و زوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و العيشه فى بيته مما لا يجتمعان.

و ثانياً: أن كلا من طرفى التردد مقيد بما يقابل الآخر، و المراد بإرادته الحياه الدنيا و زينتها جعلها هى الأصل سواء أريدت الآخره أو لم يرد، و المراد بإرادته الحياه الآخره جعلها هى الأصل فى تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياه الدنيا و نيلت الزينه و صفاء العيش أو لم يكن شىء من ذلك.

ثم الجزاء أعنى نتيجة اختيارهن كلا- من طرفى التردد مختلف فلهنّ على تقدير اختيارهن الحياه الدنيا و زينتها بمفارقة النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يطلقهن و يمتعهن جمعاء من مال الدنيا، و على تقدير بقائهن على زوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و اختيار الآخره على الحياه الدنيا و زينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و يتبين بذلك أن ليس لزوجيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من حيث هى زوجيه كرامه عند الله سبحانه و إنما الكرامه لزوجيه المقارنه للإحسان و التقوى و لذلك لما ذكر ثانياً علوّ منزلتهن قده أيضاً بالتقوى فقال: «لَسِيْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النُّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ» و هذا كقولته فى النبي و أصحابه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا - إلى أن قال - وَ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرًا عَظِيمًا» حيث مدحهم عامه بظاهر أعمالهم أولاً ثم قيد و عدهم الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح.

و بالجمله فإطلاق قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٠) على حاله غير منتقض بكرامه أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك.

فقوله: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُمُ أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْلُغَ الْآيَاتِينَ أَزْوَاجَهُ وَلا يَزِمُهُ أَنْ يَطْلُقَهُنَّ وَلا يَمْتَعَهُنَّ إِنْ اخْتَرْنَ الشُّقَّ الْأَوَّلَ وَلا يَبْقِيَهُنَّ عَلَى زَوْجِيَّتِهِ إِنْ اخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا بِقَرِينَةِ الْمَقَابِلَةِ عَنْ اخْتِيَارِهَا وَتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِمَتَاعَاتِهَا وَالإِقْبَالِ عَلَيْهَا وَالإِعْرَاضِ عَنِ الْآخِرَةِ.

و قوله: فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعُكُنَّ وَأَسِيرُحُكُنَّ سِرًّا جَمِيلاً قَالَ فِي الْكَشَافِ: أَصْلُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَهُ مَنْ فِي الْمَكَانِ الْمَرْتَفِعِ لِمَنْ فِي الْمَكَانِ الْمَسْتَوِطِ ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى اسْتَوَتْ فِي اسْتِعْمَالِهِ الْأَمْكُنَةُ، وَمَعْنَى تَعَالَيْنَ أَقْبَلْنَ بِإِرَادَةِ تَكْنٍ وَاخْتِيَارِ كُنَّ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ وَلا يَرُدُّ نَهْوضَهُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ كَمَا تَقُولُ: أَقْبَلْ يَخَاصِمُنِي وَذَهَبَ يَكَلِمُنِي وَقَامَ يَهْدِدُنِي. انْتَهَى.

و التمتع إعطاؤهن عند التطبيق مالا يتمتعن به التسريح هو التطلق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومه و مشاجره بين الزوجين.

و في الآيه أبحاث فقهيه أوردها المفسرون و الحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصيه خاصه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و لا دليل من جهه لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول في الفقه.

و قوله: وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْمَقَابِلَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» الخ؛ تَقْيِيدُ كِلَا مِنْهُمَا بِخِلَافِ الْآخَرَى وَعَدْمُهَا، فَمَعْنَى الْجُمْلَةِ: وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى ضَيْقِ الْعَيْشِ وَالحَرَمَانِ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كُنَايَةُ عَنْ الْبَقَاءِ فِي زَوْجِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالصَّبْرِ عَلَى ضَيْقِ الْعَيْشِ وَإِلَّا لَمْ يَصِحَّ اشْتِرَاطُ الْإِحْسَانِ فِي الْأَجْرِ الْمَوْعُودِ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

فالمعنى: وإن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجيه النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الصبر على ضيق العيش فإن الله هياً لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكن محسنات فى أعمالك مضافاً الى ارادتك الله و رسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا و الآخرة جميعاً.

قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ الْخ؛ عدل عن مخاطبه النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فيهن الى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زياده التوكيد، و الآية و التى بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله: «فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً» إثباتاً و نفياً.

فقوله: مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ الفاحشه الفعله البالغه فى الشناعه و القبح و هى الكبيره كإيذاء النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و الافتراء و الغيبه و غير ذلك، و المبيئه هى الظاهره.

و قوله: يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ أى حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان و يؤيد هذا المعنى قوله فى جانب الثواب بعد: «نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» فلا يعبا بما قيل إن المراد بمضاعفه العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثه أمثاله بتقريب أن مضاعفه العذاب زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثه أمثاله.

و ختم الآية بقوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» للإشاره الى أنه لا مانع من ذلك من كرامه الزوجيه و نحوها إذ لا كرامه إلا للتعوى و زوجيه النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصيه فلا تزيد إلا بعداً و وبالاً.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ الْخ؛ القنوت الخضوع، و قيل: الطاعه و قيل: لزوم الطاعه مع الخضوع، و الإعتاد التهيئه، و الرزق الكريم مصداقه الجنه.

و المعنى: و من يخضع منكن لله و رسوله أو لزم طاعه الله و رسوله مع الخضوع و يعمل عملاً صالحاً نعطيها أجرها مرتين أى ضعفين و هيأنا لها رزقاً كريماً و هى الجنه.

و الالتفات من الغيبه الى التكلم بالغير في قولها: «نُؤْتِيهَا» و «أَعْتَدْنَا» للإيذان بالقرب و الكرامه،خلاف البعد و الخزي المفهوم من قوله: «يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» .

قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ الآية تنفى مساواتهن لسائر النساء إن اتقين و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي و الأمر متفرعه على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: فلا تخضعن بالقول و قرن و لا تبرجن، الخ؛ و هي خصال مشتركه بين نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و سائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ» ثم تفریع هذه التكاليف المشتركه عليه، يفيد تأكيد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف و تحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء.

و تؤيد بل تدل على تأكيد تكاليفهن مضاعفه جزائهن خيرا و شرا كما دلّت عليها الآية السابقه فإن مضاعفه الجزاء لا تنفك عن تأكيد التكليف.

قوله: ﴿فَلَآ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ بعد ما بين علو منزلتهن و رفعه قدرهن لمكانهن من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و شرط في ذلك التقوى فيبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ نهاهن عن الخضوع في القول و هو ترفيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو الى الريبه و تثير الشهوه فيطمع الذي في قلبه مرض و هو فقدانه قوه الإيمان التي تردعه عن الميل الى الفحشاء.

و قوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أى كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع و العرف الإسلامى و هو القول الذى لا يشير بلحنه الى أزيد من مدلوله معرّى عن الإيحاء الى فساد و ريبه.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ -الى

قوله- وَ أَطَعَنَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ «قَرَنَ» من قرّ يقر إذا ثبت و أصله اقرن حذف إحدى الزاين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن و لزومهن لها، و التبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. و الجاهلية الاولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، و قول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح عليهما السلام ثمان مائه سنه، و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح، و قول آخرين زمان داود و سليمان و قول آخرين أنه زمان ولاده إبراهيم، و قول آخرين إنه زمان الفتره بين عيسى عليه السلام و محمد صلى الله عليه و آله و سلم أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: وَ أَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَ آتَيْنَ الزَّكَاةَ وَ أَطَعَنَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ أمر بامثال الأوامر الدينية و قد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع في قوله: «وَ أَطَعَنَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ» .

و طاعه الله هي امثال تكاليفه الشرعيه و طاعه رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولايه المجعوله له من عند الله كما قال: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» .

قوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً كلمه «إِنَّمَا» تدل على حصر الإراده في إذهاب الرجس و التطهير و كلمه أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله: «عَنْكُمْ» ، ففي الآيه في الحقيقه قصران قصران الإيراده في إذهاب الرجس و التطهير و قصر إذهاب الرجس و التطهير في أهل البيت.

و ليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عَنْكُمْ» و لم يقل: عنكن فيما أن يكون الخطاب لهن و غيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى: «إِنَّ أَوْلَىٰ لَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» أو أهل مسجد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أو أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هم الذين يصدق عليهم عرفا أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل علي أو النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أزواجه، و لعل هذا هو المراد مما نسب

الى عكرمه و عروه إنها فى أزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبى من آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل على.

و على أى حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرد التقوى الدينى بالاجتناب عن النواهى و امتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف اليكم و إنما يريد إذهاب الرجس عنكم و تطهيركم على حد قوله: **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُنِيمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (المائدة ٦)**، و هذا المعنى لا يلائم شيئاً من معانى أهل البيت السابقه لمنافاته البينه للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامه المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

و إن كان المراد بإذهاب الرجس و التطهير التقوى الشديد البالغ و يكون المعنى: أن هذا التشديد فى التكاليف المتوجهه إليكن أزواج النبى و تضعيف الثواب و العقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس و يطهركم و يكون من تعميم الخطاب لهن و لغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغيرهن فإن الغير لا يشار كهن فى تشديد التكليف و تضعيف الثواب و العقاب.

لا- يقال: لم لا- يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجها اليهن مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه صلى الله عليه و آله و سلم مؤيد بعصمه من الله و هى موهبه إلهيه غير مكتسبه بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبه اليه مقدمه أو سببا لحصول التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآيه و لذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجها اليهن مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقط أحد من المفسرين و إنما احتملناه لتصحیح قول من قال: إن الآيه خاصة بأزواج النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و إن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادته مطلقه لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية.

و بهذا الذى تقدم يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآيه نزلت فى النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و على و فاطمه و الحسين عليهم السلام خاصة لا يشاركون فيها غيرهم.

و هى روايات جمّه تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنه على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنه بطرق كثيره عن أم سلمه و عائشه و أبى سعيد الخدرى و سعد و وائله بن الأسقع و أبى الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبى و عبد الله بن جعفر و على و الحسن بن على عليهما السلام فى قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن على و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا عليهم السلام و أم سلمه و أبى ذر و أبى ليلى و أبى الأسود الدؤلى و عمرو بن ميمون الأودى و سعد بن أبى وقاص فى بضع و ثلاثين طريقا.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآيه لعلى و فاطمه و الحسين عليهم السلام و لا ينافى ذلك شمولها لأزواج النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم كما يفيد وقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا: إن كثيرا من هذه الروايات و خاصة ما رويت عن أم سلمه- و فى بيتها نزلت الآيه- تصرح باختصاصها بهم و عدم شمولها لأزواج النبى و سيجىء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب عن شمولها لهن كوقوع الآيه فى سياق خطابهن.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن فى اتصال الآيه بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصه فى نزول الآيه وجدها، و لم يرد حتى فى روايه واحده نزول هذه الآيه فى ضمن آيات نساء النبى و لا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآيه بأزواج النبى كما ينسب الى

عكرمه و عروه، فالآيه لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي و لا متصله بها و إنما وضعت بينها إما بأمر من النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم أو عند التأليف بعد الرحله، و يؤيده أن آيه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» على انسجامها و اتصالها لو قدّر ارتفاع آيه التطهير من بين جملها، فموقع آيه التطهير من آيه «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» كموقع آيه «الْيَوْمَ يَنْسَأ الَّذِينَ كَفَرُوا» من آيه محرمات الأكل من سوره المائده، و قد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب.

و بالبناء على ما تقدم تصير لفظه أهل البيت اسما خاصا في عرف القرآن-بهؤلاء الخمسه و هم النبي و علي و فاطمه و الحسنان عليهم الصلاه و السلام لا يطلق على غيرهم، و لو كان من أقربائه الأقربين و إن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

و الرّجس-بالكسر فالسكون-صفه من الرجاسه و هي القذاره، و القذاره هيئه في الشئ توجب التجنب و التنفر منها، و تكون بحسب ظاهر الشئ كرجاسه الخنزير، قال تعالى:

أَوْ لَحِيمٍ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (الأنعام ١٢٥)، و بحسب باطنه-و هو الرجاسه و القذاره المعنويه-كالشرك و الكفر و أثر العمل السيئ، قال تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَا تَوَّأَوْا وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه ١٢٥)، و قال: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥).

و أيا ما كان فهو إدراك نفساني و أثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ و إذهاب الرجس-و اللام فيه للجنس-إزاله كل هيئه خبيثه في النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنتطب على العصمه الإلهيه التي هي صوره علميه نفسانيه تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سبي العمل.

على أنك عرفت أن إرادته التقوى أو التشديد في التكاليف لا- ثلاثم اختصاص الخطاب في الآيه بأهل البيت، و عرفت أيضا أن إرادته ذلك لا تناسب مقام النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم من العصمه.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمه و يكون المراد بالتطهير في قوله:

«وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً» - وقد أكد بالمصدر - إزاله أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد و العمل، و يكون المراد بالإيراده أيضا غير الإيراده التشريعيه لما عرفت أن الإيراده التشريعيه التي هي توجيه التكليف الى المكلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصصكم بموهبه العصمه بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السيئ عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم و هي العصمه.

قوله تعالى: «وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد و التشديد الذي في الآيات فيكون بمنزله الوصيه بعد الوصيه بامثال ما ووجه اليهن من التكليف، و في قوله: «فِي بُيُوتِكُمْ» تأكيد آخر.

و المعنى: و احفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله و الحكمه و ليكن منكن في بال حتى لا تغفلن و لا تتخطين مما خط لكم من المسير.

و أما قول بعضهم: إن المراد و اشكرن الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن و السنه فبعيد من السياق و خاصه بالنظر الى قوله في ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» .

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ الْخَيْرِ؛ الْإِسْلَامَ لَا يَفْرَقُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ فِي التَّلْبَسِ بِكَرَامَةِ الدِّينِ» و قد أشار سبحانه الى ذلك إجمالا في مثل قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٣/١)»، ثم صرح به في مثل قوله: «أَنْتَىٰ لَأَمْزِجُ عَمَلَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ (آل عمران ١٩٥/١)»، ثم صرح به تفصيلا في هذه الآية.

فقوله: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْمُقَابِلَةَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانَ تَفِيدُ مَغَايِرَتَهُمَا نَوْعًا مِنَ الْمَغَايِرَةِ وَالَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْهُ نَحْوُ مَغَايِرَتَهُمَا قَوْلُهُ تَعَالَى:

قَالَتِ الْمَاعِرَاتُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ - إلى أن قال - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (الحجرات ١٥/)، يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح و الإيمان أمر قلبى. و ثانياً: أن الإيمان الذى هو أمر قلبى اعتقاد و إذعان باطنى بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملى للدين بإتيان عامه التكليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: وَالْقَائِنِينَ وَالْقَائِنَاتِ الْقَنُوتِ عَلَى مَا قِيلَ لَزُومِ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُضُوعِ وَ قَوْلُهُ: «وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ» الصِّدْقُ مُطَابَقُهُ مَا يَخْبُرُ بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ يَظْهَرُ، لِلْوَاقِعِ. فَهَمَّ صَادِقُونَ فِي دَعْوَاهُمْ صَادِقُونَ فِي قَوْلِهِمْ صَادِقُونَ فِي وَعْدِهِمْ.

و قوله: وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ فَهَمَّ مَتَلَبِّسُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَ النَّائِبَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ وَ بِالصَّبْرِ عَنِ الْمُعْصِيَةِ، وَ قَوْلُهُ: «وَالْحَاشِعِينَ وَالْحَاشِعَاتِ» الْخُشُوعُ تَذَلُّلُ بَاطِنِ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الْخُضُوعَ تَذَلُّلُ ظَاهِرِ الْجَوَارِحِ.

و قوله: وَالْمُتَصِّدِّقِينَ وَالْمُتَصِّدِّقَاتِ وَ الصَّدَقَةُ إِتْفَاقُ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مِنْهُ الزَّكَاةُ الْوَاجِبَةُ، وَ قَوْلُهُ: «وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ» بِالصَّوْمِ الْوَاجِبِ وَ الْمُنْدُوبِ، وَ قَوْلُهُ:

«وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ» أَيْ لِفُرُوجِهِنَّ وَ ذَلِكَ بِالتَّجَنُّبِ عَنِ غَيْرِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، وَ قَوْلُهُ: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ» أَيْ اللَّهَ كَثِيرًا حَذْفُ لظهوره و هم الذين يكثر من

ذكر الله بلسانهم و جنانهم و يشمل الصلاة و الحج.

و قوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» التنكير للتعظيم.

بحث روائى:

فى تفسير القمى فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من غزوه خيبر و أصاب كنز آل أبى الحقيق قطن أزواجه: أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عزّ و جل فغضبن من ذلك، و قطن: لعلك ترى أنك إن طلقنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا؟.

فأنف الله عزّ و جل لرسوله فأمره أن يعز لهن فاعتزلهن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى مشربه أم إبراهيم تسعه و عشرين يوماً حتى حضن و طهرن ثم أنزل الله عزّ و جل هذه الآية و هى آية التخيير فقال: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ -الى قوله- أَجْرًا عَظِيمًا فقامت أم سلمه أول من قامت فقالت: قد اخترت الله و رسوله فقمى كلهن فعانقنه و قطن مثل ذلك الحديث.

أقول: و روى ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنه و فيها أن أول من اختارت الله و رسوله منهن عائشه.

و فى الكافى بإسناده عن داود بن سرحان عن أبى عبد الله عليه السلام أن زينب بنت جحش قالت:

يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجا غير و قد كان اعتزل نساءه تسعه و عشرين ليلة فلما قالت زينب الذى قالت بعث الله جبرائيل الى محمد صلى الله عليه و آله و سلم فقال: «قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ» الآيتين كليهما فقلن: بل نختار الله و رسوله و الدار الآخرة.

و فيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبى عبد الله عليه السلام قال: سألته عن رجل خير امرأته فاخترت نفسها بانته؟ قال: لا. إنما هذا شىء كان لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خاصة أمر بذلك ففعل، و لو اخترن أنفسهن لطلقهن و هو قول الله عزّ و جل: قُلْ لِّأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ

الدُّلْيَا وَزِينَتِهَا، فَتَعَالَيْنِ أُمَتُّكَنَّ وَ أَسْرَحَنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا .

و فى الجمع روى الواحدى بالإسناد عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالسا مع حفصه فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بينى وبينك رجلا؟

قالت: نعم.

فأرسل الى عمر فلما أن دخل عليها قال لها: تكلمى، فقالت: يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقا فرفع عمر يده فوجا وجهها ثم رفع يده فوجا وجهها.

فقال له النبى صلى الله عليه وآله وسلم: كف، فقال عمر: يا عدوّه الله النبى لا يقول إلا حقا و الذى بعثه بالحق، لو لا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتى فقام النبى صلى الله عليه وآله وسلم فصعد الى غرفه فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه يتغذى و يتعشى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

و فى الخصال عن الصادق عليه السلام قال: تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس عشره امرأه و دخل بثلاث عشر امرأه منهن، و قبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمره و سنا. و أما الثلاث عشره اللاتى دخل بهن فأولهن خديجه بنت خويلد ثم سوده بنت زمعه ثم أم سلمه و اسمها هند بنت أبى أميه ثم أم عبد الله عائشه بنت أبى بكر ثم حفصه بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رمله بنت أبى سفيان ثم ميمونه بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويريه بنت الحارث ثم صفيه بنت حبي بن أخطب و التى وهبت نفسها للنبي خوله بنت حكيم السلمى.

و كان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه ماريه القبطيه و ريحانه الخندفيه.

و التسع اللاتى قبض عنهن عائشه و حفصه و أم سلمه و زينب بنت جحش و ميمونه بنت الحارث و أم حبيب بنت أبى سفيان و جويريه و سوده و صفيه. و أفضلهن خديجه بنت خويلد ثم أم سلمه ثم ميمونه.

و فى المجمع قوله: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ الْآيَاتِينَ؛ روى محمد بن أبى عمير عن

ابراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم. قال: فغضب وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسنا ضعفين من الأجر و لمسيئنا ضعفين من العذاب.

و في تفسير القمي مسندا عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية «وَلَا تَبْرَجَنَّ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى» قال: أى ستكون جاهليه اخرى.

أقول: و هو استفاده لطيفه.

و في الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمه: ائتينى بزوجهك و ابنه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم كساء فدكيا ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل محمد- و في لفظ آل محمد- فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

قالت ام سلمه: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجزبه من يدي و قال: إنك على خير.

أقول: و رواه في غايه المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن ام سلمه.

و فيه أخرج ابن مردويه عن ام سلمه قالت: نزلت هذه الآية في بيتي: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** و في البيت سبعة جبرئيل و ميكائيل و علي و فاطمه و الحسن و الحسين و أنا على باب البيت. قلت: يا رسول الله أ لست من أهل البيت؟ قال: إنك على خير إنك من أزواج النبي.

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه عن ام سلمه زوج النبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بيتهما على منامه له عليه كساء خيبرى فجاءت فاطمه ببرمه فيها خزيره فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ادعى زوجك و ابنيك حسنا و حسينا فدعتهم فينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**

وَ يُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً .

فأخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بفضله إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وَ أوماً بها الى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وَ خاصتي فأذهب عنهم الرجس وَ طهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرات.

قالت ام سلمه: فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وَ أنا معكم؟ فقال: إنك الى خير مرتين.

أقول: وَ روى الحديث في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمه وَ كذا عن تفسير الثعلبي.

وَ فيه أخرج ابن مردويه وَ الخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أم سلمه أم المؤمنين فنزل جبريل الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بهذه الآية: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** قال: فدعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بحسن وَ حسين وَ فاطمه وَ علي فضمهم اليه وَ نشر عليهم الثوب، وَ الحجاب على أم سلمه مضروب، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وَ طهرهم تطهيراً، قالت أم سلمه: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وَ إنك على خير.

وَ فيه أخرج ابن جرير وَ ابن أبي حاتم وَ الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ: نزلت هذه الآية في خمسة نبيّ وَ في علي وَ فاطمه وَ حسن وَ حسين: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

أقول: وَ رواه أيضاً في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره.

وَ فيه أخرج الترمذي وَ صححه وَ ابن جرير وَ ابن المنذر وَ الحاكم وَ صححه وَ ابن مردويه وَ البيهقي في سننه من طرق عن أم سلمه قالت: في بيتي نزلت: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** وَ في البيت فاطمه وَ علي وَ الحسن وَ الحسين فجللهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ

بكساء كان عليه ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.

و فى غايه المرام عن الحميدى قال:الرابع و الستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخارى و مسلم من مسند عائشه عن مصعب بن شيبه عن صفيه بنت شيبه عن عائشه قالت:خرج النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذات غداه و عليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمه فأدخلها ثم جاء على فأدخله ثم قال:

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا.

أقول:و الحديث مروى عنها بطرق مختلفه.

و فى الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال:لما دخل على بفاطمه جاء النبى صلى الله عليه و آله و سلم أربعين صباحا الى بابها يقول:السلام عليكم أهل البيت و رحمه الله و بركاته الصلاه رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم.

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال:شهدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تسعه أشهر يأتي كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاه فيقول:السلام عليكم و رحمه الله و بركاته أهل البيت: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**.

أقول:و رواه أيضا عن الطبرانى عن أبى الحمراء و لفظه رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يأتي باب على و فاطمه ستة أشهر فيقول: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ الْآيَةَ؛**و أيضا عن ابن جرير و ابن مردويه عن أبى الحمراء و لفظه حفظت من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مره يخرج الى صلاه الغداه إلا أتى الى باب على فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال:الصلاه الصلاه **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ الْآيَةَ**.

و رواه أيضا عن ابن أبى شيبه و أحمد و الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن أنس و لفظه أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كان يمر بباب فاطمه إذا

خرج الى صلاه الفجر و يقول:الصلاه يا أهل البيت الصلاه إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا.

أقول:و الروايات فى هذه المعانى من طرق أهل السنه كثيره و كذا من طرق الشيعة،و من أراد الاطلاع عليها فليراجع غايه المرام للبحرانى و العباقت.

و فى غايه المرام عن الحموينى بإسناده عن يزيد بن حيان قال:دخلنا على زيد بن أرقم فقال:خطبنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقال:ألا- إني تركت فيكم الثقليين أحدهما كتاب الله عزّ و جل من اتبعه كان على هدى و من تركه كان على ضلاله،ثم أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاث مرات.

قلنا:من أهل بيته نساؤه؟قال:لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقه بعده آل على و آل عباس و آل جعفر و آل عقيل.

و فيه أيضا عن مسلم فى صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال:قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:إني تارك فيكم الثقليين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلاله،فقلنا:من أهل بيته نساؤه؟قال:لا- أيم الله إن المرأه تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فترجع الى أهلها و قومها.أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقه بعده.

أقول:فسّر البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى،يقال:بيوتات العرب بمعنى الأنساب،لكن الروايات السابقه عن أم سلمه و غيرها تدفع هذا المعنى و تفسر أهل البيت بعلى و فاطمه و ابنيهما عليهم السلام.

و فى المجمع قال مقاتل بن حيان:لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشه مع زوجها جعفر بن أبى طالب دخلت على نساء رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقالت:هل نزل فينا شىء من القرآن؟ قلن:لا.

فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة و خسار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

و مم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» الخ.

أقول: وفي روايات أخر أن القائله هي أم سلمه.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

اشاره

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدُّورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

قوله تعالى: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** الخ؛ يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع الى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شئون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** .

فقضاؤه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: **«إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا»** حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف في شئون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله.

وقوله: **وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ أَيَّ مَا صَحَّ وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَثْبِتَ لَهُمُ الْإِخْتِيَارَ مِنْ أَمْرِهِمْ** بحيث يختارون ما شاءوا وقوله: **«إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا»** ظرف لنفي الاختيار.

و ضميرا الجمع في قوله: **«لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»** للمؤمن و المؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين و المؤمنات لوقوعهما في حيز النفي و وضع الظاهر موضع المضمرة حيث قيل **«مِنْ أَمْرِهِمْ»** و لم يقل: أن يكون لهم الخيره فيه للدلالة على منشأ توهم الخيره و هو انتساب الأمر اليهم.

و المعنى: ليس لأحد من المؤمنين و المؤمنات إذا قضى الله و رسوله بالتصرف في أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه اليهم و كونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه

غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله.

والآية عامه لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ» الآية؛ حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بزواج زيد وتغييره بأنها كانت زوج ابنة المدعو له بالتبني و سيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِهَذَا الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الَّذِي كَانَ عَبْدًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ حَرَّرَهُ وَاتَّخَذَهُ ابْنًا لَهُ وَكَانَ تَحْتَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ بِنْتِ عَمِّهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَتَى زَيْدُ النَّبِيَّ فَاسْتَشَارَهُ فِي طَلَاقِ زَيْنَبَ فَفَاهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ الطَّلَاقِ ثُمَّ طَلَّقَهَا زَيْدٌ فَتَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلَتْ الْآيَاتُ.

فقوله: «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» أي بالهدايه الى الإيمان و تحببه الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقوله:

«وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» أي بالإحسان اليه و تحريره و تخصيصه بنفسك، وقوله: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ» كناية عن الكف عن تطليقها، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

وقوله: «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ أَى مظهره «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» ذيل الآيات أعنى قوله: «الَّذِينَ يُبْلَغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ خَشِيْتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ لَمْ تَكُنْ خَشِيْتَهُ عَلَى نَفْسِهِ بَلْ كَانَ خَشِيْتَهُ فِي اللَّهِ فَأَخْفَى فِي نَفْسِهِ مَا أَخْفَاهُ اسْتِشْعَارًا مِنْهُ أَنَّهُ لَوْ أَظْهَرَهُ عَابَهُ النَّاسَ وَ طَعَنَ فِيهِ بَعْضٌ مِنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ فَأَثَرُ ذَلِكَ أَثَرًا سَيِّئًا فِي إِيمَانِ الْعَامَةِ، وَ هَذَا الْخَوْفُ - كَمَا تَرَى - لَيْسَ خَوْفًا مَذْمُومًا بَلْ خَوْفٌ فِي اللَّهِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ.

فقوله: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ الظاهر في نوع من العتاب

ردع عن نوع من خشية الله و هي خشيته عن طريق الناس و هدايه الى نوع آخر من خشيته تعالى و أنه كان من الحرى أن يخشى الله دون الناس و لا يخفى ما فى نفسه ما الله مبديه و هذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذى كان تبناه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين فى التزويج بأزواج الأدياء و هو صلى الله عليه و آله و سلم كان يخفيه فى نفسه الى حين مخافه سوء أثره فى الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ -الى قوله- وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ الْآيَه.

فظاهر العتاب الذى يلوح من قوله: «وَ تَخَشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» مسوق لانتصاره و تأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن فى قلوبهم مرض نظير ما تقدم فى قوله: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ (التوبه ٤٣).

و من الدليل على أنه انتصار و تأييد فى صورته العتاب قوله بعد: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا» حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادته النبى صلى الله عليه و آله و سلم و اختياره ثم قوله: «وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» .

فقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا» متفرع على ما تقدم من قوله: «وَ تَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» و قضاء الوطر منها كناية عن الدخول و التمتع، و قوله: «لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» تعليل للتزويج و مصلحه للحكم، و قوله: «وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» مشير الى تحقق الوقوع و تأكيد للحكم.

و من ذلك يظهر أن الذى كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يخفيه فى نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها و حبه الشديد لها و هى بعد مزوجه كما ذكره جمع من المفسرين و اعتذروا عنه بأنها حاله جبلية لا يكاد يسلم منها البشر، فإن فيه أولا- منع أن يكون بحيث لا- يقوى عليه التريه الإلهيه، و ثانيا: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانها و إخفائه فى نفسه فلا مجوز فى الإسلام لذكر حلائل الناس و التشب بهن.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِخًا﴾؛ الفرض هو التعيين و الإسهام يقال: فرض له كذا أى عينه له و أسهمه به، و قيل: هو فى المقام بمعنى الإباحه و التجويز، و الحرج الكلفه و الضيق، و المراد بنفى الحرج نفى سببه و هو المنع عما فرض له.

و المعنى: ما كان على النبى من منع فيما عين الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج فى ذلك.

و قوله: ﴿سَيِّئَةٌ لِلَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولا مطلقا و التقدير سنّ الله ذلك سنّه، و المراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء و الرسل الماضون بقريته قوله بعد: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ الخ.

و قوله: ﴿وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ أى يقدر من عنده لكل ما يلائم حاله و يناسبها، و الأنبياء لم يمنعوا مما قدره الله و أباحه لغيرهم حتى يمنع النبى صلى الله عليه و آله و سلم من بعض ما قدر و أباح.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ الخ؛ الموصول بيان للموصول المتقدم أعنى قوله: ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ .

و الخشية هى تأثر خاص للقلب عن المكروه و ربما ينسب الى السبب الذى يتوقع منه المكروه، يقال: خشيت أن يفعل بى فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بى كذا، و الأنبياء يخشون الله و لا يخشون أحدا غيره لأنه لا مؤثر فى الوجود عندهم إلا الله.

و هذا غير الخوف الذى هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملا- سواء كان معه تأثر قلبى أو لا- فإنه أمر عملى ربما ينسب الى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿فَفَزَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء/٢١)، و قوله فى النبى صلى الله عليه و آله و سلم: ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ (الأنفال/٥٨)، و هذا هو الأصل فى معنى الخوف و الخشية و ربما استعملا

و مما تقدم يظهر أن الخشية منفيه عن الأنبياء عليهم السلام مطلقا و إن كان سياق قوله: «يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ» الخ؛ يُلَوِّحُ إلى أن المنفى هو الخشية في تبليغ الرسالة. على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبه لجميع أعمالهم.

و قوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا أَي محاسبا يحاسب على الصغيره و الكبيره فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَ لَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الخ؛ لا شك في أن الآية مسوقه لدفع اعتراضهم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجا بزواج ابنه فالخطاب في قوله: «مِن رِّجَالِكُمْ» للناس الموجودين في زمن نزول الآية، و المراد بالرجال ما يقابل النساء و الولدان و نفى الابوة نفى تكويني لا تشريعي و لا تتضمن الجملة شيئا من التشريع.

و المعنى: ليس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزواج أحدهم بعده تزوجا منه بزواج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزواج الابن حقيقه و أما تنبيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوة و البنوه و ما جعل أديعاء كم أبناء كم.

و أما القاسم و الطيب و الطاهر (1) و إبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقه لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية و كذا الحسن و الحسين و هما ابنا رسول الله فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

و مما تقدم ظهر أن الآيه لا تقتضى نفى أبوتّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للقاسم و الطيب و الطاهر و إبراهيم و كذا للحسين لما عرفت أنها خاصه بالرجال الموجودين فى زمن النزول على نعت الرجوليه.

و قوله: **وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ** الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع و القالب بمعنى ما يطبع به و ما يقرب به و المراد بكونه خاتم النبيين أن النبوه اختتمت به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فلا نبى بعده.

و قد عرفت فيما مر معنى الرساله و النبوه و أن الرسول هو الذى يحمل رساله من الله الى الناس و النبى هو الذى يحمل نبأ الغيب الذى هو الدين و حقائقه و لازم ذلك أن يرتفع الرساله بارتفاع النبوه فإن الرساله من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرساله.

و من هنا يظهر أن كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسول.

و فى الآيه إيماء الى أن ارتباطه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تعلقه بكم تعلق الرساله و النبوه و أن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** أى ما بينه لكم إنما كان بعلمه (1).

بحث روائى:

فى الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش لزيد بن حارثه فاستكفت منه و قالت: أنا خير منه حسبا و كانت امرأه فيها حده فأنزل الله **«وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لَا لِمُؤْمِنَةٍ** الآية كلها.

أقول: و فى معناها روايات أخر.

و فيه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال: نزلت فى أم كلثوم بنت عقبه بن أبى معيط

ص: ١٣٣

١- ١). الاحزاب ٣٦-٤٠: بحث روائى فى تزويج الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش بأمر الله.

و كانت أول امرأه هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فزوجها زيد بن حارثه فسخطت هي و أخوها و قالت: إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: و الروايتان أشبهه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

و فى العيون فى باب مجلس الرضا عليه السَّلام عند المأمون مع أصحاب الملل فى حديث يجيب فيه عن مسأله على بن الجهم فى عصمه الأنبياء:

قال: و أما محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قول الله عزَّ و جل: وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ عَرَفَ نَبِيَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أسماء أزواجه فى دار الدنيا و أسماء أزواجه فى الآخرة و أنهن أمهات المؤمنين و أحد من سمى له زينب بنت جحش و هى يومئذ تحت زيد بن حارثه فأخفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اسمها فى نفسه و لم يبيده لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال فى امرأه فى بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنين و خشى قول المنافقين.

قال الله عزَّ و جل: وَتَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ يَعْنَى فى نفسك الحديث.

أقول: و روى ما يقرب منه فيه عنه عليه السَّلام فى جواب مسأله المأمون عنه فى عصمه الأنبياء.

و فى المجمع فى قوله تعالى: «وَ تُوخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» قيل: إن الذى أخفاه فى نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه و أن زيدا سيطلقها فلما جاء زيد و قال له: أريد أن أطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك، فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ و روى ذلك عن على بن الحسين عليه السَّلام.

و فى الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخارى و الترمذى و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقى فى سننه عن أنس قال: جاء زيد بن حارثه يشكو زينب الى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: اتق الله و امسك عليك زوجك فنزلت: وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .

قال أنس: فلو كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كاتما شيئاً لكم هذه الآية، فتزوجها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

أقول: و الروايات كثيره فى المقام و إن كان كثير منها لا يخلو من شىء و فى الروايات: ما أولم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على امرأه من نساءه ما أولم على زينب ذبح شاه و أطعم الناس الخبز و اللحم، و فى الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبى بثلاث أن جدها و جد النبى صلى الله عليه و آله و سلم واحد فإنها كانت بنت أميمه بنت عبد المطلب عمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أن الذى زوّجها منه هو الله سبحانه و أن السفير جبرئيل.

و فى المجمع فى قوله تعالى: **وَ لَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ** : و صح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: إنما مثلى فى الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها و حسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها و نظر إليها فقال: ما أحسنها إلا موضع هذه البنة. قال صلى الله عليه و آله و سلم:

فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء، أورده البخارى و مسلم فى صحيحهما.

أقول: و روى هذا المعنى غيرهما كالترمذى و النسائى و أحمد و ابن مردويه عن غير جابر كأبى سعيد و أبى هريره.

و فى الدر المنثور أخرج ابن الأنبارى فى المصاحف عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: كنت أقرئ الحسن و الحسين فمر بى على بن أبى طالب و أنا أقرئهما فقال لى: أقرئهما فقال لى: أقرئهما و خاتم النبيين بفتح التاء.

[سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٤١ الى ٤٨]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٤٥) وَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَ لَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَ الْمُتَنَافِقِينَ وَ دَعْ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا الذِّكْرُ مَا يَقَابِلُ النِّسيَانَ وَهُوَ تَوْجِيهُ الإِدْرَاكِ نَحْوَ الْمَذْكُورِ وَأَمَّا التَّلْفِظُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَهُوَ بَعْضُ مَصَادِيقِ الذِّكْرِ.

قوله تعالى: وَ سَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً التَّسْبِيحُ هُوَ التَّنْزِيهِ وَهُوَ مِثْلُ الذِّكْرِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الْفِظِ وَإِنْ كَانَ التَّلْفِظُ بِمِثْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ بَعْضُ مَصَادِيقِ التَّسْبِيحِ.

والبكره أول النهار والأصيل آخره بعد العصر و تقييد التسبيح بالبكره والأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه و تنزيهه من التغير و التحول و كل نقص طار، و يمكن أن يكون البكره والأصيل معا كناية عن الدوام كالليل و النهار في قوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (حم السجده ٣٨).

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَ مَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ المعنى الجامع للصلاه على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب اليه و لذلك قيل: إن الصلاه من الله الرحمه و من الملائكه الاستغفار و من

الناس الدعاء لكن الذى نسب من الصلاة الى الله سبحانه فى القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصه بالمؤمنين و هى التى تترتب عليها سعادته العقبى و الفلاح المؤيد و لذلك عللّ تصليته عليهم بقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» .

و قد رتب سبحانه فى كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم و على ذكرهم له ذكره لهم فقال:

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ (التوبه ٦٧)، و قال: فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (البقره ١٥٢) و تصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمه فإن ذكروه كثيرا و سبّحوه بكره و أصيلا صلى عليهم كثيرا و غشيهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا يظهر أن قوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْنَا» الخ؛ فى مقام التعليل لقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» و تفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا و بالغ فى إخراجكم من الظلمات الى النور و يستفاد منه أن الظلمات إنما هى ظلمات النسيان و الغفله و النور نور الذكر.

و قوله: وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا وضع الظاهر موضع المضمّر، أعنى قوله:

«بِالْمُؤْمِنِينَ» و لم يقل: و كان بكم رحيمًا، ليدل به على سبب الرحمة و هو وصف الإيمان.

قوله تعالى: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعِدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ظاهر السياق أن «تَحِيَّتُهُمْ» مصدر مضاف الى المفعول أى إنهم يحيون-بالبناء للمفعول-يوم يلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسّلام أى إنهم يوم اللقاء فى أمن و سلام لا- يصيبهم مكروه و لا يمسهم عذاب.

و قوله: وَ أَعِدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا أى و هيا الله لهم ثوابا جزيلا.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا شهادته عليه السّلام على الأعمال أن يتحملها فى هذه النشأه و يؤديها يوم القيامة، و قد تقدم فى قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١١٢)، و غيره من آيات الشهاده

أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شهيد الشهداء.

و كونه مبشرا و نذيرا تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنة و إنذاره الكافرين و العاصين بعذاب الله و النار.
قوله تعالى: **وَ دَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا** دعوته الى الله هي دعوته الناس الى الإيمان بالله وحده، و لازمه الإيمان بدين الله و تقيد الدعوه بإذن الله يجعلها مساوقه للبعثه.

و كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سراجا منيرا هو كونه بحيث يهتدى به الناس الى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء و الضلاله فهو من الاستعاره، و قول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

قوله تعالى: **وَ بَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا**، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه و قد وصف الله عطاءه فقال: **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** (الأنعام ١٦٠)، و قال: **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَعَدْنَا مَزِيدًا** (ق ٣٥)، فبين أنه يعطى من الثواب ما لا يقابل العمل و هو الفضل و لا دليل فى الآية يدل على اختصاصه بالآخره.

قوله تعالى: **وَ لَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَدَفِّقِينَ وَ دَعَّ أَذَاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الْخ**؛ تقدم معنى طاعه الكافرين و المنافقين فى أول السوره.

و قوله: **وَ دَعَّ أَذَاهُمْ** أى اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله: **«وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»** أى لا تستقل بنفسك فى دفع أذاهم بل اجعل الله و كيلا فى ذلك و كفى بالله و كيلا (١).

ص: ١٣٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعْرِوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مَعْنَى عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنَّهُنَّ وَلَا يُحْرَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِذَا هُوَ وَإِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَيْسَ لِمَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّهَ اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَّحًا جَمِيلًا المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، و بالمس الدخول، و بالتمتع إعطاؤهن شيئاً من المال يناسب شأنهن و حالهن و التسريح بالجميل لإطلاقهن من غير خصومه و خشونه.

و المعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح و قبل الدخول فلا عده لهن للطلاق و يجب تمتيعهن بشيء من المال و السراح الجميل.

و الآيه مطلقه تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر و ما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ (البقره ٢٣٧/)، و تبقى حجه فيما لم يفرض لهن فريضه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ

الى آخر الآيه؛ يذكر سبحانه لنبه صلى الله عليه وآله وسلم بالإحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما فى قوله: «أَزْوَاجِكُمُ اللَّاتِي أَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» والمراد بالاجور المهور، والثانى ما فى قوله:

«وَمَا أَفَاءَ مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ» أى من يملكه من الإماء الراجعه اليه من الغنائم و الأنفال، و تقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: «اللَّاتِي أَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» للتوضيح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما فى قوله: «وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ» قيل: يعنى نساء قريش، و الخامس و السادس ما فى قوله: «وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ» قيل: يعنى نساء بنى زهره، و قوله: «اللَّاتِي هَاجَزْنَ مَعَكَ» قال فى المجمع: هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجره فى التحليل.

و السابع ما فى قوله: «وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا» و هى المرأه المسلمه التى بذلت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير مصداق و مهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها، و قوله: «خَالِصَةٌ لِمَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» إيدان بأن هذا الحكم - أى حليه المرأه للرجل ببذل النفس - من خصائصه لا يجرى فى المؤمنين، و قوله بعده: «قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» تقرير لحكم الاختصاص.

و قوله: «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ فِي صَدْرِ الْآيَةِ: «إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ» أو لما فى ذيلها من حكم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآيه بالمغفره و الرحمه.

قوله تعالى: تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ الْخ؛ الإرجاء التأخير و التباعد، و هو كناية عن الرد، و الإيواء: الإشكال فى المكان و هو كناية عن القبول و الضم اليه.

و السياق يدل على أن المراد به أنه صلى الله عليه وآله وسلم على خيره من قبول من وهبت نفسها له أو

و قوله: وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ، الابتغاء هو الطلب أى و من طلبتها من اللاتى عزلتها و لم تقبلها فلا إثم عليك و لا لوم أى يجوز لك أن تضم اليك من عزلتها و رددتها من النساء اللاتى وهبن أنفسهن لك بعد العزل و الرد.

و يمكن أن يكون إشاره الى أن له صلى الله عليه و آله و سلم أن يقسم بين نسائه و أن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن و يقدم من يشاء و يعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل و هو أوفق لقوله بعده: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ - أى أقرب - أَنْ تَقْرَأَ أَعْيُنُهُنَّ - أى يسرن - وَلَا يَخْزَنَ وَيُضْمِنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» و ذلك لسرور المتقدمه بما قسمت له و رجاء المتأخره أن تتقدم بعد.

و قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا أى يعلم مصالح عباده و لا يعاجل فى العقوبه.

و فى الآيه أقوال مختلفه أخر و الذى أوردناه هو الأوفق لوقوعها فى سياق سابقها متصله بها و به وردت الأخبار عن أئمه أهل البيت عليهم السلام كما سيجىء.

قوله تعالى: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ الْخ؛ ظاهر الآيه لو فرضت مستقلة فى نفسها غير متصله بما قبلها تحريم النساء له صلى الله عليه و آله و سلم إلا من خيرهن فاخترن الله و نفى جواز التبدل بهن يؤيد ذلك.

لكن لو فرضت متصله بما قبلها و هو قوله: «إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ» الْخ؛ كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات و هى الأصناف الستة التى تقدمت.

و فى بعض الروايات عن بعض أئمه أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالآيه محرمات النساء المحدوده فى قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ الْآيَه؛ (النساء ٢٣).

فقوله: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ أى من بعد اللاتى اخترن الله و رسوله و هى التسعه على المعنى الأول أو من بعد من عددناه فى قولنا «إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ» على المعنى الثانى أو

من بعد المحللات و هي المحرمات على المعنى الثالث.

وقوله: أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَرْوَاجِ أَى أَنْ تَطْلُقَ بَعْضَهُنَّ وَ تَزُوجَ مَكَانَهَا مِنْ غَيْرِهِنَّ، وَقَوْلُهُ: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» يَعْنِي الْإِمَاءَ وَ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي صَدْرِ آيَةِ: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ».

وَقَوْلُهُ: «وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا» مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ وَ فِيهِ تَحْذِيرٌ عَنِ الْمَخَالَفَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - مِنَ الْحَقِّ بَيَانٌ لِأَدَبِ الدَّخُولِ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، وَقَوْلُهُ: «إِلَّا - أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ» اسْتِثْنَاءٌ مِنَ النَّهْيِ، وَقَوْلُهُ: «إِلَى طَعَامٍ» مُتَعَلِّقٌ بِالْإِذْنِ، وَقَوْلُهُ: «غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَاءً» أَى غَيْرِ مُنْتَظَرِينَ لِرُودِ إِنْءِ الطَّعَامِ بِأَنْ تَدْخُلُوا مِنْ قَبْلِ فَتَطِيلُوا الْمَكْثَ فِي انْتِظَارِ الطَّعَامِ وَ يَبِينُهُ قَوْلُهُ: «وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ - أَى أَكَلْتُمْ - فَانْتَشِرُوا»، وَقَوْلُهُ: «وَ لَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ» عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: «غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَاءً» وَ هُوَ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ، أَى غَيْرِ مَا كُنْتُمْ فِي حَالِ انْتِظَارِ الْإِنْءِ قَبْلَ الطَّعَامِ وَ لَا فِي حَالِ الْاسْتِثْنَاءِ لِحَدِيثِ بَعْدَ الطَّعَامِ.

وَقَوْلُهُ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ أَى لَا - تَمَكَّنُوا كَذَلِكَ لِأَنَّ مَكْثَكُمْ ذَلِكَ كَانَ يَتَأَذَى مِنْهُ النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ أَنْ يَسْأَلَ خُرُوجَ وَقَوْلُهُ: «وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ» أَى مِنْ بَيَانِ الْحَقِّ لَكُمْ وَ هُوَ ذِكْرُ تَأْذِيهِ وَ التَّأْذِيبِ بِالْأَدَبِ اللَّاتِقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ، ضَمِيرٌ «هِنَّ» لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ سَوَّالُهُنَّ مَتَاعًا كِنَايَةٌ عَنِ تَكْلِيمِهِنَّ لِحَاجَةِ أَى إِذَا مَسَّتْ الْحَاجَةُ إِلَى تَكْلِيمِكُمْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ فَكَلِمَتُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَقَوْلُهُ: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ» بَيَانٌ لِمَصْلَحَةِ الْحَكْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاجَهُ

فى صلاة المؤمنىن له اتباعا لله سبحانه و ملائكته و تأكيدا للنهى الآتى.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن طريق صلاة المؤمنىن أن يسألوا الله تعالى أن يصلى عليه و آله.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى و كل ما فيه و صمه النقص و الهوان فذكره مع الرسول و تشريكه فى إيدائه تشريف للرسول و إشاره الى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضا بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

و قد أوعدهم باللعن فى الدنيا و الآخرة و اللعن هو الإبعاد من الرحمة و الرحمة الخاصه بالمؤمنىن هى الهدايه الى الاعتقاد الحق و حقيقه الإيمان، و يتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة فى الدنيا تحريمه عليه جزاء لعمله فيرجع الى طبع القلوب كما قال: لَعَنَاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً (المائدة ١٣)، و قال: وَ لَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (النساء ٤٦)، و قال: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (سوره محمد / ٢٣).

و أما اللعن فى الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها و قد قال تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (المطففين ١٥).

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم -أى فى الآخرة- عذابا مهينا و وصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم فى الدنيا إهانته الله و رسوله فقبلوا فى الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا تقييد إيدائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيدائهم بما اكتسبوا كما فى القصاص و الحد و التعزير لا إثم فيه.

و أما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا و من دون استحقاق فيعدّه سبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبين، و البهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، و وجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذى إنما يؤديه لسبب عنده يعدّه جرماً له يقول: لم قال كذا؟ لم فعل كذا؟ و ليس بجرم فيبيته عند الإيذاء بنسبه الجرم اليه مواجهه و ليس بجرم.

و كونه إثماً مبيناً لأن الافتراء و البهتان مما يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجه الى ورود النهى عنهما شرعاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِ الْخِ؛ الْجَلَابِيبُ جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها و وجهها.

و قوله: يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِ أَي يسترن بها فلا تظهر جيوبهن و صدورهن للناظرين.

و قوله: ذَلِكْ أَذْنِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ أَي ستر جميع البدن أقرب الى أن يعرفن أنهم أهل الستر و الصلاح فلا يؤذين أي لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

و قيل: المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهم مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهم إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن و الأول أقرب.

قوله تعالى: لئن لم ينته المنافقون و الذين في قلوبهم مرض و المرجفون في المدينة لنعريتك بهم الخ؛ الانتهاء عن الشيء الامتناع و الكف عنه، و الإرجاف إشاعه الباطل للاعتماد به و إلقاء الاضطراب بسببه، و الإغراء بالفعل التحريض عليه.

و المعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون و الذين في قلوبهم مرض عن الإفساد و الذين يشيعون الأخبار الكاذبه في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنك عليهم ثم لا

يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زماناً قليلاً و هو ما بين صدور الأمر و فعلية إجرائه.

قوله تعالى: **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا** - الثقف إدراك الشيء و الظفر به، و الجملة حال من المنافقين و من عطف عليهم أى حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا و بولغ في قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالى: **سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَ لَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** - السنة هي الطريقة المعمولة التي تجرى بطبعها غالباً أو دائماً.

يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفي و القتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا و طغوا في ذلك أخذناهم كذلك و لم تجد لسنة الله تبديلاً فتجربى فيكم كما جرت في الامم من قبلكم (١).

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

يَسِيْرَتِكَ الدَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيْبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيْرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيْرًا (٦٥) يَوْمَ تَقَلَّبَ وَجُوْهُهُمْ فِي الدَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيْلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيْرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيْدًا (٧٠) يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُوْلَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيْمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَسْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يُتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيْمًا (٧٣)

ص: ١٤٨

١ - ١). الاحزاب ٤٩-٦٢: بحث روائي في الزواج و الطلاق؛ زوجات النبي صلى الله عليه و آله و سلم؛ معنى صلاه الله و صلاه الملائكة و صلاه المؤمن على رسول الله.

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنما كانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها و أنها قريبه أو بعيده كما يومى اليه التعبير عنها بالساعه فامر أن يجيبهم بقصر العلم بها فى الله سبحانه و على ذلك جرت الحال كلما ذكرت فى القرآن.

و قوله: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا زياده فى الإبهام و ليعلموا أن

ص: ١٤٩

النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مثل غيره فى عدم العلم بها و ليس من الستر الذى أسره اليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا لعن الكفار إبعادهم من الرحمه، و الإعداد التهيئه، و السعير النار التى أشعلت فالتهبت، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا الفرق بين الولى و النصير أن الولى يلى بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل، و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولى يتولى الأمر كله و النصير يتصدى بعضه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فى النار تحولها لحال بعد حال فتصفر و تسودّ و تكون كالحه أو انتقالها من جهه الى جهه لتكون أبلغ فى مس العذاب كما يفعل باللحم المشوى.

و قولهم: «يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَ» كلام منهم على وجه التחסر و التمنى.

قوله تعالى: وَ قَالُوا رَبَّنَا إِذَا أُطَعْنَا سَادَتنَا وَ كُبرَاءَنَا فَأَضْمُونَا السَّبِيلَا الساده جمع سيد و هو-على ما فى المجمع-المالك المعظم الذى يملك تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأكثر، و الكبراء جمع كبير و لعل المراد به الكبير سنا فالعامه تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسنهم.

قوله تعالى: رَبَّنَا آتِنِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْعَنُهمْ لعنًا كبيرًا الضعفان المثلان و إنما سألوها لهم ضعفى العذاب لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم، و لذلك أيضا سألوها لهم اللعن الكبير.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً نهى عن أن يكونوا كبعض بنى إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل و إن كان منها عنه بل قوله: «فَبَرَّأَهُ اللَّهُ» يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمه و الافتراء المحوج فى

و لعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم و سيوافيك.

و أوجه ما قيل في إيدائهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أنه إشاره الى قصه زيد و زينب، و إن يكن كذلك فمن إيدائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحه قدسه.

و قوله: وَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً أَى ذا جاه و منزله و الجملة مضافا الى اشتمالها على التبرئه إجمالاً تعلق تبرئته تعالى له و للآيه و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهيه عن إيداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً، السديد من السداد و هو الإصابه و الرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقه الواقع و عدم كونه لغوا أو ذا فائده غير مشروع كالتميمه و غير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً رتب على ملازمه القول السديد إصلاح الأعمال و مغفره الذنوب و ذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث و الكلام الذى يترتب عليه فساد، و برسوخ هذه الصفه فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء و المنكر و اللغو فى الفعل و عند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره فى موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشيء من ذلك و كفى بالندم توبه.

و يحفظه الله فيما بقى من عمره عن اقتحام المهلكات و إن رام شيئاً من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى: إِنَّ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء / ٣١)، فملازمه القول السديد تسوق الإنسان الى صلاح الأعمال و مغفره الذنوب بإذن الله.

وقوله: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة و الاجتناب عن جميع المناهى بترتيب الفوز العظيم على طاعه الله و رسوله.

و بذلك تختتم السوره فى معناها فى الحقيقه لأن طاعه الله و رسوله هى الكلمه الجامعه بين جميع الأحكام السابقه،من واجبات و محرمات و الآياتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآيه.

قوله تعالى: إِذَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا- الى قوله- غَفُورًا رَحِيمًا الأمانه-أيا ما كانت-شئء يودع عند الغير ليحفظ عليه ثم يرده الى من أودعه،فهذه الأمانه المذكوره فى الآيه شئء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و استقامته ثم يرده اليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله: «لِيَعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ» الخ؛أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرك و الإيمان،فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم الى منافق و مشرك و مؤمن.

فهو لا محاله أمر مرتبط بالدين الحق الذى يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرك و الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهاده على توحده تعالى،أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به،أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الامور.

و ليست هى الأول أعنى التوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرها من شئء توحده تعالى و تسبح بحمده،و قد قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٤٤/١)،و الآيه تصرّح بإبائها عنه.

و ليست هى الثانى أعنى الدين الحق بتفاصيله فإن الآيه تصرّح بحمل الانسان كائنا من

كان من مؤمن وغيره له و من البين أن أكثر من لا- يؤمن لا- يحمله و لا- علم له به، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرها ناطقه بالتوحيد فعلا متلبسه به.

و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الدينيه نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادته و لا شقاء و إنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة الى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهيه.

فالمراد بالأمانه الولاية الإلهيه و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسه إليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجود استعدادها و صلاحية التلبس بها و عدمه، و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآيه فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمه و الشده و القوه فاقده لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشفاقهن منها.

لكن الانسان الظلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانه و عدمه بالخيانة الى منافق و مشرك و مؤمن بخلاف السماوات و الأرض و الجبال فما منها إلا مؤمن مطيع.

فان قلت: ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحملة لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حملة و إنما حملة على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الامور فما تحميلة الأمانه باستدعائه لها ظلما و جهلا إلا كتقليد مجنون و لايه عامه يأبى قبولها

العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامه فكره.

قلت:الظلم و الجهل فى الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حملة الأمانه و الولاية الإلهيه فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال:جبل ظالم أو جاهل لعدم صحه اتصافه بالعدل و العلم و كذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحه اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الانسان.

و الأمانه المذكوره فى الآيه و هى الولاية الإلهيه و كمال صفه العبوديه إنما تتحصل بالعلم بالله و العمل الصالح الذى هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعنى العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الانسان فى حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانه الإلهيه فافهم ذلك.

فمعنى الآيتين (1) ينظر بوجه معنى قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (التين ١٦).

فقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى الْوَالِيَةِ الْإِلَهِيَةِ وَالْإِسْتِكْمَالَ بِحَقَائِقِ الدِّينِ الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلًا وَعَرْضُهَا هُوَ اعْتِبَارُهَا مَقْيِسَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

وقوله: عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ أَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَهَا أَعْظَمَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ: لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (المؤمن ٥٧)، وقوله: «فَأَبَيْنَا أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا» إِبَاؤُهَا عَنْ حَمْلِهَا وَإِشْفَاقُهَا مِنْهَا عدم اشتمالها على صلاحية التلبس و تجايفها عن قبولها و فى التعبير بالحمل إيماء الى أنها ثقيله ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

ص: ١٥٤

(١ - ١). فالآيه الاولى تحاذى الاولى و الثانية تحاذى الثانية و الثالثة.

وقوله: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ أَى اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» أَى ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبه و الهلاك الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما يفاض عليه من ذلك و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل الى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول و صفان من الظلم و الجهل معناهما من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا: فرس شמוש و دابه جموح و ماء طهور أى من شأنها ذلك كما قاله الرازى أو معناهما المبالغه فى الظلم و الجهل كما ذكر غيره، و المعنى مستقيم كيفما كانا.

وقوله: لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ اللَّامِ لِلْغَايَةِ أَى كانت عاقبه هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر فى الأغلب بالصلاح و الأمانة و هو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانة لها و لعل اعتبار و هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات فى الآيه على المشركين و المشركات.

وقوله: وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا عطف على «لِيُعَذِّبَ» أَى و كان عاقبه ذلك أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات، و التوبه من الله هى رجوعه الى عبده بالرحمه فيرجع الى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمه و يتولى أمره و هو ولى المؤمنين فيهديه اليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحيه و الإباء هو فقدته و العرض هو اعتبار القياس فيجرى فيه حينئذ جميع ما تقدم فى بيان الانطباق على الآيه.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمه لحصول الولايه الإلهيه و تحقق صفه العبوديه الكامله فهى المعروضه بالحقيقه و المطلوبه لنفسها.

□
و الالتفات فى قوله: «لِيَعْبُدَ اللَّهُ» من التكلم الى الغيبه و الإتيان باسم الجلاله للدلاله على أن عواقب الامور الى الله سبحانه لأنه الله.

□
و وضع الظاهر موضع المضممر فى قوله: «وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ» للاشعار بكمال العنايه فى حقهم و الاهتمام بأمرهم.

ص: ١٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلْجَأُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَ رَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ لَا أَضِغْرُ مِنْ
ذَلِكَ وَ لَا أَكْبْرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَ الَّذِينَ سَعَوْا
فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥) وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَ يَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْبِكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧)
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا
خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

تتكلم السوره حول الاصول الثلاثه أعنى الوجدانيه و النبوه و البعث فتذكرها و تذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها و الشبهه التى ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمه و موعظه و مجادله حسنه و تهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره فى مفتتح الكلام ثم تعود اليه عوده بعد عوده الى مختتمه.

و هى مكيه بشهاده مقاصد آياتها على ذلك.

قوله تعالى: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْخ؛** المطلوب بيان البعث و الجزاء بيانا لا يعتريه شك بالإشاره الى الحججه التى ينقطع بها الخصم و الأساس الذى يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شىء من كل جهه حتى يصح له أى تصرف أراد فيها من إبداء و رزق و إماته و إحياء بالإعاده و جزاء، و ثانيهما كمال

علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علما لا يطرأ عليه عزوب و زوال حتى يعيد كل من أراد و يجزيه على ما علم من أعماله خيرا أو شرا.

وقد أشير الى أولى الأمرين فى الآيه الاولى التى نحن فيها و الى الثانية فى الآيه الثانية و بذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما فى الآيه الثالثة و الرابعه.

فقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شىء بحيث له أن يتصرف فى كل شىء بما شاء و أراد.

وقوله: وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ تَخْيِصُ الحمد بالآخره لما أن الجملة الاولى تتضمن الحمد فى الدنيا فإن النظام المشهود فى السماوات و الأرض نظام دنيوى كما يشهد به قوله تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ (إبراهيم ٤٨).

وقوله: وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ختم الآيه بالاسمين الكريمين للدلاله على أن تصرفه فى نظام الدنيا ثم تعقبه بنظام الآخره مبنى على الحكمة و الخبره فبحكمته عقب الدنيا بالآخره و إلا- لغت الخلقه و بطلت و لم يتميز المحسن من المسىء كما قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْعَلِيمِ- الى أن قال- أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨)، و بخبرته يحشرهم و لا يغادر منهم أحدا و يجزى كل نفس بما كسبت.

و الخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذه من خبره و هى العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم.

قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا الْوَلُوجُ مقابل الخروج و العروج مقابل النزول و كأن العلم بالولوج و الخروج و النزول و العروج كناية عن علمه بحركه كل متحرك و فعله و اختتام الآيه بقوله: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ» كأن فيه إشاره الى أن له رحمه ثابتة و مغفره ستصيب قوما

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ الْخَبِيرِ؛ يذكر إنكارهم لإتيان الساعة و هي يوم القيامة و هم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه و علمه بكل شيء و لا مورد للارتباب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها و لذلك أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يجيب عن قولهم بقوله: «قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ» أي الساعة.

و لما كان السبب العمده في إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدل صورها تبديلا بعد تبدل بحيث لا- خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تمييز بعضها من بعض أشار الى دفع ذلك بقوله: «عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ» أي لا يفوت «عن علمه مِتْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ» .

و قوله: وَلَا أَصِغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ تعميم لعلمه لكل شيء و فيه مع ذلك إشاره الى أن للأشياء كائنه ما كانت ثبوتا في كتاب مبین لا تتغير و لا تتبدل و إن زالت رسومها عن صفحه الكون و قد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبین في سورة الأنعام و غيرها.

قوله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ اللام في «لِيَجْزِيَ» للتعليل و هو متعلق بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ» و في قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» نوع محاذاه لقوله السابق: «وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ» .

و في الآيه بيان أحد السببين لقيام الساعة و هو أن يجزي الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة بما فيها و السبب الاخير ما يشير اليه قوله: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ» الخ.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أَلَيْمُ السَّعَى الْجَدُّ فِي الْمَشَى وَالْمَعَاظِرُ الْمَبَالِغَةُ فِي الْإِعْجَازِ وَقِيلَ: الْمَسَابِقَةُ وَالْكَلَامُ مَبْنِي عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ بِالْكُنْيَةِ كَأَنَّ الْآيَاتِ مَسَافَهُ يَسِيرُونَ فِيهَا سِيرًا حَثِيثًا لِيَعْجِزُوا اللَّهَ وَيَسْبِقُوهُ وَالرَّجْزُ كَالرَّجْسِ الْقَذْرُ وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ الْعَمَلُ السَّيِّئُ فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى تَبَدُّلِ الْعَمَلِ عَذَابًا أَلِيمًا عَلَيْهِمْ أَوْ سَبَابًا لِعَذَابِهِمْ، وَقِيلَ: الرَّجْزُ هُوَ سَيِّئُ الْعَذَابِ.

وَفِي الْآيَةِ تَعْرِيفٌ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ يَصْرَوْنَ عَلَى انْكَارِ الْبَعْثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ الْمَوْصُولُ الْأَوَّلُ فَاعِلٌ يَرَى وَالْمَوْصُولُ الثَّانِي مَفْعُولُهُ الْأَوَّلُ وَالْحَقُّ مَفْعُولُهُ الثَّانِي وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، وَبِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْهِ الْقُرْآنَ النَّازِلَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وَجَمَلُهُ «وَيَرَى» الْخ؛ اسْتِثْنَاءٌ مَتَعَرِّضٌ لِقَوْلِهِ السَّابِقِ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا» أَوْ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ كَفَرُوا، وَالْمَعْنَى: أَوْلَيْتُكَ يَقُولُونَ: لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ وَنُكْرُونَهُ جَهْلًا، وَالْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ يَرُونَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ النَّازِلَ إِلَيْكَ الْمَخْبِرُ بِأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ هِيَ الْحَقُّ.

وَقَوْلُهُ: «وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ مَعْطُوفٌ عَلَى الْحَقِّ أَيْ وَيُرُونَ الْقُرْآنَ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مِنْهُ هُوَ عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُ عَلَى مَا يَرِيدُ مَحْمُودٌ يَثْنَى عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ مَعَ عِزَّتِهِ إِلَّا الْجَمِيلَ وَهُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَفِي التَّوْصِيفِ بِالْعَزِيزِ الْحَمِيدِ مَقَابَلَةٌ لِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ فِي قَوْلِهِ: «الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» كَلَامٌ مِنْهُمْ وَارِدٌ مَوْجُودٌ فِي الْإِسْتِهْزَاءِ يَعْرِفُونَ فِيهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْقَوْلِ بِالْمَعَادِ.

وَالْتَمْزِيقُ التَّقْطِيعُ وَالتَّفْرِيقُ، وَكُونُهُمْ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ اسْتِقْرَارُهُمْ فِيهِ أَيْ تَجْدِيدُ خَلْقَتِهِمْ بِأَحْيَائِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَوَجُودُهُمْ ثَانِيًا بَعْدَ عَدَمِهِمْ، وَقَوْلُهُ: «إِذَا مَزَقْتُمْ» ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ».

و المعنى: وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإنذاره إياهم بالبعث و الجزاء: هل ندلكم على رجل و المراد به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرون فى خلق جديد و يتجدد لكم الوجود إذا فُرِّقَت أبدانكم كل التفريق و قطعت بحيث لا يتميز شىء منها من شىء.

قوله تعالى: أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ الْخ؛ الاستفهام للتعجب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا- لتلبس الأمر على الناس و إضلالهم لينال بعض ما عندهم و إلا فكيف يتلبس فيه الأمر على عاقل، و لهذا رددوا الأمر بين الافتراء و الجنه فى الاستفهام و المعنى: أ هو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

و قوله: يَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ رد لقولهم و إضراب عن التردد الذى أتوا به مستفهمين، و محصله أن ذلك ليس افتراء على الله و لا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون فى عذاب سيظهر لهم و قد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا فى ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق و يدعوا به.

و وضع الموصول موضع الضمير فى قوله: «بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» للدلالة على أن عله وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب و الضلال عدم إيمانهم بالآخرة.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ نَسْأُ نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ الْخ؛ وعظ و إنذار لهم باستعظام ما اجترعوا عليه من تكذيب آيات الله و الاستهزاء برسوله فالمراد بقوله:

«مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ» إحاطه السماء و الأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلمهم و أرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

و قوله: إِنَّ نَسْأُ نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ

أى إذ أحاط بهم الأرض و السماء و هما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعه من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، أى فيما ذكر من إحاطه السماء و الأرض و كونهما مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآيه لكل عبد منيب، راجع الى ربه بالطاعة، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الامور و لا يجترءون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابه الى ربهم و رجوعا الى طاعته.

[سوره سبا (٣٤): الآيات ١٠ الى ٢١]

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلْنَا لَهُ الأَحْدِيدَ (١٠) أَنْ إِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ إِعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوًّا شَهْرًا وَ رَوْاحُهَا شَهْرًا وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَ مِنَ الجِنَّ مَنْ يَعمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مِنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقُهُ مِنَ العَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سُكْرًا وَ قَلِيلًا مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرِ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ العَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ (١٤) لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَ رَبُّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم سَيْلَ العَرَمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكُفُورَ (١٧) وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَ قَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَفْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِآخِرِهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآتَيْنَاهُ**

ص: ١٦٤

الْحَدِيدَ الْفُضْلَ الْعَطِيَّةِ وَ التَّأْوِيبَ التَّرْجِيحَ مِنَ الْأَوْبِ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ وَ الْمَرَادُ بِهِ تَرْجِيحَ الصَّوْتِ بِالتَّسْيِيحِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِيهِ فِي مَوْضِعِ آخِرٍ: إِنَّا سَيَّخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (ص ١٩). وَ الطَّيْرَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ الْجِبَالِ وَ مِنْهُ يَظْهَرُ فِسَادُ قَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَنَّ الْأَوْبَ بِمَعْنَى السَّيْرِ وَ أَنَّ الْجِبَالَ كَانَتْ تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثَمَا سَارَ.

وَ قَوْلُهُ: يَا جِبَالَ أَوْبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ بَيَانٌ لِلْفُضْلِ الَّذِي أُوتِيَ دَاوُدَ وَ قَدْ وَضَعَ فِيهِ الْخَطَابَ الَّذِي خَوَّطَتْ بِهِ الْجِبَالَ وَ الطَّيْرَ فَسَخَرْتَا بِهِ مَوْضِعَ نَفْسِ التَّسْخِيرِ الَّذِي هُوَ الْعَطِيَّةُ وَ هُوَ مِنْ قَبِيلِ وَضَعِ السَّبَبِ مَوْضِعَ الْمَسَبِّبِ وَ الْمَعْنَى: سَخَرْنَا الْجِبَالَ لَهُ تَأْوِيبَ مَعَهُ وَ الطَّيْرَ، وَ هَذَا هُوَ الْمَتَحَصَّلُ مِنْ تَسْخِيرِ الْجِبَالِ وَ الطَّيْرِ لَهُ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: إِنَّا سَيَّخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ (ص ١٩).

وَ قَوْلُهُ: وَ أَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَى وَ جَعَلْنَاهُ لِنَا لَهُ عَلَى مَا بِهِ مِنَ الصَّلَابَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَنْ أَعْمَلُ سَابِغَاتٍ وَ قَدَّرُ فِي السَّرْدِ الْخ؛ السَابِغَاتُ جَمْعُ سَابِغَةٍ وَ هِيَ الدَّرْعُ الْوَاسِعَةُ، وَ السَّرْدُ نَسِجُ الدَّرْعِ، وَ تَقْدِيرُهُ الْاِقْتِصَادُ فِيهِ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حَلْقُهُ أَى أَعْمَلُ دَرُوعًا وَاسِعَةً وَ اجْعَلُهَا مَتَنَاسِبَةَ الْحَلْقِ، وَ جَمَلُهُ «أَنْ أَعْمَلُ» الْخ؛ نَوْعٌ تَفْسِيرٌ لِإِلَانَةِ الْحَدِيدِ لَهُ.

وَ قَوْلُهُ: وَ أَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ مَعْنَى الْجَمَلَةِ فِي نَفْسِهَا ظَاهِرٌ وَ هِيَ لَوْقُوعُهَا فِي سِيَاقِ بَيَانِ إِتْيَاءِ الْفُضْلِ وَ عَدِّ النِّعَمِ تَفْيِيدُ مَعْنَى الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ قَلْنَا اشْكُرِ النِّعَمَ أَنْتَ وَ قَوْمُكَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ أَى وَ سَخَرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ مَسِيرَ غَدُوِّ تِلْكَ الرِّيحِ - وَ هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ إِلَى الظَّهْرِ - مَسِيرَ شَهْرٍ وَ رَوَاحَ تِلْكَ الرِّيحِ - وَ هُوَ مِنَ الظَّهْرِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ - مَسِيرَ شَهْرٍ أَى إِنَّهَا تَسِيرُ فِي يَوْمِ مَسِيرِ شَهْرَيْنِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ الْإِسَالَةَ إِفْعَالٌ مِنَ السَّيْلَانِ بِمَعْنَى الْجَرِيَانِ وَ الْقَطْرِ

النحاس أى و أذنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

قوله: وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، أى و جمع من الجن -بدليل قوله بعد «يَعْمَلُونَ لَهُ»- يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له «وَمَنْ يَزِغْ» أى ينحرف «عَنْ أَمْرِنَا» و لم يطع سليمان «نُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ» ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار فى الدنيا دون الآخرة، و فى لفظ الآيه دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ الخ؛ المحارِب جمع محراب و هو مكان إقامة الصلاة و العباده، و التماثيل جمع تماثيل و هى الصوره المجسمه من الشىء و الجفان جمع جفنه و هى صحفه الطعام، و الجوابى جمع جابيه الحوض الذى يجبى أى يجمع فيه الماء، و القدور جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات فى أمكنتها لا يزلن عنها لعظمتها.

و قوله: إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا خطاب لسليمان و سائر من معه من آل داود أن يعملوا و يعبدوا الله شكرا له، و قوله: «وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ» أى الشاكر لله شكرا بعد شكر و الجملة إما فى مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين فى هذا المقام قليلون و هم الأوحيدون من الناس، و إما فى مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَىٰ بِنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ المراد بدابه الأرض الأرضه على ما وردت به الروايات و المنسأه العصا و قوله: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» الخروور السقوط على الأرض.

و استفاد من السياق أنه عليه السلام لما قبض كان متكئا على عصاه فبقى على تلك الحال قائما

متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس و لا جن فيبعث الله عز و جل أرضه فأخذت في أكل منساته حتى إذا أكلت انكسرت العصا و سقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموته و تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم و ما لبثوا هذا المقدار من الزمان -و هو من حين قبضه الى خروجه- فى العذاب المهين المذل لهم.

قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لِسَيِّدٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَ شِمَالٍ الخ؛ سبأ العرب العاربه باليمن سموا- كما قيل -باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و قوله: «عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ» أى عن يمين مسكنهم و شماله.

و قوله: كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ أمر بالأكل من جنتين و هو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته و رزقه، و قوله: «بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ» أى بلده ملائمه صالحه للمقام و رب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: فَمَا عَرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَ يَدَّلْنَاَهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ العرم المسناه التى تحبس الماء، و قيل: المطر الشديد و قيل غير ذلك، و الاكل بضمتين كل ثمره مأكوله، و الخمط -على ما قيل- كل نبت أخذ طعما من المراره، و الأثل الطرفاء و قيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمره له، و السدر معروف، و الأثل و شىء معطوف على «أَكُلٍ» لا على خمط.

و المعنى: فأعرضوا أى قوم سبأ عن الشكر الذى أمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم و ذهب بجنتيهم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى ثمره مره و ذواتى طرفاء و شىء قليل من السدر.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ «ذَٰلِكَ» إشارة الى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنتين و محله النصب مفعولا ثانيا لجزيانهم و الفرق بين الجزاء و المجازاه -كما قيل- أن المجازاه لا تستعمل إلا فى الشر و الجزاء أعم.

و المعنى: جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم و إعراضهم عن الشكر- أو فى مقابله ذلك- و لا نجازى بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً لِّلْخَبِثَاتِ لِيَأْتِيَهُمْ وَالْمُرَادُ بِالْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا الْقُرَى الشَّامِيَّةَ، وَ الْمُرَادُ بِكُونَ الْقُرَى ظَاهِرَهُ كُونَهَا مُتَقَارِبَهُ يَرَى بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

و قوله: وَ قَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ أَى جَعَلْنَا السَّيْرَ فِيهَا عَلَى نَسَبِهِ مُقَدَّرَهُ مُتَنَاسِبَهُ غَيْرَ مُخْتَلَفِهِ فَالْنَسَبُ بَيْنَ وَاحِدِهِ مِنْهَا وَ مَا يَلِيهَا كَالنَّسَبِ بَيْنَ مَا يَلِيهَا وَ مَا يَلِيهِ، وَ قَوْلُهُ: «سَيَّرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّاماً آمِنِينَ» عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَى وَ قَلْنَا: سَيَّرُوا فِي هَذِهِ الْقُرَى عَلَى أَمْنٍ إِنْ شِئْتُمْ لِيَالِي وَ إِنْ شِئْتُمْ أَيَّاماً، وَ الْمُرَادُ قَرَّرْنَا فِيهَا الْأَمْنَ يَسِيرُونَ فِيهَا مَتَى مَا شَاءُوا مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ وَ قَلْقٍ.

قوله تعالى: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ الْخَبِثَاتِ أَى أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْعَمْنَا مِنْ وَفُورِ الْفَوَاكِهَةِ وَ قَرَبِ الْمَنَازِلِ وَ أَمْنِ الطَّرِيقِ وَ سَهُولَةِ السَّيْرِ وَ رَغْدِ الْعَيْشِ فَمَلُوا ذَلِكَ وَ سَأَمُوهُ وَ قَالُوا: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا أَى اجْعَلْ أَسْفَارِنَا ذَوَاتِ مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ نَرْكَبُ فِيهَا الرُّوَاحِلَ وَ نَقْطَعُ الْمَفَاوِزَ وَ الْبُؤَادِي وَ هَذَا بَغْيٌ مِنْهُمْ وَ كُفْرَانٌ كَمَا طَلَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الثُّومَ وَ الْبَصَلَ مَكَانَ الْمَنِّ وَ السَّلْوَى.

و بالجمله أتم الله نعمه عليهم فى السفر بقرب المنازل و أمن الطرق و وفور النعمة كما أتم نعمه عليهم فى الحضر و أراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه فى السفر كما كفروا بها فى الحضر، فأسرع الله فى إسعاف ما اقترحوه فخرَّب بلادهم و فرَّق جمعهم و شتت شملهم.

فقوله: فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا اقترح ضمنى لتخريب بلادهم، و قوله:

«وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أَى بِالْمَعَاصِي.

و قوله: فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ وَ مَزَفَّنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أَى أزلنا أعيانهم

و آثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا فى وهم المتوهم و خيال المتخيل و فرّقاهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان مجتمعان إلا فرّقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوه و شوكة حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أياى سباً».

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَى فى هذا الذى ذكر من قصتهم آيات لكل من كثر صبره فى جنب الله و كثر شكره لنعمه التى لا- تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه و أن وراءه يوماً يبعث فيه و يجرى بعمله.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ أَى حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ وَلَأُخْلِتُهُمْ» «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ»، و قوله: «فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» بيان لتصديقه ظنه.

و منه يظهر أن ضمير الجمع فى «عَلَيْهِمْ» هاهنا و كذا فى الآيه التالیه لعامه الناس لا لسباً خاصه و إن كانت الآيه منطبقه عليهم.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم الى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه، قال تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢)، و قال حاكياً عن إبليس يوم القيامة: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَ لَوْمُوا أَنفُسَكُمْ (إبراهيم/ ٢٢).

و منشأ اتباعهم له ريب و شك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذى هو الاتباع لإبليس، فإنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به و لا يرفع ذلك مسئوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

فقوله: وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ نَفَى لِكُلِّ سُلْطَانٍ، وقوله: «إِلَّا- لِنَعْلَمَ» أى لنميز «مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ» استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتباعهم له عن اختيار منهم، وقد وضع فيه الغايه موضع ذى الغايه أى التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختيارى.

و تقييد الإيمان و الشك بالآخرة فى الآيه لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصيه و الداعى الى الطاعه هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله و رسوله لو لا- الآخرة كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِفُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦).

وقوله: وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ أى عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك و فيه تحذير عن الكفران و المعصيه و إنذار لأهل الكفر و المعصيه (١).

[سوره سبأ (٣٤): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلِيَّ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تَسْتَلُونَنَا عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْتَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

ص: ١٧٠

١-١. سبأ ١٠-٢١: بحث روائى فى قصه داود عليه السلام و سليمان عليه السلام؛ قبض روح سليمان عليه السلام؛ سبأ.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَى إِبْطَالِ أُلُوهِيهِ آلِهَتِهِمْ بِعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى اسْتِجَابَةِ الدَّعَاءِ، فَقَوْلُهُ: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أَيِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ - فَمَفْعُولًا «زَعَمْتُمْ» مَحْذُوفًا لِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِمَا - وَدَعَاؤُهُمْ هُوَ مَسْأَلَتُهُمْ شَيْئًا مِنَ الْحَوَائِجِ.

وقوله: لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا فِي الْمَآرِضِ وَاقِعَ مَوْجِعِ الْجَوَابِ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ إِذَا دَعَوْهُمْ؟ فَقِيلَ: لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُمْ «لَا يَمْلِكُونَ»

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ» و لو ملكوا لاستجابوا، و لا تتم الربوبية و الالهية إلا بأن يملك الرب و الإله شيئا مما يحتاج اليه الانسان فيملكه له و ينعم عليه به فيستحق بإزائه العباده شكرا له فيعيد، أما إذا لم يملك شيئا فلا يكون ربا و لا إلها.

و قوله: «وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ كَانَ الْمَلِكُ الْمُنْفَى فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ «لَا يَمْلِكُونَ» الخ؛ الملك المطلق المنبسط على الجميع و المنفى في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينسط على البعض دون الكل إما مشاعا أو مفروزا، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم و بين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم نوع من الخلقه أو بعض منها، و أما الله سبحانه فهو رب الأرباب و إله الآلهه.

و على هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقه و عدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم و ألوهيتهم.

و قوله: «وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ أَيْ لَيْسَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْهُمْ كَلَا أَوْ بَعْضًا مِنْ مَعِينٍ يَعْنِيهِ فِيمَا يَفْرَضُ فِيهِ عَجْزُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ تَدْبِيرِهِ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ مِنْهُمْ ظَهِيرٌ يَظْهَرُهُ عَلَى التَّدْبِيرِ كَانَ مَالِكًا فَيَسْتَجِيبُ إِذَا دُعِيَ فِيمَا هُوَ ظَهِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَ إِذْ لَيْسَ فَلَيسَ.»

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآيه على نفى الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجرى في جميع الصور الثلاث و هي ملكهم لما في السماوات و ما في الأرض مطلقا و ملكهم على وجه الشركه مع الله سبحانه و كونهم أو بعضهم ظهيرا لله سبحانه.

قوله تعالى: «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الْمَشْرُكُونَ كَانُوا يَقُولُونَ بِشَفَاعَةِ آلِهِمْ كَمَا حَكَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (يونس ١٨/١)، و ليس مرادهم بالشفاعه شفاعه يوم القيامه التي يشتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعه في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم و إصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم.

و إذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من وكل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك و هو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه.

□ وقوله: **إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ** يحتمل أن يكون اللام في «**لِمَنْ**» لام الملك و المراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله و أن يكون لام التعليل و المراد بمن أذن له المشفوع له، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم، قال في الكشف: و هذا يعنى الوجه الثانى وجه لطيف و هو الوجه. انتهى.

□ و هو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهى و إجرائه، قال تعالى: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (الأنبياء ٢٧)، و قال:

□ **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ** (فاطر ١)، و الوساطه المذكوره من الشفاعة كما تقدم فى مباحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

□ فالملائكة جميعا شفعاء لكن لا فى كل أمر و لكل أحد بل فى أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفى شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء، فالآية فى معنى قوله: **وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ** (الأنبياء ٢٨)، لا فى معنى قوله: **مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ** (يونس ٣).

□ قوله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** (التفريع إزاله الفزع و كشفه و ضمائر الجمع - على ما يعطيه السياق - للشفعاء و هم الملائكة.

□ و لازم قوله: **حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ** - و هو غايه - أن يكون هناك أمر مغيبا بها و هو كون قلوبهم فى فزع ممتد فى انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية فى معنى قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ** - الى أن قال - **وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ**

رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (النحل ٥٠)، فالفرع هو التأثر و الانقباض من الخوف هو المراد بسجدهم تذللا من خوف ربهم من فوقهم.

و بذلك يظهر أن المراد بفرعهم حتى يفرع عنهم أن التذلل غشى قلوبهم و هو تذللهم من حيث أنهم أسباب و شفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية و وقوعه على ما صدر و كما أريد، و كشف هذا التذلل هو تلقيهم الأمر الإلهي و اشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم و طاعتهم لله فيما أمرهم به و أنه لا واسطه بين الله سبحانه و بين الفعل إلا أمره فافهم ذلك.

و إنما نسب الفرع و التفريع الى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم و عن كل شيء إلا ربهم و هم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفرع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل و لا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢)، فالمستفاد من الآية نظرا الى هذا المعنى أنهم في فرع حتى إذا أزيل فرعهم بصدور الأمر الإلهي.

و قوله: قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ طَوَائِفٌ كَثِيرُونَ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ بَعْدَ صَدُورِهِ وَ انْكَشَافِ الْفَرْعِ عَنِ الْقُلُوبِ السَّائِلِينَ.

و يتبين منه أن كشف الفرع و نزول الأمر الى بعضهم أسبق منه الى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

فلم مراتب مختلفه و مقامات متفاوته بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهي من العالیه من غير تخلف و لا مهله و هو طاعه الداني منهم للعالی، كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبير في قوله: وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (الصفات ١٦٤)، و قوله في وصف الروح الأمين:

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (التكوير ٢١).

قوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ الْخَبِيرُ

احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذى هو الملاك العمده فى اتخاذهم الآلهه فإنهم يتعللون فى عبادتهم الآلهه بأنها ترضيهم فيوسعون لهم فى رزقهم فيسعدون بذلك.

فأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ مَنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنَّ الرِّزْقَ خَلَقَ فِي نَفْسِهِ وَلاَ خَالِقَ - حَتَّى عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ - إِلاَّ - اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَزَّ اسْمَهُ لَكِنَّهُمْ يَسْتَنْكِفُونَ عَنِ الاعْتِرَافِ بِهِ بِالْإِسْتِنْتِمْ وَإِنْ أَدْعَيْتَ بِهِ قُلُوبَهُمْ وَ لَذَلِكَ أَمَرَ أَنْ يَنْوَبَهُمْ فِي الْجَوَابِ فَقَالَ: «قُلِ اللَّهُ» .

و قوله: **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**، تتمه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ هَذَا الْقَوْلُ بَعْدَ إِقْلَاءِ الْحِجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَ وَضُوحِ الْحَقِّ فِي مَسْأَلَةِ الْإِلَهِيَّةِ مَبْنَىٰ عَلَىٰ سُلُوكِ طَرِيقِ الْإِنْصَافِ، وَ مَفَادُهُ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ إِمَّا هُدًىٰ أَوْ ضَلَالٌ لاَ ثَالِثَ لِهَمَا نَفِيًا وَ إِثْبَاتًا وَ نَحْنُ وَ أَنْتُمْ عَلَىٰ قَوْلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِيمَا أَنَّ نَكُونُ نَحْنُ عَلَىٰ هُدًىٰ وَ أَنْتُمْ فِي ضَلَالٍ وَ إِمَّا أَنَّ تَكُونُوا أَنْتُمْ عَلَىٰ هُدًىٰ وَ نَحْنُ فِي ضَلَالٍ فَانظُرُوا بَعِينَ الْإِنْصَافِ إِلَىٰ مَا أَلْقَىٰ إِلَيْكُمْ مِنَ الْحِجَّةِ وَ مَيَزُوا الْمَهْدَىٰ مِنَ الضَّالِّ وَ الْمُحَقِّ مِنَ الْمَبْطَلِ .

وَ اِخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي قَوْلِهِ «لَعَلَىٰ هُدًىٰ» وَ «فِي ضَلَالٍ» بِلَفْظِهِ عَلَىٰ وَ فِي - كَمَا قِيلَ - لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّ الْمَهْتَدَىٰ كَأَنَّهُ مُسْتَعْلٍ عَلَىٰ مَنْارٍ يَتَطَّلَعُ عَلَىٰ السَّبِيلِ وَ غَايَتِهَا الَّتِي فِيهَا سَعَادَتُهُ، وَ الضَّالُّ مَنْغْمَرُ فِي ظِلْمِهِ لاَ يَدْرِي أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَهُ وَ إِلَىٰ أَيْنَ يَسِيرُ وَ مَا ذَا يَرَادُ بِهِ؟

قوله تعالى: **قُلْ لاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَ لاَ نَسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَىٰ إِنْ الْعَمَلُ وَ خَاصَهُ عَمَلُ الشَّرِّ لاَ يَتَعَدَىٰ عَنِ عَامِلِهِ وَ لاَ يَلْحَقُ وَبِالهِ إِلاَّ بِهِ فَلاَ يَسْأَلُ عَنْهُ غَيْرُهُ فَلاَ تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا بَلْ نَحْنُ الْمُسْتَوْلُونَ عَنْهُ وَ لاَ نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ بَلْ أَنْتُمْ الْمُسْتَوْلُونَ .**

وَ هَذَا تَمْهِيدٌ لِمَا فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ مِنْ حَدِيثِ الْجَمْعِ وَ الْفَتْحِ فَإِنَّ الطَّائِفَتَيْنِ إِذَا اِخْتَلَفَا فِي الْأَعْمَالِ خَيْرًا وَ شَرًّا كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُمَا وَ يَتَمَيَّزُ كُلٌّ مِنَ الْآخَرِ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ جِزَاءُ عَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ سَعَادَةٍ أَوْ شِقَاءٍ وَ الَّذِي يَفْتَحُ وَ يَمَيَّزُ هُوَ الرَّبُّ تَعَالَى .

و فى التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و فى ناحيه المشركين بقوله: «تَعْمَلُونَ» و لم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب فى المناظره.

قوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن و المسىء جزاء عمله و كان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر و هو الرب أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يذكرهم أن الذى يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء و أولئك فإنه هو الفاتح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق و التدبير فيتميز بذلك الشىء من الشىء كما قال: أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء ٣٠)، و هو العليم بكل شىء.

فالآيه تثبت البعث لتمييز المحسن من المسىء أولا- ثم انحصار التمييز و الجزاء فى جانبه تعالى بانحصار الربوبيه فيه و يبطل بذلك ربوبيه من اتخذه من الأرباب.

و الفتح من أسماء الله الحسنى و الفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائده تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه و الفتح بين الشيئين لتمييز كل منهما عن الآخر بذاته و صفاته و أفعاله.

قوله تعالى: قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا- يَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أمر آخر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعباده من الاستقلال بالحياه و العلم و القدره و السمع و البصر؟ و هذا معنى قوله: «أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ» أى ألحقتموهم به شركاء له.

ثم ردع بنفسه و قال: كلاً لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبوده لهم معدوده آلهتهم و هى أجسام ميتة خاليه عن الحياه و العلم و القدره و إما أن يروه أرباب هذه الأصنام و هم الملائكه و غيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيره اليهم و هم و إن لم يخلوا عن حياه و علم و قدره إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضه عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم فى

شئ من هذه الصفات و لا فى الأفعال المتفرعه عليها فأين الاستقلال فى التدبير الذى يدعون أنه مفوض اليهم؟ فالوجود الواجبي بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون فى خلقه من يشاركه فى شئ من كماله.

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم فى بعض ما له من الشئون لتدبير خلقه من غير صلاحيه لهم ذاتيه و هذا ينافى حكمته تعالى.

و قد أشير الى هذه الحججه بقوله: «بل هو الله العزيز الحكيم» فإن عزته تعالى -و هو منع جانبه أن يعدو الى حريم كماله عاد لكونه لا- يحد بحد-تمنع أن يشاركه فى شئ من صفات كماله كالربوبيه و الالوهيه المنتهيتين الى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركه عن صلاحيه ذاتيه من الشريك و لو كانت عن إرادته جزافيه منه من غير صلاحيه حقيقه من الشريك فالحكمه الإلهيه تمنع ذلك.

و قد تبين بذلك أن الآيه متضمنه لحججه قاطعه برهانيه فأحسن التدبر فيها.

قوله تعالى: و ما أرسلناك إلا- كافه للناس بشيرا و نذيرا و لكن أكثر الناس لا يعلمون قال الراغب فى المفردات: الكف كف الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط و كفته أصبت كفه، و كفته أصبته بالكف و دفعته بها و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره، و قوله: و ما أرسلناك إلا كافه للناس أى كافا لهم عن المعاصي و الهاء فيه للمبالغه كقولهم: راويه و علامه و نسابه.

انتهى.

و يؤيد هذا المعنى توصيفه صلى الله عليه و آله و سلم بالبشير و النذير، فقوله: «بشيرا و نذيرا» حالان بينان صفته لقوله: «كافه للناس» .

و اعلم أن منطوق الآيه و إن كان راجعا الى النبوه و فيها انتقال من الكلام فى التوحيد الى الكلام فى النبوه على حد الآيات التاليه، لكن فى مدلولها حججه أخرى على التوحيد و ذلك أن

الرساله من لوازم الربوبيه التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم و مسيرهم الى غايات وجودهم فعموم رسالته صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم و هو رسول الله تعالى لا- رسول غيره دليل على أن الربوبيه منحصره في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاؤهم رسوله و لم يعم رساله النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم أو عمتهم و احتاجوا معه الى غيره، و هذا معنى قول علي عليه السلام- على ما روى- لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

و يؤيده ما في ذيل الآيه من قوله: «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فإن داله انحصار الرساله في رسل الله على انحصار الربوبيه في الله عز اسمه أمس بجهل الناس من كونه صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلم رسولا كافا لهم عن المعاصي بشيرا و نذيرا.

فمفاد الآيه على هذا: لا يمكنهم أن يروك شريكا له و الحال أنا لم نرسلك إلا كافا لجميع الناس بشيرا و نذيرا و لو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم و هم عباد لإله آخر و الله أعلم.

قوله تعالى: و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآيه متصله بقوله السابق: «قل يجمع بيننا ربنا» الآيه؛ و هذا أيضا من شواهد ما قدمنا من المعنى لقوله: «و ما أرسلناك إلا كافه» و إلا كانت هذه الآيه و التي بعدها متخلتين بين قوله: «و ما أرسلناك» الآيه؛ و الآيات التاليه المتعرضه لمسأله النبوه.

قوله تعالى: قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعه و لا تستقدمون أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضى محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعا و لا يختلف وقت وقوعه البتة أى إن الله وعد به وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه.

[سوره سبا (٣٤): الآيات ٣١ الى ٥٤]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أ نَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعِيدٍ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَ اسِيرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ مَا أَمْوَالُكُمْ وَ لَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَ وِلَاتِنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَفِيكَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَ لَا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الذَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشِيًّا وَفُرَادِيًّا ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَاقِمَ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ لَإِذَا جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَ لَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَ أُخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُوسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

قوله تعالى: وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه المراد بالذين كفروا المشركون و المراد بالذى بين يديه الكتب السماويه من التوراه و الإنجيل و ذلك أن المشركين و هم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوه و يتبعها الكتاب السماوى.

قوله تعالى: و لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم؛ الظاهر أن اللام فى «الظالمون» للعهد، و هذه الآيه و الآيتان بعدها تشير الى أن وبال هذا الكفر-و أساسه ضلال أئمه الكفر و إضلالهم تابعيهم-سيلحق بهم و سيندمون عليه و لن ينفعهم الندم.

فقوله: «و لو ترى» خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب «إذ الظالمون» و هم الكافرون بكتب الله و رسله،الذين ظلموا أنفسهم بالكفر «موقوفون عند ربهم» للحساب

و الجزء يوم القيامة «يرجع بعضهم الى بعض القول» أى يتحاورون و يتراجعون فى الكلام متخاصمين «يقول الذين استضعفوا» بيان لرجوع بعضهم الى بعض فى القول و المستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبعون «للذين استكبروا» و هم الأئمة القاده «لو لا أنتم لكنا مؤمنين» يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر و حلتنا بيننا و بين الإيمان.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» جوابا عن قولهم و ردًا لما اتهمهم به من الإكراه و الإكراه «أ نحن صددناكم» الاستفهام للانكار أى أ نحن صرفناكم «عن الهدى بعد إذ جاءكم» فبلوغه اليكم بالدعوة النبويه أقوى الدليل على أننا لم نحل بينه و بينكم و كنتم مختارين فى الإيمان به و الكفر «بل كنتم مجرمين» متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم و نحن براء منه.

«و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا» ردًا لقولهم و دعواهم البراءه «بل مكر الليل و النهار» أى مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر «إذ تأمرونا أن نكفر بالله و نجعل له أندادا» و أمثالا من الآلهه أى إنكم لم تزالوا فى الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطون الخطط لتستضعفونا و تتأمرنا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا و نحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمرونا بالكفر و الشكر.

«و أسروا» و أخفوا «الندامه لما رأوا العذاب» و شاهدوا أن لا مناص، و إخفاؤهم الندامه يوم القيامة-و هو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء-نظير كذبهم على الله و إنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيله التى رسخت فى نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامه فى الدنيا خوفا من شماته الأعداء و كذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا و اليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكه الكذب مع ظهور أنهم كاذبون فى قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «و جعلنا الأغلال» السلاسل «فى أعناق الذين

كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» فصارت أعمالهم أغلالاً في أعناقهم تحبسهم في العذاب.

قوله تعالى: و ما أرسلنا فى قريه من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون المترفون اسم مفعول من الإتراف و هو الزيادة فى التنعيم، و فيه إشعار بأن الإتراف يفضى الى الاستكبار على الحق كما تفيد الآيه اللاحقه.

قوله تعالى: و قالوا نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعذبين ضمير الجمع للمترفين، و من شأن الإتراف و الترفه و التقلب فى نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها و يستعظمها فيرى السعاده فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياه و ينسى ما وراءه.

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا: «نحن أكثر أموالا و أولادا» فلا سعاده إلا فيها و لا شقوه معها «و ما نحن بمعذبين» فى آخره، و لم ينفوا العذاب إلا للغفله و الانصراف عما وراء كثرة الأموال و الأولاد فإذا كانت هى السعاده و الفلاح فحسب فالعذاب فى فقدها و لا عذاب معها.

و هاهنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنوا أن لهم كرامه على الله سبحانه و هم على كرامتهم عليهم ما داموا، و المعنى: أننا ذوو كرامه على الله بما أوتينا من كثرة الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب.

فتكون الآيه فى معنى قوله: و لئن أذقناه رحمه منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى و ما أظن الساعه قائمه و لئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر و لكن أكثر الناس لا يعلمون الآيه و ما يتلوها الى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: «نحن أكثر أموالا» الخ؛ و قد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال و الأولاد سعه و ضيقا بيد الله

على ما تستدعيه الحكمة و المصلحه و هيا من الأسباب لا بمشيه الإنسان و لا لكرامه له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذى حزم أو أحمق خفيف العقل، و ربما بسط على واحد ثم قدر له. فلا دلالة في الإتراف على سعادته أو كرامته.

و هذا معنى قوله: «قل إن ربي» نسبة الى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله ربا لأنفسهم و الرزق من شئون الربوبية «يبسط» أى يوسع «الرزق لمن يشاء» من عبادته بحسب الحكمة و المصلحه «و يقدر» أى يضيق «و لكن أكثر الناس لا يعلمون» فينسبون ما لم يؤتوه الى الأسباب الظاهرية الاتفاقيه ثم إذا أوتوه نسبوه الى حزمهم و حسن تدبيرهم أنفسهم و كفى به دليلا على الحق.

قوله تعالى: و ما أموالكم و لا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الى آخر الآيتين؛ هذا هو الجواب الثانى عن قولهم: «نحن أكثر أموالا و أولادا و ما نحن بمعدين» و محصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال و الأولاد إذ لا توجب الأموال و الأولاد قربا و زلفى من الله حتى ينتفى معها العذاب الإلهى فوضع تقرب المال فى الآيه موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع السبب.

و هذا معنى قوله: و ما أموالكم و لا- أولادكم التي تعتمدون عليها فى السعاده و انتفاء عذاب الله «بالتى» أى بالجماعه التي «تقربكم عندنا زلفى» أى تقريبا.

«إلا- من آمن و عمل صالحا» فى ماله و ولده بأن أنفق من أمواله فى سبيل الله و بثّ الإيمان و العمل الصالح فى أولاده بتربيته دينيه «فاولئك لهم جزاء الضعف» لعله من إضافه الموصوف الى الصفه أى الجزاء المضاعف من جهه أنهم اهتموا و هدوا و أيضا من جهه تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها و زياده «و هم فى الغرفات» أى فى القباب العالیه «آمنون» من العذاب فما هم بمعدين.

«و الذين يسعون فى آياتنا معاجزين -أى يجدون فى آياتنا و هم يريدون أن يعجزونا أو ان

يسبقونا- أولئك في العذاب محضرون» و إن كثرت أموالهم أولادهم.

و فى قوله: و ما أموالكم و لا أولادكم الخ؛انتقال الى خطاب عامه الناس من الكفار و غيرهم و الوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال و الأولاد سواء فى ذلك المؤمن و الكافر فالمال و الولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان و عمل صالح فيهما و إلا فلا يزيدان إلا وبالا.

قوله تعالى: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما أنفقتم من شىء فهو يخلفه و هو خير الرازقين قال فى مجمع البيان: يقال: أخلف الله له و عليه إذا أبدل له ما ذهب عنه. انتهى.

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق فى وجه البر و المراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه و يرزق بدله.

فقوله فى صدر الآية: «قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر» للإشارة الى أن أمر الرزق فى سعته و ضيقه الى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق و لا- يزيد بالإمساك ثم قال: «و ما أنفقتم من شىء» قليلا- كان أو كثيرا و أيا ما كان من المال «فهو يخلفه» و يرزقكم بدله إما فى الدنيا و إما فى الآخرة «و هو خير الرازقين» فإنه يرزق جودا و رزق غيره معامله فى الحقيقة و معاوضه، و لأنه الرازق فى الحقيقة و غيره ممن يسمى رازقا واسطه لوصول الرزق.

قوله تعالى: و يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون و المعبدون جميعا.

و قوله: ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم فى الدنيا و قد أنكروها كما فى الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: «أنت قلت للناس اتخذونى و أمى إلهين من دون الله» .

و الغرض من السؤال تبييت المشركين و إقناطهم من نصره الملائكه و شفاعتهم لهم و قد عبدوهم فى الدنيا لذلك.

قوله تعالى: قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون أخذت الملائكة فى جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولا تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعباده المشركين لهم لكن لا- بالتصريح بنفى الرضا بالعباده و لا- بالتفوّه بعبادتهم صونا لساحه المخاطبه عما يقرع السمع بذلك، و لو تصورا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى و نفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكنايه فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاه بينهم، و الموالاه بينهم تنافى قصر الولايه فى الله سبحانه فإذا انحصر الولايه فيه تعالى لم تكن موالاه و إذا لم تكن موالاه لم يكن رضا.

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه: «بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» و الجن هم الطائفة الثانيه من الطوائف الثلاث التى يعبدهم الوثنيون و هم الملائكه و الجن و القديسون من البشر، و الأقدم فى استحقاق العباده عندهم هم الطائفتان الاوليان و الطائفة الثالثه ملحقه بهما بعد الكمال و إن كانوا أفضل منهما.

و الإضراب فى قولهم: «بل كانوا يعبدون الجن» يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم.

قوله تعالى: فالיום لا- يملك بعضكم لبعض نفعا و لا ضرا و نقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون نوع تفريع على تبرى الملائكة منهم و قد بين تبرى عامه المتبوعين من تابعيهم و التابعين من متبوعيهم فى مواضع كقوله تعالى: و يوم القيامه يكفرون بشر ككم (فاطر ١٤/)، و قوله: ثم يوم القيامه يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا (العنكبوت ٢٥/). و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاكُمْ الخ؛ خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم و تحريض لهم عليه صلى الله عليه و آله و سلم، و فى توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل إذا تلى عليهم هذه الآيات و هى بينه لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم الى أتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم و حرصوهم عليه- و فى إضافه الآباء الى ضمير «كم» مبالغه فى التحريض و الإثارة.

و قوله: وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا عَفَوْا عَلَى «قَالُوا» أى و قالوا مشيراً الى الآيات البينات إشاره تحقير: ليس هذا الا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوباً به على الله، بدلاً من أن يقولوا: إنها آيات بينات نازله من عند الله تعالى- و قد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شىء ما لا أزيد من ذلك.

ثم غير سبحانه السياق و قال: «قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» و مجيء الحق لهم بلوغه و ظهوره لهم، و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى:

و الذين كفروا بعثهم الكفر الى أن يقولوا للحق الصريح الذى بلغهم و ظهر لهم هذا سحر ظاهر سحرته و بطلانه.

و أكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ» و الجملة حاله أى و عدّ الذين كفروا- أى كفار قريش- الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً و الحال انا لم نعطيهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل و لم نرسل اليهم قبلك من رسول ينذرهم و يبين لهم ذلك فيقولوا استناداً الى الكتاب الإلهى أو الى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

قوله تعالى: وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ضميراً الجمع الأول و الثانى لكفار قريش و من يتلوهم

و الثالث و الرابع للذين من قبلهم، و المعشار العشر و النكير الإنكار، و المراد به فى الآيه لازمه و هو الأخذ بالعذاب.

و المعنى: و كذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الامم الماضيه و لم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوه و الشده فكذب أولئك الأقسام رسلى فكيف كان أخذى بالعذاب و ما أهون أمر قريش. و الالتفات فى الآيه الى التكلم لاستعظام الجرم و تهويل المؤاخذة.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ الْمُرَادُ بِالْمَوْعِظَةِ الْوَصِيَّةُ كُنَايَهُ أَوْ تَضْمِينًا، وَقَوْلُهُ:

«أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ» أَيْ تَنْهَضُوا لِأَجْلِ اللَّهِ وَ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَقَوْلُهُ: «مِثْلِي وَفَرَادَىٰ» أَيْ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ وَ وَاحِدًا وَاحِدًا كُنَايَهُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَ تَجَنُّبِ التَّجْمَعِ وَ الْغَوْغَاءِ فَإِنَّ الْغَوْغَاءَ لَا شُعُورَ لَهَا وَ لَا فِكْرَ وَ كَثِيرًا مَا تَمِيتَ الْحَقَّ وَ تَحْيَى الْبَاطِلَ.

و قوله: مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ اسْتِثْنَاءٌ «مَا» نَافِيَةٌ وَ يَشْهَدُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَ: «إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ «مَا» اسْتِفْهَامِيَّةً أَوْ مُوَصُولَةً وَ «مِنْ جِنَّةٍ» بَيَانًا لَهُ.

و المراد بصاحبكم النبى صلى الله عليه و آله و سلم نفسه و الوجه فى التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتده لهم أربعين سنة من حين ولادته الى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا فى فكر أو خفه فى رأى أو شىء يوهم أن به جنونا.

و المعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظه أن تنهضوا و تنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم و يستقيم رأيكم اثنين اثنين و واحدا واحدا و تفكروا فى أمرى فقد صاحبكم طول عمري على سداد من الرأى و صدق و أمانه ليس فى من جنه. ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد فى يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ الْخ؛ كُنَايَه عَنْ عَدَمِ سْؤَالِ أَجْرِ عَلَيِ الدَّعْوَةِ فَإِنَّهُ إِذَا وَهَبَهُمْ كُلَّ مَا سَأَلَهُمْ مِنْ أَجْرِ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ أَجْرٌ مَسْئُولٌ وَلَا زَمَهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُمْ وَهَذَا تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِمْ أَنْ لَا يَتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ جَعَلَ الدَّعْوَةَ ذَرِيعَةً إِلَى نَيْلِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ.

ثم تم القول بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لثَلَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بِأَنَّهُ دَعَايَ غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَرُومُ عَمَلًا بِغَيْرِ غَايَةٍ فَدَفَعَهُ بِأَنْ لِعَمَلِي أَجْرًا لَكِنَّهُ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَيْكُمْ وَهُوَ يَشْهَدُ عَمَلِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ الْقَذْفُ الرَّمْيُ، وَقَوْلُهُ:

«عَلَامُ الْغُيُوبِ» خَبْرٌ بَعْدَ خَبْرٍ أَوْ خَبْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ وَهُوَ الضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَيْهِ تَعَالَى.

وَمَقْتَضَى سِيَاقُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ الْمَقْذُوفِ الْقُرْآنَ النَّازِلَ إِلَيْهِ بِالْوَحْيِ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ قَوْلُ فَصْلِ يَحِقُّ الْحَقُّ وَيُبْطَلُ الْبَاطِلُ فَهُوَ الْحَقُّ الْمَقْذُوفُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِ عَلَامِ الْغُيُوبِ فَيُدْمَغُ الْبَاطِلُ وَيُزْهَقُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ ١٨)، وَقَالَ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الْإِسْرَاءُ ٨١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُؤِيدُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ الْمُرَادُ بِمَجِيءِ الْحَقِّ عَلَى مَا تَهْدِي إِلَيْهِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْمَبْطُلِ بِحُجَّتِهِ الْقَاطِعَةِ وَ بَرَاهِينِهِ السَّاطِعَةِ لِكُلِّ بَاطِلٍ مِنْ أَصْلِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَ مَا يُؤِيدُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ أَيُّ مَا يَظْهَرُ أَمْرًا ابْتِدَائِيًّا جَدِيدًا بَعْدَ مَجِيءِ الْحَقِّ وَ مَا يُعِيدُ أَمْرًا كَانَ قَدْ أَظْهَرَ مِنْ قَبْلِ إِظْهَارِهِ ثَانِيًا بِنَحْوِ الْإِعَادَةِ فَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ بَطْلَانِ الْبَاطِلِ وَ سَقُوطِهِ عَنِ الْأَثْرِ مِنْ أَصْلِهِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ بَيَانٌ لِأَثْرِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْوَحْيُ فَإِنَّهُ عَرَفَهُ حَقًّا

مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهه لم يخطئ في إصابه الواقع في جهه من الجهات و إلا كان باطلا من تلك الجهه فالوحي يهدى و لا يخطئ البته.

و لذا قال تأكيدا لما تقدم: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ» و فرض منى ضلال «فَإِنَّمَا أَضِلُّ» مستقرا ذلك الضلال «عَلَى نَفْسِي» فإن للإنسان من نفسه أن يضل «وَ إِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي» فوحيه حق لا يحتمل ضلالا و لا يؤثر إلا الهدى.

و قد علل الكلام بقوله: «إِنَّهُ سَيَجِيْعُ قَرِيْبٌ» للدلاله على أنه يسمع الدعوه و لا يحجبه عنها حاجب البعد و قد مهد له قبلا وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره و يمنع نفوذ مشيئته هدايه الناس بالوحي قال تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أُنْبِغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (الجن ٢٨)».

قوله تعالى: «وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا فَوْتَ وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيْبٍ» ظاهر السياق السابق و يشعر به قوله الآتى: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ» أن الآيات الأربع وصف حال مشركى قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله: «وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا» أى حين فرع هؤلاء المشركون عند الموت «فَلَا فَوْتَ» أى لا- يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أى حائل آخر.

و قوله: «وَ أَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيْبٍ» كناية عن عدم فصل بينهم و بين من يأخذهم و قد عبر بقوله: «أَخَذُوا» مبنيا للمفعول ليستند الأخذ اليه سبحانه، و قد وصف نفسه بأنه قريب، و كشف عن معنى قرينه بقوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (الواقعه ٨٥)»، و أزيد منه فى قوله: «مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦)»، و أزيد منه فى قوله:

«أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال ٢٤)»، فبين أنه أقرب الى الانسان من نفسه و هذا الموقف هو المرصاد الذى ذكره فى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ (الفجر ١٤)»، فكيف يتصور

فوت الإنسان منه و هو أقرب اليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

فقوله: وَ أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما تتصوره من معنى القرب لاحتباسنا فى سجن الزمان و المكان و أنسنا بالامور الماديه و إلا فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ التناوش التناول و ضمير «به» للقرآن على ما يعطيه السياق.

و المراد بكونهم فى مكان بعيد أنهم فى عالم الآخرة و هى دار تعين الجزاء و هى أبعد ما يكون من عالم الدنيا التى هى دار العمل و موطن الاكتساب بالاختيار و قد تبدل الغيب شهاده لهم و الشهاده غيبا كما تشير اليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْتَدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ حال من الضمير فى «وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُسُ» و المراد بقوله: «وَ يَقْتَدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ» رميهم عالم الآخرة و هم فى الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث و لا جنه و لا نار، و قيل: المراد به رميهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالسحر و الكذب و الافتراء و الشعر.

و العناية فى إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبه الى الآخرة نظيره إطلاقه على الآخرة بالنسبه الى الدنيا و قد تقدمت الإشارة اليه.

و معنى الآيتين: و قال المشركون حينما أخذوا آمنا بالحق الذى هو القرآن و أتى لهم تناول الإيمان به-إيمانا يفيد النجاه-من مكان بعيد و هو الآخرة و الحال أنهم كفروا به من قبل فى الدنيا و هم ينفون أمور الآخرة بالظنون و الأوهام من مكان بعيد و هو الدنيا.

قوله تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ

إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ظَاهِرِ السِّيَاقِ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا يَشْتَهُونَ اللَّذَائِدَ الْمَادِيَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ الَّتِي يَحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا بِالْمَوْتِ، وَالْمُرَادُ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَشْبَاهِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ أَوْ مُوَافِقِهِمْ فِي الْمَذْهَبِ، وَقَوْلُهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ» تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «كَمَا فَعَلَ» الْخ.

وَالْمَعْنَى: وَوَقَعَتِ الْحِيلُولَةُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْمَأْخُودِينَ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَلَازِمِ الدُّنْيَا كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِأَشْبَاهِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَّمِ الدَّارِجَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ مِنَ الْحَقِّ أَوْ مِنَ الْآخِرَةِ فَيَقْدِفُونَهَا بِالْغَيْبِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ مَبْنَى عَلَى مَا يُعْطِيهِ ظَاهِرُ السِّيَاقِ وَ قَدْ اسْتَفَاضَتِ الرِّوَايَاتُ مِنْ طَرُقِ الشَّيْخِ وَأَهْلِ السُّنَنِ أَنَّ الْآيَاتِ نَازِلَةً إِلَى خَسْفِ جَيْشِ السَّفِيَانِيِّ بِالْبَيْدَاءِ وَهُوَ مِنْ عِلَائِمِ ظُهُورِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُتَّصِلَةَ بِهِ فَعَلَى تَقْدِيرِ نَزُولِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ مَا قَدَمْنَاهُ مِنَ الْمَعْنَى مِنْ بَابِ جَرَى الْآيَاتِ فِيهِ (١).

ص: ١٩٢

(١- ١). سبأ ٣١-٥٤: بحث روائي في: الانفاق؛ السفيناني؛ ظهور القائم عليه السلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحٍ مِثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱)

غرض السوره بيان الاصول الثلاثه: وحدانيته تعالى في ربوبيته و رساله الرسول و المعاد اليه و تقرير الحججه لذلك و قد توسل لذلك بعد جمل من نعمه العظيمه السماويه و الارضييه و الإشاره الى تدبيره المتقن لأمر العالم عامه و الإنسان خاصه.

و قد قدم على هذا التفصيل الإشاره الإجماليه الى انحصار فتح الرحمه و إمساكها و هو إفاضه النعمه و الكف عنها فيه تعالى بقوله: مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا آيَهُ.

وقدم على ذلك الإشارة الى وسائط هذه الرحمه المفتوحه و النعم الموهوبه و هم الملائكه المتوسطون بينه تعالى و بين خلقه فى حمل أنواع النعم من عنده تعالى و إيصالها الى خلقه فافتتح السوره بذكرهم.

و السوره مكيه كما يدل عليه سياق آياتها، و قد استثنى بعضهم آيتين و هما قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ الْآيَةَ؛ و قوله: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا الْآيَةَ؛ و هو غير ظاهر من سياق الآيتين.

قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْفَطْرَ-على ما ذكره الراغب-هو الشق طولاً-فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعنايه استعاريه كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات و الأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات و الأرض إيجاداً ابتدائياً من غير مثال سابق، فيقرب معناه من معنى البديع و المبدع و الفرق بين الإبداع و الفطر أن العنايه فى الإبداع متعلقه بنفى الحال السابق و فى الفطر بطرد العدم و إيجاد الشئ من رأس لا كالصانع الذى يؤلف مواد مختلفه فيظهر به صورته جديده لم تكن.

و المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود فيشمّلها و ما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء و إرادته الكل مجازاً، أو المراد نفس السماوات و الأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما و عجيب أمرهما كما قال: لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (المؤمن ٥٧).

و كيف كان فقوله: «فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» من أسمائه تعالى أجرى صفه لله و المراد بالوصف الاستمرار دون الماضى فقط لأن الإيجاد مستمرّ و فيض الوجود غير منقطع و لو انقطع لانعدمت الأشياء.

و الإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل: الحمد لله على ما أوجد السماوات و الأرض و على ما جعل الملائكه رسلاً أولى أجنحه فهو تعالى

محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل.

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْلِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ الْمَلَائِكَةِ جَمْعَ مَلَكٍ بَفَتْحِ اللَّامِ وَ هُمْ مَوْجُودَاتُ خَلْقِهِمُ اللَّهُ وَ جَعَلَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ وَ كُلَّهُمْ بِأَمْرِ الْعَالَمِ التَّكْوِينِيِّ وَ التَّشْرِيعِيِّ عِبَادَ مَكْرُمُونَ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

فقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة -و الملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم- رسلا وسائط بينه و بين خلقه فى إجراء أوامر التكوينية و التشريعية.

و لا- موجب لتخصيص الرسل فى الآيه بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السلام و قد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ (الأنعام ٦١/)، و قوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (يونس ٢١/)، و قوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ (العنكبوت ٣١/).

و الأجنحة جمع جناح و هو من الطائر بمنزله اليد من الإنسان يتوسل به الى الصعود الى الجو و النزول منه و الانتقال من مكان الى مكان بالطيران.

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء الى الأرض بأمر الله يعرج به منها إليها و من أى موضع الى أى موضع، و قد سماه القرآن جناحا و لا يستوجب ذلك إلا ترتب الغايه المطلوبه من الجناح عليه و أما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذا ريش و زغب فلا يستوجه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجه فى نظائره كألفاظ العرش و الكرسي و اللوح و القلم و غيرها.

و قوله: ﴿أُولَىٰ أَجْنِحَةٍ مِّثْلِي وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ﴾ صفه للملائكة، و ثلث و ثلاث و رباع ألفاظ داله على تكرار العدد أى اثنين اثنين و ثلاثه ثلاثه و أربعة أربعة كأنه قيل: جعل

الملائكة بعضهم ذا جناحين و بعضهم ذا ثلاثة أجنحه و بعضهم ذا أربعة أجنحه.

و قوله: يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ لَا يَخْلُو مِنْ إِشْعَارٍ بِحَسَبِ السِّيَاقِ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَزِيدُ أَجْنَحَتَهُ عَلَى أَرْبَعَةٍ.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة و الأول أظهر (١)(٢).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢ الى ٨]

مَا يَفْتِيحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَ إِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ لَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

ص: ١٩٦

١- ١. فاطر ١: بحث روائى فى: الملائكة؛ خلقه الملائكة؛ اجزاء الملائكة.

٢- ٢. فاطر ١: كلام فى الملائكة.

قوله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ الْخَبْرُ؛ المعنى أن ما يؤتاه الله الناس من النعمة و هو الرزق فلا مانع عنه و ما يمنع فلا مؤتى له فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما يرسل الله للناس، الخ؛ كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال الى الفتح لما وقع مكررا في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (ص ٩/٩) وقوله: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء ١٠٠/١) والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه اشاره الى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونه في خزائن محيطه بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا الى فتحها من غير مئونه زائده.

وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفاضته تعالى لهذه النعمة ناشئه من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود اليه أو كمال يستكمل به.

وقوله: وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَى و ما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه، و فى التعبير بقوله: «مِنْ بَعْدِهِ» إشاره الى أنه تعالى أول فى المنع كما أنه أول فى الإعطاء.

وقوله: وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تقرير للحكم المذكور في الآيه الكريمه بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزا لا- يغلب اذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه و اذا منع فليس لمعط أن يعطيه،و هو تعالى حكيم اذا أعطى أعطى عن حكمه و مصلحه و اذا منع منع عن حكمه و مصلحه و بالجمله لا معطى إلا الله و لا مانع إلا هو،و منعه و إعطائه عن حكمه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ هَيْلٌ مِّنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الخ؛لما قرر في الآيه السابقه أن الإعطاء و المنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآيه بذلك على توحده في الربوبيه.

و تقرير الحجه أن الإله إنما يكون إلها معبودا لربوبيته و هى ملكه تدبير أمر الناس و غيرهم،و الذى يملك تدبير الأمر بهذه النعم التى يتقلب فيها الناس و غيرهم و يرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهه التى اتخذوها لأنه سبحانه هو الذى خلقها دونهم و الخلق لا- ينفك عن التدبير و لا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذى يدبر أمركم بهذه النعم التى تتقلبون فيها و إنما كان ربا مدبرا بهذه النعم لأنه خالقها و خالق النظام الذى يجرى عليها.

و بذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون و غيرهم ممن اتخذ لله شريكا.

و قوله: اذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذى الذكر اللفظى.

و قوله: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ الرزق هو ما يمد به البقاء و مبدؤه السماء بواسطه الأشعه و الأمطار و غيرهما و الأرض بواسطه النبات و الحيوان و غيرهما.

و بذلك يظهر أيضا أن فى الآيه إجازا لطيفا فقد بدلت الرحمه فى الآيه السابقه نعمه فى هذه الآيه أولا ثم النعمه رزقا ثانيا و كان مقتضى سياق الآيتين أن يقال:هل من رازق أو هل من

منعم أو هل من راحم لكن بدل ذلك من قوله: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ» ليكون إشاره الى برهان ثان ينقطع به الخصام، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل: هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام و أمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله اليهم لكن لما قيل «هَلْ مِنْ خَالِقٍ» أشير بالوصف إلى أن الرازق و المدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام و لم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفى خالق غير الله يرزقهم من السماء و الأرض.

و قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اعْتِرَاضٌ بِالتَّوْحِيدِ يَفِيدُ التَّعْظِيمَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ .

أى لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعباده هو الذى ينعم عليكم و يرزقكم و ليس إلا الله.

و قوله: فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ تَوْبِيخٌ مَتَفَرِّعٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْبُرْهَانِ أَى إِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا وَ أَنْتُمْ تَقْرُونَ بِذَلِكَ فَإِلَى مَتَى تَصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الْإِشْرَاقِ.

و فى إعراب الآيه أعنى قوله: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» الخ؛ بين القوم مشاجرات طويله و الذى يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن «مِنْ» زائده للتعميم، و قوله: «غَيْرُ اللَّهِ» صفة لخالق تابع لمحلله، و كذا قوله: «يَرْزُقُكُمْ» الخ؛ و «مِنْ خَالِقٍ» مبتدأ محذوف الخبر و هو موجود، و قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» اعتراض، و قوله: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» تفرّيع على ما تقدمه.

قوله تعالى: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أى و إن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعه فلا تحزن فليس ذلك بيدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم و أقوامهم و الى الله ترجع عامه الامور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

و من هنا يظهر أن قوله: «فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ» من قبيل وضع السبب موضع

المسبب و أن قوله: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» معطوف على قوله: «فَقَدْ كَذَّبْتَ» الخ؛

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحيده تعالى في الربوبية والالوهية.

فقوله: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» أى وعده أنه يبعثكم فيجازى كل عامل بعمله إن خيرا و إن شرا حق أى ثابت واقع، وقد صرح بهذا الوعد فى قوله الآتى: «الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» .

و قوله: فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا النهى و إن كان متوجها الى الحياه الدنيا صوره لكنه فى الحقيقه متوجه اليهم، والمعنى اذا كان وعد الله حقا فلا تغتروا بالحياه الدنيا بالاشتغال بزيتها و التهللى بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها و ملاحياها و الاستغراق فى طلبها و الإعراض عن الحق.

و قوله: وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ الغرور بفتح الغين صيغه مبالغه من الغرور بالضم و هو الذى يبالغ فى الغرور و من عادته ذلك، و الظاهر- كما قيل- أن المراد به الشيطان و يؤيده التعليل الواقع فى الآيه التالیه «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ» الخ.

و معنى غروره بالله توجيهه أنظارهم الى مظاهر حلمه و عفوه تعالى تاره و مظاهر ابتلائه و استدراجه و كيده أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا و نسيان الآخرة و الإعراض عن الحق و الحقيقه لا يستعقب عقوبه و لا يستتبع مؤاخذه، و أن أبناء الدنيا كلما أمعنوا فى طلبهم و توغلوا فى غفلتهم و استغرقوا فى المعاصى و الذنوب زادوا فى عيشهم طيبا و فى حياتهم راحه و بين الناس جاها و عزه فيلقى الشيطان عند ذلك فى قلوبهم أن لا- كرامه إلا- فى التقدم فى الحياه الدنيا، و لا- خبر عما وراءها و ليس ما تتضمنه الدعوه الحقه من الوعد و الوعيد و تخبر به النبوه من البعث و الحساب و الجنه و النار إلا خرافه.

فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته و ظلمه.

قوله تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا خَالِئًا لِلنَّهْيِ الْمَتَّقِينَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ بِاللَّهِ الْعَزُورُ» و المراد بعداؤه الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان و تحريمه سعادته الحياه و حسن العقابه، و المراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته الى الباطل و عدم طاعته فيما يشير اليه في وساوسه و تسويلاته و لذلك علل عداوته بقوله:

«إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ» .

فقوله: إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ في مقام تعليل ما تقدمه و الحزب هو العده من الناس يجمعهم غرض واحد، و اللام في «لِيَكُونُوا» للتعليل فكونهم من أصحاب السعير عله غائيه لدعوته، و السعير النار المسعره و هو من أسماء جهنم في القرآن.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ هَذَا هُوَ الْوَعْدُ الْحَقُّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ تَنْكِيرُ الْعَذَابِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّفْخِيمِ عَلَى أَنْ لَهُمْ دَرَكَاتٌ وَ مَرَاتِبٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الْعَذَابِ بِاخْتِلَافِ كُفْرِهِمْ وَ فَسُوقِهِمْ فَالِإِبْهَامِ أَنْسَبُ وَ يَجْرَى نَظِيرُ الْوَجْهِينِ فِي قَوْلِهِ: «مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ» .

قوله تعالى: أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ تَقْرِيرٌ وَ بَيَانٌ لِلتَّقْسِيمِ الَّذِي تَتَضَمَّنُهُ الْآيَةُ السَّابِقَةُ أَعْنَى تَقْسِيمِ النَّاسِ إِلَى كَافِرٍ لَهُ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مُؤْمِنٍ عَامِلٍ بِالصَّالِحَاتِ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَ الْمُرَادُ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ فَلَا تَسْتَوِي عَاقِبَةُ أَمْرِهِمَا.

فقوله: أَمْ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا مَبْتَدَأُ خَبْرَهُ مَحْذُوفٌ أَيْ كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَ الْفَاءُ لِتَفْرِيعِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَعْنَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ الْاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، وَ الْمُرَادُ بِمَنْ

زين له سوء عمله فرآه حسنا الكافر ويشير به الى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه، والمعنى أنه لا يستوى من زين له عمله السيئ فرآه حسنا والذي ليس كذلك بل يرى السيئ سيئا.

وقوله: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ تَعْلِيلٌ لِلإِنكَارِ السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسِينًا» أى الكافر الذى شأنه ذلك و المؤمن الذى بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيئته و هو الكافر الذى يرى السيئه حسنه و يهدى الآخر بمشيئته و هو المؤمن الذى يعمل الصالحات و يرى السيئه سيئه.

و هذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاه و ليس إضللا ابتدائيا فلا ضير فى انتسابه الى الله سبحانه.

و بالجملة اختلاف الكافر و المؤمن فى عاقبتهم بحسب الوعد الإلهى بالعذاب و الرحمه لاختلافهما بالإضلال و الهدايه الإلهيين و اختلافهما بالإضلال و الهدايه باختلافهما فى رؤيه السيئه حسنه و عدمها.

وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ الحسرات جمع حسره و هى الغم لما فات و الندم عليه، و هى منصوبه لأنه مفعول لأجله و المراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئه من عدم إيمانهم.

وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ الحسرات جمع حسره و هى الغم لما فات و الندم عليه، و هى منصوبه لأنه مفعول لأجله و المراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئه من عدم إيمانهم.

و الجملة متفرعه على الفرق السابق أى إذا كان الطائفتان مختلفتين بالإضلال و الهدايه من جناب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك و كفروا بك فإن الله هو الذى يضلهم جزاء لكفرهم و رؤيتهم السيئه حسنه و هو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر و لا يفعل

بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق.

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٩ الى ١٤]

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَمُسْقِنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصِيدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْقَالٍ وَ لَا تَصْعُقُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَ مَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسِيخَرُجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرٌ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

ص: ٢٠٣

قوله تعالى: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَـجَاباً فَسُقِيَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ الخ؛ العناية في المقام بتحقيق وقوع الأمطار و إنبات النبات بها، و لذلك قال: «اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» و هذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَثِيرُ سَـجَاباً (الروم ٤٨).

و قوله: فَتَثِيرُ سَـجَاباً عطف على «أَرْسَلَ» و الضمير للرياح و الإتيان بصيغه المضارع لحكاية الحال الماضية و الإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثوراناً إذا انتشر ساطعاً.

و قوله: فَسُقِيَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ أى الى أرض لا- نبات فيها «فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» و أنبتنا فيها نباتاً بعد ما لم تكن، و نسبه الإحياء الى الأرض و إن كانت مجازيه لكن نسبته الى النبات حقيقة و أعمال النبات من التغذية و النمو و توليد المثل و ما يتعلق بذلك أعمال حيويه تنبعث من أصل الحياه.

و لذلك شبه البعث و إحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أى إنبات النبات بعد توقفه عن العمل و ركوده فى الشتاء فقال: «كَذَلِكَ النُّشُورُ» أى البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم و إخراجهم من القبور.

و فى قوله: فَسُقِيَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ الخ؛ التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير فهو تعالى فى قوله: «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ» بنعت الغيبه و فى قوله: «فَسُقِيَاهُ» الخ؛ بنعت التكلم مع الغير و لعل النكته فى ذلك هى أنه لما قال: «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ» أخذ لنفسه نعت الغيبه و يتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب، ثم لما قال: «فَتَثِيرُ سَـجَاباً» على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل و يشاهد الرياح و هى تثير السحاب و تنشره فى الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدته الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدته الفاعل فلما ظهر

تعالى بنعت الحضور غير سياق كلامه من الغيبة الى التكلم و اختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و قوله: فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَلَمْ يَقُلْ: فأحييناه مع كفايته و كذا قوله: «بَعْدَ مَوْتِهَا» مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذى لا ارتياب دونه.

قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا قال الراغب فى المفردات:

العزة حاله مانعه للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أى صلبه قال تعالى: «أَيَّتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» انتهى.

فالصلاية هو الأصل فى معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر و لا يقهر كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا (يوسف ٨٨). و كذا العزة بمعنى الغلبة قال تعالى: وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (ص ٢٣) و العزة بمعنى القله و صعوبه المنال، قال تعالى: وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (حم السجده ٤١) و العزة بمعنى مطلق الصعوبه قال تعالى: عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ (التوبة ١٣٨) و العزة بمعنى الأنفة و الحميه قال تعالى: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقٍ (ص ٢) الى غير ذلك.

ثم إن العزة بمعنى كون الشىء قاهرا غير مقهور أو غالبا غير مغلوب تختص بحقيقه معناها بالله عز و جل إذ غيره تعالى فقير فى ذاته ذليل فى نفسه لا يملك لنفسه شيئا إلا- أن يرحمه الله و يؤتیه شيئا من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون ٨).

و بذلك يظهر أن قوله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» ليس بمسوق لبيان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره و أن من أرادها فقد طلب محالا و أراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فيطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعا لا توجد عند غيره بالذات.

فوضع قوله: «فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا» فى جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب

و هو طلبها من عنده أى اكتسابها منه بالعبودية التى لا تحصل إلا بالإيمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ** - كما قيل - اسم جنس جمعى يذكر و يؤنث، و قال فى المجمع: و الكلم جمع كلمه يقال؟ هذا كلم و هذه كلم فيذكر و يؤنث، و كل جمع ليس بينه و بين واحده إلا - الهاء يجوز فيه التذكير و التأنيث انتهى.

و المراد بالكلم على أى حال ما يفيد معنى تاما كلاميا و يشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه و متكلمه بحيث تنبسط منه و تستلذه و تستكمل به و ذلك إنما يكون بإفادته معنى حقا فيه سعادته النفس و فلاحها.

و بذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيبا فالمراد به الاعتقادات الحقه التى يسعد الإنسان بالإذعان لها و بناء عمله عليها و المتيقن منها كلمه التوحيد التى يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقه و هى المشموله لقوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا - كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضْرُؤُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا** (إبراهيم ٢٥) و تسميه الاعتقاد قولاً و كلمه أمر شائع بينهم.

و صعود الكلم الطيب اليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء و هو العلى الأعلى رفيع الدرجات، و إذ كان اعتقاداً قائماً بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه، و قد فسروا صعود الكلم الطيب بقوله تعالى له و هو من لوازم المعنى.

ثم أن الاعتقاد و الإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقا الى نفسه صدقه العمل و لم يكذبه أى يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فرع العلم و آثاره التى لا - تنفك عنه، و كلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً و جلاء و قوى فى تأثيره فالعمل الصالح و هو العمل الحرى بالقبول الذى طبع عليه بذل العبوديه و الإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق فى ترتب أثره عليه و هو الصعود اليه تعالى و هو المعزى اليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

فقد تبين بما مر معنى قوله: **«إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»** و أن ضمير

«إِلَيْهِ» لله سبحانه و المراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد، و بصعوده تقربه منه تعالى، و بالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق و يلائمه و أن الفاعل في «يَزْفَعُهُ» ضمير مستكن راجع الى العمل الصالح و ضمير المفعول راجع الى الكلم الطيب.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ذِكْرُوا أَنْ «السَّيِّئَاتِ» وصف قائم مقام موصوف محذوف و هو المكرات، و وضع اسم الإشارة موضع الضمير في «مَكْرٌ أُولَئِكَ» للدلالة على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم و المعنى و الذين يمكرون المكرات السيئات لهم عذاب شديد و مكر أولئك الماكرين هو يبور و يهلك فلا يستعقب أثرا حيا فيه سعادتهم و عزتهم.

و قد بان أن المراد بالسيئات أنواع المكرات و الحيل التي يتخذها المشركون و وسائل لكسب العزه، و الآيه مطلقه، و قيل: المراد بالمكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في دار الندوه و غيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم اليهم و أخرجهم الى بدر و قتلهم و أثبتهم في القلب فجمع عليهم الإثبات و الإخراج و القتل و هذا وجه حسن لكن الآيه مطلقه.

و وجه اتصال ذيل الآيه بصدرها أعنى اتصال قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ» الى آخر الآيه بقوله:

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» أن المشركين كانوا يعترفون بآلهتهم كما قال تعالى:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (مريم ٨١) فدعاهم الله سبحانه و هم يطلبون العز الى نفسه بتذكيرهم أن العزه لله جميعا و بين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد اليه و العمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزه من منبع العزه و أما الذين يمكرون كل مكر سيئ لاكتساب العزه فلهم عذاب شديد و ما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد الى محل و لا يكسب لهم عزا.

قوله تعالى: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجاً

الخ؛ يشير تعالى الى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تراب و هو المبدأ البعيد الذى تنتهى اليه الخلقه ثم من نطفه و هى مبدأ قريب تتعلق به الخلقه.

و الفرق بين الوجوه الثلاثه أن فى الأول نسبه الخلق من تراب اليهم على طريق المجاز العقلى، و فى الثانى المراد بخلقهم خلق آدم و لا- مجاز فى النسبه، و فى الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقه من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالى لا تفصيلى و بهذا يفارق ما قدمناه من الوجه.

و يمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (الرحمن / ١٤)، و الثانى بنحو قوله: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (السجده / ٨)، و الثالث بقوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ (الأعراف / ١١) و لكل وجه.

و قوله: ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا أى ذكورا و إناثا، و قيل: أى قدر بينكم الزوجيه و زوج بعضكم من بعض، و هو كما ترى، و قيل: أى أصنافا و شعوبا. و هو كسابقه.

و قوله: وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُثْقَالٍ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا- بِعِلْمِهِ من زائده لتأكيد النفي، و الباء فى «بِعِلْمِهِ» للمصاحبه و هو حال من الحمل و الوضع، و المعنى ما تحمل و لا تضع أثنى إلا و علمه يصاحب حمله و وضعه، و ذكر بعضهم أنه حال من الفاعل و أن كونه حالا من الحمل و الوضع و كذا من مفعوليهما أى المحمول و الموضوع خلاف الظاهر و هو ممنوع.

و قوله: وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا- يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا- فِي كِتَابٍ أى و ما يمد و يزداد فى عمر أحد فيكون معمرا و لا ينقص من عمره أى عمر أحد إلا فى كتاب.

فقوله: وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ مِنْ قَبِيلٍ قوله: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا» (يوسف / ٢٦) فوضع معمر موضع نائب الفاعل و هو أحد بعنايه أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمرا و إلا فتعمير المعمر لا معنى له.

وقوله: وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ الضَّمِيرُ فِي «عُمُرِهِ» راجع إلى «مُعَمَّرٍ» باعتبار موصوفه المحذوف وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلا فنقص عمر المفروض معمرا تناقض خارق للفرض.

وقوله: إِيَّا فِي كِتَابٍ وَهُوَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي لَا سَبِيلَ لِلتَّغْيِيرِ إِلَيْهِ فَقَدْ كَتَبَ فِيهِ أَنْ فَلَانَا يَزَادُ فِي عَمْرِهِ كَذَا لِسَبَبٍ كَذَا وَفَلَانَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ كَذَا لِسَبَبٍ كَذَا وَأَمَّا كِتَابُ الْمَحْوِ وَالْإِثْبَاتُ فَهُوَ مَرُودُ التَّغْيِيرِ وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَفِيدُ وَصْفَ الْعِلْمِ الثَّابِتِ وَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ» وَجُوهٌ آخَرٌ ضَعِيفَةٌ لَا جَدْوَى فِي التَّعْرُضِ لَهَا.

وقوله: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تَعْلِيلٌ وَتَقْرِيرٌ لِمَا فِي الْآيَةِ مِنْ وَصْفِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَكَيْفِيَةِ إِحْدَاثِهِ وَإِبْقَائِهِ وَ الْمَعْنَى أَنَّ هَذَا التَّدْبِيرَ الدَّقِيقَ الْمُتَيْنِ الْمُهَيْمِنِ عَلَى كَلِيَّاتِ الْحَوَادِثِ وَجَزْئِيَّاتِهَا الْمَقْرَرِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَقْرَهُ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِأَنَّهُ اللَّهُ الْعَلَمُ الْقَدِيرُ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ وَ قَدْرَتِهِ فَهُوَ تَعَالَى رَبُّ الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

قوله تعالى: وَمَا يَشْتَرِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قِيلَ: الْعَذْبُ مِنَ الْمَاءِ طَيِّبِهِ، وَالْفُرَاتُ الْمَاءُ الَّذِي يَكْسِرُ الْعَطْشَ أَوْ الْبَارِدُ كَمَا فِي الْمَجْمَعِ، وَالسَّائِغُ هُوَ الَّذِي يَسْهَلُ انْحِدَارُهُ فِي الْحَلْقِ لِعَذُوبَتِهِ وَالْأُجَاجُ الَّذِي يَحْرَقُ لَمْلُوحَتِهِ أَوْ الْمَرِّ.

وقوله: وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا اللَّحْمُ الطَّرِيُّ الْغَضُّ الْجَدِيدُ، وَالْمَرَادُ لَحْمَ السَّمَكِ أَوْ السَّمَكِ وَ الطَّيْرِ الْبَحْرِيِّ، وَالْحَلِيَّةُ الْمَسْتَخْرَجَةُ مِنَ الْبَحْرِ اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ وَالْأَصْدَافُ قَالَ تَعَالَى: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (الرَّحْمَنُ ٢٢).

وَفِي الْآيَةِ تَمَثُّلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ بِالْبَحْرِ الْعَذَابِ وَالْمَالِحِ يَتَبَيَّنُ بِهِ عَدَمُ تَسَاوِيِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ فِي الْكَمَالِ الْفَطْرِيِّ وَإِنْ تَشَارَكَ فِي غَالِبِ الْخَوَاصِ الْإِنْسَانِيَةِ وَ آثَارَهَا فَالْمُؤْمِنُ بَاقٍ عَلَى

فطرته الأصلية ينال بها سعادته الحياه الدائمه و الكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيه الفطره الإنسانيه و سيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبه و ملوحه فهما مختلفان من حيث البقاء على فطره الماء الأصلية و هى العذوبه و الخروج عنها بالملوحه و إن اشتركا فى بعض الآثار التى ينتفع بها، فمن كل منهما تأكلون لحما طريا و هو لحم السمك و الطير المصطاد من البحر و تستخرجون حليه تلبسونها كاللؤلؤ و المرجان و الأصداف.

فظاهر الآيه أن الحليه المستخرجه مشتركه بين البحر العذب و البحر المالح.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ضمير «فيه» للبحر، و مواخر جمع ماخره من المخر بمعنى الشق عدت السفينه ماخره لشقها الماء بجؤجؤتها.

قيل: إنما أفرد ضمير الخطاب فى قوله: «تَرَى» بخلاف الخطابات المتقدمه و المتأخره لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤيه دون المنتفعين بالبحرين فقط.

و قوله: لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه و هو الرزق و رجاء أن تشكروا الله سبحانه، و قد تقدم أن الترجى الذى تفيده «لعل» فى كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم.

و قد قيل فى هذه الآيه «وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ» و فى سوره النحل وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ فاختلفت الآيتان فى تقديم «فيه» على «مَوَاحِرَ» و تأخيره منه و عطف «لِيَتَّبِعُوا» و عدمه.

و لعل النكته فى ذلك أن آيه النحل مصدره بكلمه التسخير فهى مسوقه لبيان كيفية التسخير و الأنسب لذلك تأخير «فيه» ليتعلق بمواخر و يشير الى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما هاهنا ثم التسخير له غايات كثيره منها ابتغاء الفضل و الأنسب لذلك عطف «لِيَتَّبِعُوا» على محذوف ليدل على عدم انحصار الغايه فى ابتغاء الفضل بخلاف ما هاهنا

فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون- وقد تقدم ذكر تكذيبهم- عن تكذيبهم و يكفى فى ذلك بيان ابتغائهم الفضل غايه من غير حاجه الى العطف. والله أعلم.

وقال فى روح المعانى فى المقام: والذى يظهر لى فى ذلك أن آيه النحل سيقى لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها و لواحقها و تعقيب الآيات بقوله سبحانه: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمه و هو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيقى استطرادا أو تتمه للتمثيل كما علمت آنفا فقدم فيه «فيه» إيذانا بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، و كان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال فى تلك الآيه: «وَ لَتَبْتَغُوا» بالواو و مخالفه ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو فى قوله: «لَتَبْتَغُوا» انتهى.

قوله تعالى: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى الخ؛ إيلاج الليل فى النهار قصر النهار بطول الليل و إيلاج النهار فى الليل قصر الليل بطول النهار، و المراد بالجمليتين الإشاره الى اختلاف الليل و النهار فى الطول و القصر المستمر فى أيام السنه بتغير الأيام و لذا عبر بقوله: «يُوَلِّجُ» الدال على استمرار التغير بخلاف جريان الشمس و القمر فإنه ثابت على حاله و لذا عبر فيه بقوله:

«وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى» و العنايه صوريه مسامحيه.

و قوله: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ بِمَنْزِلِهِ النتيجه لما تقدم أى إذا كان أمر خلقكم و تدبيركم برا و بحرا و أرضا و سماء منتسبا اليه مدبرا بتدبيره فذلكم الله ربكم الذى يملككم و يدبر أمركم.

و قوله: لَهُ الْمُلْكُ مستنتج مما قبله و توطئه و تمهيد لما بعده من قوله: «وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ» .

و قوله: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ القطمير على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواه و ذلك مثل للشىء الطفيف، و فى المجمع: القطمير لفافه النواه.

وقيل: الحبه فى بطن النواه انتهى و الكلام على أى حال مبالغه فى نفى أصل الملك.

و المراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام و أربابها.

قوله تعالى: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** الخ؛ بيان و تقرير لما تقدم من قوله: **«وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ»** أى تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنكم إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها و لا حس و أرباب الأصنام كالملائكه و القديسين من البشر فى شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعا من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

و قوله: **وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** إذ لا قدره لهم على الاستجابة قولاً و لا فعلاً أما الأصنام فظاهر و أما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه و لن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحداً يدعو بالربوبية قال تعالى: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا** (النساء / ١٧٢).

و قوله: **وَأَيُّومَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ** أى يردون عبادتكم اليكم و يتبرءون منكم بدلاً من أن يكونوا شفعاء لكم إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا (البقره / ١٦٦).

فألايه فى نفى الاستجابة و كفر الشركاء يوم القيامة فى معنى قوله: **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** (الأحقاف / ٦).

و قوله: **وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** أى لا يخبرك عن حقيقه الأمر مخبر مثل مخبر خبير و هو خطاب خاص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام فى صوره الخطاب الخاص خوطب به السامع أى من كان كقوله: **وَتَرَى الْفُلْكَ**

فِيهِ مَوْجَزُ الْآيَةِ السَّابِقَةِ؛ وَقَوْلُهُ: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ الْآيَةَ (الكهف ١٧)؛ وَقَوْلُهُ: وَ تَحْسِبُهُمْ أُيُقَاطَا وَ هُمْ رُقُودٌ (الكهف ١٨).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ١٥ الى ٢٦]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمِمَّا ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزُرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ مِنْ تَزَكَىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَىٰ لِنَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لا ريب أن في الآيه نوع تمهيد بالنسبه الى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونها و هي مع ذلك مستقله في مفادها.

بيان ذلك: أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعباده آلهتهم و أن لله اليهم حاجه و لذلك يدعوهم الى نفسه بالدعوه الإلهيه التي يقوم بها رسله فهناك غنى و فقر و لهم نصيب من الغنى و لله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك.

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ» فقصر الفقر فيهم و قصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم و كل الغنى فيه سبحانه، و إذ كان الغنى و الفقر و هما الوجدان و الفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر و هو قصرهم في الفقر و قصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر و ليس له تعالى إلا الغنى.

فالله سبحانه غنى بالذات له أن يذهبهم و يستغنى عنهم و هم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره.

و الملاك في غناه تعالى عنهم و فقرهم أنه تعالى خالقهم و مدبر أمرهم و اليه الإشاره بأخذ لفظ الجلاله في بيان فقرهم و بيان غناه، و الإشاره الى الخلق و التدبير في قوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ» و كذا توصيفه تعالى بالحميد و هو المحمود في فعله الذي هو

فيعود معنى الكلام الى نحو من قولنا: يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء الى الله فيكم كل الفقر و الحاجة و الله بما أنه الخالق المدبر، الغنى لا غنى سواه.

و تذييل الآيه بصفه الحميد للإشاره الى أنه غنى محمود الأفعال إن أعطى و إن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء و الشكر و كل بدل مفروض و إن منع لم يتوجه اليه لائمه إذ لا حق لأحد عليه و لا يملك منه شيء.

قوله تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** أى إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غنى عنكم لا- يستضر بذهابكم و يأت بخلق جديد يحمده و يثنون عليه لا- لحاجه منهم اليهم بل لأنه حميد و مقتضاه أن وجود فيحمد و ليس ذلك على الله بصعب لقدرة المطلقه لأنه الله عز اسمه.

فقد بان أن مضمون الآيه متفرعه على مضمون الآيه السابقه فقوله: **«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ»** متفرع على كونه تعالى غنيا، وقوله: **«وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»** متفرع على كونه تعالى حميدا، وقد فرع مضمون الجملتين فى موضع آخر على غناه و رحمته قال تعالى: **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ (الأنعام ١٣٣).**

قوله تعالى: **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** الخ؛ قال الراغب: الوزر-بفتحتين- الملجأ الذى يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: **«كَأَلَا لَا وَزَرَ»** و الوزر-بالكسر فالسكون- الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: **«لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً»** الآيه؛ كقوله: **لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَهُمْ** انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حامله للإثم إثم نفس أخرى و لازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها و اكتسبته من الوزر.

فقوله: **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** أى لا تحمل نفس حامله للوزر و الإثم إثم

نفس أخرى حامله.

وقوله: وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلٍ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ أَي و إن تدع نفس مثقله أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء و لو كان المدعو ذا قربي للداعي كالأب و الام و الأخ و الاخت.

وقوله: إِنَّهَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ أَي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار و لا تتحقق معهم حقيقه الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر و ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات و أهمها و بالجمله يؤمنون بالله و يعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم و يصلون ثم يندرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآيه كقوله: إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا (يوسف ٣٦).

وقوله: وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ بدل الخشيه و إقامه الصلاة من التزكى للإشاره الى أن المطلوب بالدعوه و الإنذار هو التزكى و تزكيه النفس تلبسها بالخشيه من الله على الغيب و إقامه الصلاة.

و فيه تقرير و تأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنيا حميدا فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو اليه من التزكى بل الذى تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه.

وقد ختم الآيه بقوله: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» للدلاله على أن تزكيه من تزكى لا يذهب سدى، فإن كلا من الفريقين صائرون الى ربهم لا محاله و هو يحاسبهم و يجازيهم فيجازى هؤلاء المتركين أحسن الجزاء.

قوله تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ الظاهر أنه عطف على قوله: «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» تعليل فى صورته التمثيل لعدم مساواه هؤلاء المتركين لاولئك المكذبين، و قيل:

عطف على قوله السابق: وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ .

قوله تعالى: وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ تكرر حروف النفي مره بعد مره فى الآيه و ما يليها لتأكيد النفي.

قوله تعالى: وَلَا الظُّلُّ وَلَا الحُرُورُ الحُرورُ شده حر الشمس على ما قيل وقيل:

هو السموم وقيل: السموم يهب نهارا و الحرور يهب ليلا و نهارا.

قوله تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ الى آخر الآيه عطف على قوله: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ» و إنما كرر قوله: «مَا يَسْتَوِي» و لم يعطف «الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ» على قوله: «الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ» كرابعته لطول الفصل فاعيد «مَا يَسْتَوِي» لثلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ -الى أن قال- كَيْفَ وَ إِنِ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ الخ (التوبه ٨/).

و الجمل المتواليه المترتبه أعنى قوله: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ -الى قوله- وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَ لَا الْأَمْوَاتُ» تمثيلات للمؤمن و الكافر و تبعات أعمالهما.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ هو المؤمن كان ميتا فأحياه الله فأسمعه لما فى نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا (الأنعام / ١٢٢)، و أما النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ فإنما هو وسيله و الهدى هدى الله.

و قوله: «وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى الأموات و المراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم.

قوله تعالى: إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ قصر إضافى أى ليس لك إلا إنذارهم و أما هدايه من اهتدى منهم و إضلال من ضل و لم يهتد جزاء له بسىء عمله فإنما ذلك سبحانه. و لم يذكر البشير مع النذير مع كونه صَلَّى الله عليه و آله و سلمَ متلبسا بالوصفين معا لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الانذار مع أنه مذكور فى الآيه التاليه.

قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس بيدع مستغرب فما من أمه من الامم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه.

و ظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عند الله و فسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي و هو خلاف ظاهر الآية.

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمه من أفرادها فقد قال تعالى: «خَلَا فِيهَا» و لم يقل «خلا منها».

قوله تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقيه الرسل، و الزبر جمع زبور و لعل المراد بها بقرينه مقابلتها للكتاب الصحائف و الكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام و الشرائع، و الكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح و إبراهيم و توراه موسى و إنجيل عيسى عليهم السلام، و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ الْأَخْذِ كُنَايَه عَنِ التَّعْذِيبِ، وَ النِّكَيرِ الْإِنْكَارِ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ (١).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٢٧ الى ٣٨]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْتِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَاتٌ عِدْنٌ يُدْخَلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَ هُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ لَجَّاءُكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)

ص: ٢١٨

بيان:

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا الخ؛ حجه أخرى على التوحيد و هو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالإمطار و هو أقوى العوامل المعينه لخروج الثمرات، و لو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل و هو واحد لكان جميعها ذا لون واحد باختلاف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي.

و القول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثره فيها و منها اختلاف العناصر الموجوده فيها نوعا و قدرا و خصوصيه التأليف.

مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ الى اختلاف نفس العناصر و هي منتهيه الى المادة المشتركه التي لا- اختلاف فيها باختلاف العناصر المكونه منها يدل على عامل آخر وراء المادة يدبر أمرها و يسوقها الى غايات مخلفه.

و الظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها و يلزمه اختلافات آخر من حيث الطعم و الرائحة و الخواص، و قيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيرا ما يطلق اللون فى الفواكه و الأطعمة على النوع كما يقال: قدم فلان ألوانا من الطعام و الفاكهه فهو من الكنايه، و قوله بعد: «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَ حُمْرٌ» لا يخلو من تأييد للوجه الأول.

ص: ٢٢٠

و فى قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ السَّخَابَ؛ التفات من الغيبة الى التكلم. قيل: إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال قدره و الحكمة.

□ و نظير الوجه يجرى فى قوله السابق: «إِذَا أَرَسْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا» و أما ما فى الآيه السابقه من قوله: «ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» فلعل الوجه فيه أن أمرهم الى الله لا يتخلل بينه و بينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب.

و قوله: وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ الجدد بالضم فالفتح جمع جده بضم الجيم و هى الطريقه و الجاده، و البيض و الحمر جمع ابيض و أحمر، و الظاهر أن قوله: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا» صفه لجدد و «أَلْوَانُهَا» فاعل «مُخْتَلِفًا» و لو كانت الجملة مبتدأ و خبرا ل قيل: مختلفه ألوانها كما قيل، و الغرابيب جمع غريب و هو الأسود الشديد السواد و منه الغراب و «سُودٌ» بدل أو عطف بيان لغرابيب.

و المعنى: أ لم تر أن من الجبال طرائق بيض و حمر و سود مختلف ألوانها، و المراد إما الطرق المسلوكة فى الجبال و لها ألوان مختلفه، و إما نفس الجبال التى هى خطوط مختلفه ممدوده على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها.

□ قوله تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ أَى و من الناس و الدواب التى تدب فى الأرض و الأنعام كالإبل و الغنم و البقر بعض مختلف ألوانه بالبياض و الحمره و السواد كاختلاف الثمرات و الجبال فى ألوانها.

□ قوله تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره و يورث الإيمان بالله حقيقه و الخشيه منه بتمام معنى الكلمه فى العلماء دون الجهال، و قد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: «إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ» فهذه الآيه كالموضحه لمعنى تلك تبين أن الخشيه حق الخشيه إنما توجد فى العلماء.

و المراد بالعلماء العلماء بالله و هم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه و صفاته و أفعاله معرفه تامه تطمئن بها قلوبهم و تزيل و صمه الشك و القلق عن نفوسهم و تظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم، و المراد بالخشيه حينئذ حق الخشيه و يتبعها خشوع في باطنهم و خضوع في ظاهرهم. هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآيه.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ يفيد معنى التعليل فلغزته تعالى و كونه قاهرا غير مقهور و غالبا غير مغلوب من كل جهه يخشاه العارفون، و لكونه غفورا كثير المغفره للآثام و الخطيئات يؤمنون به و يتقربون اليه و يشتاقون الى لقائه.

□
و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ تلاوه الكتاب قراءه القرآن و قد أتى عليها الله سبحانه، و إقامه الصلاه إدامه إتيانها و حفظها من أن تترك، و الإنفاق من الرزق سرا و علانيه بذل المال سرا تحذرا من الرياء و زوال الإخلاص في الإنفاق المسنون، و بذل المال علانيه ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب.

□
و قوله: يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ أَي لَن تَهْلِكُ بالخسران، و ذكر بعضهم أن قوله:

«يَرْجُونَ» الخ؛ خبر إن في صدر الآيه و عند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: «لِيُؤْفِقَهُمُ» الخ؛ «أى فعلوا ما فعلوا ليؤفقيهم أجورهم» الخ.

قوله تعالى: لِيُؤْفِقَهُمُ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ متعلق بقوله: «يَتْلُونَ» و ما عطف عليه في الآيه السابقه أى أنهم عملوا ما عملوا لأن يؤفقيهم و يؤتيهم إيتاء تاما كاملا أجورهم و ثوابات أعمالهم.

□
و قوله: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافا كما في قوله: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا (الأنعام/١٦٠) و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ

لِمَنْ يَشَاءُ (البقره ٢٦١/)، و يمكن أن يراد بها زياده ليست من سنخ ثواب الأعمال كما فى قوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَعَدْنَا مَرْيَدًا (ق٣٥/).

و قوله: إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تعليل لمضمون الآيه و زياده فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاتهم و لكونه شكورا يشيهم و يزيد من فضله.

قوله تعالى: وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ضَمِير الفصل و اللام فى قوله: «هُوَ الْحَقُّ» للتأكيد لا للقصر أى هو حق لا يشوبه باطل.

قوله تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يقال: أُوْرَثْتُهُ مَالًا كَذَا أى تركه فيهم يقومون بأمره بعده و قد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه، و كذا إراث العلم و الجاه و نحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفا عن سلف و ينتفعون به.

و تصح هذه النسبه و إن كان القائم به بعض القوم دون كلهم، قال تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (المؤمن ٥٤/)، و قال: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرِّبَايُونَ وَ الْأَعْرَابُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (المائده ٤٤/)، و قال: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (الشورى ١٤/). فبنو إسرائيل أُوْرثوا الكتاب و إن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم.

و المراد بالكتاب فى الآيه على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف؟ و قوله فى الآيه السابقه: «وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» نص فيه، فاللام فى الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول: إن اللام للجنس و المراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوى المنزل على الأنبياء.

و الاصطفاء أخذ صفوه الشئ و يقرب من معنى الاختيار و الفرق أن الاختيار أخذ الشئ

من بين الأشياء بما أنه خيرها و الاصطفاء أخذه من بينها بما أنه صفوتها و خالصها.

و قوله: مِنْ عِبَادِنَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ «مِنْ» لِلتَّبِينِ أَوْ لِلابْتِدَاءِ أَوْ لِلتَّبَعِيضِ الْأَقْرَبِ إِلَى الذَّهْنِ أَنْ يَكُونَ بَيَانِيهِ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: وَ سَلَامٌ عَلَيَّ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى (النمل / ٥٩).

و قوله: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ضَمِير «مِنْهُمْ» رَاجِعًا إِلَى «الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا» فَيَكُونُ الطَّوَائِفُ الثَّلَاثُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ وَ الْمُقْتَصِدِ وَ السَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ شُرَكَاءَ فِي الْوَرَاثَةِ وَ إِنْ كَانَ الْوَارِثُ الْحَقِيقِيُّ الْعَالَمُ بِالْكِتَابِ وَ الْحَافِظُ لَهُ هُوَ السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ.

و يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ رَاجِعًا إِلَى عِبَادِنَا- مِنْ غَيْرِ إِفَادِهِ الْإِضَافَةِ لِلتَّشْرِيفِ- فَيَكُونُ قَوْلُهُ:

«فَمِنْهُمْ» مُفِيدًا لِلتَّعْلِيلِ وَ الْمَعْنَى إِنَّمَا أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ بَعْضَ عِبَادِنَا وَ هُمُ الْمُصْطَفُونَ لِأَنَّ جَمِيعَ الْعِبَادِ لِأَنَّ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ وَ لَا يَصْلِحُ الْكُلُّ لِلْوَرَاثَةِ.

وَ يُمْكِنُ تَأْيِيدُ أَوَّلِ الْإِحْتِمَالَيْنِ بِأَنَّ لَا مَانِعَ مِنْ نَسْبِهِ الْوَرَاثَةِ إِلَى الْكُلِّ مَعَ قِيَامِ الْبَعْثِ بِهَا حَقِيقَةً كَمَا نَجِدُ نَظِيرَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (المؤمن ٥٤).

وَ مَا فِي الْآيَةِ مِنَ الْمَقَابَلَةِ بَيْنِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ وَ الْمُقْتَصِدِ وَ السَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ يُعْطَى أَنْ الْمُرَادُ بِالظَّالِمِ لِنَفْسِهِ مَنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَ هُوَ مُسْلِمٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ لِكَوْنِهِ مُصْطَفَى وَ وَارِثًا، وَ الْمُرَادُ بِالْمُقْتَصِدِ الْمُتَوَسِّطِ الَّذِي هُوَ فِي قِصْدِ السَّبِيلِ وَ سِوَاءِ الطَّرِيقِ وَ الْمُرَادُ بِالسَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ سَبَقِ الظَّالِمِ وَ الْمُقْتَصِدِ إِلَى دَرَجَاتِ الْقُرْبِ فَهُوَ أَمَامَ غَيْرِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ سَبَبُ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ قَالَ تَعَالَى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعه ١١).

وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيرَاثِ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مِنَ اللَّهِ لَا دَخَلَ لِلْكَسْبِ فِيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ

وَأُولَئِكَ وَ لِإِسَائِهِمْ فِيهَا حَرِيْرُ التَّحْلِيهِ هِيَ التَّرِيْرِيْنَ وَ الْأَسَاوِرُ جَمْعُ أُسُوْرِهِ وَ هِيَ جَمْعُ سَوَارٍ بِكَسْرِ السِّيْنِ قَالِ الرَّاْغِبُ: سَوَارُ الْمِرْأَةِ مَعْرَبٌ وَ أَصْلُهُ دَسْتَوَارُهُ. انْتَهَى.

وَقَوْلُهُ: «جَدَاتٌ عَيْدِنِ» الخ؛ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ بَيَانٌ لِلْفَضْلِ الْكَبِيْرِ قَالِ فِي الْمَجْمَعِ: هَذَا تَفْسِيْرٌ لِلْفَضْلِ كَأَنَّهُ قِيْلُ: مَا ذَلِكَ الْفَضْلُ؟ فَقَالَ: هِيَ جَنَاتٌ أَيْ جَزَاءُ جَنَاتٍ أَوْ دُخُولُ جَنَاتٍ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنَ الْفَضْلِ كَأَنَّهُ قَالِ: ذَلِكَ دُخُولُ جَنَاتٍ. انْتَهَى. وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» قِيْلُ: الْمُرَادُ بِالْحَزَنِ الَّذِي يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَيَّ إِذْ هَابَهُ بِإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ الْحَزْنَ الَّذِي كَانَ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا يَحْفَ بِهَا مِنَ الشَّدَائِدِ وَ النَّوَائِبِ.

وَقِيْلُ: الْمُرَادُ بِهِ الْحَزْنَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ بَعْدَ الْاِرْتِجَالِ مِنَ الدُّنْيَا، وَ قِيْلُ الدُّخُولُ فِي جَنَّةِ الْآخِرَةِ إِشْفَاقًا مِمَّا اِكْتَسَبُوهُ مِنَ السِّيِّئَاتِ.

وَ عَلَيَّ هَذَا فَالْقَوْلُ قَوْلُ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ أَوْ قَوْلُهُ وَ قَوْلُ الْمُقْتَصِدِ وَ أَمَّا السَّابِقُ بِالْخِيَرَاتِ مِنْهُمْ فَلَا سِيئَةَ فِي صَحِيْفِهِ أَعْمَالُهُ حَتَّى يَعْذِبَ بِهَا. وَ هَذَا الْوَجْهُ أَنْسَبُ لِقَوْلِهِمْ فِي آخِرِ حَمْدِهِمْ:

«إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» الْمَقَامَةُ الْإِقَامَةُ، وَ دَارُ الْمَقَامَةِ الْمَنْزَلُ الَّذِي لَا خُرُوجَ مِنْهُ وَ لَا تَحْوِيلَ.

وَ النَّصَبُ بِفَتْحِ التَّيْنِ التَّعَبُ وَ الْمَشَقَّةُ، وَ اللَّغُوبُ بِضَمِّ اللَّامِ: الْعَيْ وَ التَّعَبُ فِي طَلْبِ الْمَعَاشِ وَ غَيْرِهِ.

وَ الْمَعْنَى: الَّذِي جَعَلَنَا حَالِيْنَ فِي دَارِ الْخُلُودِ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مَنَا عَلَيْهِ لَا يَمَسُّنَا فِي هَذِهِ الدَّارِ وَ هِيَ الْجَنَّةُ مَشَقَّةً وَ تَعَبًا وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا عَيْ وَ لَا كَلَالٌ فِي طَلْبِ مَا نُرِيدُ أَيْ إِنَّا لَنَا فِيهَا مَا نَشَاءُ.

وَ فِي قَوْلِهِ: «مِنْ فَضْلِهِ» مَنَاسِبُهُ خَاصَّهُ مَعَ قَوْلِهِ السَّابِقِ: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيْرُ».

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ اللام في «لَهُمْ» للاختصاص و يفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم، و قوله: «لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» اى لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم احياء على ما هم فيه من شدة العذاب و لا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره.

قوله تعالى: وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ فى الجمع:

الاصطراخ الصياح و النداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى.

و قوله: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان لاصطراخهم، و قوله: «أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛ جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى، و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليه: -كلا- أو لم نعلمكم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصروهم ليتخلصوا من العذاب.

قوله تعالى: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان لاصطراخهم، و قوله: «أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» الخ؛ جواب اصطراخهم و قوله: «فَذُوقُوا» و قوله: «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» كل منهما متفرع على ما قبله.

و المعنى، و هؤلاء الذين فى النار من الكفار يصطرخون و يصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سيئ غير الذى كنا نعمل فيقال لهم ردا عليهم: -كلا- أو لم نعلمكم عمرا يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا و لم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصروهم ليتخلصوا من

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد و آثار الأعمال و يحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى: إِنَّ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحَسَبِكُمْ بِهِ اللَّهُ (البقره ٢٨٤/٧)، وقال: يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (الطارق ٩/١).

[سوره فاطر (٣٥): الآيات ٣٩ الى ٤٥]

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَ أَفَسَوْا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِخْوَانِهِ الْأُولَىٰ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) إِسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَا لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥)

ص: ٢٢٧

١ - ١. فاطر ٢٧-٣٨: بحث روائي حول قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»؛ الذين اصطفاهم الله من عباده؛ انواع العلم.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ الخ؛ الخلائف جمع خليفه، وكون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سابقه و سلطته على التصرف و الانتفاع منها كما كان السابق مسلطاً عليه، و هم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقه و هو الخلقه من طريق النسل و الولاده فإن هذا النوع من الخلقه يقسم المخلوق الى سلف و خلف.

فجعل الخلافة الأرضيه نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك عنه و لذلك استدل به على توحيده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره.

فقوله: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ حجه على توحيده تعالى في ربوبيته انتفائها عن شركائهم: تقريره أن الذي جعل الخلافة الأرضيه في العالم الإنساني هو

ربهم المدبر لأمرهم، وجعل الخلافه لا ينفك عن نوع الخلقه فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخلاق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان.

وقوله: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أَى فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر و ستر هذه الحقيقه و نسب الربوبيه الى غيره تعالى فعلى ضرره كفره.

وقوله: وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا بيان لكون كفرهم عليهم و هو أن كفرهم يورث لهم مقتا عند ربهم و المقت شده البغض لأن فيه إعراضا عن عبوديته و استهانته بساحته، و يورث لهم خسارا فى أنفسهم لأنهم بدلوا السعاده الإنسانيه شقاء و وبالا سيصيبهم فى مسيرهم و منقلبهم الى دار الجزاء.

و إنما عبر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطره الإنسانيه بسيطه ساذجه واقعه فى معرض الاستكمال و الازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالا و قربا من الله و إن كفر زاده ذلك مقتا عند الله و خسارا.

و إنما قيد المقت بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا و السعاده شقاء و هو أمر عند أنفسهم و أما المقت و شده البغض فمن عند الله سبحانه.

و الحب و البغض المنسوبان الى الله سبحانه من صفات الأفعال و هى معان خارجة عن الذات غير قائمه بها، و معنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه و انجذابها اليه و بغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه و ابتعادها عنه.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُفِّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إضافة الشركاء اليهم بعنايه أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهى إضافة لاميه مجازيه.

و فى الآيه تلقين النبى صلى الله عليه و آله و سلم الحجه على نفى ربوبيه آلهتهم الذين كانوا يعبدونهم و تقرير الحجه أنهم لو كانوا أربابا آلهه من دون الله لكان لهم شىء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما

يدبرونه لأن الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدل عليه دليل و الدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقا لهم و لو بنحو الشركه و هو قوله: «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» .

و أما من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سماويا نازلا من عنده سبحانه يعترف بربوبيتهم و يجوز للناس أن يعبدوهم و يتخذوهم آلهه، و لم ينزل كتاب على هذه الصفة و هم معترفون بذلك و هو قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ» .

و إنما عبر عن نفى خالقيتهم في الأرض بقوله: «أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» و لم يقل:

أنبئوني ألهم شرك في الأرض؟ و عبر في السماوات بقوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» و لم يقل:

أم ما ذا خلقوا من السماوات.

لأن المراد بالأرض-على ما يدل عليه سياق الاحتجاج-العالم الأرضي و هو الأرض بما فيها و ما عليها و المراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات و ما فيها و ما عليها فقوله: «مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» في معنى ألهم شرك في الأرض و لا يكون إلا بخلق شيء منها، و قوله: «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» في معنى أم ما ذا خلقوا من السماوات، و قد اكتفى بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة الى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق.

و قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ أَمْ لَمْ نَلِكْ مِنْهُ» أي بل آتيناهم كتابا فهم على بينه منه أي على حجه ظاهره من الكتاب أن لشركائهم معناه و ذلك بدلالته على أنهم شركاء لله.

و قد قال: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا» و لم يقل: أم لهم كتاب و نحو ذلك ليتأكد النفي و الإنكار فإن قولنا: أم لهم كتاب و نحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله: «أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا» إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل.

و قد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في «آتَيْنَاهُمْ» و في «فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ» للمشركين فلا يعبا بما قيل: إن الضمير للشركاء.

وقوله: يَلْ إِنْ يَعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذى حملهم على الشرك ليس هو حجه تحملهم عليه و يعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعده الشفاعة و الزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم و رؤسائهم و أئمتهم يغرون مرءوسيهم و تابعيهم و يعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه و لا حقيقه لها.

و حجه الآيه عامه على المشركين عبده الأصنام و هم الذين يعبدون الملائكه و الجن و قد يسيء البشر و يتخذون لهم أصناما يتوجهون إليها، و على الذين يعبدون روحاني الكواكب و يتوجهون الى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناما، و على الذين يعبدون الملائكه و العناصر من غير أن يتخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء، و على الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَرَ كَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛ قيل: إن الآيه استئناف مقرر لغايه قبح الشرك و هو له أى أن الله تعالى يحفظ السماوات و الأرض كراهه أن تزولا- أو لثلا- تزولا- و تضمحلا لأن الممكن كما يحتاج الى الواجب حال إيجاده يحتاج اليه حال بقاءه. انتهى.

و الظاهر أنه تعالى لما استدل على توحيده فى الربوبيه يجعل الخلافه فى النوع الإنسانى بقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ» الآيه؛ ثم نفى الشركه مطلقا بالحجه عمم الحجه بحيث تشمل الخلق كله أعنى السماوات و الأرض فاحتج على توحيده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذى لا يرتاب فيه أن حدوث الشىء و أصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقاءه و تلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشىء بعد حدوثه يحتاج الى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال و الاستمرار.

و إبقاء الشىء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دقت النظر وجدت أن النظام الجارى فى الكون إنما يجرى بالإحداث و الإبقاء فقط. و الموجد

و الخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسموات و الأرض وحده لا شريك له.

فقوله: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا بِمَعْنَاهُ الْمَعْرُوفِ وَقَوْلُهُ: «أَنْ تَزُولَا» -و تقديره كراهه أن تزولا أو لثلا تزولا-متعلق به، وقيل:

الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ و على أى حال فالإمساك كناية عن الإبقاء و هو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال و الاستمرار، و الزوال هو الاضمحلال و البطلان.

و نقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكانية، و المعنى أن الله يمنع السموات و الأرض من أن ينتقل شىء منهما عن مكانه الذى استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى و الشأن فى تصور مراده تصورا صحيحا.

و قوله: وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَيْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ السِّيَاقُ يَعْطَى أَنْ الْمُرَادُ بِالزَّوَالِ هَاهُنَا الْإِشْرَافُ عَلَى الزَّوَالِ إِذْ نَفْسُ الزَّوَالِ لَا يَجْتَمِعُ مَعَهُ الْإِمْسَاكُ وَ الْمَعْنَى وَ أَقْسَمُ لَنْ أَشْرَفْتَا عَلَى الزَّوَالِ لَمْ يَمْسِكْهُمَا أَحَدٌ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ لَا مَفِيزَ لِلْوُجُودِ غَيْرِهِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالزَّوَالِ مَعْنَاهُ الْحَقِيقَى وَ الْمُرَادُ بِالْإِمْسَاكِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِمْسَاكِ وَ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ «مِنْ» الْأُولَى زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَ الثَّانِيَةَ لِلإِبْتِدَاءِ، وَ ضَمِيرُ «مِنْ بَعْدِهِ» رَاجِعٌ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَ قِيلَ: رَاجِعٌ إِلَى الزَّوَالِ.

و قوله: إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا فَهُوَ لِحَلْمِهِ لَا يَعَجَلُ إِلَى أَمْرٍ وَ لِمَغْفَرِهِ يَسْتَرْجِهَاتِ الْعَدَمِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَ مَقْتَضَى الْأَسْمِينَ أَنْ يَمْسَكَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا إِلَى أَجْلِ مَسْمَى.

و قال فى إرشاد العقل السليم: إنه كان حلِيمًا غفورًا غير معاجل بالعقوبه التى تستوجبها جنایاتهم حيث أمسكهما و كانتا جديرتين بأن تهديا هدا حسبما قال تعالى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ انتهى.

قوله تعالى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى

مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا قَالَ الرَّاعِبُ: الْجَهْدُ -بِفَتْحِ الْجِيمِ- وَالْجَهْدُ -بِضَمِّهَا- الطَّاقَةُ وَالْمَشَقَّةُ -إِلَى أَنْ قَالَ- وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ» أَي حَلَفُوا وَاجْتَهَدُوا فِي الْحَلْفِ أَنْ يَأْتُوا بِهِ عَلَى أْبْلَغِ مَا فِي وَسْعِهِمْ. انْتَهَى. وَقَالَ: النُّفْرَانُ انْتِزَاعُ عَنِ الشَّيْءِ وَالْإِنْفِرَافُ إِلَى الشَّيْءِ كَالْفِرَافِ إِلَى الشَّيْءِ وَعَنِ الشَّيْءِ يُقَالُ: نَفَرَ عَنِ الشَّيْءِ نَفُورًا قَالَ تَعَالَى: «مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا» انْتَهَى.

قيل (1): بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أنتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتاونا رسول لنكونن أهدى من إحدى الامم انتهى، و سياق الآية يصدق هذا النقل و يؤيده.

فقوله: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ الضمير لقريش و قد حلفوا هذا الحلف قبل بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله بعد: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ»، و المقسم به قوله: «لئن جاءهم نذيرٌ» الخ.

و قوله: «لئن جاءهم نذيرٌ ليكونن أهدى من إحدى الأمم أي إحدى الامم التي جاءهم نذير كما لليهود والنصارى و إنما قال: «ليكونن أهدى من إحدى الأمم» و لم يقل: أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمه ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمه ذات نذير كما إحدى تلك الامم المنذره ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها و هو قوله: «أهدى من إحدى الأمم» فافهمه.

و قوله: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا المراد بالنذير النبي صلى الله عليه وآله وسلم و النفور التباعد و الهرب.

قوله تعالى: اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَ مَكْرَ السَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

ص: ٢٣٣

إِلَّا بِأَهْلِهِ قَالَ الرَّاعِبُ: الْمَكْرُ صَرْفُ الْغَيْرِ عَمَّا يَقْصِدُهُ بِحِيلِهِ، وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: مَكْرٌ مَحْمُودٌ وَذَلِكَ أَنْ يَتَحَرَى بِذَلِكَ فَعَلَّ حَمِيلٌ وَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» وَ مَذْمُومٌ وَ هُوَ أَنْ يَتَحَرَى بِهِ فَعَلَّ قَبِيحٌ قَالَ تَعَالَى: «لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَنْتَهَى.

وَ قَالَ أَيْضًا: قَالَ عَزَّ وَ جَلَّ: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَى لَا يَنْزِلُ وَ لَا يَصِيبُ.

قِيلَ: وَ أَصْلُهُ حَقُّ فِقْلٍ نَحْوِ زَلِّ وَ زَالَ وَ قَدْ قُرئَ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ وَ أَزَالَهُمَا وَ عَلَى هَذَا ذَمُّهُ وَ ذَامَهُ. أَنْتَهَى.

وَ قَوْلُهُ: «اسْتَكْبَارًا فِي الْمَأْرُضِ» مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ لِقَوْلِهِ: «نُفُورًا» أَى نَفَرُوا عَنْهُ وَ تَبَاعَدُوا لِلْاِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ وَ قَوْلُهُ: «وَ مَكْرُ السَّيِّئِ» مَعْطُوفٌ عَلَى «اسْتِكْبَارًا» وَ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ مِثْلَهُ، وَ قِيلَ: مَعْطُوفٌ عَلَى «نُفُورًا» وَ الْإِضَافَةُ فِيهِ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ثَانِيًا: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ» الْخ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ لَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» أَى لَا يَصِيبُ وَ لَا يَنْزِلُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِيهِ، فَانِ الْمَكْرُ السَّيِّئُ وَ إِنْ كَانَ رِبْمًا أَصَابَ بِهِ مَكْرُوهٌ لِلْمَمْكُورِ بِهِ، لَكِنَّهُ سَيُزُولُ وَ لَا يَدُومُ إِلَّا أَنْ أَثَرَهُ السَّيِّئِ بِمَا أَنَّهُ الْمَكْرُ سَيِّئٌ يَبْقَى فِي نَفْسِ الْمَاكِرِ وَ سَيُظْهِرُ فِيهِ وَ يَجْزَى بِهِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَ إِمَّا فِي الْآخِرَةِ الْبَتَّةَ، وَ لِهَذَا فَسَّرَ الْآيَةَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ بِقَوْلِهِ: وَ الْمَعْنَى لَا يَنْزِلُ جِزَاءَ الْمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِمَنْ فَعَلَهُ.

وَ الْكَلَامُ مَرْسَلٌ إِرسَالِ الْمِثْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّمَا بِغِيَّتِكُمْ عَلَيَّ أَنفُسِكُمْ» (يُونُسُ ٢٣) / فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَيَّ نَفْسِهِ (الْفَتْحُ ١٠).

وَ قَوْلُهُ: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ النَّظَرَ وَ الْاِنْتِظَارَ بِمَعْنَى التَّوَقُّعِ وَ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ وَ الْجُمْلَةُ اسْتِنْتِجَ مِمَّا تَقَدَّمَهَا وَ الْاِسْتِفْهَامُ لِلْاِنْتِكَارِ وَ الْمَعْنَى وَ إِذْ مَكْرُوا الْمَكْرَ السَّيِّئَ وَ الْمَكْرَ السَّيِّئَ يَحِقُّ بِأَهْلِهِ فَهَمْ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّنَةَ الْجَارِيَةَ فِي الْأَمَمِ الْمَاضِينَ وَ هِيَ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ النَّازِلُ بِهِمْ إِثْرَ مَكْرِهِمْ وَ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ.

وقوله: فَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا تبديل السنه أن توضع العافيه و النعمه موضع العذاب، و تحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه الى غيرهم، و سنه الله لا- تقبل تبديلا و لا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعضا و لا استثناء.

و قد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم. و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم أو لكل سامع.

قوله تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً استشهاد على سنته الجاربه فى الامم الماضيه و قد كانوا أشد قوه من مشركى مكه فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا و كذبوا.

قوله تعالى: وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم و تخويفهم، و المحصل ليتقوا الله و ليؤمنوا به و لا يمكروا به و لا يكذبوا فإن سنه الله فى ذلك هى العذاب كما يشهد به ما جرى فى الامم السابقه من الإهلاك و التعذيب و قد كانوا أشد قوه منهم و الله سبحانه لا يعجزه شىء فى السماوات و الأرض بقوه أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل و لا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيله قد ير على الإطلاق لا يقاومه شىء.

قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ الخ؛ المراد بالمؤاخذه الدنيويه كما يدل عليه قوله الآتى: «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» الخ؛ و المراد بالناس جميعهم فإن الآيه مسبوقة بذكر مؤاخذه بعضهم و هم الماكرون المكذبون بآيات الله، و المراد بما كسبوا المعاصى التى اكتسبوها بقريته المؤاخذه التى هو العذاب و قد قال فى نظيره الآيه من سورة النحل: وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ (النحل ٦١).

و المراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها في الآيه السابقه.

و المراد بالدابه كل ما يدب فى الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير و احتمال أن يكون المراد كل ما يدب فى الأرض من حيوان و إهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقه للإنسان كما قال تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (البقره ٢٩).

و قول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصى و قد قال تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً مدفوع بأن شؤم المعصيه لا يتعدى العاصى الى غيره و قد قال تعالى: وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (فاطر ١٨) و أما الآيه أعنى قوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً (الأنفال ٢٥) فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصه لا عمومها لهم و لغيرهم فراجع.

و قوله: وَ لَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى و هو الموت أو القيامة و قوله: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا» أى فيجازى كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده و كيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه و الرب عمل عبده؟

و قد بان بما تقدم أن قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا» من وضع السبب موضع المسبب الذى هو الجزاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِذَا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا - فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

غرض السوره بيان الاصول الثلاثه للدين فهى تبتدىء بالنبوه و تصف حال الناس فى قبول الدعوه و ردها و أن غايه الدعوه الحقه إحياء قوم بر كوبهم صراط السعاده و تحقيق القول على آخرين و بعباره أخرى تكميل الناس فى طريقى السعاده و الشقاء.

ثم تنتقل السوره الى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانيه ثم تنتقل الى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء و امتياز المجرمين يومئذ من المتقين و تصف ما تؤل اليه حال كل من الفريقين.

ثم ترجع الى ما بدأت فتلخص القول فى الاصول الثلاثه و تستدل عليها و عند ذلك تختتم السوره.

و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** فَسَيَبْحَثُ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فالسوره عظيمه الشأن تجمع أصول الحقائق و أعراقها و قد ورد من طرق العامه و الخاصه أن لكل شىء قلبا و قلب القرآن يس (١).

ص: ٢٣٨

١- ١). رواه الصدوق فى ثواب الاعمال عن ابى عبد الله عليه السلام و السيوطى فى الدر المنثور عن أنس و أبى هريره و معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: يس، وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ -الى قوله- فَهُمْ غَافِلُونَ إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من المرسلين، و قد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرا فيه الحكمة و هى حقائق المعارف و ما يتفرع عليها من الشرائع و العبر و المواعظ.

و قوله: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ مقسم عليه كما تقدم.

و قوله: عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر بعد خبر لقوله: «إِنَّكَ»، و تنكير الصراط -كما قيل- للدلاله على التفخيم و توصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم، و المراد به الطريق الذى يوصل عابريه الى الله تعالى أى الى السعاده الإنسانيه التى فيها كمال العبوديه لله و القرب، و قد تقدم فى تفسير الفاتحه بعض ما ينفع فى هذا المقام من الكلام.

و قوله: تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ وصف للقرآن مقطوع عن الوصفيه منصوب على المدح، و المصدر بمعنى المفعول و محصل المعنى ألقى بالقرآن ذاك المنزل الذى أنزله الله العزيز الرحيم الذى استقر فيه العزه و الرحمه.

و التذييل بالوصفين للإشاره الى أنه قاهر غير مقهور و غالب غير مغلوب فلا يعجزه إغراض المعرضين عن عبوديته و لا يستدله جحود الجاحدين و تكذيب المكذبين، و أنه ذو رحمه واسع لمن يتبع الذكر و يخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم الى ما فيه سعادتهم و كمالهم فهو بعزته و رحمته أرسل الرسول و أنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمه العذاب على بعضهم و يشمل الرحمه منهم آخرين.

و قوله: لِيُنذِرَ قَوْمًا مِّنْهُمْ أَنْذَرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ تعليل للإرسال و التنزيل و «مَا» نافية و الجملة صفة لقوله: «قَوْمًا» و المعنى إنما أرسلك و أنزل عليك القرآن لتنذر و تخوف قوما لم ينذر آباءهم فهو غافلون.

و المراد بالقوم إن كان هو قريش و من يلحق بهم فالمراد بأبائهم آباؤهم الأذنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله، وقد أرسل الى العرب رسل آخرون كهود و صالح و شعيب عليهم السلام، و إن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا الى عموم الرساله فكذلك أيضا فأخر رسول معروف بالرساله قبله صلى الله عليه و آله و سلم هو عيسى عليه السلام و بينهما زمان الفتره.

و اعلم أن ما ذكرناه فى تركيب الآيات هو الذى يسبق منها الى الفهم و قد أوردوا فى ذلك وجوها أخر بعيده عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ اللام للقسم أى أقسم لقد ثبت و وجب القوم على أكثرهم، و المراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

و المراد بالقول الذى حق عليهم كلمه العذاب التى تكلم بها الله سبحانه فى بدء الخلقه مخاطبا بها إبليس فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص / ٨٥) و المراد بتبعيه إبليس طاعته فيما يأمر به بالسوسه و التسويل بحيث تثبت الغوايه و ترسخ فى النفس كما يشير اليه قوله تعالى خطابا لإبليس: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣).

قوله تعالى: إِذْ جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ الأعناق جمع عنق بضمعين و هو الجيد، و الأغلال جمع غل بالكسر و هى على ما قيل ما تشد به اليد الى العنق للتعذيب و التشديد، و مقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم الى أذقانهم فبقيت رءوسهم مرفوعه الى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا الى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميزوها من غيرها.

و تنكير قوله: «أَغْلَالًا» للتفخيم و التهويل.

و الآية فى مقام التعليل لقوله السابق: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ السد الحاجز بين الشيين، و قوله: «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كناية عن جميع الجهات، و الغشى و الغشيان التغطية يقال: غشيه كذا أى غطاه و أغشى الأمر فلانا أى جعل الأمر يغطيه، و الآية متممة للتعليل السابق و قوله: «جَعَلْنَا» معطوف على «جَعَلْنَا» المتقدم.

و عن الرازى فى تفسيره فى معنى التشبيه فى الآيتين أن المانع عن النظر فى الآيات قسمان:

قسم يمنع عن النظر فى الأنفس فشبه ذلك بالغل الذى يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه و لا يقع بصره على بدنه، و قسم يمنع عن النظر فى الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلى بهما جرم عن النظر بالكلية.

و معنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأننا جعلنا فى أعناقهم أغلالا بها أيديهم على أعناقهم فهى الى الأذقان فهم مرفوعه رءوسهم باقون على تلك الحال و جعلنا من جميع جهاتهم سدا فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون.

ففى الآيتين تمثيل لحالهم فى حرمانهم من الاهتداء الى الإيمان و تحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم و غوايتهم و طغيانهم فى ذلك.

و قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا (البقرة ٢٦) فى الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع فى القرآن الكريم من هذه الأوصاف و نظائرها التى وصف بها المؤمنون و الكفار يكشف عن حياه أخرى للإنسان فى باطن هذه الحياه الدنيويه مستوره عن الحس المادى ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث. و عليه فالكلام فى أمثال هذه الآيات جار فى مجرى الحقيقه دون المجاز كما عليه القوم.

قوله تعالى: وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ عطف

تفسير و تقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمه و تلخيص للمراد و تمهيد لما يتلوه من قوله:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ الْقَصْرَ لِلْإِنْفِرَادِ، و المراد بالإنذار الإنذار النافع الذى له أثر، و بالذكر القرآن الكريم، و باتباعه تصديقه و الميل اليه إذا تليت آياته، و التعبير بالماضى للإشارة الى تحقق الوقوع، و المراد بخشيته الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب و قبل انكشاف الحقيقه بالموت أو البعث، و قيل: أى حال غيبته من الناس بخلاف المنافق و هو بعيد.

و قد عقلت الخشيته على اسم الرحمن الدال على صفه الرحمه الجالبه للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء و هو الذى يقر العبد فى مقام العبوديه فلا يأمن و لا يقنط.

و تنكير «مغفر» و «أَجْرٍ كَرِيمٍ» للتفخيم أى فبشره بمغفره عظيمه من الله و أجر كريم لا يقادر قدره و هو الجنه، و الدليل على جميع ما تقدم هو السياق.

و المعنى: إنما تنذر الإنذار النافع الذى له أثر، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته و ما اليه و خشى الرحمن خشيه مشوبه بالرجاء فبشره بمغفره عظيمه و أجر كريم لا يقادر قدره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ الْمَرَادُ بِأَحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ إِحْيَاؤُهُمْ لِلجَزَاءِ.

و المراد بما قدموا الأعمال التى عملوها قبل الوفاه فقدموها على موتهم، و آثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاه يتوضا فيها، أو شر يعمل به كوضع سنه مبتدعه يستن بها أو بناء مفسقه يعصى الله فيها.

و المراد بكتابه ما قدموا و آثارهم ثبتها فى صحائف أعمالهم و ضبطها فيها بواسطه كتبه

الأعمال من الملائكة و هذه الكتابه غير كتابه الأعمال و إحصائها فى الامام المبين الذى هو اللوح المحفوظ و إن توهم بعضهم أن المراد بكتابه ما قدموا و آثارهم هو إحصاؤها فى الكتاب المبين و ذلك أنه تعالى يثبت فى كلامه كتابا يحصى كل شىء ثم لكل أمه كتابا يحصى أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصى أعماله كما قال: **وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (الأنعام/ ٥٩)**، و قال: **كُلُّ أُمَةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا (الجاثية ٢٨)**، و قال: **وَ كَمَلَّ إِنْسَانٌ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (الإسراء ١٣)**، و ظاهر الآيه أيضا يقضى بنوع من البيئونه بين كتاب الأعمال و الإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص و العموم و اختلاف التعبير بالكتابه و الإحصاء.

و قوله: **وَ كَمَلَّ شَيْءٌ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** هو اللوح المحفوظ من التغيير الذى يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه فى خلقه فيحصى كل شىء و قد ذكر فى كلامه تعالى بأسماء مختلفه كاللوح المحفوظ و ام الكتاب و الكتاب المبين و الإمام المبين كل منها بعنايه خاصه.

و لعل العنايه فى تسميته إماما مبينا أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم و كتب الأعمال كما سيأتى فى تفسير سوره الجاثيه مستنسخه منه قال تعالى: **هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩)**.

و قيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال و ليس بشىء، و قيل: علمه تعالى و هو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلى كان له وجه (١).

[سوره يس (٣٦): الآيات ١٣ الى ٣٢]

وَ اضْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِيُبَيِّنَ لَنَا آيَاتِكَ وَ تَقَرَّرْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ تَقَرَّرْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ تَقَرَّرْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ آيَاتِكَ (١٦) وَ مَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَ لِنَمَسِّنَنَّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ دُكُّتُمْ بِلِئَالِكُمْ فَيَقُولُوا مَرْسَلُونَ مِنْ رَبِّكُمْ أَ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ يَرِدْ مِنْ رَبِّكُمْ بَرْقٌ غَابِرٌ سَبَّحُوا لَهُمْ أَوْ يُرْسَلْنَ مِنْ سَمَوَاتِهِمْ سَبْحًا تَسْبِيحًا وَ يَنْسَوْنَ رَسُولَهُمْ وَ يَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ (١٩) وَ جَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُّهْتَدُونَ (٢١) وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِذَا هُوَ اللَّهُ إِذَا تَدَعَىٰ رَبَّهُ عَنِ الْيَمِينِ شِفَاعَتَهُمْ شَيْئًا وَ لَا يُنْفَعُونَ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْبِرَهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَ إِنْ كُلُّ لُحْمٍ جَمِيعٍ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)

ص: ٢٤٣

قوله تعالى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ المثل كلام أو قصه يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يضربها مثلاً لهم.

والظاهر أن «مَثَلًا» مفعول ثانٍ لقوله: «اضْرِبْ» و مفعوله الأول قوله: «أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ» والمعنى و اضرب لهم أصحاب القرية و حالهم هذه الحال مثلاً و قد قدم المفعول الثانى تحريزاً عن الفصل المخل.

قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ التعزيز من العزه بمعنى القوه و المنعه، و قوله: «إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ» بيان تفصيلى بقوله: «إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ» .

و المعنى: و اضرب لهم مثلاً أصحاب القرية و هم فى زمان أرسلنا اليهم رسولين اثنين من

رسلنا فكذبوهما أى الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا اليكم مرسلون من جانب الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوه و الوحي، و يستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم الى نفوس الأنبياء مستندين الى أن حكم الأمثال واحد.

و على هذا التقرير يكون معنى قوله: «وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ» لم ينزل الله وحياً و لو نزل شيئاً على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك، و تعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه و اتصافه بكرائم الصفات (1) كالخلق و الرحمة و الملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير الى مقربى خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون و الآلهة المعبودون، و أما الله عز اسمه فهو رب الأرباب و إله الآلهة.

و من الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمن فى الحكايه دون المحكى فيكون التعبير به لحلمه و رحمته تعالى قبال إنكارهم و تكذيبهم للحق الصريح.

و قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بمنزله النتيجة لصدر الآيه، و محصل قولهم أنكم بشر مثلنا و لا نجد نحن على بشريتنا فى نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذى تدعونه و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمن شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبه و إذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون.

و يظهر بما تقدم نكته الحصر فى قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ و كذا الوجه فى نفي الفعل و لم يقل: إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل فى الحال دون الاستمرار و الاستقبال.

ص: ٢٤٦

(١- ١). لكنهم مختلفون فى تفسيرها و الصابئون يفسرونها بالنفى فمعنى العالم و القادر عندهم من ليس بجاهل و عاجز.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا يُعَلِّمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم، ما أنتم إلا بشر مثنا، الخ. كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الأمم الدارجه لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة «إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» فردتها رسلهم بقولهم: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْنَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (إبراهيم ١١) وقد مر تقريره.

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون اليهم مأمورون بتبليغ الرساله ليس عليهم إلا ذلك و أنهم فى غنى عن تصديقهم لهم و إيمانهم بهم و يكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم الى أزيد من ذلك.

فقوله: قَالُوا رَبَّنَا يُعَلِّمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ إخبار عن رسالتهم و قد أكد الكلام بأن المشدده المكسوره و اللام، و الاستشهاد بعلم ربهم بذلك، و قوله: «رَبَّنَا يُعَلِّمُ» معترض بمنزله القسم، و المعنى إنا مرسلون اليكم صادقون فى دعوى الرساله و يكفينا فى ذلكم علم ربنا الذى أرسلنا بها و لا حاجة لنا فيه الى تصديقكم لنا و لا نفع لنا فيه من أجر و نحوه و لا يهمننا تحصيله منكم بل الذى يهمننا هو تبليغ الرساله و إتمام الحجه.

و قوله: وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ هو التبليغ و المراد به تبليغ الرساله أى لم يؤمر و لم نكلف إلا- بتبليغ الرساله و إتمام الحجه.

قوله تعالى: قَالُوا إِذَا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَ لَنَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ القائلون أصحاب القرية و المخاطبون هم الرسل، و التطير هو التثام و قولهم:

«لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا» الخ؛ تهديد منهم للرسول.

و المعنى: قالت أصحاب القرية لرسولهم: إنا تشأ منا بكم و نقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ و لم تكفوا عن الدعوه لنرجمنكم بالحجاره و ليصلن اليكم و ليقعن بكم منا عذاب أليم.

قوله تعالى: قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ

القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية.

□ وقوله: طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ الطائر في الأصل هو الطير و كان يتشاءم به ثم توسع و استعمل في كل ما يتشاءم به، و ربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث، و ربما يستعمل في البخت الشقى الذى هو أمر موهوم يرونه مبدأ لشقاء الإنسان و حرمانه من كل خير.

□ و كيف كان فقوله: «طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ظاهر معناه أن الذى ينبغى أن تتشأموا به هو معكم و هو حاله إعراضكم عن الحق الذى هو التوحيد و اقبالكم الى الباطل الذى هو الشرك.

□ و قيل: المعنى طائر كم أى حظكم و نصيبكم من الخير و الشر معكم من أفعالكم إن خيرا فخير و إن شرا فشر، هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثانى لكن قوله بعد: «أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» أنسب بالنسبه الى المعنى الأولى.

□ وقوله: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ استفهام توبيخى و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى و رجوع الكل اليه و نحوهما و جزاء الشرط محذوف فى الكلام تلويحاً الى أنه مما لا ينبغى أن يذكر أو يتفوه به و التقدير أ إن ذكركم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشفيح و الصنيع الفظيع من التطير و التواعد.

□ وقوله: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ أى مجاوزون للحد فى المعصية و هو إضرار عما تقدم و المعنى بل السبب الأصلى فى جحودكم و تكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف و مجاوزة الحد.

□ وقوله تعالى: وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى □ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ أبعد مواضعها بالنسبه الى مبدأ مفروض، و قد بدلت القرية فى أول الكلام مدينه هنا للدلاله على عظمها و السعى هو الإسراع فى المشى.

□ و وقع نظير هذا التعبير فى قصه موسى و القبطى و فيها: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ

يَسِيعِي فَقَدِمَ «رَجُلٌ» هُنَاكَ وَ آخِرَ هَاهُنَا وَ لَعَلَّ النِّكْتَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْاهْتِمَامَ هُنَاكَ بِمَجِيءِ الرَّجُلِ وَ إِخْبَارِهِ مُوسَى بِاتِّمَارِ الْمَلَأِ لِقَتْلِهِ فَقَدِمَ الرَّجُلُ ثُمَّ أَشِيرَ إِلَى اهْتِمَامِ الرَّجُلِ نَفْسَهُ بِإِيصَالِ الْخَبْرِ وَ إِبْلَاغِهِ فَجِيءَ بِقَوْلِهِ: «يَسِيعِي» حَالًا مُؤَخَّرًا بِخِلَافِ مَا هَاهُنَا فَالاهْتِمَامُ بِمَجِيئِهِ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ لِيَعْلَمَ أَنَّ لَا تَوَاطُؤَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الرِّسْلِ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ فَقَدِمَ «مَنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ» وَ آخِرَ الرَّجُلِ وَ سَعِيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسِيعِي مُلْكُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» وَ فِي وَضْعِ قَوْلِهِ: «مَنْ لَا يَسِيعِي مُلْكُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوْضِعٌ قَوْلِهِ:

«الْمُرْسَلِينَ» فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِشْعَارٌ بِالْعَلِيَّةِ وَ بَيَانُهَا أَنَّ عَدَمَ جَوَازِ اتِّبَاعِ قَائِلٍ فِي قَوْلِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِأَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِكُونَ قَوْلِهِ ضَلَالًا وَ الْقَائِلِ بِهِ ضَلَالًا وَ لَا يَجُوزُ اتِّبَاعُ الضَّالِّ فِي ضَلَالِهِ، وَ إِمَّا لِأَنَّ الْقَوْلَ وَ إِن كَانَ حَقًّا وَ الْحَقُّ وَاجِبُ الْإِتِّبَاعِ لَكِن لِقَائِلِهِ غَرَضٌ فَاسِدٌ يَرِيدُ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ كَاقْتِنَاءِ الْمَالِ وَ اِكْتِسَابِ الْجَاهِ وَ الْمَقَامِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ، وَ أَمَا إِذَا كَانَ الْقَوْلُ حَقًّا وَ كَانَ الْقَائِلُ بَرِيئًا مِنْ الْغَرَضِ الْفَاسِدِ مِنْزَهًا مِنَ الْكَيْدِ وَ الْمَكْرِ وَ الْخِيَانَةِ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ اتِّبَاعَهُ فِي قَوْلِهِ، وَ هُوَ لِأَنَّ الرِّسْلَ مُهْتَدُونَ فِي قَوْلِهِمْ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، وَ هُمْ لَا يَرِيدُونَ مِنْكُمْ أَجْرًا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ فَمَنْ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُمْ فِي قَوْلِهِمْ.

أَمَا أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ فَلِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى صِدْقِ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَ كَوْنِهِ حَقًّا، وَ الْحُجَّةُ هِيَ قَوْلُهُ: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ» إِلَى تَمَامِ الْآيَتِينَ.

وَ أَمَا أَنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ مِنْكُمْ أَجْرًا فَلَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: «رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» وَ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ.

وَ بِهَذَا الْبَيَانِ يَتَأَيَّدُ مَا قَدَّمَ مِنْ كَوْنِ قَوْلِهِمْ: «رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» مَسْوِقًا لِنَفْيِ إِرَادَتِهِمْ مِنَ الْقَوْمِ أَجْرًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ

آلِهَهُ- الى قوله- وَ لَا يُنْقِدُونَ شَرَعَ فِي اسْتِفْرَاغِ الْحِجَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَ نَفَى الْآلِهَةَ فِي آيَتَيْنِ وَ اخْتَارَ لِذَلِكَ سِيَاقَ التَّكْلِمْ وَحْدَهُ إِلَّا فِي جَمَلِهِ اعْتَرَضَ بِهَا فِي خِلَالِ الْكَلَامِ وَ هِيَ قَوْلُهُ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وَ ذَلِكَ بِإِجْرَاءِ الْحُكْمِ فِي نَفْسِهِ بِمَا أَنَّهُ إِنْسَانٌ أَوْجَدَهُ اللَّهُ وَ فَطَرَهُ حَتَّى يَجْرَى فِي كُلِّ إِنْسَانٍ هُوَ مِثْلُهُ وَ الْأَفْرَادِ أَمْثَالِ فَقَوْلُهُ: «وَ مَا لِي لَا أَعْبُدُ» الْخ؛ فِي مَعْنَى وَ مَا لِلْإِنْسَانِ لَا يَعْبُدُ، الْخ؛ أَيَتَّخِذُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، الْخ.

وَ قَدْ عَبَّرَ عَنْهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «الَّذِي فَطَرَنِي» لِلإِشْعَارِ بِالْعَلِيَّةِ فَإِنَّ فَطَرَهُ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ وَ إِجَادَهُ لَهُ بَعْدَ الْعَدَمِ لِأَنَّهُ رَجُوعُ كُلِّ مَا لِلْإِنْسَانِ مِنْ ذَاتٍ وَ صِفَاتٍ وَ أَعْمَالٍ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ قِيَامُهُ بِهِ وَ مَلَكُهُ لَهُ فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا الْعِبَادِيَّةُ مُحَضَّةٌ فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْصَبَ نَفْسَهُ فِي مَقَامِ الْعِبَادِيَّةِ وَ يَظْهَرُهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَ هَذَا هُوَ الْعِبَادَةُ فَعَلِيَّةٌ أَنْ يَعْبُدَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَهَا.

وَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ آتِفًا أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ لَهُ لَا طَمَعًا فِي جَنَّةٍ وَ لَا خَوْفًا مِنْ نَارٍ بَلْ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِلْعِبَادَةِ.

وَ إِذْ كَانَ الْإِيمَانُ بِهِ تَعَالَى وَ عِبَادَتُهُ هَكَذَا أَمْرًا لَا يَنَالُهُ عَامَهُ النَّاسُ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ خَوْفًا أَوْ طَمَعًا أَوْ لِكُلَيْهِمَا التَّفَتِ الرَّجُلَ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ نَفْسِهِ إِلَى الْقَوْمِ فَقَالَ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يُرِيدُ بِهِ إِذْئَارَهُمْ بِيَوْمِ الرَّجُوعِ وَ أَنَّهُ تَعَالَى سَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا عَمَلُوا فَيَجَازِيهِمْ بِمَسَاوِي أَعْمَالِهِمْ فَقَوْلُهُ: «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» كَالْمَعْتَرِضِ الْخَارِجِ عَنِ السِّيَاقِ أَوْ هِيَ هِيَ.

ثُمَّ إِنَّ الْآيَتَيْنِ قَائِمَتَانِ عَلَى إِبْطَالِ مَا احْتَجَّ بِهِ الْوَثْنِيَّةُ وَ بَنُوا عَلَى ذَلِكَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَ أَرْبَابَهَا.

تَوْضِيحُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهِ حَسٌّ أَوْ خِيَالٌ أَوْ عَقْلٌ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُوَى الْإِدْرَاكِيَّةِ فَلَا يُمْكِنُ التَّوَجُّهُ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ فَسَبِيلُ الْعِبَادَةِ أَنْ نَتَوَجَّهُ إِلَى مَقْرَبِي حَضْرَتِهِ وَ الْأَقْوِيَاءِ مِنْ خَلْقِهِ كَالْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ وَ الْجِنِّ وَ الْقَدِيسِينَ مِنَ الْبَشَرِ حَتَّى يَكُونُوا شَفَعَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ فِي إِصْصَالِ الْخَيْرَاتِ وَ دَفْعِ الشَّرِّ وَ الْمَكَارِهِ.

و الجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان و إن كان لا يحيط علما بالذات المتعالیه لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصه به مثل كونه فاطرا له موجدا إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات و إنكار إمكانه مكابره، و هذا الجواب هو الذى أشار إليه بقوله: «وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي» .

و عن الثانيه أن هؤلاء الآلهه إن كانت لهم شفاعه كانت مما أفاضه الله عليهم و الله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادته حاتمته و لازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال:

مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (يونس ٣) أما إذا أراد الله شيئا إرادته حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئا فى المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهه و عدمه سواء فى عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر، و الى ذلك أشار بقوله: «أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ» .

و تعبيره عنه تعالى بالرحمن إشاره الى سعه رحمته و كثرتها و أن النعم كلها من عنده و تدبير الخير و الشر اليه و يتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى فى الربوبيه، إذ لما كان جميع النعم و كذا النظام الجارى فيها، من رحمته و قائمه به من غير استقلال فى شىء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكه لو فرض تدبيرهم لشىء من رحمته تدبيره تعالى و كانت الربوبيه له تعالى وحده و كذا الالوهيه.

قوله تعالى: إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهه.

قوله تعالى: إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ من كلام الرجل خطابا للرسل و قوله:

«فَاسْمِعُونِ» كناية عن الشهاده بالتحمل، و قوله: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» الخ؛ تجديد الشهاده بالحق و تأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» بعد محاجته خطابا للرسل ليستشهدهم على إيمانه و ليؤيدهم بإيمانهم بمرأى من القوم و مسمع.

قوله تعالى: قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بما غَفَرَ لِي

رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ الخطاب للرجل و هو- كما يفيد السياق- يلوح الى أن القوم قتلوه فنودي من ساحه العزه أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ» الخ؛ فوضع قوله: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشاره الى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم و بين أمره بدخول الجنة أى فصل و انفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة.

و المراد بالجنة على هذا جنه البرزخ دون جنه الآخرة، و قول بعضهم: إن المراد بها جنه الآخرة و المعنى سيقال له: ادخل الجنة. يوم القيامة و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل: إن الله رفعه الى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حى يتنعم فيها الى قيام السعه، و هو تحكم كسابقه.

و قوله: «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ما ذا كان بعد تأييده للرسول؟ فقيل «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ» ثم قيل: فما ذا كان بعد؟ فقيل «قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» الخ؛ و هو نصح منه لقومه ميتا كما كان ينصحهم حيا.

و ما فى قوله: «بِمَا غَفَرَ لِي» الخ، مصدرية، و قوله: «وَ جَعَلَنِي» عطف على «غَفَرَ» و المعنى بمغفره ربي لى و جعله إياى من المكرمين.

و موهبه الإ- كرام و إن كانت وسيعه ينالها كثيرون كالأ- كرام بالنعمة كما فى قوله: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (الفجر ١٥)»، و قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ (الحجرات ١٣)» فإن كرامه العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الاطلاق إلا طائفتين من خلقه: الملائكة الكرام كما فى قوله: «بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْتَبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)»، و الكاملين فى إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما فى قوله: «أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ»

(المعارج/٣٥)، أو من المخلصين بفتح اللام كما فى قوله: **إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ** -الى أن قال- **وَهُمْ مُكْرَمُونَ** (الصفات/٤٢).

و الآيه من أدله وجود البرزخ.

قوله تعالى: **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ** الضميران للرجل، و «مِنْ بَعْدِهِ» أى من بعد قتله، و «مِنْ» الاولى و الثالثه لابتداء الغايه، و الثانيه مزيده لتأكيد النفي.

و الآيه توطئه للآيه التاليه، و هى مسوقه لبيان هو ان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلا-كهم على الله سبحانه و أنه لا- يحتاج فى إهلا-كهم الى عده و عده حتى ينزل من السماء جندا من الملائكه يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك فى إهلا-ك من أهلك من الامم الماضين و إنما أهلكهم بصيحه واحده تقضى عليهم.

قوله تعالى: **إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** أى ما كان الأمر الذى كان سبب إهلا-كهم بمشيتنا إلا صيحه واحده، و تأنيث الفعل لتأنيث الخبر و تنكير «صَيْحَةً» و توصيفها بالوحده للاستحقاق، و الخمود السكون، و استئناف الجمله لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل: فما ذا كان سبب إهلا-كهم؟ فقيل: إن كانت إلا صيحه واحده.

و المعنى: كان سبب هلا-كهم أيسر أمر و هى صيحه واحده ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس و هم عن آخرهم موتى لا يتحركون.

قوله تعالى: **يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** أى يا ندامه العباد و نداء الحسره عليهم أبلغ من إثباتها لهم، و سبب الحسره ما يتضمنه قوله: «**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ**» الخ.

و من هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامه الناس و تتأكد الحسره بكونهم عبادا فان رد العبد دعوه مولاه و تمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحه الناصح.

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ توبيخ لاولئك الذين نودى عليهم بالحسره، و«مِنَ الْقُرُونِ» بيان لكم، والقرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد.

و قوله: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ بيان لقوله: «كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» ضمير الجمع الأول للقرون و الثانى و الثالث للعباد.

و المعنى: أ لم يعتبروا بكثره المهلكين بأمر الله من القرون الماضيه و أنهم مأخوذون بأخذ إلهى لا- يتمكنون من الرجوع الى ما كانوا يترفون فيه؟

و للقوم فى مراجع الضمائر و فى معنى الآيه أقوال أخر بعيده عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى: وَإِن كُنتُمْ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ لفظه «إِن» حرف نفى و «كُلُّ» مبتداً تنويه عوض عن المضاف اليه، و «لَمَّا» بمعنى إلا، و جميع بمعنى مجموع، و لدينا ظرف متعلق به، و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع، و احتمال بعضهم أن يكون صفه لجميع.

و المعنى: و ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامة فالآيه فى معنى قوله: ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (هود ١٠٣/١).

[سوره يس (٣٦): الآيات ٣٣ الى ٤٧]

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْمَآرِضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَدَاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْمَرْوَجَ كُلَّهُ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَ آيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَ إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُطْعِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧)

ص: ٢٥٤

قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ يذكر سبحانه فى الآيه و اللتين بعدها آيه من آيات الربوبيه و هى تدبير أمر أرزاق الناس و تغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب و التمر و العنب و غيرها.

فقوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا و إن كان ظاهره أن الآيه هى الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله: «وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا» الخ؛ و مسوقتان للإشاره الى أن هذه الأغذيه النباتيه من آثار نفخ الحياه فى الأرض الميتة و تبديلها حبا و ثمرا يأكلون من ذلك فالآيه بنظر هى الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها و تمام تدبير أرزاق الناس بها.

و قوله: وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا أَى و أخرجنا من الأرض بانبات النبات حبا كالحنطه و الشعير و الأرز و سائر البقوليات.

و قوله: فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ تفريع على إخراج الحب و بالأكل يتم التدبير، و ضمير «فَمِنْهُ» للحب.

قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ قَالَ الرَّاعِبُ: الجنة كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى. و النخيل جمع نخل و هو معروف، و الأعناب جمع عنب يطلق على الشجره و هى الكرم و على الثمره.

و قال الراغب: العين الجارحه-الى أن قال-و يستعار العين لمعان هى موجوده فى الجارحه بنظرات مختلفه-الى أن قال-و يقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها من الماء انتهى، و التفجير فى الأرض شقها لإخراج المياه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ اللام

لتعليل ما ذكر في الآيه السابقه أى جعلنا فيها جنات و فجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

و قوله: «مِنْ ثَمَرِهِ» قيل:الضمير للمجموع من الجنات و لذا أفرد و ذكر و لم يقل:من ثمرها أى من ثمر الجنات،أو من ثمرها أى من ثمر النخيل و الأعناب.

و قوله: وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمُ العمل هو الفعل و الفرق بينهما-على ما ذكره الراغب- أن اكثر ما يستعمل العمل فى الفعل المقارن للقصد و الإراده،و لذلك يشذ استعماله فى الحيوان و الجماد،و لذلك أيضا يتصف العمل بالصلاح و خلافه.فيقال عمل صالح و عمل طالح و لا يتصف بهما مطلق الفعل.

و «مَا» فى وَمَا عَمِلَتْهُ نافية و المعنى و لم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا فى تدبير الأرزاق بل هو مما اختصاصنا بخلقه و تميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى فى أواخر السوره و هو بمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم و حياتهم: أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا-الى أن قال- وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

و قوله: أَفَلَا يَشْكُرُونَ توبيخ و استقباح لعدم شكره،و شكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً و فعلاً أى إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره و هو العباده فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته و اتخاذه إلهاً معبوداً.

قوله تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْمَرْوَجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ إنشاء لتزنيه تعالى،لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار،و إنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضاً كما قال: وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (ق٧)أشار الى ما هو أعظم و أوسع من خلق

أزواج النبات و هو خلق الأزواج كلها و تنظيم العالم المشهود باستيلاء كل شىء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه كالذكر و الانثى من الإنسان و الحيوان و النبات، و كل فاعل و منفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمرا ثالثا، أشار تعالى الى ذلك فنزه نفسه بقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» الخ؛ فقوله: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» إنشاء تسييح على ما يعطيه السياق لا إخبار.

و قوله: «مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ» هو و ما بعده بيان للأزواج و الذى تنبت الأرض هو النبات و لا يبعد شموله الحيوان و قد قال تعالى فى الإنسان و هو من أنواع الحيوان: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِبَاتًا (نوح ١٧)» و يؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان فى عداد الأزواج.

و قوله: «وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ أَى النَّاسِ»، و قوله: «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» و هو الذى يجهله الإنسان من الخليقه أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثره فيه.

قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الانثى فى الحيوانات المترواجه:

زوج، و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج كالحف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، قال: و قوله: «خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ» فبين أن كل ما فى العالم زوج من حيث إن له ضدا ما أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب. انتهى.

فزوجيه الزوج هى كونه مفتقرا فى تحققه الى تألف و تركيب و لذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره الى قرينه، و كذا يقال لمجموع القرينين: زوج لافتقاره فى تحققه زوجا الى التألف و التركيب فكون الأشياء أزواجا مقارنة بعضها بعضا لإنتاج ثالث أو كونه مولدا من تألف اثنين.

قوله تعالى: «آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ» آيه أخرى من آيات الربوبية الداله على وقوع التدبير العام السماوى للعالم الإنسانى المذكوره فى

ولا شك أن الآيه تشير الى مفاجأه الليل عقيب ذهاب النهار، والسلخ فى الآيه بمعنى الإخراج و لذلك عدى بمن و لو كان بمعنى النزاع كما فى قولنا: سلخت الإهاب عن الشاه تعين تعديه بعن دون من.

و يؤيد ذلك أنه تعالى عبر فى مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال فى مواضع من كلامه: يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (الحج ٦١/٦١) فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار فى الليل اعتبارا كان مفاجأه الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا.

كأن الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضيأؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففى الكلام نوع من الاستعاره بالكنايه.

و لعل فيما ذكرناه من الوجه كفايه عما أطنبوا فيه من البحث فى معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأه الليل.

قوله تعالى: وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ جريها حركتها و قوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» اللام بمعنى الى أو للغايه، و المستقر مصدر ميمى أو اسم زمان أو مكان، و المعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهى الى مستقرها اى استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

و أما جريها و هو حركتها فظاهر النظر الحسى يثبت لها حركه دوريه حول الأرض لكن الأبحاث العلميه تقضى بالعكس و تكشف أن لها مع سياراتها حركه انتقاليه نحو النسر الواقع.

و كيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا- تزال تجرى ما دام النظام الدنيوى على حاله حتى تستقر و تسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام، و هذا المعنى يرجع

بالمآل الى معنى القراءه المنسوبه الى أهل البيت و غيرهم «و الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» كما قيل.

و أما حمل جريها على حركتها الوضعيه حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجرى الدال على الانتقال من مكان الى مكان.

و قوله: [□]ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أى الجرى المذكور تقدير و تدبير ممن لا يغلبه غالب فى إرادته و لا يجهل جهات الصلاح فى أفعاله.

قوله تعالى: [□]و الْقَمَرَ قَدَرْنَا [□]مَنَازِلَ [□]حَتَّى [□]عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول و الظاهر أن المراد به المنازل الثمانيه و العشرون التى تقطعها القمر فى كل ثمانيه و عشرين يوما و ليله تقريبا.

و العرجون عود عذق النخله من بين الشمراخ الى منبته و هو عود أصفر مقوس يشبه الهلال، و القديم العتيق.

و قد اختلفت الأنظار فى معنى الآيه للاختلاف فى تركيبها، و أقرب التقديرات من الفهم قول من قال: إن التقدير و القمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفر لونه.

تشير الآيه الى اختلاف مناظر القمر بالنسبه الى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريبا و ما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستناره و لا يزال كذلك حتى يعود الى الوضع الأول و يعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض فى صوره هلال ثم لا يزال ينسط عليه النور حتى يتدبر ثم لا يزال ينقص حتى يعود الى ما كان عليه أوله.

و لاختلاف صوره آثار بارزه فى البر و البحر و حياه الناس على ما بين فى الأبحاث المربوطه.

فآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة الى الأرض و أهلها دون حاله فى نفسه و دون حاله بالنسبة الى الشمس فقط.

و من هنا لا يبعد أن يقال فى قوله تعالى: «وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» أن المراد بقوله:

«تَجْرِي» الإشارة الى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية و الفصلية و السنوية و هى حالها بالنسبة اليها، و بقوله: «لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا» حالها فى نفسها و هى سكونها بالنسبة الى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل: و آية لهم أن الشمس على استقرارها تجرى عليهم و قد دبر العزيز العليم بذلك كينونه العالم الأرضى و حياه أهله و الله أعلم.

قوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِقُونَ لفظه ينبغى تدل على الترجح و نفى ترجح الإدراك من الشمس نفى وقوعه منها، و المراد به أن التدبير ليس مما يجرى يوما و يقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل و لا منقوض حتى ينقضى الأجل المضروب منه تعالى لذلك.

فالمعنى أن الشمس و القمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما و لا الليل سابق النهار و هما متعاقبان فى التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان.

و لم يتعرض لنفى إدراك القمر للشمس و لا لنفى سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهى عن الاختلال و الفساد فنفى إدراك ما هو أعظم و أقوى و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر، و يعلم منه حال العكس و نفى سبق الليل الذى هو افتقاده للنهار الذى هو ليله و الليل مضاف اليه متأخر طبعاً منه و يعلم به حال العكس.

و قوله: وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِقُونَ أى كل من الشمس و القمر و غيرهما من النجوم و الكواكب يجرون فى مجرى خاص به كما يسبح السمكه فى الماء فالفلك هو المدار الفضائى الذى يتحرك فيه الجرم العلوى، و لا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس و القمر

و الليل و النهار و إن كان لا يوجد فى كلامه تعالى ما يشهد على ذلك.

و الإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء فى قوله: «يَسْبِيحُونَ» لعله للإشارة الى كونها مطاوعه لمشيئته مطيعه لأمره تعالى كالعقلاء كما فى قوله: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ انثِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (حم السجده ١١/).

قوله تعالى: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ قال الراغب: الذريه أصلها الصغار من الأولاد، و تقع فى التعارف على الصغار و الكبار معا، و يستعمل للواحد و الجمع و أصله للجمع. انتهى، و الفلك السفينه، و المشحون المملوء.

آيه أخرى من آيات ربوبيته تعالى و هو جريان تدبيره فى البحر حيث يحمل ذريتهم فى الفلك المشحون بهم و بأمتعتهم يجوزون به من جانب الى جانب للتجاره و غيرها، و لا- حامل لهم فيه و لا- حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى و الخواص التى يستفيدون منها فى ركوب البحر أمور مسخره له تعالى منتهيه الى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته اليه تعالى لم تغن طائلا.

و إنما نسبت الحمل الى الذريه دونهم أنفسهم فلم يقل: إنا حملناهم لإثارة الشفقه و الرحمه.

قوله تعالى: وَ خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ المراد به- على ما فسروه- الأنعام قال تعالى: وَ جَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (الزخرف ١٢/) و قال:

وَ عَلَيْنَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تَحْمِلُونِ (المؤمن ٨٠/).

و فسر بعضهم الفلك المذكور فى الآيه السابقه بسفينه نوح عليه السلام و ما فى هذه الآيه بالسفن و الزوارق المعموله بعدها و هو تفسير ردىء و مثله تفسير ما فى هذه الآيه بالإبل خاصه.

و ربما فسر ما فى هذه الآيه بالطيارات و السفن الجويه المعموله فى هذه الأعصار و التعميم أولى.

قوله تعالى: وَ إِنِ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْقَذُونَ الصريح هو

الذى يجيب الصراخ و يغيث الاستغاثة،و الإنقاذ هو الإنجاء من الغرق.

و الآيه متصله بقوله السابق: «أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ» أى إن الأمر الى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث و لا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ استثناء مفرغ و التقدير لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الامور إلا لرحمه منا تنالهم و لتمتع الى حين الأجل المسمى قدرناه لهم.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لما ذكر الآيات الداله على الربوبيه ذمهم على عدم رعايتهم حقها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقه أن ربكم الله فاتقوا معصيته فى حالكم الحاضر و ما قدمتم من المعاصى، أو عذاب الشرك و المعاصى التى أنتم مبتلون بها و ما خلفتم وراءكم، او اتقوا ما بين أيديكم من الشرك و المعاصى فى الحياه الدنيا و ما خلفكم من العذاب فى الآخرة، أعرضوا عنه و لم يستجيبوا له على ما هو دأبهم فى جميع الآيات التى ذكروا بها.

قوله تعالى: وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهده أو بالتلاوه و الذكر، و أيضا هى أعم من أن تكون آيه آفاقيه أو أنفسيه، أو تكون آيه معجزه كالقرآن، فهم معرضون عنها جميعا.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ كَانَ قَوْلُهُ:

«وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ» متعرضا لجوابهم إذا دعوا الى عباده الله و هى أحد ركنى الدين الحق، و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى عباده الله و هى أحد ركنى الدين الحق، و هذه الآيه تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى الشفقه على خلق الله و هو الركن الآخر و معلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

فقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ يَتَضَمَّنْ دَعْوَتَهُمْ إِلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْأَمْوَالِ بِمَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ إِشْعَارَ بَأَنَّ الْمَالِكَ لَهَا حَقِيقَةٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي رَزَقَهُمْ بِهَا وَسُلْطَهُمْ عَلَيْهَا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينِ وَأَقَامَ حَاجَتَهُمْ إِلَى مَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ فَضْلِ الْمُؤْنِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ وَلِيَحْسِنُوا وَلِيَجْمَلُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْإِحْسَانَ وَجَمِيلَ الْفِعْلِ.

وقوله: قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ نُطْعِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ جَوَابَهُمْ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِنْفَاقِ، وَإِنَّمَا أَظْهَرَ الْقَائِلَ-الَّذِينَ كَفَرُوا-وَمَقْتَضَى الْمَقَامَ الْإِضْمَارَ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ هُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى الْإِعْتِدَارِ بِمِثْلِ هَذَا الْعُذْرِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الْفِطْرَةَ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ وَإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ فِي الْمَجْتَمَعِ كَمَا أَنَّ الْإِظْهَارَ فِي قَوْلِهِ: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ قَائِلَ «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَفِي قَوْلِهِ: أَنْ نُطْعِمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِشْعَارَ بَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ:

«أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» بِعِنَاوَانِ أَنَّهُ مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ وَيُرِيدُهُ حَكْمًا دِينِيًّا فَرَدَّوهُ بِأَنَّ إِرَادَةَ اللَّهِ لَا-تَتَخَلَفُ عَنْ مَرَادِهِ فَلَوْ شَاءَ أَنْ يُطْعِمَهُمْ أَطْعَمَهُمْ أَى وَسِعَ فِي رِزْقِهِمْ وَجَعَلَهُمْ أَغْنِيَاءَ.

وَهَذِهِ مِغَالَطَةٌ مِنْهُمْ خَلَطُوا فِيهِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ وَهُدَايَةِ الْعِبَادِ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ حَالِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ وَمِنَ الْجَائِزِ أَنْ تَتَخَلَفَ عَنِ الْمَرَادِ بِالْعَصِيَانِ، وَبَيْنَ الْإِرَادَةِ التَّكْوِينِيَّةِ الَّتِي لَا تَتَخَلَفُ عَنِ الْمَرَادِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ وَإِرَادَتَهُ الْمُتَعَلِّقَةَ بِإِطْعَامِ الْفُقَرَاءِ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَشِيئَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ دُونَ التَّكْوِينِيَّةِ فَتَخَلَفُهَا فِي مَوْرَدِ الْفُقَرَاءِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَصِيَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَتَمَرْدِهِمْ عَمَّا أَمَرُوا بِهِ لَا عَلَى عَدَمِ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ بِهِ وَكَذَبِ مَدْعِيهِ.

وَهَذِهِ مِغَالَطَةٌ بَنَوْا عَلَيْهَا جُلَّ مَا افْتَعَلُوهُ مِنْ سُنَنِ الْوَثْنِيَّةِ وَقَدْ حَكَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ

فى قوله: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (النحل ٣٥)، و قوله: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ١٤٨)، و قوله: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (الزخرف ٢٠).

و قوله: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أى إنكم فى ضلال مبين فى دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق و شاء منا ذلك (١).

[سوره يس (٣٦): الآيات ٤٨ الى ٦٥]

و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تَظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنْ أَضِلَّ حَافِ الْأَجْنَةِ الْيَوْمَ فِي سُغُلٍ فَكَيْهُونَ (٥٥) هُمْ وَ أَزْوَاجُهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَىٰ الْمَأْرَأَتِكَ مُتَكَبِّرُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَ امْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ أَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

ص: ٢٦٥

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنى على الإنكار، ولعله لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعه للقريبه ولأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين كثيرا ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة و يذرونهم به، والوعد يستعمل فى الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قبل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

قوله تعالى: إِنَّمَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ النَّظْرَ بِمَعْنَى الْإِنْتِظَارِ، والمراد بالصيحة نفخه الصور الاولى باعانه السياق، و توصيف الصيحة بالوحده للإشاره الى هوان أمرهم على الله جلّت عظمته فلا حاجه الى مثونه زائده،

و «يَخِصُّمُونَ» أصله يختصمون من الاختصاص بمعنى المجادله والمخاصمه.

و الآيه جواب لقولهم: «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» مسوقه سوق الاستهزاء بهم و الاستهانه بأمرهم كما كان قولهم كذلك، و المعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون: متى هذا الوعد فى سؤالهم عن وقت الوعد النبى عن الانتظار إلا- صيحه واحده- يسيره علينا بلا مؤنه و لا تكلف- تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا و ينجوا منها و الحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

قوله تعالى: «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَهُ وَ لَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» أى يتفرع على هذه الصيحه بما أنها تفاجئهم و لا تمهلهم ان يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصيه-على أن الموت يعمهم جميعا دفعه فلا يترك منهم أحدا يوصى اليه- و لا أن يرجعوا الى أهلهم إذا كانوا فى الخارج من بيوتهم مثلا.

قوله تعالى: «و نَفَخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» هذه هى نفخه الصور الثانيه التى بها الإحياء و البعث، و الأجداث جمع جدث و هو القبر و النسل الإسراع فى المشى و فى التعبير عنه بقوله: «إِلَىٰ رَبِّهِمْ» تفرع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» و المرقد محل الرقاد و المراد به القبر، و تعبيرهم عنه تعالى بالرحمن نوع استرحام و قد كانوا يقولون فى الدنيا «مَا الرَّحْمَنُ» (الفرقان ٦٠)، و قوله: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» عطف على قوله: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» و الجملة الفعلية قد تعطف على الاسميه.

و قولهم: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبنى على إنكارهم البعث و هم فى الدنيا و رسوخ أثر الإنكار و الغفله عن يوم الجزاء فى نفوسهم و هم لا يزالون مستغرقين فى الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين الى المحشر فاجأهم الورود فى عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم

الفرع الأ-كبر و الدهشه التي لا- تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون أولا الى دعوه الويل و الهلاك كما كان ذلك دأبهم فى الدنيا عند الوقوع فى المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذى أحاط بهم من الدهشه أذلهم من كل شىء.

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث و الجزاء فشهدوا بحقيه الوعد و استعصموا بالرحمه فقالوا: «هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» على ما هو دأبهم فى الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق و إظهار الذله و الاعتراف بالظلم و التقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: «وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ» .

قوله تعالى: إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعله أو النفعه إلا نفعه واحده تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهله.

و التعبير بقوله: «لَدَيْنَا» لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى فى هذا اليوم يقضى بينهم قضاء عدلا و يحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا.

و قوله: وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عطف تفسير لقوله: «فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا» و هو فى الحقيقه بيان برهانى لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم، و لا- يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشىء فى موضعه ضروره.

و خطاب الآيه من باب تمثيل يوم القيامة و إحضار من فيه بحسب العناية الكلاميه، و ليس -كما توهم- حكايه عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكه أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهه السياق.

و المخاطب بقوله: «وَ لَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» السعداء و الأشقياء جميعا.

قوله تعالى: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ الشغل الشأن الذى شغل الإنسان و يصرفه عما عداه، و الفاكه من الفاكهه و هى التحديث بما يسر أو التمتع و التلذذ و لا فعل له من الثلاثى المجرى على ما قيل.

و المعنى أن أصحاب الجنة فى هذا اليوم فى شأن يشغلهم عن كل شىء دونه و هو التمتع فى الجنة متمتعون فيها.

قوله تعالى: هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ الظلال جمع ظل و قيل جمع ظله بالضم و هى السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك، و الأريكة كل ما يتكى عليه من وساده أو غيرها.

و المعنى: هم أى أصحاب الجنة و أزواجهم من حلائلهم المؤمنات فى الدنيا أو من الحور العين فى ظلال أو أستار من الشمس و غيرها متكئون على الأرائك اتكاء الأعزّه.

قوله تعالى: لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ الفاكهه ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح و الاترج و نحوهما، و قوله: «يَدَّعُونَ» من الادعاء بمعنى التمنى أى لهم فى الجنة فاكهه و لهم فيها ما يتمنونه و يطلبونه.

قوله تعالى: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ سلام مبتدأ محذوف الخبر و التنكير للتفخيم و التقدير سلام عليهم أو لهم سلام، و «قَوْلًا» مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير أقوله قولا من رب رحيم.

و الظاهر أن السلام منه تعالى و هو غير سلام الملائكة المذكور فى قوله: وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد ٢٤).

قوله تعالى: وَ أَمَّا زَوْجُ الْيَوْمِ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ أى و نقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة و هو تمييزهم منهم يوم القيامة و إنجاز لما فى قوله فى موضع آخر: أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص)

(٢٨)، وقوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ (الجاثية ٢١).

قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ العهد الوصيه، والمراد بعباده الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذ لا طاعه إلا لله أو من أمر بطاعته، وقد علل النهى عن طاعته بكونه عدوا مبينا لأن العدو لا يريد بعدوه خيرا.

و إنما وجه الخطاب الى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوه الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته و أوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَخْتَنَّكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء ٦٢).

و أما عهده تعالى و وصيته الى بنى آدم أن لا- يطيعوه فهو الذى وصاهم به بلسان رسله و أنبيائه و حذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (الأعراف ٢٧) وقوله: وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (الزخرف ٦٢).

قوله تعالى: وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ عطف تفسير لما سبقه، وقد تقدم كلام فى معنى الصراط المستقيم فى تفسير قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ من سوره الفاتحه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ الجبل الجماعه و قيل: الجماعه الكثيره و الكلام مبنى على التوبيخ و العتاب.

قوله تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أى كان يستمر عليكم الایعاد بها مره بعد مره بلسان الأنبياء و الرسل عليه السلام و أول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس: إِنَّ

عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣) و في لفظ الآية إشارة الى إحضار جهنم يومئذ.

قوله تعالى: اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الصلاة: اللزوم و الاتباع، وقيل:

مقاساه الحراره و يظهر بقوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أن الخطاب للكفار و هم المراد بالمجرمين.

قوله تعالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أى يشهد كل منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبها بها و الأرجل بالمعاصي الخاصة بها على ما يعطيه السياق.

و من هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل و أن ذكر الأيدي و الأرجل من باب الأنموذج و لذا ذكر في موضع آخر السمع و البصر و الفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦. و في موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجده الآية ٢٠، و سيأتى بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجده إن شاء الله (١).

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٦ الى ٨٣]

وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَاعُوا مِصْرًا وَ لَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلَآ يَعْقِلُونَ (٦٨) وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَ مَا يَتَّبِعِي لَهُ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَ دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ مَشَارِبٌ أَ فَلَآ يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

ص: ٢٧١

(١-١). يس ٤٨-٦٥: بحث روائى حول قوله تعالى: «مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً»؛ بنفخ الصور؛ اصحاب الجنة.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ** قال في مجمع البيان: الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب و مثله الطمس على المال و هو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، و أعمى مطموس و طميس و هو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين، انتهى.

فقوله: **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ** أى لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل إبصارهم.

و قوله: **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** أى أرادوا السبق الى الطريق الواضح الذى لا يخطئ قاصده و لا يظل سالكه فلم يبصروه و لن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: **«فَأَنَّى يُبْصِرُونَ»** كناية عن الامتناع.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَاعُوا مِصْرًا وَلَا يَرْجِعُونَ** قال في المجمع: و المسح قلب الصورة الى خلقه مشوهه كما مسخ قوم قرده و خنازير و قال: و المكانه و المكان واحد. انتهى. المراد بمسحهم على مكانتهم تشويه خلقهم و هم قعود فى مكانهم الذى هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج و تكلف بل بمجرد المشيه فهو كناية عن كونه هينا سهلا عليه تعالى من غير أى صعوبه.

و قوله: **فَمَا اسْتَبَاعُوا مِصْرًا وَلَا يَرْجِعُونَ** أى مضيا فى العذاب و لا يرجعون الى حالهم قبل العذاب و المسخ فالمضى و الرجوع كنايةتان عن الرجوع الى حال السلامه و البقاء على حال العذاب و المسخ.

قوله تعالى: **وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ** التعمير التطويل العمر، و التنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله و يتبدل قوته ضعفا و زيادته نقصا

و الإنسان فى عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفا و علمه جهلا و ذكره نسيانا.

و الآيه فى مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين و المراد أن الذى ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم و على أن يمسخهم على مكائهم.

و فى قوله: أ فَلَا يَعْقِلُونَ تويخهم على عدم التعقل و حثهم على التدبر فى هذه الامور و الاعتبار بها.

قوله تعالى: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ عطف و رجوع الى ما تقدم فى صدر السوره من تصديق رساله النبى صلى الله عليه و آله و سلم و كون كتابه تنزيلا من عنده تعالى.

فقوله: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ نفى أن يكون علمه الشعر و لازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه و يمتنع من قوله لنهى من الله متوجه اليه، و لا أن النازل من القرآن ليس بشعر و إن أمكنه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقوله.

و به يظهر أن قوله: «وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» فى مقام الامتنان عليه بأنه نزّه عن أن يقول شعرا فالجمله فى مقام دفع الدخل و المحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصا فيه و لا أنه تعجيز له بل لرفع درجته و تنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعه الشعر فيقع فى معرض تزيين المعانى بالتخييلات الشعرية الكاذبه التى كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع فى النفس، و تنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع فى السمع، فلا ينبغى له صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول الشعر و هو رسول من الله و آيه رسالته و متن دعوته القرآن المعجز فى بيانه الذى هو ذكر و قرآن مبين.

و قوله: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ تفسير و توضيح لقوله: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: «إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرُ» الخ؛ من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر و قرآن مبين.

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنه ذكر مقرو من الله ظاهر ذلك.

قوله تعالى: لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ تعليل متعلق بقوله: ﴿وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ﴾ و المعنى و لم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حيا، الخ؛ أو متعلق بقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ الخ؛ و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا و قرآنا مبينا نزلناه اليه لينذر من كان حيا، الخ؛ و مآل الوجهين واحد.

و الآيه- كما ترى- تعد غايه إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيا- و هو كناية عن كونه يعقل الحق و يسمعه- و حقيه القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاه الآيه لما فى صدر السوره من الآيات فى هذا المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ذكر آيه من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى و تدبيره للعالم الإنسانى و هى نظيره ما تقدم فى ضمن آيات التوحيد السابقه من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب و الثمرات و تفجير العيون.

و المراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم فى خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص.

و قوله: فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ تفریع على قوله: «خَلَقْنَا لَهُمْ» فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهى مخلوقه لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهى الاختصاص الى الملك فإن الملك الاعتبارى الذى فى المجتمع من شعب الاختصاص.

قوله تعالى: وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ تذليل الأنعام جعلها منقادهم غير عاصيه و هو تسخيرها لهم، و الركوب بفتح الراء الحموله كالإبل و البقر، و قوله: «وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ» أى من لحمها يأكلون.

قوله تعالى: **وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك، والمشارب جمع مشرب-مصدر ميمي بمعنى المفعول- والمراد بها الألبان، والكلام فى معنى الشكر كالكلام فيما تقدم فى قوله: **«وَمَا عَمِلْتُمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ»**.

ومعنى الآيات الثلاث: أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم و لتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل و البقر و الغنم فتنوع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض، و ذلكناها لهم بجعلها مسخره لهم منقاد غير عاصيه فمنها ركوبهم الذى يركبونه، و منها أى من لحومها يأكلون، و لهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها و أوبرها و جلودها و مشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذى يكشف عن ربوبيته لهم؟ أ و لا يعبدونه شكرا لأنعمه؟

قوله تعالى: **وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ** ضمائر الجمع للمشركين، و المراد بالآلهه الأصنام أو الشياطين و فراعنه البشر دون الملائكة المقربين و الأولياء من الإنسان لعدم ملاءمه ذيل الكلام **«وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ»** لذلك.

و إنما اتخذوهم آلهه رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إليها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض الى من اتخذها إليها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمه أو يرسل النقمه.

قوله تعالى: **لَا يَسْتَبِيحُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ** أى لا- يستطيع هؤلاء الآلهه الذين اتخذوهم آلهه نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئا من خير أو شر.

و قوله: **وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ** الظاهر أن أول الضميرين للمشركين و ثانيهما للآلهه من دون الله و المراد أن المشركين جند للآلهه و ذلك أن من لوازم معنى الجنديه التبعية

و الملازمه و المشركون هم المعدودون أتباعا لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس.

و المراد بالإحضار بالإحضار فى قوله: «مُحَضَّرُونَ» الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسِيْبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ (الصافات ٥٧).

و محصل المعنى لا يستطيع الآلهه المتخذون نصر المشركين و هم أى المشركون لهم أى لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة.

قوله تعالى: فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنْآ نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ الفاء لتفريع النهى عن الحزن على حقيقه اتخاذهم الآلهه من دون الله رجاء للنصر أى إذا كان هذا حقيقه حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبدا و أنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإننا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم و ما يعلنون، و فى تركيب الآيه بعض أقوال رديئه أضربنا عنه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ رجوع الى ما تقدم من حديث البعث و الاحتجاج عليه إثر إنكارهم، و لا- يبعد أن يكون بيانا تفصيليا لقولهم المشار اليه فى قوله تعالى: «فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» الخ؛ و المراد بالرؤيه العلم القطعى أى أو لم يعلم الإنسان علما قاطعا أنا خلقناه من نطفه، و تنكير نطفه للتحقير و الخصيم المصر على خصومته و جداله.

و الاستفهام للتعجب و المعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفه مهينه فيفاجئه أنه خصيم مجادل مبين.

قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ الرَّمِيمُ الرميم البالى من العظام، و «نَسِيَ خَلْقَهُ» حال من فاعل ضرب، و قوله: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ الرَّمِيمُ» بيان للمثل الذى ضربه الإنسان، و لذلك جىء به مفصولا من غير

عطف لأن الكلام فى معنى أن يقال: فما ذا ضرب مثلاً؟ فقيل: قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ.

و المعنى و ضرب الإنسان لنا مثلاً- و قد نسى خلقه من نطفه لأول مره، و لو كان ذاكره لم يضرب المثل الذى ضربه و هو قوله: «من يحيى العظام و هى باليه؟» لأنه كان يرد على نفسه و يجيب عن المثل الذى ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم جوابا عنه.

قوله تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ تلقين الجواب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

الإشياء هو الإيجاد الابتدائى و تقييده بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» للتأكيد، و قوله: «وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» إشاره الى أنه تعالى لا ينسى و لا يجهل شيئا من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مره و هو لا يجهل شيئا مما كانت عليه قبل الموت و بعده فإحياءه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت قدره و انتفاء الجهل و النسيان.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ بيان لقوله: «الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» و الإيقاد إشعال النار.

و الآيه مسوقه لرفع استبعاد جعل الشىء الموات شيئا ذا حياه و الحياه و الموت متنافيان و الجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر الذى يقطر ماء نارا فإذا أنتم منه توقدون و تشعلون النار، و المراد به على المشهور بين المفسرين شجر (1) المرخ و العفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى فيسحق الأعلى على الاسفل فتندح النار بإذن الله فحصول الحى من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجره الخضراء و هما متضادان.

ص: ٢٧٨

١- ١). المرخ بالفتح فالسكون و الخاء المعجمه، و العفار بعين مفتوحه ثم الفاء ثم الراء المهمله شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الآخر.

قوله تعالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» الخ؛ بيان أقرب الى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أول مره من خلق السماوات و الأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ» (المؤمن ٥٧).

فآييه في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال: إن الله الذي خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعه الخلقه البديعه و عجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمه الجزئيه المدهشه للعقول المحيره للالباب و العالم الإنساني جزء يسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بلى و إنه خلاق عليم.

و المراد بمثلهم قيل: هم و أمثالهم و فيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغه و العرف.

فالحق أن يقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس و بدن، و البدن في هذه النشأه في معرض التحلل و التبديل دائما فهو لا يزال يتغير أجزاءه و المركب ينتفى بانتفاء أحد أجزائه فهو في كلاً- آن غيره في الآن السابق بشخصه و شخصيه الإنسان محفوظه بنفسه-روح- المجرده المنزهه عن ماده و التغيرات الطارئه من قبلها المأمونه من الموت و الفساد.

و المتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن و أنها محفوظه حتى ترجع الى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلِيَّ رُبُّكُمْ تَرْجَعُونَ (الم السجده ١١).

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا أعتبر بالقياس الى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس الى الإنسان ذى البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصيه بالنفس و هى واحده بعينها.

و لما كان استبعاد المشركين فى قولهم: «مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ» راجعا الى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم و أما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس و الأرواح المحفوظه عند الله بالأبدان المخلوقه جديدا، فتكون الأشخاص الموجودين فى الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى: أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَيُوتَى (الأحقاف ٣٣) فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال: على أن يحيى الموتى و لم يقل: على أن يحيى أمثال الموتى.

قوله تعالى: إِنَّهَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الآيه من غرر الآيات القرآنيه تصف كلمه الإيجاد و تبين أنه تعالى لا يحتاج فى إيجاد شىء مما أراده الى ما وراء ذاته المتعاليه من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه فى إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

و قد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقه فى كلامه فقال: إِنَّهَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (النحل ٤٠)، و قال: وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (البقره ١١٧).

فقوله: إِنَّهَا أَمْرُهُ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن، و قوله فى آيه النحل المنقوله آنفا:

«إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ» إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول و هو الأمر اللفظى بلفظه كن إلا أن التدبر فى الآيات يعطى أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهى عند إرادته خلق شىء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شىء من الأشياء هذا القول دون غيره، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جىء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على

القول بمعنى ما يقابل النهى.

□ □ وقوله: إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَى إِذَا أَرَادَ إِيجَادَ شَىءٍ كَمَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ الْآيَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي عَدَّةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقَضَاءُ مَكَانَ الْإِرَادَةِ كَقَوْلِهِ: إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١) وَلَا ضَيْرَ فَالْقَضَاءُ هُوَ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ وَالْحُكْمُ وَالْإِرَادَةُ مِنَ اللَّهِ شَىءٌ وَاحِدٌ وَهُوَ كَوْنُ (٢) الشَىءِ الْمَوْجُودِ بِحَيْثُ لَيْسَ لَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا أَنْ يَوْجَدَ فَمَعْنَى إِذَا أَرَدْنَاهُ إِذَا أَوْقَفْنَاهُ مَوْقِفَ تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ.

□ □ وقوله: أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ خَبِرَ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَى يَخَاطَبُهُ بِكَلِمَةٍ كُنْ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنْ لَيْسَ هُنَاكَ لَفْظٌ يَتَلَفَّظُ بِهِ وَ إِلَّا احْتِجَاجٌ فِي وَجُودِهِ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ وَ هَلَمْ جَرًّا فَيَتَسَلَّسَلُ وَ لَا- أَنْ هُنَاكَ مَخَاطَبًا ذَا سَمْعٍ يَسْمَعُ الْخَطَابَ فَيُوجَدُ بِهِ لِأَدَائِهِ إِلَى الْخَلْفِ فَالْكَلَامُ تَمَثِيلٌ لِإِفَاضَتِهِ تَعَالَى وَ جُودِ الشَىءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَىءٍ آخَرَ وَرَاءَ ذَاتِهِ الْمُتَعَالِيَةِ وَ مِنْ غَيْرِ تَخَلُّفٍ وَ لَا مَهَلٍ.

□ □ قوله تعالى: فَسَيَحْجَانُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ الْمَلَكُوتَ مَبَالِغُهُ فِي مَعْنَى الْمَلِكِ كَالرَّحْمَتِ وَ الرَّهْبُوتِ فِي مَعْنَى الرَّحْمَةِ وَ الرَّهْبَةِ.

□ □ وَ انْضِمَامُ الْآيَةِ إِلَى مَا قَبْلُهَا يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَلَكُوتِ الْجِهَةِ التَّالِيَةِ لَهُ تَعَالَى مِنْ وَجْهِهِ وَ جُودِ الْأَشْيَاءِ، وَ بِالْمَلِكِ الْجِهَةِ التَّالِيَةِ لِلْخَلْقِ أَوْ الْأَعْمِ الشَّامِلِ لِلْوَجْهِينِ. وَ عَلَيْهِ يَحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

□ □ وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الأنعام ٧٥).

□ □ وقوله: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الأعراف ١٨٥) وقوله: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (المؤمنون ٨٨).

□ □ وَ جَعَلَ الْمَلَكُوتَ بِيَدِهِ تَعَالَى لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهَا لَا نَصِيبَ فِيهَا لِغَيْرِهِ.

ص: ٢٨١

١- ١). البقرة: ١٧، آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥، المؤمن: ٦٨.

٢- ٢). فإن هذه الإرادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل.

و مآل المعنى فى قوله: «فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ» تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكروا للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شىء بيده و فى قبضته.

و قوله: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ خطاب لعمامه الناس من مؤمن و مشرك، و بيان لنتيجه البيان السابق بعد التنزيه (1).

ص: ٢٨٢

١ - ١ . يس ٦٦-٨٣: بحث روائى حول قوله تعالى: «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ» ؛ احياء الموتى؛ مكان روح المحسن و المسىء بعد الموت».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الصَّافَاتِ صِيْفًا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيْنَهُ الْكُوكَبِ (٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)

فى السوره احتجاج على التوحيد، و إنذار للمشركين و تبشير للمخلصين من المؤمنين، و بيان ما يثول اليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عده من عبادته المؤمنين ممن من الله عليهم و قضى أن ينصرهم على عدوهم، و فى خاتمه السوره ما هو بمنزله محصل الغرض منها و هو تنزيهه السلام على عبادته المرسلين و تحميده تعالى فيما فعل و السوره مكيه بشهاده سياقها.

قوله تعالى: وَالصّٰفّٰتِ صِيْفًا، فَالزّٰجِرٰتِ زَجْرًا، فَالتّٰلِيٰتِ ذِكْرًا الصّٰفّٰتِ-على ما قيل-جمع صافه و هى جمع صاف، و المراد بها على أى حال الجماعه التى تصطف أفرادها و الزاجرات من الزجر و هو الصّرف عن الشىء بالتخويف بدم أو عقاب و التاليات من التلاوه بمعنى القراءه.

و قد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث: الصّافّات و الزاجرات و التاليات و قد اختلفت كلماتهم فى المراد بها:

فأما الصّافّات فقيل: إن المراد بها الملائكه تصف أنفسها فى السماء صفوفا كصفوف المؤمنين فى الصلاه، و قيل: إنها الملائكه تصف أجنحتها فى الهواء إذا أرادت النزول الى الأرض واقفه فى انتظار أمر الله تعالى، و قيل: إنها الجماعه من المؤمنين يقومون فى الصلاه أو فى الجهاد مصطفين.

و أما الزاجرات فقيل: إنها الملائكه تزجر العباد عن المعاصى فيوصله الله الى قلوب الناس فى صوره الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين، و قيل: إنها الملائكه الموكله بالسحاب تزجرها و تسوقها الى حيث أراد الله سبحانه، و قيل: هى زواجر القرآن و هى آياته الناهيه عن القبائح، و قيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون

الناس عن المنهيات.

و أما التاليات فقيل: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى اليه، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله و فيها ذكر الحوادث، وقيل: جماعه قراء القرآن يتلونه فى الصلاه.

و يحتمل -و الله العالم- أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكوره فى الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق و دفع الشياطين عن المداخله فيه و إيصاله إلى النبي مطلقاً أو خصوص محمد صلى الله عليه و آله و سلم كما يستفاد من قوله تعالى: **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِّيُخَوِّفَ أُو۟لِي الْأَبْصَارِ مِمَّا رَمَى الشَّيَاطِينُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الشَّيَاطِينُ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ عِندَ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَحْمِلَ أَسْفَارَهُمْ** (الجن ٢٨).

و عليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون فى طريق الوحي صفاً فبالذين يزجرون الشياطين و يمنعونهم عن المداخله فى الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر و هو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوه الذكر.

و يؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمى الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات، و كذا قوله بعد:

«فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا» الآية؛ كما سنشير اليه.

و لا ينافى ذلك إسناد النزول بالقرآن الى جبريل وحده فى قوله: **مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** (البقره ٩٧) و قوله: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ** (الشعراء / ١٩٤) لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به و قد قال تعالى: **فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كَرَامٍ بَرَرَةٍ** (عبس ١٦)، و قال حكايه عنهم:

«وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» (مريم ٦٤)، و قال: **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** (الصفافات ١٦٦) و هذا كنسبه التوفى الى الرسل من الملائكة فى قوله: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا** (الأنعام ٦١) و الى ملك الموت و هو رئيسهم فى قوله:

قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١).

و لا ضير فى التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث: الصافات و الزاجرات و التاليات لأن موصوفها الجماعه، و التأنيث لفظى.

و هذه أول سوره فى القرآن صدرت بالقسم و قد اقسم الله سبحانه فى كلامه بكثير من خلقه كالسماء و الأرض و الشمس و القمر و النجم و الليل و النهار و الملائكة و الناس و البلاد و الأثمار، و ليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها اليه تعالى و هو قيومها المنبع لكل شرف و بهاء.

قوله تعالى: إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ الخطاب لعامه الناس و هو مقسم به، و هو كلام مسوق بدليل كما سيأتى.

قوله تعالى: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ خبر بعد خبر لأن، أو خبر لمبتدأ محذوف و التقدير هو رب السماوات، الخ؛ أو بدل من واحد.

و فى سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحدا كما أن خصوصيه القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات و الأرض و ما بينهما.

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملائك فى الوهيه الإله و هى كونه معبودا بالحق أن يكون ربا يدبر الأمر على ما تعترفون و هو سبحانه رب السماوات و الأرض و ما بينهما الذى يدبر أمرها و يتصرف فى جميعها.

و كيف لا؟ و هو تعالى يوحى الى نبيه فيتصرف فى السماء و سكانها بإرسال ملائكه يصطفون بينها و بين الأرض و هناك مجال الشياطين فيزجرونهم و هو تصرف منه فيما بين السماء و الأرض و فى الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه و فيه تكميل للناس و تربيته لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففى الوحي تصرف منه فى السماوات و الأرض و ما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها و الإله الواحد.

وقوله: وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ أَى مَشَارِقِ الشَّمْسِ بِاِخْتِلَافِ الْفُصُولِ أَوِ الْمَرَادِ مَشَارِقِ مَطْلُقِ النُّجُومِ أَوْ مَطْلُقِ الْمَشَارِقِ، وَ فِى تَخْصِيسِ الْمَشَارِقِ بِالذِّكْرِ مَنَاسِبُهُ لَطُلُوعِ الْوَحَى بِمَلَائِكَتِهِ مِنَ السَّمَاءِ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (التكوير ٢٣)، وَ قَالَ: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (النجم ٧).

قوله تعالى: إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ الْمَرَادِ بِالزَّيْنِ مَا يَزِينُ بِهِ، وَ الْكَوَاكِبِ بَيَانُ أَوْ بَدَلُ مِنَ الزَّيْنِ وَ قَدْ تَكَرَّرَ حَدِيثُ تَزْيِينِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ فِى كَلَامِهِ كَقَوْلِهِ: وَ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (حم السجده ١٢) وَ قَوْلِهِ: وَ لَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (الملك ٥)، وَ قَوْلِهِ: أَمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَ زَيْنَاهَا (ق/ ٦).

وَ لَا يَخْلُو مِنْ ظَهْورِ فِى كَوْنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ الَّتِى يذُكَّرُهَا الْقُرْآنُ هُوَ عَالَمُ الْكَوَاكِبِ فَوْقَ الْأَرْضِ وَ إِنْ وَجَّهَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا يُوَافِقُ مَقْتَضَى الْهَيْئَةِ الْقَدِيمَةِ أَوْ الْجَدِيدَةِ.

قوله تعالى: وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ حِفْظًا مَفْعُولٌ مَطْلُوقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ وَ التَّقْدِيرُ وَ حِفْظُنَاهَا حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، وَ الْمَرَادُ بِالشَّيْطَانِ الشَّرِيرِ مِنَ الْجِنِّ وَ الْمَارِدِ الْخَبِيثِ الْعَارِى مِنَ الْخَيْرِ.

قوله تعالى: لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَ يُقَسِّدُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ أَصْلُ «لَا يَسْمَعُونَ» لَا يَتَسَمَعُونَ وَ التَّسْمَعُ الْإِصْغَاءُ، وَ هُوَ كُنْيَاةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ مَمْنُوعِينَ مَدْحُورِينَ وَ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ صَارَ وَصْفًا لِكُلِّ شَيْطَانٍ وَ لَوْ كَانَ بِمَعْنَى الْإِصْغَاءِ صَرِيحًا أَفَادَ لَغْوًا مِنَ الْفِعْلِ إِذْ لَوْ كَانُوا لَا يَصْغُونَ لَمْ يَكُنْ وَجْهٌ لِقَدْفِهِمْ.

وَ الْمَلَأُ مِنَ النَّاسِ الْأَشْرَافِ مِنْهُمْ الَّذِينَ يَمْلِئُونَ الْعِيُونَ، وَ الْمَلَأُ الْأَعْلَى هُمُ الَّذِينَ يَرِيدُ الشَّيَاطِينُ التَّسْمَعُ الْيَهُمُ وَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ الَّذِينَ هُمْ سَكَنَهُ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُهُ تَعَالَى كَقَوْلِهِ: لَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الإسراء ٩٥).

و قصدهم من التسمع الى الملاء-الأعلى الاطلاع على أخبار الغيب المستورده عن هذا العالم الأرضى كالحوادث المستقبله و الأسرار المكنونه كما يشير اليه قوله تعالى: وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا يَبْتَغِي لَّهُمْ وَمَا يَشْتَرُونَ بِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَنْ يَشْتَرُ لِحْيَتَهُ بِسَعْتٍ يَشْتَرُ بِهَا قُرْآنًا وَرِسَالًا كَثِيرًا مِمَّا يَسْتُرُونَ وَمَا يَشْتَرُونَ بِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَمَنْ يَشْتَرُ لِحْيَتَهُ بِسَعْتٍ يَشْتَرُ بِهَا قُرْآنًا وَرِسَالًا كَثِيرًا مِمَّا يَسْتُرُونَ (الشعراء ٢١٢)، وقوله حكاية عن الجن: وَ أَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاَهَا مِلْئًا حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهَبًا وَ أَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (الجن ٩).

و قوله: وَ يُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ الْقَذْفَ الرَّمِي وَ الْجَانِبَ الْجِهَةَ.

قوله تعالى: دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ الدحور الطرد و الدفع، و هو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا- أى مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق، و الواصب الواجب اللازم.

قوله تعالى: الْإِلَٰهَ مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ذَاقُوا الْخُطْفَةَ الْاِخْتِلَاسَ وَ الْاِسْتِلَابَ، و الشهاب ما يرى فى الجو كالكوكب المنقضى، و الثقوب الركوز و سمي الشهاب ثاقبا لأنه لا يخطئ هدفه و غرضه.

و المراد بالخطفه اختلاس السمع و قد عبر عنه فى موضع آخر باستراق السمع قال تعالى:

إِلَٰهَ مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (الحجر ١٨)، و الاستثناء من ضمير الفاعل فى قوله: «لَا يَسْمَعُونَ» و جَوَزَ بَعْضُهُمْ كَوْنَ الْاِسْتِثْنَاءِ مَنْقُطَعًا.

و معنى الآيات الخمس: إنا زينا السماء التى هى أقرب السماوات منكم-أو السماء السفلى بزينة و هى الكواكب، و حفظناها حفظا من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء الى الملاء الأعلى-للاطلاع الى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب-و يرمون من كل جهه حال كونهم مطرودين و لهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٢ الى ٧٠]

بَلْ عَجَبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوْلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصِيلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مَنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَلذَانِقُونَ (٣١) فَأَعْوَبْنَاكُمْ أَنَا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكُمْ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَمُتَّارُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ (٣٦) إِنَّا كُنَّا نَعْمَلُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ (٣٧) إِنَّا كُنَّا نَعْمَلُونَ لِمَا كُنَّا نَعْمَلُونَ (٣٨) وَمَا تَجَزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهَ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْنَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُمْ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُمْ لَتَزِدِينَ (٥٦) وَ لَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَلَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِذَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصِيلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَسَاءَ لِمَنْ كَانَتْ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

قوله تعالى: بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ أَى بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ مَعَ دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ وَيَهْزَعُونَ مَنْ تَعْجَبُكَ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ دَعَائِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَإِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَدِينِ الْحَقِّ لَا يَذْكُرُونَ وَلَا يَتَنَبَّهُونَ.

قوله تعالى: وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: سَخِرَ وَاسْتَخَرَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. انْتَهَى.

والمعنى: وَإِذَا رَأَوْا هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ آيَةَ مَعْجَزِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمَعْجَزَةِ كَالْقُرْآنِ وَشَقِ الْقَمَرِ وَاسْتَهْزَعُونَ بِهَا.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ فِي إِشَارَتِهِمْ إِلَى الْآيَةِ بِلَفْظِهِ هَذَا إِشْعَارٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ مِنْهَا إِلَّا أَنَّهَا شَيْءٌ مَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْإِهَانَةِ وَالِاسْتِسْخَارِ.

قوله تعالى: أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ إِنْكَارٌ مِنْهُمْ لِلْبَعْثِ مَبْنَى عَلَى الْإِسْتِعَادِ فَمَنْ الْمُسْتَبْعَدُ عِنْدَ الْوَهْمِ أَنَّ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ

فيتلاشى بدنه و يعود ترابا و عظاما ثم يعود الى صورته الاولى.

و من الدليل على أن الكلام مسوق لإفاده الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكارى بالنسبه الى آباءهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم و قد انمحت رسومهم و لم يبق منهم إلا أحاديث أشد و أقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم.

و لو كان إنكارهم البعث مبنيًا على أنهم يعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم و فى آباءهم على نهج واحد و لم يحتج الى تجديد استفهام بالنسبه الى آباءهم.

قوله تعالى: قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ أمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يجيبهم بأنهم مبعوثون.

و قوله: وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ أى صاغرون مهانون أذلاء، و هذا فى الحقيقة احتجاج بعموم قدره و نفوذ إرادته من غير مهله، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، و لذا عقبه بقوله: «فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ» و قد قال تعالى: وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النحل / ٧٧).

و قوله: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ الخ؛ الفاء لإفاده التعليل و الجملة تعليل لقوله:

«وَ أَنْتُمْ دَاخِرُونَ» و فى التعبير بزجره إشعار باستدلالهم.

قوله تعالى: وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ معطوف على قوله: «يَنْظُرُونَ» المشعر بأنهم مبهورون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين و الجزاء و هم يحذرون منه بما كفروا و كذبوا و لذا قالوا: يوم الدين، و لم يقولوا يوم البعث، و التعبير بالماضى لتحقق الوقوع.

و قوله: هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ قيل هو كلام بعضهم لبعض و قيل: كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم، و يؤيده الآيه التاليه، و الفصل هو التمييز بين الشئين

و سُمى يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحق و الباطل بقضائه و حكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين و المتقين قال تعالى: وَ اَمْتَاَزُوا الْيَوْمَ اَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس ٥٩).

قوله تعالى: اَحْشُرُوا الَّذِيْنَ ظَلَمُوا وَ اَزُوا جَهَنَّمَ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ اِلَى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى لِلْمَلٰئِكَةِ وَ الْمَعْنَى وَ قَلْنَا لِلْمَلٰئِكَةِ: احشروهم و قيل: هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض.

و الحشر-على ما ذكره الراجب-إخراج الجماعة عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها.

و المراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون و لا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادون عنه منهم قال تعالى: فَاذْنُ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ اَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظّٰلِمِيْنَ الَّذِيْنَ يَصُدُّوْنَ عَنِ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُوْنَهَا عَوْجًا وَ هُمْ بِالآخِرَةِ كٰفِرُونَ (الأعراف ٤٥)، و التعبير بالماضى فى المقام يفيد فائده الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم ما و لو مره واحده بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا فى حياتهم الدنيا كما لو قيل: ما ذا فعل فلان فى حياته فيقال ظلم، فالفعل يفيد فائده الوصف، و فى كلامه تعالى من ذلك شىء كثير كقوله تعالى: وَ سَبَقَ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ اِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (الزمر ٧٣) و قوله: وَ سَبَقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا اِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (الزمر ٧١) و قوله: لِلَّذِيْنَ اَحْسَنُوا الْحُسْنٰى وَ زِيَادَةٌ (يونس / ٢٦).

و قوله: وَ اَزُوا جَهَنَّمَ الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى: وَ مَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُفِيْضٌ لَهُ شَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ -الى أن قال- حَتَّى اِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيْنُ (الزخرف ٣٨).

و قوله: وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ الظاهر أن المراد به الأصنام التى يعبدونها نظرا الى ظاهر «مَا» فالآيه نظيره قوله: اِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصْبٌ

و يمكن أن يكون المراد بلفظه «م» ما يعم اولى العقل من المعبودين كالفراعنه و النمارده، و أما الملائكه المعبودون و المسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (الأنبياء ١٠١/).

و قوله: فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ الجحيم من أسماء جهنم فى القرآن و هو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب.

و المراد بهدايتهم الى صراطها إيصالهم اليه و إيقاعهم فيه بالسوق، و قيل: تسميه ذلك بالهدايه من الاستهزاء، و قال فى مجمع البيان: إنما عبر عن ذلك بالهدايه من حيث كان بدلا من الهدايه الى الجنه كقوله: فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ من حيث إن هذه البشاره وقعت لهم بدلا من البشاره بالنعيم. انتهى.

قوله تعالى: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ م لَكُمْ لَّا تَنَاصِرُونَ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُشْتَسِمُونَ قال فى المجمع يقال: وقفت أنا و وقفت غيرى - أى يعدى و لا يعدى - و بعض بنى تميم يقول: أوقفت الدابه و الدار. انتهى.

فقوله: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ أى احبسوهم لأنهم مسئولون أى حتى يسأل عنهم. و السياق يعطى أن هذا الأمر بالوقوف و السؤال إنما يقع فى صراط الجحيم.

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذى كانوا عليه فى الدنيا فقد تبين به أن المسئول عنه هو كل حق أعرضوا عنه فى الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكبارا على الحق تظاهرا بالتناصر.

قوله تعالى: وَ أَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - الى قوله - إِنْ أَرَادْنَا غَاوِينَ تَخَاصُمَ وَاقَعَ بَيْنَ الْأَتْبَاعِ و المتبوعين يوم القيامه، و التعبير عنه بالتساؤل لأنه فى معنى سؤال بعضهم بعضا تلاوما و تعابا يقول التابعون لمتبوعيههم: لم أضللتونا؟ فيقول

المتبوعون: لم قبلتم منا و لا سلطان لنا عليكم؟

فقوله: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ الْبَعْضَ الْأَوْلَ هُمِ الْمَعْتَرِضُونَ وَ الْبَعْضُ الثَّانِي الْمَعْتَرِضُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ التَّسَاؤُلِ وَ تَسَاؤُلُهُمْ تَخَاصُمُهُمْ.

و قوله: قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ أَى مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فَاسْتَعْمَالَ الْيَمِينِ فِيهَا شَائِعٌ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ: وَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (الواقعه ٢٧) وَ الْمَعْنَى أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ فَتَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ وَ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْخَيْرِ وَ السَّعَادَةِ وَ تَضِلُّونَا.

و قيل: المراد باليمين الدين و هو قريب من الوجه السابق، و قيل: المراد باليمين القهر و القوه كما فى قوله تعالى: فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (الصفات ٩٣) و لا يخلو من وجه نظرا الى جواب المتبوعين.

و قوله: قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ - الى قوله - غَاوِينَ جَوَابَ الْمَتْبُوعِينَ بِتَبْرئِهِمْ مِنْ إِشْقَاءِ التَّابِعِينَ وَ أَنْ جَرَمَهُمْ مُسْتَنْدٌ إِلَى سَوْءِ اخْتِيَارِ أَنْفُسِهِمْ.

فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أى لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم و هلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان.

ثم قالوا: «وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» وَ هُوَ فِي مَعْنَى الْجَوَابِ عَلَىٰ فَرْضِ التَّسْلِيمِ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ لَوْ فَرَضَ أَنَّهُ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ فَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ حَتَّى نَسْلُبَهُ مِنْكُمْ وَ نَجْرِدَكُمْ مِنْهُ. عَلَىٰ أَنْ سُلْطَانَ الْمَتْبُوعِينَ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّابِعِينَ فَهَمُ الَّذِينَ يَعْطُونَهُمُ السُّلْطَةَ وَ الْقُوَّةَ فَيَتَسَلَطُونَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ.

ثم قالوا: «بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ» وَ الطَّغْيَانُ هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحُدِّ وَ هُوَ إِضْرَابٌ عَنِ قَوْلِهِ:

«لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» كَأَنَّهُ قِيلَ: وَ لَمْ يَكُنْ سَبَبَ هَلَاكِكُمْ مَجْرَدُ الْخَلْوِ مِنَ الْإِيمَانِ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا

طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد و اتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمه العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا (النبا ٢٢/٢٢) وقال: فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (النازعات ٣٩/٣٩).

و لهذا المعنى عقب قوله: «بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ» بقوله: «فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَانِقُونَ» أى لذائقون العذاب.

ثم قالوا: «فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ» و هو متفرع على ثبوت كلمه العذاب و آخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم، قال تعالى لإبليس: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا- مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْءِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر / ٤٣).

فكأنه قيل: فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا و اتصالكم بنا فسرى اليكم ما فينا من الصفه و هى الغواية فالغاوى لا- يتأتى منه إلا الغواية و الإناء لا يتشرح منه إلا ما فيه، و بالجمله إنكم لم تجبروا و لم تسلبوا الاختيار منذ بدأتهم فى سلوك سبيل الهلاك الى أن وقعتهم فى ورطته و هى الغواية فحق عليكم القول.

قوله تعالى: فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ -الى قوله- يَشْتَكِرُونَ ضَمِيرٌ «فَأَيُّهَا» للتابعين و المتبوعين فهم مشتركون فى العذاب لا اشتراكهم فى الظلم و تعاونهم على الجرم من غير مزيه لبعضهم على بعض.

و استظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا و ذلك فى مقابله أوزارهم و أوزار أمثال أوزارهم فالشركه لا تقتضى المساواه و الحق أن الآيات مسوقه لبيان اشتراكهم فى الظلم و الجرم و العذاب اللاحق بهم من قبله، و يمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين و التابعين ألوان من العذاب ناشئه عن خصوص شأنهم قال تعالى: وَ لِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ

(العنكبوت ١٣)، وقال: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (الاعراف ٣٨).

و قوله: إِنَّا كَذَبْنَاكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ تأكيد لتحقيق العذاب، والمراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» أى إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمه الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم و لم يقبلوا.

قوله تعالى: وَيَقُولُونَ أَيْنَا لِلتَّارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَيِّنٌ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد و انكارهم له. و قوله: «بَيِّنٌ جَاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ» رد لقولهم: «لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» حيث رموه عليه السلام بالشعر و الجنون و فيه رمى لكتاب الله بكونه شعرا و من هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق و فيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر و هفوه الجنون و ليس ببدع غير مسبوق فى معناه.

قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم و رميهم الحق بالباطل.

قوله تعالى: وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ أى لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد اليكم.

قوله تعالى: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ -الى قوله- بَيِّنٌ مَّكُونُ استثناء منقطع من ضمير «لَذَائِقُوا» أو من ضمير «مَا تُجْزَوْنَ» و لكل وجه و المعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم و ليسوا بذائقى العذاب الأليم و المعنى على الثانى لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم و سيجىء الإشاره الى معناه.

و احتمال كون الاستثناء متصلا ضعيف لا يخلو من تكلف.

و قد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبوديه نفسه و العبد هو الذى لا يملك

لنفسه شيئا من إرادته ولا عمل فهو لاء لا يريدون إلا ما أراد الله ولا يعملون إلا له.

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أى إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينه الحياه الدنيا ولا من نعم العقبي و ليس فى قلوبهم إلا الله سبحانه.

و من المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعمه غير ما يلتذ و يتنعم غيره و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواء و إن شاركهم فى ضروريات المأكل و المشرب و من هنا يتأيد أن المراد بقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ» الإشاره الى أن رزقهم فى الجنة-و هم عباد مخلصون-رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم و لا يختلط بما يتمتع به من دونهم و إن اشتركا فى الاسم.

فقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ» أى رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كناية عن امتيازهم كما فى قوله: «وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ» (الصافات/ ١٦٤) و الإشاره بلفظ البعيد للدلاله على علو مقامهم.

و أما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع و لا ممنوع حسن المنظر لذيد الطعم طيب الرائحة، و كذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله: «لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا» (مريم/ ٦٢) و كذا قول القائل: إن المراد به الجنة فهى وجوه غير سديده.

و من هنا يظهر أن أخذ قوله: «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ» استثناء من ضمير «وَمَا تُجَزَوْنَ» لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشاره اليه.

و قوله: «فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْفَوَاكِهَ» جمع فاكهه و هى ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفّعه بقوله: «وَهُمْ مُكْرَمُونَ» للدلاله على امتياز هذا الرزق أعنى الفاكهه مما عند غيرهم بأنها مقارنه لأكرام خاص يخصصهم قبال

اختصاصهم بالله سبحانه و كونه لهم لا يشاركهم فيه شىء.

و فى إضافه الجنات الى النعيم إشاره الى ذلك فقد تقدم فى قوله: فَأَوْلِيكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ (النساء ٦٩)، و قوله: وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتِي (المائدة ٣) و غيرهما أن حقيقه النعمه هى الولايه و هى كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

و قوله: عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ السرر جمع سرير و هو معروف و كونهم متقابلين معناه استثناس بعضهم ببعض و استمتاعهم بنظر بعضهم فى وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض.

و قوله: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينِ الكأس إناء الشرب و نقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأسا إلا و فيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح و المعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر و جرى على وجه الأرض، و المراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها و لذا عقبه بقوله: «يَبْيَضَاء».

و قوله: لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ الغول الإضرار و الإفساد، قال الراغب: الغول إهلا-ك الشىء من حيث لا- يحس به انتهى. فنفى الغول عن الخمر نفى مضارها و الإنزاف فسر بالمسكر المذهب للعقل و أصله إذهاب الشىء تدريجا.

و محصل المعنى: أنه ليس فيها مضار الخمر التى فى الدنيا و لا اسكارها بإذهاب العقل.

و قوله: وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ وصف للحوار التى يرزقونها و قصور طرفهن كناية عن نظرهن نظره الغنج و الدلال و يؤيده ذكر العين بعده و هو جمع عيناء مؤنث أعين و هى الواسعه العين فى جمال.

و قيل: المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن

لهم، وبالعين أن أعينهن شديده فى سوادها شديده فى بياضها.

وقوله: كَأَنَّهِنَّ بَيْضٌ مَكُونٌ الْبَيْضُ معروف و هو اسم جنس واحده بيضه و المكنون هو المستور بالادخار قيل: المراد تشبيههن بالبيض الذى كنه الريش فى العش أو غيره فى غيره فلم تمسه الأيدى و لم يصبه الغبار، وقيل: المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشر و قبل أن تمسه الأيدى.

قوله تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ -الى قوله- فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ حِكَايَهُ مَحَادِثَهُ تَقَعُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ عَنْ أَحْوَالِ بَعْضٍ وَ يَحْدِثُ بَعْضُهُمْ بِمَا جَرَىٰ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَ تَنْتَهَى الْمَحَادِثَةُ إِلَى تَكْلِيمِهِمْ بَعْضُ أَهْلِ النَّارِ وَ هُوَ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ.

فقوله: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين و تسأولهم- كما تقدم- سؤال بعضهم عن بعض و ما جرى عليه.

وقوله: قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ أَى قَالَ قائل من أهل الجنة المتسائلين إنى كان لى فى الدنيا مصاحب يختص بى من الناس. كذا يعطى السياق.

وقيل: المراد بالقرين القرين من الشياطين و فيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين فى المعرضين عن ذكر الله و المخلصون فى عصمه إلهيه من قرين الشياطين و كذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (ص ٨٣) نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

وقوله: يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أ إنا لمدِينُونَ ضمير «يَقُولُ» للقرين، و مفعول «الْمُصَدِّقِينَ» البعث للجزء و قد قام مقامه قوله: «أ إِذَا مِتْنَا» الخ؛ و المدينون المجزيون.

و المعنى: كان يقول لى قرينى مستعبدا منكرا أ إنك لمن المصدقين للبعث للجزاء أ إذا متنا و كنا ترابا و عظاما فتلاشت أبداننا و تغيرت صورها أ إنا لمجزيون بالإحياء و الإعادة؟ فهذا مما لا ينبغى أن يصدق.

و قوله: [□] قَالَ هَيْلَ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ [□] ضمير «قَالَ» للقائل المذكور قبلا و الاطلاع الإشراف و المعنى ثم قال القائل المذكور مخاطبا لمحادثيه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قرينى و الحال التى هو فيها؟

و قوله: فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ السواء الوسط و منه سواء الطريق أى وسطه و المعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أى قرينه فى وسط الجحيم.

و قوله: [□] قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتِ لَتُرْدِينَ [□] «إِنْ» مخففة من القيله، و الإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق و يكنى به عن الهلاك و المعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكنى و تسقطنى فيما سقطت فيه من الجحيم.

و قوله: [□] وَ لَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ المراد بالنعمة التوفيق و الهدايه الإلهيه، و الإحضار الإشخاص للعذاب قال فى مجمع البيان: و لا يستعمل «أحضر» مطلقا إلا فى الشر.

و المعنى و لولا توفيق ربهى و هدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك.

و قوله: [□] أَفَلَمْ نَحْنُ بِمَبْتَئِينَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى [□] وَ [□] مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ الاستفهام للتقرير و التعجيب، و المراد بالموته الاولى هى الموته عن الحياه الدنيا و أما الموته عن البرزخ المدلول عليها بقوله: [□] رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ (المؤمن ١١) فلم يعبأ بها لأن الموت الذى يزعم الزاعم فيه الفناء و البطلان هو الموت الدينوى.

و المعنى-على ما فى الكلام من الحذف و الإيجاز- ثم يرجع القائل المذكور الى نفسه و أصحابه فيقول متعجبا أ نحن خالدون ممنعون فما نحن بمبتئين إلا الموته الأولى و ما نحن

قال فى مجمع البيان: و يريدون به التحقيق لا الشك و إنما قالوا هذا القول لأن لهم فى ذلك سرورا مجددا و فرحا مضاعفا و إن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون فى الجنة و هذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجبا: كل هذا المال لى؟ و هو يعلم أن ذلك له و هذا كقوله:

أ بطحاء مكة هذا الذى

أراه عيانا و هذا أنا؟

قال: و لهذا عقبه بقوله: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ انتهى.

و قوله: إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ هو من تمام قول القائل المذكور و فيه إعظام لموهبه الخلود و ارتفاع العذاب و شكر للنعمه.

و قوله: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور و الإشاره بهذا الى الفوز أو الثواب أى لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون فى دار التكليف، و قيل: هو من قول الله سبحانه و قيل: من قول أهل الجنة.

قوله تعالى: أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً- أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ -الى قوله- يُهْرَعُونَ مِثْلَهُ بَيْنَ مَا هِيَ أَللَّهُ نَزَلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِمَّا وَصَفَهُ مِنَ الرِّزْقِ الْكَرِيمِ و بين ما أعده نزلا لأهل النار من شجره الزقوم التى طلعتها كأنه رءوس الشياطين و شراب من حميم.

فقوله: أ ذلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً- أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ الإشاره بذلك الى الرزق الكريم المذكوره سابقا المعد لورود أهل الجنة و النزول بضمين ما يهيا لورود الضيف فيقدم اليه إذا ورد من الفواكه و نحوها.

و الزقوم-على ما قيل-اسم شجره صغيره الورق مره كريهه الرائحه ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون فى تهامه و البلاد المجدبه المجاوره للصحراء سميت به الشجره الموصوفه بما فى الآيه من الأوصاف، و قيل: إن قريشا ما كانت تعرفه و سيأتى ذلك فى البحث الروائى.

و لفظه خير فى الآيه بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيريه فى الزقوم أصلاً فهو كقوله:

مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ (الجمعه ١١/١) والآيه على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى.

و قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ الضمير لشجره الزقوم، و الفتنة المحنة و العذاب.

و قوله: إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْبَلِ الْجَحِيمِ وصف لشجره الزقوم، و أصل الجحيم قعرها، و لا عجب فى نبات شجره فى النار و بقائها فيها فحياء الإنسان و بقاؤها خالداً فيها أعجب و الله يفعل ما يشاء.

و قوله: طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ الطلع حمل النخله أو مطلق الشجره أول ما يبدو، و تشبيه ثمره الزقوم برءوس الشياطين بعنايه أن الأوهام العاميه تصور الشيطان فى أقبح صورته كما تصور الملك فى أحسن صورته و أجملها قال تعالى: مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف ٣١)، و بذلك يندفع ما قيل: إن الشئ إنما يشبه بما يعرف و لا معرفه لأحد برءوس الشياطين.

و قوله: فَإِنَّهُمْ لَمَّا كَلُونِ مِنْهَا فَمَا أَلْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلاً للظالمين يأكلون منها، و فى قوله: «فَمَا أَلْوَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشاره الى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ الشوب المزيج و الخليط، و الحميم الماء الحار البالغ فى حرارته، و المعنى ثم إن لاولئك الظالمين -زيادة عليها- خليطاً مزيجاً من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملئوا منه البطون من الزقوم.

و قوله: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أى إنهم بعد شرب الحميم يرجعون الى الجحيم فيستقرون فيها و يعذبون، و فى الآيه تلويح الى أن الحميم خارج الجحيم.

و قوله: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ألفت كذا

أى وجدته وصادفته، والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم و شربهم ثم رجوعهم الى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين- وهم مقلدون و أتباع لهم و هم أصلهم و مرجعهم- فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك و الرجوع الى الجحيم جزاء وفاقا (١).

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ٧١ الى ١١٣]

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا-عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٨٢) وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ (٨٦) فَلَمَّا ظَنَنْتُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَانظُرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَيِّئِمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤) قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

ص: ٣٠٥

١- ١. الصافات ١٢-٧٠: بحث روائي في مواقف يوم القيامة؛ اهل الجنة و اهل النار؛ معنى ذبح الموت يوم القيامة بين الجنة و النار.

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** -الى قوله- **الْمُخْلِصِينَ** كلام مسوق لإنذار مشركى هذه الامه بتنظيرهم للامم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء و أرسل اليهم رسل منذرون كما أرسل منذر الى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبه أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

ص: ٣٠٧

و اللام فى «لَقَدْ ضَلَّ» للقسم و كذا فى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا» و المنذرین الأول بكسر الهمزة و هم الرسل و الثانى بفتح الهمزة المعجمه و هم الامم الأولون، و «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ» إن كان المراد بهم من فى الامم من المخلصين كان استثناء متصل و إن عم الأنبياء كان منقطعا إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» اللامان للقسم و هو يدل على كمال العناية بنداء نوح و إجابته تعالى، و قد مدح تعالى نفسه فى إجابته فإن التقدير فلنعلم المجيبون نحن، و جمع المجيب لإفاده التعظيم و قد كان نداء نوح -على ما يفيد السياق- دعاءه على قومه و استغاثته بربه المنقولين فى قوله تعالى: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» (نوح ٢٦)، و فى قوله تعالى: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» (القمر ١٠).

قوله تعالى: «وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» الكرب -على ما ذكره الراغب- الغم الشديد و المراد به الطوفان أو أذى قومه، و المراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه و قد قال تعالى فى سورة هود: «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ» (هود ٤٠) و الأهل كما يطلق على زوج الرجل و بنيه يطلق على كل من هو من خاصته.

قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ» أى الباقين من الناس بعد قرنهم و قد بحثنا فى هذا المعنى فى قصه نوح من سورة هود.

قوله تعالى: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ» المراد بالترك الإبقاء و بالآخرين الامم الغابره غير الأولين، و قد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضا فى هذه السوره و قد بدلت فى القصه بعينها من سورة الشعراء من قوله: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (الشعراء ٨٤) و استفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم

بدعوته و يدعو الى ملته و هى دين التوحيد.

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء فى الآخرين هو إحياءه تعالى دعوه نوح عليه السّلام الى التوحيد و مجاهدته فى سبيل الله عصرا بعد عصر و جيلا بعد جيل الى يوم القيامة.

قوله تعالى: **سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ** المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم، و الظاهر أن المراد به عالمو البشر و اممهم و جماعاتهم الى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى اليه من قبل الامم الإنسانية ما جرى فيها شىء من الخيرات اعتقادا أو عملا فانه عليه السّلام أول من انتهض لدعوه التوحيد و دحض الشرك و ما يتبعه من العمل و قاسى فى ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنه لا- يشاركه فى ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم الى يوم القيامة، و لا يوجد فى كلامه تعالى سلام على هذه السعه على أحد ممن دونه.

وقيل: المراد بالعالمين عوالم الملائكة و الثقلين من الجن و الإنس.

قوله تعالى: **إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** تعليل لما امتن عليه من الكرامه كإجابته ندائه و تنجيته و أهله من الكرب العظيم و إبقاء ذريته و تركه عليه فى الآخرين و السلام عليه فى العالمين، و تشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا فى خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السلام و هو ظاهر.

قوله تعالى: **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجمله السابقه و ذلك لأنه عليه السّلام لكونه عبدا لله بحقيقه معنى الكلمه كان لا يريد و لا يفعل إلا ما يريد الله، و لكونه من المؤمنين حقا كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق و سرى ذلك الى جميع أركان وجوده و من كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ** ثم للتراخى الكلامى دون الزمانى و المراد بالآخرين قومه المشركون.

قوله تعالى: وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِبِإِبْرَاهِيمَ الشَّيْعَةَ هُم الْقَوْمُ الْمَشَايِعُونَ لغيرهم الذاهبون على أثرهم و بالجمله كل من وافق غيره فى طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى: وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاءِهِمْ مِنْ قَبْلُ (سبأ٥٤).

و ظاهر السياق أن ضمير «شِيعَتِهِ» لنوح أى إن إبراهيم كان ممن يوافقه فى دينه و هو دين التوحيد، و قيل:الضمير لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و لا دليل عليه من جهة اللفظ.

قيل: و من حسن الإرداف فى نظم الآيات تعقيب قصه نوح عليه السلام و هو آدم الثانى أبو البشر بقصه إبراهيم عليه السلام و هو أبو الأنبياء اليه تنتهى أنساب جل الأنبياء بعده و على دينه تعتمد أديان التوحيد الحيه اليوم كدين موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و أيضا نوح عليه السلام نجاه الله من الغرق و إبراهيم عليه السلام نجاه الله من الحرق.

قوله تعالى: إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مجيئه ربه كناية عن تصديقه له إيمانه به، و يؤيد ذلك أن المراد بسلامه القلب عروه عن كل ما يضر التصديق و الإيمان بالله سبحانه من الشرك الجلى و الخفى و مساوى الأخلاق و آثار المعاصى و أى تعلق بغيره ينجذب اليه الإنسان و يختل به صفاء توجهه اليه سبحانه.

و بذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلق له بغيره تعالى كما فى الحديث و سيجىء إن شاء الله فى البحث الروائى الآتى.

و الظرف فى الآيه متعلق بقوله سابقا: «مِنْ شِيعَتِهِ» و الظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها، و قيل متعلق بأذكر المقدر.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَي شَيْءٍ تَعْبُدُونَ؟ و انما سألهم عن معبودهم و هو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجبا و استغرابا.

قوله تعالى: أَلَمْ يَكُنْ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ أَي تَقْصِدُونَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ افكاً و افتراء، انما قدم الإفك و الآلهه لتعلق عنايته بذلك.

قوله تعالى: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ لَا شَكَّ أَنْ ظَاهِرَ الْآيَاتِينَ أَنْ أَخْبَارَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ سَقِيمٌ مُرْتَبِطٌ بِنَظَرَتِهِ فِي النُّجُومِ وَ مَبْنَى عَلَيْهِ وَ نَظَرَتِهِ فِي النُّجُومِ أَمَا لِتَشْخِصِ السَّاعَةِ وَ خُصُوصِ الْوَقْتِ كَمَنْ بِهِ حَمَى ذَاتَهُ نُوْبَهُ يَعِينُ وَقْتَهَا بِطُلُوعِ كَوْكَبٍ أَوْ غُرُوبِهَا أَوْ وَضْعِ خَاصٍ مِنَ النُّجُومِ وَ أَمَا لِلْوُقُوفِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي كَانَ الْمُنْجَمُونَ يَرُونَ أَنَّ الْأَوْضَاعَ الْفَلَائِيكَ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَ قَدْ كَانَ الصَّابِثُونَ مُبَالِغِينَ فِيهَا وَ كَانَ فِي عَهْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ جَمٌّ غَفِيرٌ.

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كاهنهم إلى عيد لهم نظر إلى النجوم و أخبرهم أنه سقيم ستعتريه العلة فلا يقدر على الخروج معهم.

و على الوجه الثانى نظر عليه السَّلَامُ حينذاك إلى النجوم نظره المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سقيم فليس فى وسعه الخروج معهم.

و أول الوجهين أنسب لحاله عليه السَّلَامُ و هو فى إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيراً، و لا دليل لنا قويا يدل على أنه عليه السَّلَامُ لم يكن به فى تلك الأيام سقم أصلاً، و قد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم و ذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب و لا لغو من القول.

قوله تعالى: فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ وَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِلْقَوْمِ وَ ضَمِيرُ الْإِفْرَادِ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَى خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَ خَلْفُوهُ.

قوله تعالى: فَارْأَيْتُمْ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ الرُّوْغُ وَ الرُّوْغَانُ الْحِيَادُ وَ الْمَيْلُ، وَ قِيلَ أَسْأَلُ الْمَيْلَ فِي جَانِبٍ لِيُخَدَعَ مِنْ يَرِيدِهِ.

و فى قوله: «أَلَا تَأْكُلُونَ»؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاماً عند آلِهِتِهِمْ.

و قوله: «أَلَا تَأْكُلُونَ؟ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ»؟ تكليم منه لآلِهِتِهِمْ و هى جماد و هو يعلم أنها

جماد لا تأكل و لا تنطق لكن الوجد و شده الغيظ حمله على أنه يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين.

فنظر إليها و هى ذوات أبدان كهيئه من يتغذى و يأكل و عندها شىء من الطعام فامتلاً غيظاً و جاش و جدا فقال: أ لا تأكلون؟ فلم يسمع منها جواباً فقال: «مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ»؟ و أنتم آلهه يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حسا راغ عليها ضربا باليمين.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ أَى تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوه بناء على كون المراد باليمين القوه.

قوله تعالى: فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ الزف و الزيف الإسراع فى المشى أى فجاءوا الى إبراهيم و الحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثه التى يظنون أنه الذى أحدثها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه إيجاز و حذف من حديث القبض عليه و الإتيان به على أعين الناس و مسألته و غيرها.

و الاستفهام للتوبيخ و فيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول: لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبودا له و الله سبحانه خلق الإنسان و ما يعمل و الخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان و من السفه أن يترك هذا و يعبد ذاك.

و لا- ضير فى نسبه الخلق الى ما عمله الإنسان أو الى عمله لأن ما يريده الإنسان و يعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادته الإنسان و اختياره و لا يوجب هذا النوع من تعلق الإراده بالفعل بطلان تأثير إرادته الإنسان و خروج الفعل عن الاختيار و صيرورته مجبرا عليه، و هو ظاهر.

و لو كان المراد نسبه خلق أعمالهم الى الله سبحانه بلا واسطه لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم و أفاد الجبر لكان القول أقرب الى أن يكون عذرا لهم من أن يكون

توبيخا و تقييحا، و كانت الحجبه لهم لا عليهم.

قوله تعالى: قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ الْبَنِيَانِ مَصَدْرُ بَنِي يَبْنِي وَ الْمَرَادُ بِهِ الْمَبْنِي، وَ الْجَحِيمِ النَّارُ فِي شِدَّةِ تَأْجِجِهَا.

قوله تعالى: فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ الْكَيْدُ الْحِيلَةُ وَ الْمَرَادُ احْتِيَالَهُمْ إِلَى إِهْلَاكِهِ وَ إِحْرَاقِهِ بِالنَّارِ.

و قوله: فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ كُنَايَةٌ عَنْ جَعْلِ إِبْرَاهِيمَ فَوْقَهُمْ لَا يُوْثِرُ فِيهِ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ: يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ (الأنبياء ٦٩).

و قد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه السّلام و هو انتهاضه أولا على عباده الأوثان و اختصاصه لعبادها و انتهاء أمره الى إلقاءه النار و إبطاله تعالى كيدهم.

قوله تعالى: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَصَلْ آخِرُ مِنْ قِصَصِهِ عَلَيْهِ السّلام يَذْكَرُ عِزْمَهُ عَلَى الْمُهَاجِرَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ وَ اسْتِيْهَابِهِ مِنَ اللَّهِ وَلِدًا صَالِحًا وَ إِجَابَتِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ وَ قِصَّةَ ذَبْحِهِ وَ نَزُولِ الْفِدَاءِ.

فقوله: وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي الخ؛ كَالْإِنْجَازِ لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مَخَاطِبًا لِأَزْرٍ وَ أَعْتَرَلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (مريم ٤٨) وَ مِنْهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَرَادَهُ بِالذَّهَابِ إِلَىٰ رَبِّهِ الذَّهَابَ إِلَىٰ مَكَانٍ يَتَجَرَّدُ فِيهِ لِعِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ وَ دَعَائِهِ وَ هُوَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ.

قوله تعالى: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ حِكَايَةُ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلام وَ مَسْأَلَتِهِ الْوَلَدَ أَيَّ قَالَ: رَبِّ هَبْ لِي، الخ؛ وَ قَدْ قَيَّدَهُ بِكُونِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ.

قوله تعالى: فَبَشِّرْهُنَّ أَهْلًا حَلِيمًا أَيَّ فَبَشِّرْنَاهُ أَنَا سَنُرْزِقُهُ غُلَامًا حَلِيمًا وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ يَكُونُ ذَكَرًا وَ يَبْلُغُ حَدَّ الْغُلَامَانِ، وَ أَخَذَ الْغُلُومَ فِي وَصْفِهِ مَعَ أَنَّهُ بَلَّغَ الْمَبْلُغَ الرَّجَالِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ حَالِهِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا صِفَةُ كَمَالِهِ وَ صِفَاءِ ذَاتِهِ وَ هُوَ حَمَلُهُ الَّذِي مَكَّنَهُ مِنَ الصَّبْرِ فِي

ذات الله إذ قال: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» .

و لم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية و أبوه في قوله تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (هود ٧٥).

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى السخ؛ الفاء في أول الآية فصيحته تدل على محذوف و التقدير فلما ولد له و نشأ و بلغ معه السعي، و المراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعي فيه لحوائج الحياه عاده و هو سن الرهاق، و المعنى فلما راهق الغلام قال له: يا بني، السخ.

و قوله: قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه، و قوله: «إِنِّي أَرَى» يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله: وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى الْخ (يوسف ٣٣).

و قوله: فَانظُرْ مَاذَا تَرَى هو من الرأى بمعنى الاعتقاد أى فتفكر فيما قلت و عين ما هو رأيك فيه، و هذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثل له في مثال نتیجه الأمر و لذا طلب من ابنه الرأى فيه و هو يختبره بما ذا يجيبه؟

و قوله: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ جواب ابنه، و قوله: «يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ» إظهار رضى بالذبح في صورته الأمر و قد قال:

افعل ما تؤمر و لم يقل: اذبحنى إشارة الى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره و طاعته.

و قوله: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ تطيب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه و لا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمحل بدمائه، و قد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فأشار الى أن اتصافه بهذه الصفه الكريمه أعنى الصبر ليس له من نفسه و لا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله و مننه إن يشأ تلبس به و له أن لا يشاء فينزعه منه.

قوله تعالى: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ الإسلام الرضا و الاستسلام: و التل الضرع و الجبين أحد جانبي الجبهة و اللام فى «لِلْجَبِينِ» لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله:

يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (الإسراء ١٠٧/١)، و المعنى فلما استسلما إبراهيم و ابنه لأمر الله و رضيا به و صرعه إبراهيم على جبينه.

و جواب لما محذوف إيماء الى شدة المصيبة و مراره الواقعة.

قوله تعالى: وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا معطوف على جواب لما المحذوف، و قوله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا» أى أوردتها مورد الصدق و جعلتها صادقه و امتثلت الأمر الذى أمرناك فيها أى إن الأمر فيها كان امتحانيا يكفى فى امتثاله تهيؤ المأمور للفعل و إشرافه عليه فحسب.

قوله تعالى: إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ الإِشَارَةُ بِكَذَلِكَ الى قصة الذبح بما أنها محنة شاقه و ابتلاء شديد و الإِشَارَةُ بهذا إليها أيضا و هو تعليل لشدة الأمر.

و المعنى: إنا على هذه الوتيره نجزي المحسنين فمتحنهم امتحانات شاقه صوره هينه معنى فاذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء فى الدنيا و الآخرة، و ذلك لأن الذى ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين.

قوله تعالى: وَ فَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ أى و فدينا ابنه بذبح عظيم و كان كبشا أتى به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما فى الأخبار، و المراد بعظمه الذبح عظمه شأنه بكونه من عند الله سبحانه و هو الذى فدى به الذبيح.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ تقدم الكلام فيه.

قوله تعالى: سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ تحية منه تعالى عليه، و فى تنكير سلام تفخيم له.

قوله تعالى: كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تقدم

قوله تعالى: وَبَشَّرْنَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ الضمير لإبراهيم عليه السلام.

و اعلم أن هذه الآية المتضمنه للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله:

«فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ» المتعقبه بقوله: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ» الى آخر القصة ظاهره كالصريحه أو هي صريحه فى أن الذبيح غير إسحاق و هو إسماعيل عليهما السلام و قد فصلنا القول فى ذلك فى قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام.

قوله تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ المباركه على شىء جعل الخير و النماء و الثبات فيه أى و جعلنا فيما أعطينا إبراهيم و إسحاق الخير الثابت و النماء.

و يمكن أن يكون قوله: «و مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا» الخ؛ قرينه على أن المراد بقوله: «بَارَكْنَا» إعطاء البركه و الكثره فى أولاده و أولاد إسحاق، و الباقي ظاهر.

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ١١٤ الى ١٣٢]

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١١٤) وَ نَجَّيْنَاهُمَا مِّنْ قَوْمِهِمَا (١١٥) وَ نَصَّيْنَاهُمْ فَمَا كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَ إِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

بيان:

قوله تعالى: **وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ** المن الإنعام و من المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما و على قومهما من التنجيه و النصر و إيتاء الكتاب و الهدايه و غيرها فيكون قوله: «**وَنَجَّيْنَاهُمَا**» الخ؛ من عطف التفسير.

قوله تعالى: **وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُزْبِ الْعَظِيمِ** و هو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب و يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم.

قوله تعالى: **وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ** و هو الذى أدى الى خروجهم من مصر و جوازهم البحر و هلاك فرعون و جنوده.

ص: ٣١٧

و بذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجيه لتوقفها عليه، و ذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوه ما لكنها لا تكفى لدفع الشر فتتم بالنصر و كان لبنى إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوه فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوه لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجيه دون النصر.

قوله تعالى: **وَ آتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ** أى يستبين المجهولات الخفيه فيبينها و هى التى يحتاج إليها الناس فى دنياهم و آخرتهم.

قوله تعالى: **وَ هَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** المراد بها الهدايه بتمام معنى الكلمه، و لذا خصصها بهما و لم يشرك فيها معهما قومهما، و لقد تقدم كلام فى معنى البدايه الى الصراط المستقيم فى سوره الفاتحه.

قوله تعالى: **وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ** -الى قوله- **الْمُؤْمِنِينَ** تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: **وَ إِنَّ إِلِيَّاسَ لَمِنَ الْمُتَسَلِّمِينَ** قيل: إنه عليه السلام من آل هارون كان مبعوثا الى بعلبك (1) و لم يذكر فى كلامه ما يستشهد به عليه.

قوله تعالى: **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** -الى قوله- **الْأُولَئِينَ** شطر من دعوته عليه السلام يدعو قومه فيها الى التوحيد و يوبخهم على عباده بعل -صنم كان لهم- و ترك عباده الله سبحانه.

و كلامه عليه السلام على ما فيه من التوبيخ و اللوم يتضمن حجه تامه على توحيدته تعالى فإن قوله: **«وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ»** يوبخهم أولا على ترك عباده

ص: ٣١٨

١- ١). و لعلهم أخذوه من بعل فقد قيل: أن بعلبك سمي به لأن بعلا كان منصوبا فى معبد فيه.

أحسن الخالقين، والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجارى فيها الذى يسمى تدبيراً فكما أن الخلق اليه تعالى فالتدبير أيضا اليه فهو المدبر كما أنه الخالق؛ وأشار الى ذلك بقوله: «اللَّهُ رَبُّكُمْ» بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ثم أشار الى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التى يتخذ كل قوم بعضاً منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه و تدبيره، و اليه أشار بقوله: «اللَّهُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ» .

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر.

قوله تعالى: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ دليل على أنه كان فى قومه جمع منهم.

قوله تعالى: وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ -الى قوله- الْمُؤْمِنِينَ تقدم الكلام فى نظائرها (١).

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٣٣ الى ١٤٨]

وَ إِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٣٦) وَ إِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَ إِنْ يُؤْنَسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلَمَكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَتَبَدَّنَا بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)

ص: ٣١٩

(١- ١). الصافات ١١٤-١٣٢: كلام فى قصة الياس عليه السلام (قصته فى القرآن، الاحاديث فيه).

بيان:

قوله تعالى: وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ وَإِنَّمَا نَجَّاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ عَلَى قَوْمِهِ وَهُوَ الْخَسْفُ وَ
إِمطار حجاره من سجيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه.

قوله تعالى: إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ أَي فِي الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ الْمَهْلِكِينَ بِهِ وَهِيَ امْرَأَةُ لُوطٍ.

قوله تعالى: ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ التدمير الاهلاك، و الآخريين قومه الذين أرسل اليهم.

قوله تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَإِنَّهُمْ

ص: ٣٢٠

على طريق الحجاز الى الشام،و المراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربه و هى اليوم مستوره بالماء على ما قيل.

قوله تعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أَى السفينه المملوءه من الناس و الإباق هرب العبد من مولاه.

و المراد بإباقه الى الفلك خروجه من قومه معرضا عنهم و هو عليه السّلام و إن لم يعص فى خروجه ذلك ربه و لا كان هناك نهى من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلا لإباق العبد من خدمه مولاه فأخذه الله بذلك،و قد تقدم بعض الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ (الأنبياء٨٧).

قوله تعالى: فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ المساهمه المقارعه و الإدحاض الغلبه أى فقارع من فى السفينه فكان من المغلوبين،و قد كان عرض لسفيتهم الحوت فاضطروا الى أن يلقوا واحدا منهم فى البحر لبيتلعه و يخلى السفينه فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام.

قوله تعالى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ الالتقام الابتلاع،و ملیم من الأسم أى دخل فى اللوم كأحرم إذا دخل فى الحرم أو بمعنى صار ذا ملامه.

قوله تعالى: فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ عدّه من المسبحين و هم الذين تكرر منهم التسييح و تمكن منهم حتى صار وصفا لهم يدل على دوام تلبسه زمانا بالتسييح.قيل:أى من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، و قيل:بل فى بطن الحوت،و قيل:أى كان من المسبحين قبل التقام الحوت و فى بطنه.

والذى حكى من تسييحه فى كلامه تعالى قوله فى سوره الأنبياء: فَنادى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنبياء٨٧)و لازم ذلك أن يكون من المسبحين فى بطن الحوت خاصه أو فيه و فيما قبله فاحتمال كون المراد تسييحه قبل التقام

الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه.

على أن تسييحه مع اعترافه بالظلم في قوله: «سُبِّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» -على ما سيجيء- تسييح له تعالى عما كان يشعر به (١) فعله من ترك قومه و ذهابه على وجهه، وقوله:

«فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» الخ؛ يدل على أن تسييحه كان هو السبب المستدعى لنجاته، و لازم ذلك أن يكون إنما ابتلى بما ابتلى به لينزهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله الى ساحه العافيه.

و بذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسييحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها.

فالظاهر أن المراد بتسييحه نداؤه في الظلمات بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبِّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» و قد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينه لتسييحه كأنه يقول: لا معبود بالحق يتوجه اليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلى أنى أبق منك معرض عن عبوديتك متوجه الى سواك انى كنت ظالما لنفسى فى فعلى فها أنا متوجه اليك متبرئ مما كان يشعر به فعلى من التوجه عنك الى غيرك.

فهذا معنى تسييحه و لو لا ذلك منه لم ينج أبدا إذ كان سبب نجاته منحصرا فى التسييح و التنزيه بالمعنى الذى ذكر.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَلْبَثِّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» تأييد مكثه فى بطنه الى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذى يقبر فيه الإنسان و يلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (طه ٥٥).

و لا دلالة فى الآية على كونه عليه السلام على تقدير اللبث حيا فى بطن الحوت الى يوم يبعثون أو

ص: ٣٢٢

١- ١). و هو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» .

ميتا و بطنه قبره مع بقاء بدنه و بقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم فى كونه عليه السلام حيا على هذا التقدير أو ميتا و بطنه قبره، و أن المراد بيوم يبعثون النفخه الاولى التى فيها يموت الخلائق أو النفخه الثانيه أو التأجيل بيوم القيامه كناية عن طول اللبث.

قوله تعالى: فَتَيَذَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ النَّبَذُ طَرَحَ الشَّيْءَ وَ الرَّمَى بِهِ، وَ العَرَاءُ الْمَكَانَ الَّذِى لَا سِتْرَ فِيهِ يَسْتِظِلُّ بِهَا مِنْ سَقْفِ أَوْ خَبَاءِ أَوْ شَجَرٍ.

و المعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت و طرحناه خارج الماء فى أرض لا ظل فيها يستظل به و هو سقيم.

قوله تعالى: وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ الْيَقْطِينُ مِنْ نَوْعِ الْقَرَعِ وَ يَكُونُ وَرَقُهُ عَرِيضًا مُسْتَدِيرًا وَ قَدْ أَنْبَتَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ لِيَسْتِظِلَّ بِوَرْقِهَا.

قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ أَوْ فى مورد الترقى و تفيد معنى بل، و المراد بهذه الجماعه أهل نينوى.

قوله تعالى: فَأَمَّنُوا فَمَرَّغَتْهُمْ إِلَى حِينٍ أَى آمَنُوا به فلم نعدبهم و لم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمترغهم بالحياه و البقاء الى أجلهم المقدر لهم.

و الآيه فى إشعارها برفع العذاب عنهم و تمتيعهم تشير الى قوله تعالى: فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَرَّغَتْهُمْ إِلَى حِينٍ (يونس ٩٨).

و لا يخلو السياق من إشعار-بل دلالة-على أن المراد من إرساله فى قوله: «وَ أَرْسَلْنَاهُ» أمره بالذهاب ثانيا الى القوم، و بإيمانهم فى قوله: «فَأَمَّنُوا» الخ؛ إيمانهم بتصديقه و اتباعه بعد ما

[سوره الصافات (٣٧): الآيات ١٤٩ الى ١٨٢]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لَرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبُنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا- إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَ لَعَدَّ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَضِطَّفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبُنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَآتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَ لَعَدَّ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْمَآوِلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَابُحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)

ص: ٣٢٤

١ - ١). الصافات ١٣٣-١٤٨: كلام في قصه يونس عليه السلام في فصول (تعرض الى قصته في القرآن الكريم، قصته عند اهل الكتاب، ثناؤه تعالى عليه).

بيان:

قوله تعالى: فَاسْمِعْتَهُمْ أَرْبَابَهُمُ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ حلل سبحانه قولهم: إن الملائكة بنات الله الى ما يستلزمه من اللوازم و هي أن الملائكة أولاده، وأنهم بنات، و أنه تعالى خص نفسه بالبنات و هم مخصوصون بالبنين ثم رد هذه اللوازم واحدا بعد واحد فرد قولهم:

إن له البنات و لهم البنين بقوله: «فَاسْمِعْتَهُمْ أَرْبَابَهُمُ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ» و هو استفهام إنكارى لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنين على البنات و يتنزهون منهن و يثدونهن.

قوله تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ أم منقطعه أى بل أخلقنا الملائكة إناثا و هم شاهدون يشهدون خلقهم و لم يكونوا شاهدين خلقهم و لا- لهم أن يدعوا ذلك، و الذكور و الانوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس، و هذا رد لقولهم بانوثة الملائكة.

قوله تعالى: أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَمَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أى صرف القول عن وجهه الى غير وجهه أى من الحق الى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه وولاده و يعبرون عنه بها فهم آفكون كاذبون.

قوله تعالى: أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشده شناعته.

ثم وبخهم بقوله: «مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» لكون قولهم حكما من غير دليل ثم عقبه بقوله:

«أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» توبيخا و إشاره الى أن قولهم ذلك-فضلا عن كونه مما لا دليل عليه-الدليل على خلافه و لو تذكروا لا تكشف لهم فقد تنزهت ساحتها تعالى عن أن يتجزى فيلد أو يحتاج فيتخذ ولدا، و قد احتج عليهم بذلك فى مواضع من كلامه.

ص: ٣٢٦

قوله تعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أم منقطعه و المراد بالسلطان و هو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقى أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقه و هم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب.

و إضافه الكتاب اليهم بعنايه فرضه دالا على دعواهم.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ جعل النسب بينه و بين الجنة قولهم: إن الجنة أولاده و قد تقدم تفصيل قولهم فى تفسير سوره هود فى الكلام على عباده الأصنام.

و قوله: وَ لَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةِ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أى للحساب أو للنار على ما يفيدته إطلاق «لَمُحْضَرُونَ» و كيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم و يجازيهم بما عملوا فينهم و بين الله سبحانه نسبه الربوبيه و العبوديه لا- نسب الولاده و من كان كذلك لا يستحق العباده.

قوله تعالى: سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ضمير «يَصِفُونَ» - نظرا الى اتصال الآيه بما قبلها- راجع الى الكفار المذكورين قبل، و الاستثناء منه منقطع و المعنى هو منزه عن وصفهم- أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولاده و النسب و الشركه و نحوها- لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى و صفا يليق به- أو بما يليق به من الأوصاف-.

و للآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك و أدق و هو رجوع ضمير «يَصِفُونَ» الى الناس، و الوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به و اصف، و الاستثناء متصل و المعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين.

و ذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدوده عندهم و هو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد و لا

يدركه نعت فكلما وصف به فهو أجل منه و كل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه و خصهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم نفسه و أنساهم غيره يعرفونه و يعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم و صفوه بما يليق بساحه كبريائه و إذا وصفوه بألسنتهم-و الألفاظ قاصره و المعاني محدوده-اعترفوا بقصور البيان و أقرؤا بكلال اللسان كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هو سيد المخلصين: لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (1) فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأْتِكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ تفريع على حكم المستثنى و المستثنى منه أو المستثنى خاصه، و المعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا-و عباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم-فلمستم بمضلين به إلا سالكى سبيل النار.

و الظاهر من السياق أن «مَا» في «مَا تَعْبُدُونَ» موصوله و المراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام و آلهه الضلال كشياطين الجن، و «مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» نافية، و ضمير «عَلَيْهِ» لله سبحانه و الظرف متعلق بفاتنين، و فاتنين اسم فاعل من الفتته بمعنى الإضلال و «صَالِ» من الصلو بمعنى الاتباع فصالى الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار، و الاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحدا إلا من هو صال الجحيم.

و المعنى فإنكم و آلهه الضلال التى تعبدونها لستم جميعا بمضلين أحدا على الله إلا من هو متبع الجحيم.

قوله تعالى: ﴿وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الآيات الثلاث-على ما يعطيه السياق-اعتراض من كلام جبريل أو هو

ص: ٣٢٨

(١-١). فقد أثنى على الله و تمم نقصه بأنه يريد ما يريد الله من الثناء على نفسه.

و أعوانه من ملائكه الوحي نظير قوله تعالى فى سورة مريم: وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ الخ (مريم ٦٤).

و الآيات الثلاث مسوقه لرد قولهم بألوهيه الملائكه بإيراد نفس اعترافهم بما يتنفى به قول الكفار و هم لا ينفون العبوديه عن الملائكه بل يرون أنهم مربوطون لله سبحانه أرباب و آلهه لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض اليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شىء من هذا التدبير الى الله سبحانه و هذا هو الذى ينفيه الملائكه عن أنفسهم لا كونهم أسبابا متوسطه بينه تعالى و بين خلقه كما قال تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧).

فقوله: وَمَا مَدَّ إِلَيْنَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ أى معين مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض اليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعه الله فيما يأمر به و عبادته.

وقوله: وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّونَ أى نصفّ عند الله فى انتظار أوامره فى تدبير العالم لنجربها على ما يريد. كما قال تعالى: لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ هذا ما يفيداه السياق، و ربما قيل: إن المراد إنا نصفّ للصلاه عند الله و هو بعيد من الفهم لا شاهد عليه.

وقوله: وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أى المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحه كبريائه كما قال تعالى: يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (الأنبياء ٢٠).

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكه فى الخلقه و عملهم المناسب لخلقهم و هو الاصطفاف لتلقى أمره تعالى و التنزيه لساحه كبريائه عن الشريك و كل ما لا يليق بكمال ذاته المتعاليه.

قوله تعالى: وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ رجوع الى السياق السابق.

و الضمير فى قوله: «وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ» لقرىش و من يتلوهم، و «إِنْ» مخففه من الثقيله، و المراد بذكر من الأولين كتاب سماوى من جنس الكتب النازله على الأولين.

و المعنى لو أن عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازله قبلنا على الأولين لاهتدينا و كنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجه عليهم من قبل الله سبحانه.

و هذا فى الحقيقه هفوه منهم فإن مذهب الوثنيه يحيل النبوه و الرساله و نزول الكتاب السماوى.

قوله تعالى: فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الفاء فصيحه، و المعنى فأنزلنا عليهم الذكر و هو القرآن الكريم فكفروا به و لم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم و هذا تهديد منه تعالى لهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ كلمته تعالى لهم قوله الذى قاله فيهم و هو حكمه و قضاءه فى حقهم و سبق الكلمه تقدمها عهدا أو تقدمها بالنفوذ و الغلبه و اللام تفيد معنى النفع أى إنا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون و قد أكد الكلام بوجه من التأكيد.

و قد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخره أو بنحو آخر بل القرينه على خلافه قال تعالى: إنا لننصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن / ٥١).

فالرسل عليهم السلام منصورون فى الحجه لأنهم على الحق و الحق غير مغلوب.

و هم منصورون على أعدائهم اما بإظهارهم عليهم و اما بالانتقام منهم قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى -الى أن قال- حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصِيرُنَا فَنَجَّيْنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

و هم منصورون فى الآخرة كما قال تعالى: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (التحریم ٨/)، و قد تقدم أنفا آیه فى سوره المؤمن فى هذا المعنى.

قوله تعالى: وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ الجند هو المجتمع الغليظ و لذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب (١) و قد قال تعالى فى موضع آخر من كلامه: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (المائدة ٥٦/).

و المراد بقوله: «جُنُدَنَا» هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد فى سبيله و هم المؤمنون خاصه أو الأنبياء و من تبعهم من المؤمنين و فى الكلام على التقدير الثانى تعميم بعد التخصيص، و كيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيههم من الأنبياء قال تعالى: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩/). و قد مر بعض الآيات الداله عليه آنفا.

و الحكم أعنى النصر و الغلبه حكم اجتماعى منوط على العنوان لا- غير أى إن الرسل و هم عباد أرسلهم الله و المؤمنون و هم جند لله يعملون بأمره و يجاهدون فى سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون، و أما اذا لم يبق من الإيمان الا اسمه و من الانتساب الا حديثه فلا ينبغى أن يرجى نصر و لا غلبه.

قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ تَفْرِيعٍ عَلَىٰ حَدِيثِ النَّصْرِ وَ الْغَلْبَةِ ففیه وعد للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالنصر و الغلبه و ايعاد للمشركين و لقريش خاصه.

و الأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: «حَتَّىٰ حِينٍ» يلوح الى أن الأمد غير بعيد و كان كذلك فهاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بعد قليل و أباد الله صناديد قريش فى غزوه بدر و غيرها.

ص: ٣٣١

١- ١). قال تعالى: «إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ» الاحزاب: ٩. و قال فيهم بعينهم: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ» الاحزاب: ٢٢.

قوله تعالى: وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ الأمر بالإبصار و الإخبار بإبصارهم عاجلا و عطف الكلام على الأمر بالتولى معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم و أبصر ما هم عليه من الجحود و العناد قبال انذارك و تخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم و استكبارهم.

قوله تعالى: أَ فِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ توبيخ لهم لاستعجالهم و قولهم: متى هذا الوعد؟ متى هذا الفتح؟ و إيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوما بئيسا و صباحا مشئوما.

و نزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول و الإحاطة، و قوله: «فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ» أى بئس صباحهم صباحا، و المنذرون هم المشركون من قريش.

قوله تعالى: وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل، و احتمال بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا و بهذا، التهديد بعذاب الآخرة. و لا يخلو من وجه فإن الواقع فى الآية «وَ أَبْصِرْهُمْ» من غير مفعول كما فى الآية السابقة من قوله: «وَ أَبْصَارَهُمْ» و الحذف يشعر بالعموم و أن المراد إبصار ما عليه عامه الناس من الكفر و الفسوق و يناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم مما تقدم ذكره فى السورة.

و الدليل عليه إضافه التنزيه الى قوله: «رَبِّكَ» أى الرب الذى تعبده و تدعو اليه، و إضافه الرب ثانيا الى العزه المفيد لاختصاصه تعالى بالعزه فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل و لا يغلبه غالب و لا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين.

قوله تعالى: وَ سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ تسليم على عامه المرسلين و صون لهم من أن

يُصِيبُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى مَا يَسُوؤُهُمْ وَيَكْرَهُونَهُ.

قوله تعالى: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

ص: ٣٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ فَتَادُوا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٥) وَ انطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَ اضِبُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَجَعْنَا بِهَذَا فِي الْمِثْلِهِ الْآخِرِهِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ (٧) أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَفُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ (١٤) وَ مَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)

يدور الكلام فى السوره حول كون النبى صلى الله عليه وآله وسلم منذرا بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعى الى التوحيد و إخلاص العبوديه له تعالى.

فتبدأ بذكر اعتزاز الكفار و شقاقهم و بالجمله استكبارهم عن اتباعه و الإيمان به و صد الناس عنه و تفوههم بباطل القول فى ذلك و رده فى فصل.

ثم تأمل النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر و ذكر قصص عباده الأولين فى فصل ثم يذكر مآل حال المتقين و الطاغين فى فصل. ثم تأمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بإبلاغ نذارته و دعوته الى توحيد الله و أن مآل اتباع الشيطان الى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكه بالسجده لآدم فأبى إبليس فرجمه و قضى عليه و على من تبعه النار. فى فصل.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِ الْمَرَادِ بِالذِّكْرِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ وَ مَا يَتَفَرَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْحَقَّةِ مِنَ الْمَعَادِ وَالنَّبُوَّةِ وَ غَيْرِهِمَا، وَ الْعِزَّةِ الْاِمْتِنَاعِ، وَ الشِّقَاقِ الْمَخَالَفَةِ، قَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: وَ اَصْلُهُ اَنْ يَصِيرَ كُلُّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي شِقِّ اَيِّ فِي جَانِبٍ وَ مِنْهُ يُقَالُ: شَقَّ فُلَانٌ الْعَصَا اِذَا خَالَفَ اَنْتَهَى.

والمستفاد من سياق الآيات أن قوله: «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» قسم نظير ما في قوله: يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ن وَالْقَلَمِ لَا- عطف على ما تقدمه، و أما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَ شِقَاقِ اَنْهُ اَمْرٌ يَمْتَنِعُ عَنْ قَبُولِهِ الْقَوْمُ وَ يَكْفُرُونَ بِهِ عِزَّهُ وَ شِقَاقًا وَ قَدْ هَلَكَ فِيهِ قُرُونٌ كَثِيرَةٌ ثُمَّ ذَكَرَ اِنْذَارَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ مَا قَالَ الْكُفَّارَ عَلَيْهِ وَ مَا اَمْرَهُمْ بِهِ مَلُؤُهُمْ حَوْلَ اِنْذَارِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ اَنْهُ اَعْنَى الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ نَحْوُ مِنْ قَوْلِنَا:

إنك لمن المنذرين، و يشهد على ذلك أيضا التعرض في السورة بإذاره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالذِّكْرِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

و المعنى -و الله أعلم- أقسم بالقرآن المتضمن للذكر- إنك لمن المنذرين- بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله و اتباعه و مخالفته له.

قوله تعالى: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ الْقُرْنِ أَهْلَ عَصْرٍ وَاحِدٍ، وَ الْمَنَاصِ بِالنُّونِ مَصْدَرٌ نَاصٍ يَنْوِصُ أَي تَأَخَّرَ كَمَا اَنْهُ بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ بِمَعْنَى التَّقَدُّمِ عَلَى مَا فِي الْمَجْمَعِ وَ قِيلَ: هُوَ بِمَعْنَى الْفِرَارِ.

و المعنى: كثيرا ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن و أمه بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه و ليس الحين حين تأخر الأخذ و العذاب أو ليس الحين حين فرار.

قوله تعالى: وَ عَجِبُوا اَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَي تَعَجَّبُوا مِنْ مَجِيءِ مُنْذِرٍ مِنْ نَوْعِهِمْ بِاَنْ كَانَ بَشَرًا فَإِنِ الْوَثْنِيَّةُ تَنْكُرُ رِسَالَهُ

وقوله: وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ يشيرون بهذا الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن، وبالكذب لزعمهم أنه يفترى على الله بنسبه القرآن وما فيه من المعارف الحقه اليه تعالى.

قوله تعالى: أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ العجَاب بتخفيف الجيم اسم مبالغه من العجب وهو بتشديد الجيم أبلغ.

وهو من تتمه قول الكافرين والاستفهام للتعجب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما فى قوله تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا تَأْتُوا بِالنَّبِيِّينَ أَجْزَاءً إِنَّهُمْ مُخْتَلِفُونَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا هو إبطاله الوهيه الآلهه من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو.

قوله تعالى: وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ نسبه الانطلاق الى ملاهم وأشرفهم وقولهم ما قالوا يلوح الى أن اشراف قريش اجتمعوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليحلوا مشكله دعوته الى التوحيد ورفض الآلهه بنوع من الاستماله وكلموه فى ذلك فما وافقهم فى شىء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا و اصبروا، الخ؛ وهذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول مما سيجىء فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله.

وقوله: أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ بتقدير القول أى قائلين أن امشوا و اصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها و قدح فيها، و ظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض، و يمكن أن يكون قولهم لتبعتمهم.

وقوله: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ظاهره أنه إشاره الى ما يدعو اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و يطلبه و أن مطلوبه شىء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسه وإنما جعل الدعوه ذريعه اليه فهو نظير

قول الملا من قوم نوح لعامتهم: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ (المؤمنون ٢٤).

قوله تعالى: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَرَادُوا بِالْمَلَأِ الْآخِرَةِ الْمَذْهَبَ الَّذِي تَدَاوَلَهُ الْآخَرُونَ مِنَ الْأُمَّمِ الْمَعَاصِرِينَ لَهُمْ أَوْ الْمُقَارِنِينَ لِعَصْرِهِمْ قِبَالَ الْمَلَأِ الْأُولَى الَّتِي تَدَاوَلَتْهَا الْأُولُونَ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَلَأِ الْآخِرَةِ الَّتِي يَرْتَضِيهَا أَهْلُ الدُّنْيَا الْيَوْمَ بَلْ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأُولِينَ.

وقيل: المراد بالمله الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل التثليث. وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام.

وقوله: إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ أَيْ كَذِبٌ وَافْتِعَالٌ.

قوله تعالى: أَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ بِدَعَايِ التَّكْذِيبِ أَيْ لَا مَرَجِحَ عِنْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَتَرَجَّحُ بِهِ عَلَيْنَا فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ دُونَ مَا فَهُوَ فِي إِنْكَارِ الْإِخْتِصَاصِ بِنَزُولِ الذِّكْرِ نَظِيرَ قَوْلِهِمْ: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فِي نَفْيِ الْإِخْتِصَاصِ بِالرِّسَالَةِ.

قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ إِيضَابٍ عَنْ جَمِيعِ مَا قَالُوهُ أَيْ إِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا عَنْ إِيمَانٍ وَاعْتِقَادٍ بِهِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي وَهُوَ الْقُرْآنُ.

وليس شكهم فيه من جهه خفاء دلالة آية النبوه و قصورها عن إفاده اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل و لزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهيه المعجزه فشكوا في الذكر و الحال أنه آيه معجزه.

وقوله: لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ إِيضَابٍ عَنْ الإِيضَابِ أَيْ لَيْسَ إِنْكَارُهُمْ وَ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ بِهِ عَنْ شَكٍّ مِنْهُمْ فِيهِ بَلْ لِأَنَّهُمْ لَعَنُوهُمْ وَ اسْتَكْبَرُوهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِحَقِيَّتِهِ وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ شَكٌّ، حَتَّى يَذُوقُوا عَذَابِي فَيُضْطَرُّوا إِلَى الْإِعْتِرَافِ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُمْ.

و في قوله: «لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ» أَيْ لَمْ يَذُوقُوا بَعْدَ عَذَابِي، تَهْدِيدٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ.

قوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ الْكَلَامِ فِي مَوْجِ الْإِضْرَابِ وَ «أَمْ» مَنْقُطَعُهُ وَ الْكَلَامِ نَاطِرُ الْإِلَى قَوْلِهِمْ: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا» أَى بَلْ أَعِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الَّتِي يَنْفَقُ مِنْهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ حَتَّى يَمْنَعُوكَ مِنْهَا بَلْ هِيَ لَهُ تَعَالَى وَ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ وَ يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَ تَذْيِيلُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: «الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ» لِتَأْيِيدِ مَحْصَلِ الْجُمْلَةِ أَى لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ لِأَنَّهُ عَزِيزٌ مَنْعٌ جَانِبُهُ لَا يَدْخُلُ فِي أَمْرِهِ أَحَدٌ، وَ لَا لَهُمْ أَنْ يَصْرِفُوا رَحْمَتَهُ عَنْ أَحَدٍ لِأَنَّهُ وَهَّابٌ كَثِيرُ الْهَبَاتِ.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ «أَمْ» مَنْقُطَعُهُ، وَ الْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَزْتَقُوا» لِلتَّعْجِيزِ وَ الْارْتِقَاءِ الصُّعُودِ، وَ الْأَسْبَابُ الْمَعَارِجُ وَ الْمَنَاهِجُ الَّتِي يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَ يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ بَارْتِقَاءُ الْأَسْبَابِ التَّسَبُّبُ بِالْعِلَلِ وَ الْحِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ لَهُمْ الْمَنْعُ وَ الصَّرْفُ.

وَ الْمَعْنَى: بَلْ أَنَّهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ فَيَكُونُ لَهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهَا فَيَمْنَعُوا نَزُولَ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ إِلَى بَشَرٍ أَرْضِيٍّ فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيَصْعِدُوا مَعَارِجَ السَّمَاوَاتِ أَوْ فَلْيَتَسَبَّبُوا الْأَسْبَابَ وَ لِيَمْنَعُوا مِنْ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْكَ.

قوله تعالى: جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ الْهَزِيمَةُ الْخِذْلَانُ وَ «مِنَ الْأَحْزَابِ» بَيَانُ لِقَوْلِهِ: «جُنْدٌ مَا» وَ «مَا» لِلتَّقْلِيلِ وَ التَّحْقِيرِ، وَ الْكَلَامُ مَسْوُوقٌ لِتَحْقِيرِ أَمْرِهِمْ رَغْمًا لِمَا يَشْعُرُ بِهِ ظَاهِرُ كَلَامِهِمْ مِنَ التَّعَزُّزِ وَ الْإِعْجَابِ بِأَنْفُسِهِمْ.

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَنْكِيرُ «جُنْدٌ» وَ تَتْمِيمُهُ بِلَفْظِهِ «مَا» وَ الْإِشَارَةُ إِلَى مَكَانَتِهِمْ بِهِنَالِكَ الدَّالِّ عَلَى الْبَعِيدِ وَعَدَّهُمْ مِنَ الْأَحْزَابِ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى الرِّسْلِ الَّذِينَ قَطَعَ اللَّهُ دَائِرَ الْمَاضِينَ مِنْهُمْ كَمَا سَيَذْكَرُ وَ لِذَلِكَ عَدَّ هَذَا الْجُنْدَ مَهْزُومًا قَبْلَ انْهَزَامِهِمْ.

وَ الْمَعْنَى: هُمْ جُنْدٌ مَا أَقْلَاءُ أَذْلَاءُ مِنْهَزَمُونَ هِنَالِكَ مِنْ أَوْلِيَّتِكَ الْأَحْزَابِ الْمُتَحْزِبِينَ عَلَى

الرسول الذين كذبوهم فحق عليهم عقابى.

قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ -الى قوله- فَحَقَّ عِقَابِ ذُو الْأَوْتَادِ وَصَفَ فِرْعَوْنَ وَ الْأَوْتَادِ جَمْعٌ وَتَدُّ وَ هُوَ مَعْرُوفٌ. قيل: سُمِّيَ بِنَذَى الْأَوْتَادِ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ مَلَاعِبٌ مِنْ أَوْتَادٍ يَلْعَبُ لَهُ عَلَيْهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ يَعْذِبُ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ بِالْأَوْتَادِ يُوْتَدُ يَدِيهِ وَ رِجْلِيهِ وَ رَأْسَهُ عَلَى الْأَرْضِ فَيَعْذِبُهُ وَ قِيلَ: مَعْنَاهُ ذُو الْجُنُودِ أَوْتَادِ الْمَلِكِ، وَقِيلَ: غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْوُجُوهِ، وَ لَا دَلِيلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَعُولُ عَلَيْهِ.

وَ أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ قَوْمٍ شَعِيبٍ وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَ الشُّعْرَاءِ، وَ قَوْلُهُ: «فَحَقَّ عِقَابِ» أَيْ ثَبَتَ فِي حَقِّهِمْ وَ اسْتَقَرَّ فِيهِمْ عِقَابِي فَأَهْلَكَتَهُمْ.

قوله تعالى: وَ مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فُوقِ النَّظَرِ الْإِنْتِظَارِ وَ الْفُوقِ الرَّجُوعِ وَ الْمَهْلَةُ الْيَسِيرَةُ، وَ الْمَعْنَى وَ مَا يَنْتَظَرُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ مِنْ أَمْتِكَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَقْضَى عَلَيْهِمْ وَ تَهْلِكُهُمْ مَا لَهَا مِنْ رُجُوعٍ أَوْ مَهْلَةٍ وَ هِيَ عَذَابُ الْإِسْتِئْصَالِ.

قوله تعالى: وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ الْقَطُّ النَّصِيبُ وَ الْحِطُّ، وَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ اسْتَعْجَالٌ مِنْهُمْ لِلْعَذَابِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ اسْتَهْزَاءً بِحَدِيثِ يَوْمِ الْحِسَابِ وَ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ فِيهِ (١).

[سوره ص (٣٨): الآيات ١٧ الى ٢٩]

إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ أَذْكَرَ عَيْدِنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ (١٨) وَ الطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلَ الْخُطَابِ (٢٠) وَ هِيلَ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغِي بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تَشْطِطْ وَ اهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَحَىٰ لَهُ تَسْمِعٌ وَ تَسْمِعُونَ نَعَجَةً وَ لِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَ عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نُعَاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ قَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رَاكِعًا وَ أَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)

ص: ٣٤٠

قوله تعالى: اِصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْاَيْدِ اِنَّهُ اَوَابٌ اَلَيْدِ الْقُوهِ وَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَا قُوهِ فِي تَسْبِيحِهِ تَعَالَى يَسْبِحُ وَ يَسْبَحُ مَعَهُ الْجِبَالُ وَ الطَّيْرُ وَ ذَا قُوهِ فِي مَلِكِهِ وَ ذَا قُوهِ فِي عِلْمِهِ وَ ذَا قُوهِ وَ بَطْشٍ فِي الْحُرُوبِ وَ قَدْ قَتَلَ جَالُوتَ الْمَلِكِ كَمَا قَصَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

و الأواب اسم مبالغه من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به كثره رجوعه الى ربه.

قوله تعالى: اِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْاِشْرَاقِ الظاهر أن «مَعَهُ» متعلق بقوله: «يُسَبِّحْنَ» و جملة «مَعَهُ يُسَبِّحْنَ» بيان لمعنى التسخير و قدم الظرف لتعلق العناية بتبعيتها لداد و اقتدائها به فى التسييح لكن قوله تعالى فى موضع آخر: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ (الأنبياء/٧٩) يؤيد تعلق الظرف بسخرنا، و قد وقع فى موضع آخر من كلامه تعالى: يَا جِبَالَ اُوبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (سبأ/١٠) و العشى و الاشراق الرواح و الصباح.

و قوله: اِنَّا سَخَّرْنَا الخ؛ «ان» فيه للتعليل و الآيه و ما عطف عليها من الآيات بيان لكونه عليه السلام ذا ايد فى تسييحه و ملكه و علمه و كونه أوابا الى ربه.

قوله تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَّهُ اَوَابٌ الْمَحْشُورَةُ من الحشر بمعنى الجمع يازعاج أى و سخرنا معه الطير مجموعه له تسبح معه.

و قوله: «كُلُّ لَّهُ اَوَابٌ» استئناف يقرر ما تقدمه من تسييح الجبال و الطير أى كل من الجبال و الطير أواب أى كثير الرجوع اليها بالتسييح فإن التسييح من مصاديق الرجوع اليه

تعالى. و يحتمل رجوع ضمير «لَّهُ» الى داود على بعد.

و لم يكن تأييد داود عليه السلام في أصل جعله تعالى للجبال و الطير تسبيحا فإن كل شىء مسبح لله سبحانه قال تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤/١) بل في موافقه تسبيحها لتسبيحه و قرع تسبيحها أسمع الناس و قد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ الآية؛ و أنه بلسان الحال.

قوله تعالى: وَ شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَ آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَضَّلْنَا الْخِطَابَ قال الراغب:

الشد العقد القوى يقال: شددت الشىء قويت عقده. انتهى فشد الملك من الاستعاره بالكنايه و المراد به تقويه الملك و تحكيم أساسه بالهيبة و الجنود و الخزائن و حسن التدبير و سائر ما يتقوى به الملك.

و الحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم و المراد بها المعارف الحقه المتقنه التى تنفع الإنسان و تكمله، و قيل: المراد النبوه، و قيل الزبور و علم الشرائع، و قيل غير ذلك و هى وجوه رديه.

و فصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبه واحد لغيره و تمييز حقه من باطله و ينطبق على القضاء بين المتخاصمين فى خصامهم.

قوله تعالى: وَ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ الخضم مصدر كالخصومه اريد به القوم الذى استقر فيهم الخصومه، و التسور الارتقاء الى أعلى السور و هو الحائط الرفيع كالتسنم بمعنى الارتقاء الى سنام البعير و التذرى بمعنى الارتقاء الى ذروه الجبل، و قد فسر المحراب بالغرفه و العليه، و الاستفهام و التشويق الى استماع الخبر.

و المعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام.

قوله تعالى: إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ الى آخر الآية؛ لفظه «إن» هذه

ظرف لقوله: «تَسَوَّرُوا» كما أن «إِذْ» الاولى ظرف لقوله: «تَبَيَّأَ الْخَصْمُ» و محصل المعنى أنهم دخلوا على داود و هو فى محرابه لا من الطريق العادى بل بتسوره بالارتقاء الى سوره و الورود عليه منه و لذا فرع منهم لما رأهم دخلوا عليه من غير الطريق العادى و بغير إذن.

و قوله: فَفَزَعَ مِنْهُمْ قال الراغب: الفرع انقباض و نفار يعترى الإنسان من الشىء المخيف و هو من جنس الجزع و لا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه. انتهى.

و قد تقدم أن الخشيه تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب و القلق و هى رذيله مذمومه إلا الخشيه من الله سبحانه و لذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى: وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (الأحزاب ٣٩).

و أن الخوف هو التأثير عن المكروه فى مقام العمل بتهيئه ما يتحرز من الشر و يدفع به المكروه لا فى مقام الإدراك فليس برذيله مذمومه لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً (الأنفال ٥٨).

و إذا كان الفرع هو الانقباض و النفار الحاصل من الشىء المخوف كان أمرا راجعا الى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيله بذاته بل كان فضيله عند تحقق مكروه ينبغى التحرز منه فلا ضير فى نسبته الى داود عليه السلام فى قوله: «فَفَزَعَ مِنْهُمْ» و هو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله.

و قوله: قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِيْمًا بَغِيًّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفرع أرادوا تطيب نفسه و إسكان روعه فقالوا: «لَا تَخَفْ» و هو نهى عن الفرع بالنهى عن سببه الذى هو الخوف «خَصِيْمًا بَغِيًّا» الخ؛ أى نحن خصمان أى فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض.

و قوله: فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ بِالْخِشْيَةِ الشطط الجور أى فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق و لا تجر فى حكمك و دلنا على الوسط العدل من الطريق.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا أَخِي إِلَى آخِرِ آيَةٍ بَيَانٍ لِّخُصُومَتِهِمْ وَقَوْلُهُ: «إِنَّ هَذَا أَخِي» كَلَامٌ لِّوَاحِدٍ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ يُشِيرُ إِلَى آخِرِ مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ بِإِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ» الْخ.

وَقَوْلُهُ: لَهُ تَسْمَعُ وَتَسْمَعُونَ نَعَجَهُ وَإِلَى نَعَجِهِ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ النِّعْجَةُ الْإِنْتِي مِنَ الضَّانِّ، وَ«أَكْفَلْنِيهَا» أَيْ اجْعَلْهَا فِي كِفَالَتِي وَتَحْتَ سُلْطَتِي وَ«عَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» أَيْ غَلَبْنِي فِيهِ وَبِالْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِيَّايَ نِعَاجِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ جَوَابُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَعَلَّهُ قَضَاءُ تَقْدِيرِي قَبْلَ اسْتِمَاعِ كَلَامِ الْمُتَخَاصِمِ الْآخَرِ فَإِنَّ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَكْشِفُ عَنْ كَوْنِهِ مُحَقًّا فِيمَا يَطْلُبُهُ وَيَقْتَرِحُهُ عَلَى صَاحِبِهِ لَكِنِ صَاحِبُ النِّعْجَةِ الْوَاحِدَةُ أَلْقَى كَلَامَهُ بِوَجْهِ هَيْجِ الرَّحْمَةِ وَالْعَطُوفَةِ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَادَرَ إِلَى هَذَا التَّصْدِيقِ التَّقْدِيرِي فَقَالَ: «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِيَّايَ نِعَاجِهِ» .

فَاللَّامُ لِلْقِسْمِ، وَالسُّؤَالُ - عَلَى مَا قِيلَ - مُضْمَنٌ مَعْنَى الْإِضَافَةِ وَلِذَا عَدِيَ إِلَى الْمَفْعُولِ الثَّانِي بِإِلَى، وَالْمَعْنَى اقْسِمَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ إِضَافَةِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ.

وَقَوْلُهُ: وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْرُرُ بِهِ كَلَامَهُ الْأَوَّلُ وَالْخُلَطَاءُ الشَّرَكَاءُ الْمُخَالَطُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ أَيْ عَلِمَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ أَيْ أَنَّهَا كَانَتْ فَتْنَةً فَتَنَاهُ بِهَا وَالْفِتْنَةُ الْإِمْتِحَانُ، وَقِيلَ: ظَنَّ بِمَعْنَاهِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْيَقِينِ وَذَكَرَ اسْتِغْفَارَهُ وَتَوْبَتَهُ مُطْلَقِينَ يُؤَيِّدُ مَا قَدَّمَ مِنْهُ وَكَانَ الظَّنُّ بِمَعْنَاهِ الْمَعْرُوفِ كَانَ الْاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهَا فَتْنَةً وَاقِعًا وَإِطْلَاقَ اللَّفْظِ يَدْفَعُهُ، وَالْخَرُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ سَقُوطٌ يَسْمَعُ مِنْهُ خَرِيرٌ وَالْخَرِيرُ يَقَالُ لِصَوْتِ الْمَاءِ وَالرِّيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْقُطُ مِنْ عَلْوٍ، وَالرُّكُوعُ - عَلَى مَا ذَكَرَهُ - مُطْلَقُ الْإِنْحِنَاءِ.

و الإنابة الى الله-على ما ذكره الراغب-الرجوع اليه بالتوبه و إخلاص العمل و هى من النوب بمعنى رجوع الشىء مره بعد أخرى.

و المعنى:و علم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحانا امتحناه و أنه أخطأ فاستغفر ربه-مما وقع منه-و خر منحنيا و تاب اليه.

و أكثر المفسرين تبعا للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السّلام كانوا ملائكه أرسلهم الله سبحانه اليه ليتمحنه و ستعرف حال الروايات.

لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب و دخولهم عليه دخولا- غير عادى بحيث أفرعوه،و كذا تنبهه بأنه إنما كان فتنه من الله له لا- واقعه عاديه،و قوله تعالى بعد: «فَاْحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ» الظاهر فى أن الله ابتلاه بما ابتلى لئببه و يسدده فى خلافته و حكمه بين الناس، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكه و قد تمثلوا له فى صوره رجال من الإنس.

و على هذا فالواقعه تمثل تمثل فيه الملائكه فى صوره متخاصمين لأحدهما نعبه واحده يسألها آخر له تسع و تسعون نعبه و سأله القضاء فقال لصاحب النعبه الواحد: «لَقَدْ ظَلَمَكَ» الخ؛و كان قوله عليه السّلام-لو كان قضاء منجزا-حكما منه فى ظرف التمثل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم و من المعلوم أن لا تكليف فى ظرف التمثل كما لا- تكليف فى عالم الرؤيا و إنما التكليف فى عالمنا المشهود و هو عالم الماده و لم تقع الواقعة فيه و لا- كان هناك متخاصمان و لا- نعبه و لا- نجاج إلا- فى ظرف التمثل فكانت خطيئه داود عليه السّلام فى هذا الظرف من التمثل و لا تكليف هناك كخطيئه آدم عليه السّلام فى الجنه من أكل الشجره قبل الهبوط الى الأرض و تشريع الشرائع و جعل التكليف،و استغفاره و توبته مما صدر منه كاستغفار آدم و توبته مما صدر منه و قد صرح الله بخلافته فى كلامه كما صرح بخلافه آدم عليه السّلام فى كلامه و قد مر توضيح ذلك فى قصه آدم عليه السّلام من سوره البقره فى الجزء الأول من الكتاب.

و أما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا و القصه على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: «لَقَدْ ظَلَمَ بِكَ» الخ؛ قضاء تقديرها أى إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجه بينه، وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجه من طريقى العقل و النقل أن الأنبياء معصومون بعصمه من الله لا يجوز عليهم كبيره و لا صغيره.

على أن الله سبحانه صرح قبلا بأنه آتاه الحكمة و فصل الخطاب و لا يلائم ذلك خطأه فى القضاء.

قوله تعالى: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَ حُسْنَ مِآبٍ الزلفه و الزلفى المنزله و الحظوه، و المآب المرجع، و تنكير «لَزُلْفَىٰ» و «مِآبٍ» للتفخيم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الظاهر أن الكلام بتقدير القول و التقدير فغفرنا له ذلك و قلنا يا داود، الخ.

و ظاهر الخلافه إنها خلافه الله فتنتطبق على ما فى قوله تعالى: وَ إِذِ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠) و من شأن الخلافه أن يحاكي الخليفه من استخلفه فى صفاته و أعماله فعلى خليفه الله فى الأرض أن يتخلق بأخلاق الله و يريد و يفعل ما يريد الله و يحكم و يقضى بما يقضى به الله -و الله يقضى بالحق- و يسلك سبيل الله و لا يتعدها.

و لذلك فرّع على جعل خلافته قوله: «فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» و هذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوه الى الفعل فى حقه لا مجرد الخلافه الشأنيه لأن الله أكمله فى صفاته و آتاه الملك يحكم بين الناس.

و قوله: وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ العطف و المقابله بينه و بين ما قبله يعطيان أن المعنى و لا تتبع فى قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذى هو سبيل الله فتفيد الآيه أن سبيل الله هو الحق.

قال بعضهم: إن فى أمره عليه السلام بالحكم بالحق و نهيه عن اتباع الهوى تنبيها لغيره ممن يلى

امور الناس أن يحكم بينهم بالحق و لا- يتبع الباطل و إلا- فهو عليه السّلام من حيث إنه معصوم لا- يحكم إلا- بالحق و لا- يتبع الباطل.

و فيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه اليه من التكليف في محله لكن عصمه المعصوم و عدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر و النهى اليه فإن العصمه لا- توجب سلب اختياره و ما دام اختياره باقيا جاز بل و جب توجه التكليف اليه كما يتوجه الى غيره من الناس، و لو لا توجه التكليف الى المعصوم لم يتحقق بالنسبه اليه واجب و محرم و لم تتميز طاعه من معصيه فلغى معنى العصمه التي هي المصونيه عن المعصيه.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب و في نسيانه عذاب شديد و المراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره.

و في الآيه دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصيه من المعاصي لا ينفك عن نسيان يوم الحساب.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لما انتهى الكلام الى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآيه بقوله: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ» الخ؛ و هو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء و الأرض و ما بينهما- و هي أمور مخلوقه مؤجله توجد و تفنى- مؤديا الى غايه ثابتة باقيه غير مؤجله كان باطلا و الباطل بمعنى ما لا غايه له ممتنع التحقق في الأعيان.

على أنه مستحيل من الحكيم و لا ريب في حكمته تعالى.

و ربما أطلق الباطل في أريد به اللعب و لو كان المراد ذلك كانت الآيه في معنى قوله: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (الدخان ٣٩).

و قوله: ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أى خلق العالم

باطلا لا غاية له و انتفاء يوم الحساب الذى يظهر فيه ما ينتجه حساب الامور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار.

قوله تعالى: **أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** هذه هي الحجة الثانية على المعاد و تقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالا بالضروره و كمال الإنسان هو خروجه فى جانبى العلم و العمل من القوه الى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقه و يعمل الأعمال الصالحه اللتين يهديه اليهما فطرته الصحيحه و هما الإيمان بالحق و العمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنسانى الذى فى الأرض.

فالذين آمنوا و عملوا الصالحات و هم المتقون هم الكاملون من الإنسان و المفسدون فى الأرض بفساد اعتقادهم و عملهم و هم الفجار هم الناقصون الخاسرون فى إنسانيتهم حقيقه، و مقتضى هذا الكمال و النقص أن يكون بإزاء الكمال حياه سعيده و عيش طيب و بإزاء خلافه خلاف ذلك.

و من المعلوم أن هذه الحياه الدنيا التى يشتركان فيها هى تحت سيطره الأسباب و العوامل الماديه و نسبتها الى الكامل و الناقص و المؤمن و الكافر على السواء فمن أجاد العمل و وافقته الأسباب الماديه فاز بطيب العيش و من كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء و ضنك المعيشه.

فلو كانت الحياه مقصوره على هذه الحياه الدنيويه التى نسبتها الى الفريقين على السواء و لم تكن هناك حياه تختص بكل منهما و تناسب حاله كان ذلك منافيا للعنايه الإلهيه بإيصال كل ذى حق حقه و إعطاء المقتضيات ما تقتضيه.

و إن شئت فقل: تسويه (١) بين الفريقين و إلغاء ما يقتضيه صلاح هذا و فساد ذلك خلاف عدله تعالى.

و الآيه- كما ترى -لا- تنفى استواء حال المؤمن و الكافر و إنما قررت المقابلة بين من آمن و عمل صالحا و بين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمنا غير صالح و لذا أتت بالمقابلة ثانيا بين المتقين و الفجار.

قوله تعالى: **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** أى هذا كتاب من وصفه كذا و كذا، و توصيفه بالإنزال المشعر بالدفعه دون التنزيل الدال على التدريج لأن ما ذكر من التدبر و التذكر يناسب اعتباره مجموعا لا نجوما مفرقه.

و المقابلة بين «لِيَدَّبَّرُوا» و «لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» تفيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامه.

و المعنى: هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات و البركات للعامه و الخاصه ليتدبره الناس فيهدتوا به أو تتم لهم الحججه و ليتذكر به أولو الألباب فيهدتوا الى الحق باستحضار حجته و تلقيها من بيانه (٢)(٣).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

وَ وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسِيحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ (٣٣) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مَلَكًا لَا يُتَّبِعُنِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعِيدٍ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصٍ (٣٧) وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

ص: ٣٥٠

(١-١). الحججه الاولى برهانيه و الثانيه جديله.

(٢-٢). ص ١٧-٢٩: بحث روائي في نبأ داود عليه السلام و المتخاصمين.

(٣-٣). ص ١٧-٢٩: كلام في قصص داود في فصول (قصته في القرآن، جميل الثناء عليه في القرآن).

بيان:

قوله تعالى: **وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** أى وهبناه له ولدا و الباقي ظاهر مما تقدم.

قوله تعالى: **إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ** العشى مقابل الغداه و هو آخر النهار بعد الزوال، و الصافيات على ما فى المجمع جمع الصافنه من الخيل و هى التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر. قال: و الجياد جمع جواد و الياء هاهنا منقلبه عن واو و الأصل جواد و هى السراع من الخيل كأنها تجود بالركض.

انتهى.

ص: ٣٥١

قوله تعالى: فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ الضمير لسليمان، والمراد بالخير: الخيل-على ما قيل-فإن العرب تسمى الخيل خيرا و عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الخير معقود بنواصي الخيل الى يوم القيامة.

وقيل: المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى فى مواضع من كلامه تعالى كقوله:

إِنْ تَرَكَ خَيْرًا (البقره ١٨٠).

وقوله: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي قَالُوا: إِنْ «أَحْبَبْتُ» مضمن معنى الإيثار و «عَنْ» بمعنى على، والمراد إني آثرت حب الخيل عن ذكر ربي و هو الصلاة محبا إياه أو أحببت الخيل حبا مؤثرا إياه على ذكر ربي-فاشتغلت بما عرض على من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس.

وقوله: حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ الضمير على ما قالوا للشمس و المراد بتواريتها بالحجاب غروبها و استتارها تحت حجاب الافق، و يؤيد هذا المعنى ذكر العشى فى الآية السابقة إذ لو لا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشى.

فمحصل معنى الآية أنى شغلنى حب الخيل-حين عرض الخيل على-عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس، و إنما كان يحب الخيل فى الله ليتهيأ به للجهد فى سبيل الله فكان الحضور للعرض عباده منه فشغلته عباده عن عباده غير أنه يعد الصلاة أهم.

قوله تعالى: رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ قيل: الضمير فى «رُدُّوْهَا» للشمس و هو امر منه للملائكة برد الشمس ليصلى صلاته فى وقتها، و قوله:

«فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ الْأَعْنَاقِ» أى شرع يمسح ساقيه و عنقه و يأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم و أعناقهم و كان ذلك وضوءهم ثم صلى و صلوا، و قد ورد ذلك فى بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ

الجسد هو الجسم الذى لا روح فيه.

قيل: المراد بالجسد الملقى على كرسیه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به و تقدير الكلام ألقيناه على كرسیه جسدا أى كجسد لا روح فيه من شدة المرض.

و فيه أن حذف الضمير من «ألقيناه» وإخراج الكلام على صورته التى فى الآيه الظاهره فى أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه.

و لسائر المفسرين أقوال مختلفه فى المراد من الآيه تبعا للروايات المختلفه الوارده فيها و الذى يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالا أنه كان جسد صبى له أماته الله و ألقى جسده على كرسیه، و لقوله: «ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي» إشعار أو دلالة على أنه كان له عليه السلام فيه رجاء أو امنيته فى الله فأماته الله سبحانه و ألقاه على كرسیه فنبهه أن يفوض الأمر الى الله و يسلم له.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطه بما فى الآيه السابقه من إلقاء الجسد على كرسیه، و الفصل لكون الكلام فى محل الدخل كأنه لما قيل «ثُمَّ أَنَابَ» قيل:

فما ذا قال؟ فقيل: «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي» الخ.

قوله تعالى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ متفرع على سؤاله الملك و إخباره عن إجابته دعوته و بيان الملك الذى لا ينبغى لأحد غيره و هو تسخير الريح و الجن.

و الرخاء بالضم اللينه و الظاهر أن المراد بكون الريح تجرى بأمره رخاء مطاوعتها لأمره و سهوله جريانها على ما يريد عليه السلام فلا يرد أن توصيف الريح ها هنا بالرخاء يناقض توصيفه فى قوله: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ (الأنبياء ٨١) بكونها عاصفه.

و ربما أجيب عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوه تاره و عاصفه اخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام.

وقوله: حَيْثُ أَصَابَ أَي حَيْثُ شَاءَ سَلِيمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ قَصْدٌ وَ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِتَجْرِي.

قوله تعالى: وَ الشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَ غَوَاصِّ أَي وَ سَخَرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْجِنِّ كُلِّ بِنَاءٍ مِنْهُمْ يَبْنِي لَهُ فِي الْبِرِّ وَ كُلِّ غَوَاصِّ يَعْمَلُ لَهُ فِي الْبَحْرِ فَيَسْتَخْرِجُ اللَّثَالِي وَ غَيْرَهَا.

قوله تعالى: وَ آخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ الْأَصْفَادُ جَمْعُ صَفْدٍ وَ هُوَ الْغُلُّ مِنَ الْحَدِيدِ، وَ الْمَعْنَى سَخَرْنَا لَهُ آخِرِينَ مِنْهُمْ مَجْمُوعِينَ فِي الْأَغْلَالِ مَشْدُودِينَ بِالسَّلَاسِلِ.

قوله تعالى: هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَي هَذَا الَّذِي ذَكَرَ مِنَ الْمَلِكِ عَطَاؤُنَا لَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِكَوْنِهِ بِغَيْرِ حِسَابٍ أَنَّهُ لَا يَنْفَدُ بِالْعَطَاءِ وَ الْمَنْ وَ لِذَا قِيلَ «فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ» أَي أَنَّهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي عَدَمِ التَّأْثِيرِ فِيهِ.

وقيل: المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة، وقيل: المراد أن إعطائه تفضل لا مجازاه وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: وَ إِنَّا لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنٌ مآبٍ تَقْدِمُ مَعْنَاهُ (١).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٤١ الى ٤٨]

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَ عِيَابٍ (٤١) اذْكُرْ بِرَجُلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ (٤٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكُفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨)

ص: ٣٥٤

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ دعاء منه عليه السلام و سؤال للعافيه و أن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال، و لم يصرح بما يريد و يسأله تواضعا و تدللا غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجه.

و النصب التعب، و قوله: «إِذْ نَادَى» الخ؛ بدل اشتمال من «عَبْدَنَا» أو «أَيُّوبَ» و قوله:

«أَنِّي مَسَّنِيَ» الخ؛ حكاية ندائه.

و الظاهر من الآيات التاليه أن مراده من النصب و العذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه و أهله و هو الذى ذكره عنه عليه السلام فى سورة الأنبياء من ندائه أنى مسنى الضر و أنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته فى نفسه و أهله و لم يشر فى هذه السوره و لا فى سورة الأنبياء الى ذهاب ماله و إن وقع ذكر المال فى الروايات.

و الظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب و العذاب استناد نصبه و عذابه الى الشيطان بنحو من السببيه و التأثير و هو الذى يظهر من الروايات، و لا ينافى استناد المرض و نحوه الى الشيطان استناده أيضا الى بعض الأسباب العاديه الطبيعيه لأن السبيين ليسا عرضيين

متدافعين بل أحدهما فى طول الآخر وقد أوضحنا ذلك فى تفسير قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ (الأعراف ٩٦).**

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان فى الإنسان وقد قال تعالى:

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (المائدة ٩٠) فنسبها لنفسها إليه، وقال حاكيا عن موسى عليه السلام: **هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (القصص ١٥)** يشير الى الاقتتال.

و لو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك الى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه و ابتعادهم و طعنهم فيه أن لو كان نبيا لم تحط به البليه من كل جانب و لم يصر الى ما صار اليه من العاقبه السوأى و شماتتهم و استهزأؤهم به.

وقد أنكر فى الكشاف ما تقدم من الوجه قائلا: لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه عليه السلام ليقضى من تعذيبهم و إتعابهم و طره و لو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا و قد نكبه و أهلكه، و قد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسه فحسب. انتهى.

وفيه أن الذى يخص الأنبياء و أهل العصمه أنهم لمكان عصمتهم فى أمن من تأثير الشيطان فى نفوسهم بالوسوسه، و أما تأثيره فى أبدانهم و سائر ما ينسب اليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه، و قد حكى الله سبحانه عن فتى موسى و هو يوشع النبى عليه السلام: **فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ (الكهف ٦٣).**

و لا يلزم من تسلطه على نبى بالإيذاء و الإتعاب لمصلحه تقتضيه كظهور صبره فى الله سبحانه و أوبته اليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك و هو ظاهر.

قوله تعالى: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَقَوْلُ الْآيَةِ عَقِيبُ نِدَائِهِ وَمَسْأَلَتُهُ يَعْنِي أَنَّهُ إِذْ بَانَ بِاسْتِجَابِهِ دَعَائِهِ وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ» الْخ؛ حَكَاهُ لَمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ عِنْدَ الْكُشْفِ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ أَوْ هُوَ يَأْضِمُّ الْقَوْلَ وَالتَّقْدِيرُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ قُلْنَا: أَرْكُضْ، الْخ؛ وَ سِيَاقُ الْأَمْرِ مَشْعُرٌ بَلْ كَاشَفَ عَنْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ وَ الْمَشْيِ بِقَدَمَيْهِ وَ كَانَ مُصَابِياً فِي سَائِرِ بَدَنِهِ فَأَبْرَأَ اللَّهُ مَا فِي رِجْلَيْهِ مِنْ ضَرٍّ وَ أَظْهَرَ لَهُ عَيْنَا هُنَاكَ وَ أَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهَا وَ يَشْرَبَ حَتَّى يَبْرَأَ ظَاهِرَ بَدَنِهِ وَ بَاطِنَهُ وَ يَتَأَيَّدَ بِذَلِكَ مَا سَيَأْتِي مِنَ الرَّوَايَةِ.

قوله تعالى: «وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ وَ رَدَّ فِي الرَّوَايَةِ أَنَّهُ ابْتَلَى فِيمَا ابْتَلَى بِمَوْتِ جَمِيعِ أَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ وَ أَنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ لَهُ وَ وَهَبَهُمْ لَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ تَفَرَّقُوا عَنْهُ أَيَّامَ ابْتِلَائِهِ فَجَمَعَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ بَعْدَ بَرْتِهِ وَ تَنَاسَلُوا فَكَانُوا مِثْلِي مَا كَانُوا عِدداً.

و قوله: «رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ» مَفْعُولٌ لَهُ أَى فَعَلْنَا بِهِ مَا فَعَلْنَا لِيَكُونَ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ.

قوله تعالى: «وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فِي الْمَجْمَعِ: الضَّغْثُ مَلءُ الْكَفِّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَ الْحَشِيشِ وَ الشَّمَارِيخِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ انْتَهَى، وَ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ حَلَفَ لئِنْ عَوَفَى أَنْ يَجْلِدَ امْرَأَتَهُ مَائَةَ جَلْدَةٍ لِأَمْرٍ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَلَى مَا سَيَأْتِي مِنَ الرَّوَايَةِ فَلَمَّا عَافَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِهِ ضِغْثًا بَعْدَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَلْدَاتِ فَيَضْرِبُهَا بِهِ وَ لَا يَحْنُثُ.

وَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ تَلْوِيحٌ إِلَى ذَلِكَ وَ إِنَّمَا طَوَى ذِكْرَ الْمَرْأَةِ وَ سَبَبَ الْحَلْفِ تَأْدِيبًا وَ رِعَايَةً لِحُجَّتِهِ.

و قوله: «إِنَّا وَجَدْنَا صَابِرًا أَى فِيمَا ابْتَلَيْنَاهُ بِهِ مِنَ الْمَرَضِ وَ ذَهَابِ الْأَهْلِ وَ الْمَالِ، وَ الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «وَ أَدْكُرُ» أَوْ لِقَوْلِهِ: «عَبِيدْنَا» أَى لِتَسْمِيَّتِهِ عَبداً وَ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَ الْأَوَّلُ أَوْلَى.

وقوله: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» مدح له عليه السلام.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ اُولَى الْاَيْدِى وَ الْاَبْصَارِ مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدي و الأبصار و يد الإنسان و بصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان و بصر إنسان و استعمالاً فيما خلقا له و خدما الإنسان فى إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل و يجرى منها الخير على الخلق و يميز البصر طرق العافيه و السلامه من موارد الهلكه و يصيب الحق و لا يلتبس عليه الباطل.

فيكون كونهم اولى الأيدي و الأبصار كناية عن قوتهم فى الطاعه و إيصال الخير و تبصرهم فى إصابه الحق فى الاعتقاد و العمل و قد جمع المعنيين فى قوله تعالى: وَ وَهَبْنَا لَهُ اِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَ جَعَلْنَاهُمْ اُمَّةً يَهْتَدُونَ بِاَمْرِنَا وَ اَوْحَيْنَا اِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ اِقَامَ الصَّلَاةِ وَ اِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء ٧٣) فجعلهم أئمة و الأمر و الوحي لأبصارهم و فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاه لأيديهم (١) و اليه يثول ما فى الروايه من تفسير ذلك باولى القوه فى العباده و البصر فيها.

قوله تعالى: اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ الْاٰخِرَةِ وصف قائم مقام موصوفه، و الباء للسببيه و التقدير بسبب خصله خالصه، و ذكر الدار بيان للخصله و الدار هى الدار الآخرة.

و الآيه أعنى قوله: «اِنَّا اَخْلَصْنَاهُمْ» الخ؛ لتعليل ما فى الآيه السابقه من قوله: «أولى الأيدي و الأبصار» أو لقوله: «عِبَادَنَا» أو لقوله: «وَ اذْكُرْ» و أوجه الوجوه أولها، و ذلك لأن استغراق الإنسان فى ذكرى الدار الآخرة و جوار رب العالمين و ركوز همه فيها يلازم كمال معرفته فى جنب الله تعالى و إصابه نظره فى حق الاعتقاد و التبصر فى سلوك سبيل العبوديه

ص: ٣٥٨

(١- ١). رواها القمى فى تفسيره عن أبى الجارود عن أبى جعفر عليه السلام.

و التخلص عن الجمود على ظاهر الحياه الدنيا و زينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم / ٣٠).

و معنى الآيه و إنما كانوا اولى الأيدي و الأبصار لأننا أخلصناهم بخصله خالصه غير مشوبه عظيمه الشأن هى ذكر الدار الآخره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضَيِّطِينَ الْأَخْيَارِ﴾ تقدم أن الاصطفاء يلزم الإسلام التام لله سبحانه، و فى الآيه إشاره الى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣).

و الأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل، و قيل: جمع خيرٍ بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكُفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (١)(٢).

[سوره ص (٣٨): الآيات ٤٩ الى ٦٤]

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَاتٍ عِدْنٍ مُّفْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١) وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَثْرَابُ (٥٢) هَذَا مَا تُوَعِّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ (٥٧) وَ آخِرُ مِنْ سُكُلِهِ أَرْوَاحٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَّةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) اتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)

ص: ٣٥٩

١- ١. ص ٤١-٤٨: كلام فى قصه ايوب عليه السلام فى فصول (قصته فى القرآن، جميل ثنائيه، قصته فى الروايات).

٢- ٢. ص ٤١-٤٨: خبر اليسع و ذى الكفل.

بيان:

قوله تعالى: هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ الإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى مَا ذَكَرَ مِنْ قِصَصِ الْأَوَّابِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكِرَامِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ الشَّرْفُ وَ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ أَيْ هَذَا الَّذِي ذَكَرَ شَرَفٌ وَ ذَكَرَ جَمِيلٌ وَ ثَنَاءٌ حَسَنٌ لَهُمْ يَذْكُرُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا وَ لَهُمْ حَسَنٌ مَآبٍ مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ. كَذَا قَالُوا.

و عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالْمُتَّقِينَ هُمُ الْمَذْكُورُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْخُصُوصِ أَوْ عَمُومِ أَهْلِ التَّقْوَى وَ هُمْ دَاخِلُونَ فِيهِمْ وَ يَكُونُ ذِكْرُ مَآبِ الطَّاعِينَ بَعْدَ مِنْ بَابِ الْإِسْتِطْرَادِ.

وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِشَارَةَ بِهَذَا إِلَى الْقُرْآنِ وَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ وَ فِي الْكَلَامِ

ص: ٣٦٠

عود الى ما بدئ به فى السوره من قوله: «وَ الْقُرْآنِ ذِي الدِّكْرِ» فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما فى الدار الآخره من ثواب المتقين و عقاب الطاغين.

و قوله: «وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّآبٍ الْمآبِ الْمَرْجِعِ وَ التَّنْكِيرِ لِلتَّفْخِيمِ، وَ المعنى ظاهر.

قوله تعالى: جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّمْتَحَنَةٍ لَّهُمْ فِيهَا الْأَبْوَابُ أَى جنات استقرار و خلود و كون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شىء من النعم الموجوده فيها فهى مهياه لهم مخلوقه لأجلهم، و قيل: المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج الى الوقوف وراءها و دقها، و قيل: المراد أنها تفتح بغير مفتاح و تغلق بغير مغلاق.

و الآيه و ما بعدها بيان لحسن مآبهم.

قوله تعالى: مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ أَى حالكونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء و الاستناد جلسه الأعزه و الأشراف.

و قوله: يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ الخ؛ أى يتحكمون فيها بدعوه الفاكهه و هى كثيره و الشراب فإذا دعيت فاكهه أو دعى شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجه الى من يحمله و يناوله.

قوله تعالى: وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَتْرَابِ الضمير للمتقين و قاصرات الطرف صفه قائمه مقام الموصوف و التقدير و عندهم أزواج قاصرات الطرف و المراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم و لا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج و دلال.

و الأتراب الأقران أى إنهن أمثال لا يختلفن سنا أو جمالا أو إنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نورا و بهاء زدن حسنا و جمالا.

قوله تعالى: هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ الإشاره الى ما ذكر من الجنه

و نعيمها، و الخطاب للمتقين فى الكلام التفات من الغيبه الى الخطاب و النكته فيه إظهار القرب منهم و الإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصوريه بهذه النعمه المعنويه.

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ النفاذ الفناء و الانقطاع، و الآيه من تمام الخطاب الذى فى الآيه السابقه على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: هَذَا وَ إِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرَّ مَآبٍ الإشاره بهذا الى ما ذكر من مقام المتقين أى هذا ما للمتقين من المآب، و يمكن أن يكون هذا اسم فعل أى خذ هذا. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصِيءُونَ بِهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ الصلى دخول النار و مقاساه حرارتها أو اتباعها و المهاده على ما فى المجمع-الفراس الموطأ يقال: مهدت له تمهيدا مثل وطأت له توطئه، و الآيه و ما بعدها تفسير لمآب الطائفين.

قوله تعالى: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ عَسَاقٌ الحميم الحار الشديد الحرارة و العساق على ما فى المجمع-قيح شديد التتن، و فسر بتفاسير أخر، و قوله: «حَمِيمٌ وَ عَسَاقٌ» بيان لهذا، و قوله: «فَلْيَذُوقُوهُ» دال على إكراههم و حملهم على ذوقه و تقديم المخبر عنه و جعله اسم إشاره يؤكد ذلك، و المعنى هذا حميم و عساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا.

قوله تعالى: وَ آخَرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ شكل الشىء ما يشابهه و جنسه و الأزواج الأنواع و الأقسام أى و هذا آخر من جنس الحميم و العساق أنواع مختلفه ليذوقوها.

قوله تعالى: هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ -الى قوله- فى الدار الآيات الثلاث -على ما يعطيه السياق- حكاية ما يجرى بين التابعين و المتبوعين من الطائفين فى النار من التخاصم و المجاراه.

فقوله: هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به الى التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجا، و الاقتحام الدخول فى الشىء بشده

و قوله: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله:

«هَذَا فَوْجٌ» و مرحبا تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: «لَا مَرْحَبًا بِهِمْ» معناه نفى الرحب و السعه عنهم. و قولهم: «إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ» أى داخلوها و مقاسو حرارتها أو متبعوها تعليل لتحتيتهم بنفى التحية.

و قوله: قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبَسَّ الْقَرَارُ نقل كلام التابعين و هم القائلون يردون الى متبوعيهم نفى التحية و يذمون القرار فى النار.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم: «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا» الخ؛ قد ذكره فى سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله: قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ الخ (الآيه ٣٠) فقولهم: «رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ» كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمه.

و جملة «مَنْ قَدَّمَ» الخ؛ شرط و جزاء، و الضعف المثل و «عَذَابًا ضِعْفًا» أى ذا ضعف و مثل أى ضعفين من العذاب.

قوله تعالى: وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ القائلون -على ما يعطيه السياق- مطلق أهل النار، و مرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون و هم فى الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها.

قوله تعالى: أَتَّخَذْنَاَهُمْ سَيِّئًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ أى اتخذناهم سخريا فى الدنيا فأخطأنا و قد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم و هم معنا فى النار.

قوله تعالى: إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ إشاره الى ما حكى من تخاصمهم و بيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه و هو ظهور ما استقر فى نفوسهم فى الدنيا من

[سوره ص (٣٨): الآيات ٦٥ الى ٨٨]

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَبَادَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا- عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا- ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَتَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ -الى قوله- الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ فِي الْآيَاتِينَ أَمْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِإِبْلَاحِ أَنَّهُ مُنذِرٌ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ فِي الْإِلَهِيَةِ فَقَوْلُهُ: «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» يَفِيدُ قَصْرَهُ فِي كَوْنِهِ مُنذِرًا وَنَفْيَ سَائِرِ الْأَغْرَاضِ الَّتِي رُبَّمَا تَتَلَبَّسُ بِهِ الدَّعْوَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ طَلَبِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ مَا فِي آخِرِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» .

وَقَوْلُهُ: وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ إِبْلَاحٌ لِتَوْحِيدِهِ تَعَالَى بِحُجَّةٍ يَدُلُّ عَلَيْهَا مَا أُورِدَ مِنْ صِفَاتِهِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِأَسْمَائِهِ.

فَقَوْلُهُ: وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ نَفْيٌ لِكُلِّ إِلَهٍ -وَالْإِلَهِ هُوَ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِّ- غَيْرِهِ تَعَالَى وَ أَمَا ثُبُوتُ أَلُوْهِيَّتِهِ تَعَالَى فَهُوَ مُسَلِّمٌ بِانْتِفَاءِ الْوَهْيِيَةِ غَيْرِهِ إِذْ لَا نِزَاعَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالشِّرْكَ فِي أَصْلِ ثُبُوتِ الْإِلَهِ وَ إِنَّمَا النِّزَاعُ فِي أَنَّ الْإِلَهِ هُوَ الْمَعْبُودُ بِالْحَقِّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ غَيْرِهِ. عَلَى أَنَّ مَا

ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات الوهيته كما أنها حجة على انتفاء الوهيه غيره تعالى.

وقوله: «الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ» يدل على توحده تعالى في وجوده وقهره كل شيء و ذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهى كماله الذى هو عين وجوده الواجب فهو الغنى بذاته و على الإطلاق و غيره من شيء فقير يحتاج اليه من كل جهة ليس له من الوجود و آثار الوجود إلا ما أنعم و أفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد و كل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء.

و هذا الخضوع الذاتى هو حقيقه العباده فلو جاز أن يعبد شيء فى الوجود عملاً بأن يؤتى بعمل يمثل به العبوديه و الخضوع فهى عبادته سبحانه إذ كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه و لا لغيره شيء و لا يستقل من الوجود و آثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير.

وقوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» يفيد حجه اخرى على توحده تعالى فى الالوهيه و ذلك أن نظام التدبير الجارى فى العالم برتمته نظام واحد متصل غير متبعض و لا متجز و هو آيه وحده المدبر، و قد تقدم كرارا أن الخلق و التدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه، و الخالق الموجد للسموات و الأرض و ما بينهما هو الله سبحانه - حتى عند الخصم - فهو تعالى ربها المدبر لها جميعا فهو وحده الإله الذى يجب أن يقصد بالعباده تمثيل عبوديه العابد و مملوكيته تجاه مولويه المعبود و مالكيته و تصرفه فى المعبود بإفاضه النعمه و دفع النقمه فهو سبحانه الإله فى السماوات و الأرض و ما بينهما لا إله غيره.

فافهم ذلك.

و يمكن أن يكون قوله: «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا» بيانا لقوله: «الْقَهَّارُ» أو «الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ» .

ص: ٣٦٦

وقوله: الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ يفيد حجه اخرى على توحده تعالى فى الالوهيه و ذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شىء يا كراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق و غيره من شىء ذليل عنده قانت له و العباده إظهار للمذله و لا يستقيم إلا قبال العزه و لا عزه لغيره تعالى إلا به.

و أيضا غايه العباده و هى تمثيل العبوديه التقرب الى المعبود و رفع و صمه البعد عن العبد العابد و هو مغفره الذنب و الله سبحانه هو المستقل بالرحمه التى لا تنفد خزائنها و هو الذى يورد عباده العابدين له فى الآخره دار كرامته فهو الغفار الذى يجب أن يعبد طمعا فى مغفرته.

و يمكن أن يكون قوله: «الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» تلويحا الى وجه الدعوه الى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» و المعنى أدعوكم الى توحيدهم فآمنوا به لأنه العزيز الذى لا يشوبه ذله الغفار للذنوب و هكذا يجب أن يكون الإله.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوجدانيه فى قوله: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ» الخ.

قوله تعالى: مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ الْمَلَأُ الْأَعْلَى جماعه الملائكه و كأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى اليه بقوله: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً لِي فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً لِي فِي الْأَرْضِ.

و كأن المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملائكه حتى أوحى الله إلي ذلك فى كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي.

قوله تعالى: إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا- أُنْمَأُ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ تأكيد لقوله: «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» و بمنزله التعليل لقوله: «مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى» و المعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمى ليس من قبل نفسى و إنما هو بالوحي و ليس يوحى إلى إلا ما يتعلق بالإنذار.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ الذى يعطيه

السياق أن الآيه و ما بعدها ليست تتمه لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ «إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ» الخ؛ و الشاهد عليه قوله: «رَبُّكَ» فهو من كلامه تعالى يشير الى زمان اختصاص الملا الأعلى و الظرف متعلق بما تعلق به قوله: «إِذْ يَخْتَصِمُونَ» أو متعلق بمحذوف و التقدير «اذكر إذ قال ربك للملائكة» الخ؛ فان قوله تعالى للملائكة «إِنِّي لَجَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَ قَوْلَهُ لَهُمْ: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ» متقارنان وقعا في ظرف واحد.

و على هذا يؤول معنى قوله: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ» الخ؛ الى نحو من قولنا: اذكر وقتئذ قال ربك كذا و كذا فهو وقت اختصاصهم.

و قوله: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ الْبَشَرِ الْإِنْسَانِ، قال الراغب: البشر ظاهر الجلد و الأدمه باطنه. كذا قال عامه الأدباء، قال: و عبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر، و استوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثنى فقال تعالى: «أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ وَ خَصَّ فِي الْقُرْآنِ كُلَّ مَوْضِعٍ اعْتَبَرَ مِنَ الْإِنْسَانِ جِثَّتَهُ وَ ظَاهِرَهُ بِلَفْظِ الْبَشَرِ. انتهى.

و قد عد في الآيه مبدأ خلق الإنسان الطين، و في سورة الروم التراب و في سورة الحجر صلصال من حماء مسنون، و في سورة الرحمن صلصال كالفخار و لا ضير فإنها أحوال مختلفه لمادته الأصلية التي منها خلق و قد أشير في كل موضع الى واحده منها.

قوله تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» تسويه الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض و تميمها صورته إنسان تام، و نفخ الروح فيه جعله ذا نفس حيه إنسانية و إضافة الروح اليه تعالى تشريفيه و قوله: «فَقَعُوا» أمر من الوقوع و هو متفرع على التسويه و النفخ.

قوله تعالى: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء.

قوله تعالى: **إِلَّا-إِنِّيَسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** أى استكبر إبليس فلم يسجد له و كان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه فى سورة الحجر قوله: **لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِمَشْرَخَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** (الحجر ٣٣).

قوله تعالى: **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ** أم كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ نسبة خلقه الى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» و تشنيه اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه و صنعه فان الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: «خَلَقْتُ بِإَيْدِي» كقوله: **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** (يس ٧١).

و قيل: المراد باليد القدره و التشنيه لمجرد التأكيد كقوله: **إِرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ** (الملك / ٣) و قد وردت به الروايه.

و قوله: **أَسْتَكْبَرْتَ** أم كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ استفهام توبيخ أى أ كان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلنون أى يعلن قدرهم أن يؤمروا بالسجود، و لذا قال بعضهم بالاستفاده من الآيه إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون فى التوجه الى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى.

قوله تعالى: **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافه ذاته و أنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، و فيه تلويح أن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقا لا لذاته، و ليس أمره بالسجود له حقا، و يؤول الى إنكار إطلاق ملكه تعالى و حكمته و هو الأصل الذى ينتهى اليه كل معصيه فإن المعصيه إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى و مملوكيته و بالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها و اقرارها.

قوله تعالى: **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ**

الدِّينِ الرَّجْمِ الطَّرْدِ، وِ يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الْجَزَاءِ.

و قوله: وَ إِنَّ عَلَيَّكَ لَعْنَتِي وَ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ: وَ إِنَّ عَلَيَّكَ اللَّعْنَةُ (الآية ٣٥) قيل في وجهه: لو كانت اللام للعهد فلا فرق بين التعبيرين، و لو كانت للجنس فكذلك أيضا لأن لعن غيره تعالى من الملائكة و الناس عليه إنما يكون طردا له حقيقة و إبعادا من الرحمه إذا كان بأمر الله و بإبعاده من رحمته.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ - إلى قوله- إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ظاهر تغير الغايه في السؤال و الجواب حيث قال: «إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» فاجيب بقوله: «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» أن ما اجيب اليه غير ما سأله فهو لا محاله آخر يوم يعصى فيه الناس ربهم و هو قبل يوم البعث، و الظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته إلى الوقت التأكيد.

قوله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ الباء في «فَبِعِزَّتِكَ» للقسم اقسام بعزته ليغوينهم أجمعين و استثنى منهم المخلصين و هم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس و لا لغيره.

قوله تعالى: قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ جوابه تعالى لإبليس و هو يتضمن القضاء عليه و على من تبعه بالنار.

فقوله: فَالْحَقُّ مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ، و الفاء لترتيب ما بعده على ما قبله، و المراد بالحق ما يقابل الباطل على ما يؤيده إعادته الحق ثانيا باللام و المراد به ما يقابل الباطل قطعاً و التقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم، أو فقولي الحق لأملأن، الخ.

و قوله: وَ الْحَقُّ أَقُولُ جمله معترضه تشير إلى حتمية القضاء و ترد على إبليس ما يلوح اليه قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» الخ؛ من كون قوله تعالى و هو أمره بالسجود غير حق، و تقديم

الحق في «وَالْحَقُّ أَقُولُ» و تحليته باللام لإفاده الحصر.

و قوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ متن القضاء الذى قضى به و كأن المراد بقوله: «مِنْكَ» جنس الشياطين حتى يشمل إبليس و ذريته و قبيله، و قوله: «وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» أى من الناس ذريه آدم.

و قد أشبعنا الكلام فى نظائر الآيات من سورة الحجر و فى القصه من سور البقره و الأعراف و الإسراء فعليك بالرجوع إليها.

قوله تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ رجوع الى ما تقدم فى أول السوره و خلال آياتها أن القرآن ذكر و أن ليس النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا منذرا لا غير و رد لما رموه بقولهم: اِمْسُوا وَ اصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ .

فقوله: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أى اجرا دنيويا من مال أو جاه، و قوله:

«وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» أى من أهل التكلف و هو التصنع و التحلى بما ليس له.

قوله تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ أى القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس و مختلف الشعوب و الامم و غيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال و على تعليمه أجر بل هو للجميع.

قوله تعالى: وَ لَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعِيدٍ حِينَ أى لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد و الوعيد و ظهوره على الأديان و غير ذلك بعد حين أى بعد مرور زمان.

قيل: المراد بعد حين يوم القيامة، و قيل: يوم الموت، و قيل: يوم بدر، و لا يبعد أن يقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبأه حينه (1).

ص: ٣٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ
 الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا
 هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ
 الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ
 يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ
 يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآنَىٰ تُصَيِّرُفُونَ (٦) إِنْ
 تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ
 يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ الْأَلْبَابِ
 السَّاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَزْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ
 يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 (١٠)

يظهر من خلال آيات السوره أن المشركين من قومه صَلَّى الله عليه و آله و سلم سألوه أن ينصرف عما هو عليه

من التوحيد و الدعوه اليه و التعرض لآلهتهم و خوفه بآلهتهم فنزلت السوره - و هي قرينه سوره ص بوجه - و هي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه و لا يعبا بآلهتهم و أن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد و إخلاص الدين الذي تواترت الآيات من طريق الوحي و العقل جميعا عليه.

و لذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السوره مره بعد مره كقوله في مفتتح السوره: فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۗ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ إِلَى قَوْلِهِ: قُلْ لِلَّهِ الْعِبَادَةُ مَخْلِصًا لَهُ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ .

ثم يقول: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ الْخ؛ ثم يقول: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ ثُمَّ يَقُولُ: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۗ ثُمَّ يَقُولُ: قُلْ أَفَعَجِبَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۗ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْإِشَارَاتِ.

ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية و الالوهية من الوحي و من طريق البرهان و قايس بين المؤمنين و المشركين مقايسات لطيفه فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم و بشرهم بما سيصيبهم في الآخره مره بعد مره و ذكر المشركين و أنذرهم بما سيلحقهم من الخسران و عذاب الآخره مضافا الى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الامم الدارجه من عذاب الخزي في الحياه الدنيا و لعذاب الآخره أكبر.

و من ثم وصفت السوره يوم البعث و خاصه في مختتمها بأوضح الوصف و أتمه.

و السوره مكيه لشهاده سياق آياتها بذلك و كأنها نزلت دفعه واحده لما بين آياتها من الاتصال.

و الآيات العشر المنقوله تجمع الدعوه من طريق الوحي و الحججه العقلية بادئه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

قوله تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» خبر لمبتدأ محذوف، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته الى الكتاب من إضافه الصفه الى موصوفها و «مِنَ اللَّهِ» متعلق بتنزيل و المعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم.

قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ عبر بالإنزال دون التنزيل كما فى الآيه السابقه لأن القصد الى بيان كونه بالحق و هو يناسب مجموع ما نزل اليه من ربه.

و قوله: بِالْحَقِّ الْبَاءُ فِيهِ لِلْمَلَابَسَةِ أَى أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُلْتَبَسًا بِالْحَقِّ فَمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ حَقٌّ، وَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فَرَعَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» وَ الْمَعْنَى فَإِذَا كَانَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لِأَنَّ فِيهِ ذَلِكَ.

و المراد بالدين-على ما يعطيه السياق-العباده و يمكن أن يراد به سنه الحياه و هى الطريقه المسلوكه فى الحياه فى المجتمع الإنسانى، و يراد بالعباده تمثيل العبوديه بسلك الطريق التى شرعها الله سبحانه و المعنى فأظهر العبوديه لله فى جميع شئون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها و الحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك.

قوله تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ إظهار و إعلان لما أضمر و أجمل فى قوله:

«بِالْحَقِّ» و تعميم لما خصص فى قوله: «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» أَى إِنْ الذى أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ مِنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَ هَذَا النِّدَاءَ، وَ لَكُنْ الْجُمْلَةُ نِدَاءً مُسْتَقِلًّا أَظْهَرَ اسْمَ الْجَلَالَةِ وَ كَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُضْمَرَ وَ يُقَالُ: لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ.

و معنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العباده ممن لا يعبده وحده سواء عبده و غيره أو عبد غيره وحده.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِلَى آخِرِ آيَةٍ تَقْدِمُ أَنَّ الْوَثِيئَةَ يَرُونَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهِ

الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حسن فتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادى منا.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بالتقرب الى مقربيه من خلقه و هم الذين فوض اليهم تدبير شئون العالم فتتخذهم أربابا من دون الله ثم آلهه تعبدهم و نتقرب اليهم ليشفعوا لنا عند الله و يقربونا اليه زلفى و هؤلاء هم الملائكه و الجن و قديسو البشر و هؤلاء هم الأرباب و الآلهه بالحقيقه.

و قوله: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله و هو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أى يقولون: ما نعبدهم هؤلاء إلا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم الى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى الى غيره، وإنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا و آلهه للعالم و كونه تعالى ربا و إلهها لولئك الأرباب و الآلهه، و أما الشركه فى الخلق و الإيجاد فلم يقل به لا مشرك و لا موحد.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ قيل: ضمير الجمع للمشركين و أوليائهم أى إن الله يحكم بين المشركين و بين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون، و قيل:

الضميران راجعان الى المشركين و خصمائهم من أهل الإخلاص فى الدين المفهوم من السياق، و المعنى أن الله يحكم بينهم المخلصين للدين.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ الكفار كثير الكفران نعم الله أو كثير الستر للحق، و فى الجملة إشعار بل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لا لهم و أنهم مسيرون الى العذاب، و المراد بالهدايه الإيصال الى حسن العاقبه.

قوله تعالى: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْرَفْنِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ احتجاج على نفى قولهم: إن الله اتخذ ولدا، و قول بعضهم: الملائكه بنات الله. و القول بالولد دائر بين عامه الوثنيه على اختلاف مذاهبهم و قد قالت النصرى: المسيح ابن الله، و قالت اليهود على ما حكاه القرآن عنهم: عزيز ابن الله

و كأنها بنوه تشريفيه.

و البنوه كيفما كانت تقتضى شرکه ما بين الابن و الأب و الولد و الوالد فإن كانت بنوه حقيقه و هى اشتقاق شىء من شىء و انفصاله منه اقتضت الشرکه فى حقيقه الذات و الخواص و الآثار المنبعثه من الذات كبنوه إنسان لإنسان المقتضيه لشرکه الابن لأبيه فى الإنسانيه و لوازمها، و إن كانت اعتباريه كالبنوه الاجتماعيه و هو التبنى اقتضت الاشتراك فى الشئون الخاصه بالأب كالسؤدد و الملك و الشرف و التقدم و الوراثه و بعض أحكام النسب، و الحججه المسوقه فى الآيه تدل على استحاله اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين.

فقوله: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا شَرَطَ صَدْرُ بَلْوِ الدَّالِ عَلَى الامْتِنَاعِ لِلامْتِنَاعِ، و قوله: «لَا ضَيْطُ فِى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» أى لا اختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيدہ السياق و كونه مما يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقا له.

و قوله: سُبْحَانَهُ تَنْزِيَهُ لَه سُبْحَانَهُ، و قوله: «هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» بيان لاستحاله الشرط و هو إرادته اتخاذ الولد ليرتب عليه استحاله الجزاء و هو اصطفاء ما يشاء مما يخلق و ذلك لأنه سبحانه واحد فى ذاته المتعالیه لا يشاركه فيها شىء و لا يماثله فيها أحد لأدله التوحيد، و واحد فى صفاته الذاتيه التى هى عين ذاته كالحياه و العلم و القدره، و واحد فى شئونه التى هى من لوازم ذاته كالخلق و الملك و العزه و الكبرياء لا يشاركه فيها أحد.

و هو سبحانه قهار يقهر كل شىء بذاته و صفاته فلا يستقبل قبال ذاته و وجوده شىء فى ذاته و وجوده و لا يستغنى عنه شىء فى صفاته و آثار وجوده فالكل أذلاء داخرون بالنسبه اليه مملوكون له فقراء اليه.

فمحصل حجه الآيه قياس استثنائى ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالى و هو نحو من قولنا: لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتعه لكونه واحدا قهارا فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع.

ص: ٣٧٧

قوله تعالى: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لَا- يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة الى الخلق و التدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين و ارتباطهما مضمونا و انتهاء الثانيه الى قوله: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» الخ؛ كالصريح فى أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية.

فآليه و التى تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية و قد جمع فيهما بين الخلق و التدبير لما مر مرارا أن إثبات وحده الخالق لا يستلزم عند الوثنى نفى تعدد الأرباب و الآلهه لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق و الإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيما يحتج على توحده فى الربوبية و الالهيه فى كلامه يجمع بين الخلق و التدبير إشاره الى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه و عند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير اليه تعالى و انحصاره فيه برجوع الخلق اليه.

و قوله: خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إشاره الى الخلقه، و فى قوله:

«بِالْحَقِّ» -و الباء للملابسه- إشاره الى البعث فإن كون الخلقه حقا غير باطل يلازم كونها لغايه تقصدها و تنساق إليها و هى البعث قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا (ص ٢٧).

و قوله: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ قال فى المجمع:

التكوير طرح الشىء بعضه على بعض. انتهى فالمراد طرح الليل على النهار و طرح النهار على الليل فيكون من الاستعاره بالكنايه قريب المعنى من قوله: يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ (الأعراف ٥٤) و المراد استمرار توالى الليل و النهار بظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا و هكذا، و هو من التدبير.

و قوله: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أى سخر الشمس و القمر فأجراهما للنظام الجارى فى العالم الأرضى الى أجل مسمى معين لا يتجاوزانه.

وقوله: أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة الى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية والالوهية فإن العزيز الذى لا يعتريه ذله إن كان فهو الله و هو المتعين للعبادة لا غيره الذى تغشاه الذله و تغمره الفاقه و كذا الغفار للذنوب إذا قيس الى من ليس من شأنه ذلك.

و يمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد و الإيمان بالله الواحد و المعنى انبهكم أنه هو العزيز فآمنوا به و اعتزوا بعزته، الغفار فآمنوا به يغفر لكم.

قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا الخ؛ الخطاب لعامة البشر، و المراد بالنفس الواحد-على ما تؤيده نظائره من الآيات- آدم أبو البشر، و المراد بزوجه امرأته التى من نوعها و تماثلها فى الإنسانيه، و «ثُمَّ» للتراخى بحسب رتبه الكلام.

و المراد أنه تعالى خلق هذا النوع و كثير أفراده من نفس واحده و زوجها.

وقوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ الأنعام هى الإبل و البقر و الضأن و المعز، و كونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها الى الذكر و الأنثى.

و تسميه خلق الأنعام فى الأرض إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسمى ظهور الأشياء فى الكون بعد ما لم يكن إنزالا لها من خزائنه التى هى عنده و من الغيب الى الشهاده قال تعالى:

وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

وقوله: يَخْلُقْكُمْ فى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ بيان لكيفيه خلق من تقدم ذكره من البشر و الأنعام، و فى الخطاب تغليب اولى العقل على غيرهم، و الخلق من بعد الخلق التوالى و التوارد كخلق النطفه علقه و خلق العلقه مضغه و هكذا، و الظلمات الثلاث هى ظلمه البطن و الرحم و المشيمه كما قيل و رواه فى المجمع عن أبى جعفر عليه السلام.

وقيل: المراد بها ظلمه الصلب و الرحم و المشيمه و هو خطأ فإن قوله: «فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال.

و قوله: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَي الذي وصف لكم في الآيتين بالخلق و التدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمر ما ملكه و إذ كان خالقا لكم و لكل شيء دونكم و للنظام الجاري فيكم فهو الذي يملككم و يدبر أمركم فهو ربكم لا غير.

و قوله: لَهُ الْمُلْكُ أَي على جميع المخلوقات في الدنيا و الآخرة فهو المليك على الإطلاق و تقديم الظرف يفيد الحصر، و الجملة خبر بعد خبر لقوله: «ذَلِكُمُ اللَّهُ» كما أن قوله:

«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» كذلك، و انحصار الالهيه فيه تعالى فرع انحصار الربوبيه فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفا منه أو رجاء فيه أو شكرا له.

و قوله: فَأَنِّي تُضَرَّفُونَ أَي فكيف تصرفون عن عبادته الى عبادته غيره و هو ربكم الذي خلقكم و دبر أمركم هو المليك عليكم.

قوله تعالى: إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ الى آخر الآيه، مسوق لبيان أن الدعوه الى التوحيد و إخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجه منه تعالى الى إقبالهم اليه بالانصراف عن عبادته غيره بل لعنايه منه تعالى بهم فيدعوهم الى سعادتهم اعتناء بها كما يعتنى برزقهم فيفيض النعم عليهم و كما يعتنى بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم.

فقوله: إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ الخطاب لعامه المكلفين أي إن تكفروا بالله فلم توحدوه فإنه غنى عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم و طاعتكم و لا- يتضرر بكفركم و معصيتكم فالنفع و الضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان و الحاجه و أما الواجب الغنى بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع و لا تضرر.

و قوله: وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ

غَنِيَّ عَنْكُمْ» أنه إذا لم يتضرر بكفر و لم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الإيمان و الشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهيه بكم يقتضى أن لا يرضى بكفركم و أنتم عباده.

و المراد بالكفر كفر النعمه الذى هو ترك الشكر بقرينه مقابله قوله: «وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» و بذلك يظهر أن التعبير بقوله: «لِلْعِبَادِهِ» دون أن يقول: لكم للدلاله على عله الحكم أعنى سبب عدم الرضا.

و المحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون فى نعمه و رابطه المولويه و العبوديه و هى نسبه المالكيه و المملوكيه لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمه سيده فينسى ولايه مولاه و يتخذ لنفسه أولياء من دونه و يعصى المولى و يطيع عدوه و هو عبد عليه طابع العبوديه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا.

و قوله: «وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» الضمير للشكر نظير قوله تعالى: «إِغْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (المائدة ٨) والمعنى و إن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبوديه و إخلاص الدين له يرضى الشكر لكم و أنتم عباده، و الشكر و الكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان و الكفر المقابل له.

و قوله: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» أى لا تحمل نفس حامله حمل نفس اخرى أى لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه.

و قوله: «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» أى هذا فى الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقه أعمالكم و يحاسبكم على ما فى قلوبكم و قد تكرر الكلام فى معانى هذه الجمل فيما تقدم (١).

قوله تعالى: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ» الى آخر الآيه؛

ص: ٣٨١

١- ١). الزمر ١-١٠: كلام فى معنى الرضا و السخط من الله.

الإنايه الرجوع، و التحويل العظيمة على وجه الهبه و هى المنحه.على ما فى المجمع.

لما مر فى الآيه السابقه ذكر من كفر النعمه و أن الله سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبه فى هذه الآيه على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطره و لا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع اليه فيسأله كشف ضره كما قال: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (الإسراء ٦٧/١)، و قال: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤/١).

فقوله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ أى إذا أصاب الإنسان ضر من شده أو مرض أو قحط و نحوه دعا ربه-و هو الله يعترف عند ذلك بربوبيته-راجعا اليه معرضا عن سواه يسأله كشف الضر عنه.

و قوله: ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ أى و إذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمه منه اشتغل به مستغرقا و نسى الضر الذى كان يدعو اليه أى الى كشفه من قبل إعطاء النعمه.

فما فى قوله: مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ موصوله و المراد به الضر و ضمير «إِلَيْهِ» له و قيل:

مصدرية و الضمير للرب سبحانه و المعنى نسى دعاءه الى ربه من قبل الإعطاء، و قيل:

موصوله و المراد به الله سبحانه و هو أبعد الوجوه.

و قوله: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ الْأَنْدَادَ الْأَمْثَالَ و المراد بها-على ما قيل-الأصنام و أربابها، و اللام فى «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» للعاقبه، و المعنى و اتخذ لله أمثالا يشاركونه فى الربوبيه و الالهيه على مزعمته لينتهى به ذلك الى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض، و فى الفعل دعوه كالقول.

و لا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التى يعتمد عليها الإنسان و يطمئن إليها و من جملتها أرباب الأصنام عند الوثنى و ذلك لأن الآيه تصف الإنسان و هو أعم من المشرك نعم مورد الآيه هو الكافر.

وقوله: قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ أَى تَمَتَّعَ تَمَتُّعًا قَلِيلًا لَا يَدُومُ لَكَ لِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ مُصِيرِكَ إِلَيْهَا، وَهُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدِيٌّ فِي مَعْنَى الْإِخْبَارِ أَى إِنَّكَ إِلَى النَّارِ وَ لَا يَدْفَعُهَا عَنْكَ تَمَتُّعُكَ بِالْكَفْرِ أَيَامًا قَلِيلًا.

قوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ الْآيَةَ لَا تَخْلُو عَنْ مَنَاسِبِهِ وَ اتِّصَالَ بِقَوْلِهِ السَّابِقِ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» فَإِنْ فَحَوَاهُ أَنْ الْكَافِرَ وَ الشَّاكِرَ لَا يَسْتَوِيَانِ وَ لَا يَخْتَلِطَانِ فَأَوْضَحَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّ الْقَانِتَ الَّذِي يَخَافُ الْعَذَابَ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ لَا يَسَاوِي غَيْرَهُ.

فقوله: «أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» أَحَدُ شَقَى التَّرِيدِ مَحْذُوفٌ وَ التَّقْدِيرُ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ خَيْرٌ أَمْ مِنْ هُوَ قَانِتٌ؟ الْخ.

وَ الْقنُوتِ-عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ-لِزُومِ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُضُوعِ، وَ الْآنَاءِ جَمْعُ أُنَى وَ هُوَ الْوَقْتُ، وَ «يَحْذَرُ الْآخِرَةَ» أَى عَذَابَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (الإسراء ٥٧/٥٧)، وَ قَوْلُهُ: «يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ» هُوَ وَ مَا قَبْلَهُ يَجْمَعَانِ خَوْفَ الْعَذَابِ وَ رَجَاءَ الرَّحْمَةِ، وَ لَمْ يَقِيدِ الرَّحْمَةَ بِالْآخِرَةِ فَإِنَّ رَحْمَةَ الْآخِرَةِ رُبَّمَا وَسَّعَتِ الدُّنْيَا.

وَ الْمَعْنَى أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مِنْ هُوَ لِأَنَّ الطَّاعَةَ وَ الْخُضُوعَ لِرَبِّهِ فِي أَوْقَاتِ اللَّيْلِ إِذَا جَنَّ عَلَيْهِ سَاجِدًا فِي صَلَاتِهِ تَارَهُ قَائِمًا فِيهَا أُخْرَى يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ؟ أَى لَا يَسْتَوِيَانِ.

وَ قَوْلُهُ: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْعِلْمَ وَ عَدَمَهُ مُطْلَقَانِ لَكِنْ الْمُرَادُ بِهِمَا بِحَسَبِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَوْرَدِ الْآيَةِ الْعِلْمَ بِاللَّهِ وَ عَدَمَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَكْمُلُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَ يَنْتَفِعُ بِحَقِيقَتِهِ مَعْنَى الْكَلِمَةِ وَ يَتَضَرَّرُ بِعَدَمِهِ، وَ غَيْرُهُ مِنَ الْعِلْمِ كَالْمَالِ يَنْتَفِعُ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَفْنَى بِفَنَائِهَا.

وَ قَوْلُهُ: إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ أَى ذُوو الْعُقُولِ وَ هُوَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِعَدَمِ

تساوى الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الامور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم.

قوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، الجار والمجرور «فِي هَذِهِ الدُّنْيَا» متعلق بقوله: «أَحْسَنُوا» فالمراد بالجمله وعد الذين أحسنوا أى لزموا الأعمال الحسنه أن لهم حسنه لا يقدر وصفها بقدر.

وقد أطلق الحسنه فلم يقيدها بدنيا أو آخره و ظاهرها ما يعلم الدنيا فللمؤمنين المحسنين فى هذه الدنيا طيب النفس و سلامه الروح و صون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال و تقسم القلب و غل الصدر و الخضوع للأسباب الظاهريه و فقد من يرجى فى كل نائبه و ينصر عند طروق الطارقه و يطمأن اليه فى كل نازله و فى الآخره سعاده دائمه و نعيم مقيم.

وقوله: وَ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً حَث و ترغيب لهم فى الهجره من مكه إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنين بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المشركون يزيدون كل يوم فى التشديد عليهم و فتنتهم، و الآيه بحسب لفظها عامه.

وقوله: إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ توفيه الأجر إعطاؤه تاما كاملا، و السياق يفيد أن القصر فى الكلام متوجه الى قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» فالجار و المجرور متعلق بقوله: «يُؤَفِّي» صفه لمصدر يدل عليه و المعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حساب، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم و لا ينشر لهم ديوان و لا يقدر أجرهم بزنه عملهم.

وقد اطلق الصابرون فى الآيه و لم يقيد بكون الصبر على الطاعه أو عن المعصيه أو عند المصيبه و إن كان الذى ينطبق على مورد الآيه هو الصبر على مصائب الدنيا و خاصه ما يصيب من جهه أهل الكفر و السوق من آمن بالله و أخلص له دينه و اتقاه.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادِهِ عِبَادٍ فَاتَّقُونَ (١٦) وَالَّذِينَ احْتَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَلَمْ يَأْتِ تَنْزِيلًا مِنَ النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)

بيان:

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ - إلى قوله - أَوَّلَ

المُسْلِمِينَ نحو رجوع الى قوله تعالى فى مفتتح السوره: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** بداعى أن يؤيسهم من نفسه، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم و يوافقهم على الإشراك بالله كما يشير اليه أول سوره ص و آيات أخر.

فكأنه يقول: قل لهم إن الذى تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين -و قد وجه به الخطاب الى- ليس المراد به مجرد دعوتكم الى ذلك بإقامتى فى الخطاب مقام السامع فىكون من قبيل «إياك أعنى و اسمعى يا جاره» بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصاً له الدين، و لا- ذلك فحسب، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل الى من الوحي فأسلم له أولاً ثم ابلغه لغيرى- فأنا أخاف ربي و أعبده بالإخلاص آمنتهم به أو كفرتم فلا تطمعوا فى.

فقوله: **«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ»** إشاره الى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ يشارك غيره فى الأمر بدون الإخلاص.

و قوله: **«وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** إشاره الى أن فى الأمر المتوجه الى زياده على ما توجه اليكم من التكليف و هو أنى امرت بما امرت و قد توجه الخطاب الى قبلكم و الغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر و آمن به.

قيل: اللام فى قوله: **«لِأَنْ أَكُونَ»** للتعليل و المعنى و أمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، و قيل: اللام زائده كما تركت اللام فى قوله تعالى: **«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ (الأنعام ١٤)»**.

و مآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أول المسلمين يعطى عنواناً لإسلامه و عنوان الفعل يصح أن يجعل غايه للأمر بالفعل و أن يجعل متعلقاً للأمر فيؤمر به يقال: اضربه للتأديب، و يقال: أدبه بالضرب.

قال فى الكشاف: و فى معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم فى زمانى و من قومى لأنه أول من خالف دين آباءه و خلع الأصنام و حطمها، و أن أكون أول الذين دعوتهم الى الإسلام

إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه الى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولى و فعلى جميعاً و لا تكون صفتى صفه الملوكة الذين يأمرؤن بما لا يفعلون، وأن أفعلى ما أستحق به الأوليه من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب. انتهى.

و أنت خبير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث و هو الذى قدمناه و يلزمه سائر الوجوه.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ المراد بمعصيه ربه بشهاده السياق مخالفه أمره بعبادته مخلصاً له الدين، و باليوم العظيم يوم القيامة و الآيه كالتوطئه لمضمون الآيه التاليه.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ تصريح بأنه ممثلى لأمر ربه مطيع له بعد التكنيه عنه فى الآيه السابقه، و إثناس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه.

و تقديم المفعول فى قوله: «قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ» يفيد الحصر، و قوله: «مُخْلِصاً لَهُ دِينِي» يؤكد معنى الحصر، و قوله: «فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» أمر تهديدى بمعنى أنهم لا ينفعم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عباده الله بالإخلاص كما يشير اليه ذيل الآيه «قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ» الخ.

قوله تعالى: قُلِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الخ؛ الخسر و الخسران ذهاب رأس المال إما كلا أو بعضاً و الخسران أبلغ من الخسر، و خسران النفس هو إيرادها مورد الهلكه و الشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعاده بحيث لا يطمع فيها و كذا خساره الأهل.

و فى الآيه تعريض للمشركين المخاطبين بقوله: «فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» كأنه يقول:

فأيا ما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكه و أهليكم و هم خاصتكم

بحملهم على الكفر و الشرك و هى الخسران بالحقيقه.

و قوله: أَلَا- ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ و ذلك لأن الخسران المتعلق بالدينيا- هو الخسران فى مال أو جاه-سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له و لا انقطاع.

على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت.

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان فى الدنيا، و قيل: المراد بالأهل من أعده الله فى الجنة للإنسان لو آمن و اتقى من أزواج و خدم و غيرهم و هو أوجه و أنسب للمقام فإن النسب و كل رابطة من الروابط الدينويه الاجتماعيه مقطوعه يوم القيامة قال تعالى: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون ١٠١) و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا (الانفطار ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

و يؤيده أيضا قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (الانشقاق ٩).

قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ الخ؛ الظلل جمع ظلّه و هى- كما قيل-الستر العالى.

و المراد بكونها من فوقهم و من تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ قال الراغب: الطاغوت عباره عن كل متعد و كل معبود من دون الله و يستعمل فى الواحد و الجمع. انتهى، و الظاهر أن المراد بها فى الآيه الأوثان و كل معبود طاغ من دون الله.

و لم يقتصر على مجرد اجتناب عباده الطاغوت بل أضاف اليه قوله: «وَ أَنَابُوا إِلَى اللَّهِ»

إشاره الى أن مجرد النفي لا يجدى شيئا بل الذى ينفع الإنسان مجموع النفي و الإثبات،عباده الله و ترك عباده غيره و هو عبادته مخلصا له الدين.

و قوله: لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۖ إِنشَاءً بَشْرَىٰ و خبر لقوله: «و الَّذِينَ اجْتَبَأُوا» الخ.

قوله تعالى: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فبشرهم غير أنه قيل: فبشر عباد و اضيف الى ضمير التكلم لتشريفهم به و لتوصيفهم بقوله: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ» الخ.

و المراد بالقول بقرينه ما ذكر من الاتباع ما له نوع ارتباط و مساس بالعمل فأحسن القول أرشده فى إصابه الحق و أنصحه للإنسان، و الإنسان إذا كان ممن يحب الحسن و ينجذب الى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحا و حسنا مال الى الحسن، و إذا وجد حسنا و أحسن قصد ما هو أحسن، و أما لو لم يمل الى الأحسن و انجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب اليه من حيث حسنه و إلا زاد الانجذاب بزياده الحسن.

فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق و إرادته الرشد و إصابه الواقع فكلما دار الأمر بين الحق و الباطل و الرشد و الغي اتبعوا الحق و الرشد و تركوا الباطل و الغي و كلما دار الأمر بين الحق و الأحق و الرشد و ما هو أكثر رشدا أخذوا بالأحق الأرشد.

فالحق و الرشد هو مطلوبهم و لذلك يستمعون القول و لا- يردون قولا بمجرد ما قرع سمعهم اتباعا لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه و يفقهوه.

فقوله: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ مَفَادُهُ أَنَّهُمْ طَالَبُوا الْحَقَّ وَ الرُّشْدَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ رَجَاءً أَنْ يَجِدُوا فِيهِ حَقًّا وَ خَوْفًا أَنْ يَفُوتَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ.

و قيل: المراد باستماع القول و اتباع أحسنه استماع القرآن و غيره و اتباع القرآن، و قيل:

المراد استماع أوامر الله تعالى و اتباع أحسنها كالقصاص و العفو فيتبعون العفو و إبداء الصدقات

و إخفاؤها فيتبعون الإخفاء؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

و قوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ** إشاره الى أن هذه الصفه هى الهدايه الإلهيه و هذه الهدايه أعنى طلب الحق و التهيؤ التام لاتباع الحق أينما وجد هى الهدايه الإجماليه و إليها تنتهى كل هدايه تفصيليه الى المعارف الإلهيه.

و قوله: **وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ** أى ذوو العقول و يستفاد منه أن العقل هو الذى به الاهتداء الى الحق و آيته صفه اتباع الحق، و قد تقدم فى تفسير قوله: **وَ مَنْ يَزْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** (البقره ١٣٠/) أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله.

قوله تعالى: **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ** ثبوت كلمه العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم الى الأرض: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (البقره ٣٩/) و ما فى معناه من الآيات.

و مقتضى السياق أن فى الآية إضممارا يدل عليه قوله: **«أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ»** و التقدير **أفمن حقت عليه كلمه العذاب ينجو منه و هو اولى من تقدير قولنا: خير أم من وجبت عليه الجنه.**

و قيل: المعنى **أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار** فاكتمى بذكر «من النار» عن ذكر الضمير العائد الى المبتدأ و جىء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى.

قوله تعالى: **لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** الغرف جمع غرفه و هى المنزل الرفيع. قيل: و هذا فى مقابله قوله فى الكافرين: **«لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ»**.

و قوله: وَعَدَ اللَّهُ أَي وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَعَدَا فَهُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ قَائِمٌ مَقَامَ فَعْلِهِ وَ قَوْلُهُ:

«لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ» إِبْرَارٌ عَنِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي مَوَاعِيدِهِ وَ فِيهِ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِمْ.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢١ إلى ٣٧]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَنَرَاهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِذْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَلَمْ نَشْرَحْ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَلَمْ نَبْتَلِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَاذْقَاهُمْ
اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمِيدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ
(٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَ
صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاؤْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَ
يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
هَادٍ (٣٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ إِلَى آخِرِ آيَةٍ، قال في المجمع: ينبوع جمع ينبوع وهو الذى ينبع منه الماء يقال ينبع الماء من موضع كذا إذا فار منه، و الزرع ما ينبت على غير ساق و الشجر ما له ساق و أغصان النبات يعم الجميع، و هاج النبات يهيج هيجا إذا جف و بلغ نهايته فى اليبوسه، و الحطام فتات التبن

و الحشيش .انتهى.

و قوله: فَسَلَكُهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ أَي فَادْخَلَهُ فِي عِيُونِ وَ مَجَارِي فِي الْأَرْضِ هِيَ كَالْعُرُوقِ فِي الْأَبْدَانِ تَنْقُلُ مَا تَحْمَلُهُ مِنْ جَانِبِ إِلَى جَانِبٍ، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ وَ الْآيَةُ - كَمَا تَرَى - تَحْتَجُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى فِي الرَّبُوبِيَّةِ.

قوله تعالى: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْخ؛ لَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنْ فِيهَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنْزَالِ الْمَاءِ وَ إِنْبَاتِ النَّبَاتِ ذَكَرَ لِأَوْلَى الْأَلْبَابِ وَ هُمْ عِبَادَةُ الْمُتَّقُونَ وَ قَدْ ذَكَرَ قَبْلَ أَنْهُمْ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنْهُمْ لَيْسُوا كغَيْرِهِمْ مِنَ الضَّالِّينَ وَ أَوْضَحَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ وَ هُوَ أَنْهُمْ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِمْ يَبْصُرُونَ بِهِ الْحَقَّ وَ فِي قُلُوبِهِمْ لَيْنٌ لَا تَعْصَى عَنْ قَبُولِ مَا يَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَحْسَنِ الْقَوْلِ.

فقوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ خَبْرَهُ مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ» الْخ؛ أَي كَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ الْإِسْتِفْهَامُ لِلانْكَارِ أَي لَا يَسْتَوِيَانِ.

و شرح الصدر بسطه ليسع ما يلقي إليه من القول و إذ كان ذلك للإسلام و هو التسليم لله فيما أراد و ليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقي إليه من القول الحق و لا يردده، و ليس قبولاً من غير درايه و كيفما كان بل عن بصيره بالحق و عرفان بالرشد و لذا عقبه بقوله:

«فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» فَجَعَلَهُ بِحَسَبِ التَّمْثِيلِ رَاكِبٌ نُورٍ يَسِيرُ عَلَيْهِ وَ يَبْصُرُ مَا يَمُرُّ بِهِ فِي سَاحَةِ صَدْرِهِ الرَّحْبِ الْوَسِيعِ مِنَ الْحَقِّ فَيَبْصُرُهُ وَ يَمِيزُهُ مِنَ الْبَاطِلِ بِخِلَافِ الضَّالِّ الَّذِي لَا فِي صَدْرِهِ شَرْحٌ فَيَسَعُ الْحَقَّ وَ لَا هُوَ رَاكِبٌ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَيَبْصُرُ الْحَقَّ وَ يَمِيزُهُ.

و قوله: فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَفْرِيعٌ عَلَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاسِيَةَ الْقُلُوبَ - وَ قَسَاوَهُ الْقَلْبَ وَ صَلَابَتَهُ لَازِمُهُ عَدَمُ شَرْحِ الصَّدْرِ وَ عَدَمُ النُّورِ - لَا يَتَذَكَّرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَ لَذَا عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

و فى الآيه تعريف الهدايه بلازمها و هو شرح الصدر و جعله على نور من ربه، و تعريف الضلال بلازمه و هو قساوه القلب من ذكر الله.

و قد تقدم فى تفسير قوله: **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** (الأنعام ١٢٥) كلام فى معنى الهدايه فراجع.

قوله تعالى: **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي** الى آخر الآيه كالأجمال بعد التفصيل بالنسبه الى الآيه السابقه بالنظر الى ما يتحصل من الآيه فى معنى الهدايه و ان كانت بيانا لهدايه القرآن.

فقوله: **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ** هو القرآن الكريم و الحديث هو القول كما فى قوله تعالى: **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ** (الطور ٣٤)، و قوله: **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** (المرسلات ٥٠) فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و هو كلامه المجيد.

و قوله: **كِتَابًا مُتَشَابِهًا** أى يشبه بعض أجزاءه بعضا و هذا غير التشابه الذى فى المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب و هذا صفة الجميع.

و قوله: **مَثَانِي** جمع مثنيه بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض و رجوعه اليه بتبيين بعضها ببعض و تفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضا و يناقضه كما قال تعالى: **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** (النساء ٨٢).

و قوله: **تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** صفة الكتاب و ليس استئنافا، و الاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديدا لخشيته عارضه عن استماع أمر هائل أو رؤيته، و ليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمه ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا الى ساحه العظمه و الكبرياء فغشيت قلوبهم الخشيته و أخذت جلودهم فى الاقشعرار.

وقوله: ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ «تَلَيْنُ» مضمونه معنى السكون و الطمأنينه و لذا عدى بالى و المعنى ثم تسكن و تطمئن جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله لينه تقبله أو تلين له ساكنه اليه.

و لم يذكر القلوب فى الجملة السابقه عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس و لا اقشعرار لها و إنما لها الخشيه.

وقوله: ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ أَى مَا يَأْخُذُهُمْ مِنْ اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله هو هدى الله و هذا تعريف آخر للهدايه بلازمها.

وقوله: يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ أَى يَهْدِي بِهِدَاهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الَّذِي لَمْ يَبْطُلْ اسْتِعْدَادُهُ لِلْاِهْتِدَاءِ وَ لَمْ يَشْغَلْ بِالْمَوَانِعِ عَنْهُ كَالْفَسْقِ وَ الظلم و فى السياق إشعار بأن الهدايه من فضله و ليس بموجب فيها مضطر إليها.

فالهدايه كلها لله إما بلا واسطه أو بواسطه الهداه المهديين من خلقه و على هذا فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطه و لا بلا واسطه فلا هادى له و ذلك قوله فى ذيل الآيه: «وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» و سيأتى الجملة بعد عدّه آيات و هى متكرره فى كلامه تعالى.

وقوله تعالى: أَمْ مَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ مقايسه بين أهل العذاب يوم القيامة و الآمنين منه و الفريقان هما أهل الضلال و أهل الهدى و لذا عقب الآيه السابقه بهذه الآيه.

و الاستفهام للإنكار و خبر «من» محذوف و التقدير كمن هو فى أمن منه، و يوم القيامة متعلق بيتقى، و المعنى أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التى بها كان يتقى المكاره مغلوله الى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه. كذا قيل.

وقوله: وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ القول لملائكه النار،

و الظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه و الأصل و قيل لهم ذوقوا، الخ؛ لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على عله الحكم و هى الظلم.

قوله تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَي من الجهه التى لا يحتسبون ففوجئوا و أخذوا على غفله و هو أشد الأخذ، و فى الآيه و ما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزى ليكون عبره لغيرهم.

قوله تعالى: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الخزى هو الذل و الصغار، و قد أذاقهم الله ذلك فى ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق و الخسف و الصيحه و الرجفه و المسخ و القتل.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلمهم يتنبهون و يعتبرون و يتعظون بتذكر ما تتضمنه.

قوله تعالى: قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ العوج الانحراف و الانعطاف، «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص و نحوه أو حال معتمد على الوصف.

قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ الخ؛ قال الراغب: الشكس - بالفتح فالكسر - سبى الخلق، و قوله: «شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» أى متشاجرون لشكاسه خلقهم. انتهى و فسروا السلم بالخالص الذى لا يشترك فيه كثيرون.

مثل ضربه الله للمشرك الذى يعبد أربابا و آلهه مختلفين فيشتركون فيه و هم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر و كل يريد أن يتفرد فيه و يخصه بخدمه نفسه، و للموحد الذى هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدى الى

الحيره فالمشرك هو الرجل الذى فيه شركاء متشاكسون و الموحد هو الرجل الذى هو سلم لرجل. لا يستويان بل الذى هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه.

و هذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامه الناس لكنه عند المداقه يرجع الى قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (الأنبياء ٢٢/٢٢) و عاد برهاننا على نفى تعدد الأرباب و الآلهه.

و قوله: اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبوديه من سواه.

و قوله: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مزيه عبادته على عباده غيره على ما له من الظهور التام لمن له أدنى بصيره.

قوله تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ الآيه الاولى تمهيد لما يذكر فى الثانيه من اختصاصهم يوم القيامه عند ربهم و الخطاب فى «إِنَّكُمْ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و امته أو المشركين منهم خاصه و الاختصام- كما فى المجمع- رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه.

و المعنى: إن عاقبتك و عاقبتهم الموت ثم إنكم جميعا يوم القيامه بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون و قد حكى مما يلقيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (الفرقان ٣٠/٣٠).

و الآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التاليه تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بين الكافرين من امته يوم القيامه.

قوله تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ فى الآيه و ما بعدها مبادره الى ذكر ما ينتهى اليه أمر اختصاصهم يوم القيامه و تلويح الى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل: و نتيجة ما يقضى به بينكم معلومه اليوم و أنه من هو الناجى منكم، و من هو الهالك؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم و الإحسان و لا أظلم من الكافر و المؤمن متق محسن و الظلم الى النار و الإحسان الى

الجنة. هذا ما يعطيه السياق.

فقوله: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ** أى افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء و الظلم يعظم بعضهم من تعلق به و إذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم و مرتكبه أظلم من كل ظالم.

و قوله: **وَ كَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ** المراد بالصدق الصادق من النبا و هو الدين الإلهى الذى جاء به الرسول بقريته قوله: «**إِذْ جَاءَهُ**»

و قوله: **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** المثوى اسم مكان بمعنى المنزل و المقام، و الاستفهام للتقرير أى إن فى جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافتراءهم على الله و تكذيبهم بصادق النبا الذى جاء به الرسول.

و الآيه خاصه بمشركى عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو بمشركى امته بحسب السياق و عامه لكل من ابتدع بدعه و ترك سنه من سنن الدين.

وَ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ المراد بالمجىء بالصدق الإتيان بالدين الحق و المراد بالتصديق به الإيمان به و الذى جاء به النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و قوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** لعل الإشاره الى الذى جاء به بصيغه الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى و هو كل نبى جاء بالدين الحق و آمن بما جاء به بل و كل مؤمن آمن بالدين الحق و دعى اليه فإن الدعوه الى الحق قولاً و فعلاً من شئون اتباع النبى، قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** (يوسف ١٠٨).

قوله تعالى: **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** هذا جزاؤهم عند ربهم و هو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشيه هناك هى السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أيما كان بخلاف ما عليه الأمر فى الدنيا فإن حصول شىء من مقاصد الحياه فيها يتوقف-مضافا الى المشيه-على عوامل و أسباب كثيره منها السعى و العمل المستمد من

فآليه تدل أولاً على إقامتهم في دار القرب و جوار رب العالمين، و ثانياً أن لهم ما يشاءون فهذان جزاء المتقين و هم المحسنون فأحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر المذكور و هذه هي النكته في إقامه الظاهر مقام الضمير في قوله: «وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و ذلك جزاؤهم.

و توصيفهم بالإحسان و ظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق و العمل الحسن جميعاً يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولاً و فعلاً. على أن القرآن لا يسمى تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصداقاً به.

قوله تعالى: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ و من المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر ما دون ذلك، و المراد بأسوأ الذي عملوا ما هو كالشرك و الكبائر.

قال في مجمع البيان في الآية: أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم و إحسانهم و رجوعهم إلى الله تعالى انتهى و هو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئه، و من جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان و الإحسان و التوبه فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم و هو تكفير السيئات بالتصديق و الجزاء الحسن في الآخرة.

و قوله: وَ يَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ يمكن أن يقال: إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوأ خفاء.

و قيل: صيغه التفضيل في الآية «أَسْوَأَ» و «بِأَحْسَنِ» مستعمله في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوأ و طاعته كلها أحسن.

قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يَخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ المراد

بالذين من دون آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة و يشتمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم شمولاً أولياً.

و الاستفهام للتقرير و المعنى هو يكفيهم، و فيه تأمّن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبال تخويفهم إياه بآلهتهم و كناية عن وعده بالكفايه كما صرح به في قوله: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقره ١٣٧).

قوله تعالى: وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ الخ؛ جملتان كالمتمعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكليه و لذا جيء فيهما باسم الجلاله و كان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير.

و في تعقيب قوله: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ» الخ؛ بقوله: «وَ مَنْ يُضِلِلِ» الخ؛ إشاره الى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبداً و لن ينجح مساعهم و أنهم لن ينالوا بغيتهم و لا امنيتهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن الله لن يضلّه و قد هداه.

قوله: أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ استفهام للتقرير أى هو كذلك، و هو تعليل ظاهر لقوله: «وَ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ» الخ؛ فإن عزته و كونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق و أصر على كفره فيضله و لا هادى يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب، و كذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه و إحسانه لم يقدر على إضلاله مضل.

و في التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب الى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاه و الانتقام دون الضلال الابتدائي و قد مر مرارا.

[سوره الزمر (٣٩): الآيات ٣٨ الى ٥٢]

وَ لئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْرِفُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيَّهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمُنَافِقِينَ حِينَ مَوْتِهِمْ وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لَا يَعْلَمُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُنْجَعُونَ (٤٤) وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَ حُدِّدَتْ إِشْمَارَاتُ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلِ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

قوله تعالى: **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** إلى آخر الآية؛ شروع في إقامة الحجة و قد قدم لها مقدمه تبنتى الحجة عليها و هى مسلمه عند الخصم و هى أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له فى أن الخالق هو الله وحده لا شريك له و إنما يدعى لشركائه التدبير دون الخلق.

و إذا كان الخلق اليه تعالى فما فى السماوات و الأرض من عين و لا أثر إلا و ينتهى وجوده اليه تعالى فما يصيب كل شىء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى و ليس لأحد أن يمسك خيرا يريده تعالى له أو يكشف شرا يريده تعالى له لأنه من الخلق و الإيجاد و لا شريك له تعالى فى الخلق و الإيجاد حتى يزاحمه فى خلق شىء أو يمنع من خلق شىء أو يسبقه الى خلق شىء

والتدبير نظم الامور و ترتيب بعضها على بعض خلق و إيجاد فالله الخالق لكل شىء كاف فى تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شىء و ليس وراء الخلق شىء حتى يتوهم استناده الى غيره فهو الله رب كل شىء و إلهه لا رب سواه و لا إله غيره.

فقوله: قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَى أقم الحججه عليهم بانبا لها على هذه المقدمه المسلمه عندهم أن الله خالق كل شىء و قل مفرعا عليه أخبرونى عما تدعون من دون الله، و التعبير عن آلهتهم بلفظه «ما» دون «من» و نحوه يفيد تعميم البيان للأصنام و أربابها جميعا فإن الخواص منهم و إن قصرُوا العباده على الأرباب من الملائكه و غيرهم و اتخذوا الأصنام قبله و ذريعه الى التوجه الى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا و آلهه يعبدونها و نتيجه الحججه عامه تشمل الجميع.

و قوله: إِنَّ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ هَيْلٍ هَيْنَ كَاشِحَاتٍ ضُرُّهُ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَيْلٍ هُنَّ مُّمْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ الضر كالمرض و الشده و نحوهما، و ظاهر مقابله الرحمه عمومه لكل مصيبه، و إضافه الضر و الرحمه الى ضميره تعالى فى «كَاشِحَاتٍ ضُرُّهُ» و «مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتِهِ» لحفظ النسبه لأن المانع من كشف الضر و إمساك الرحمه هو نسبتها اليه تعالى.

و تخصيص الضر و الرحمه به صلى الله عليه و آله و سلم من عموم الحججه له و لغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم و قد خوفوه بآلهتهم من دون الله.

و إرجاع ضمير الجمع المؤنث الى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير اولى العقل من الأصنام و هو يؤيد ما قدمناه فى قوله: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أن التعبير بما لتعميم الحججه للأصنام و أربابها.

و قوله: قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده: «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» و هو موضوع موضع نتيجه الحججه كأنه قيل: قل لهم: إني اتخذت الله و كيلا

لأن أمر تدبيرى اليه كما أن أمر خلقى اليه فهو فى معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته و صدقت ذلك عملا باتخاذة وكيلا فى امورى.

و قوله: عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تقديم الظرف على متعلقه للدلالة على الحصر أى عليه يتوكلون لا على غيره، و إسناد الفعل الى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقته معنى التوكل فى الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيره فى التوكل فلا لوم على إن توكلت عليه و قلت: حسبى الله.

قوله تعالى: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ -الى قوله- عَذَابٌ مُّقِيمٌ المكانه هى المنزله و القدر و هى فى المعقولات كالمكان فى المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحاله التى هم عليها من الكفر و العناد و الصد عن سبيل الله.

و قوله: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ الظاهر أن «مَنْ» استفهاميه لا موصوله لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد.

و قوله: وَ يَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ أى دائم و هو المناسب للحلول، و تفكيك أمر العذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا و بالثانى عذاب الآخرة، و فى الكلام أشد التهديد.

و المعنى قل مخاطبا للمشركين من قومك: يا قوم اعملوا-مستمرين-على حالتكم التى أنتم عليها من الكفر و العناد إني عامل- كما أوامر غير منصرف عنه-فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يذله؟ و هو عذاب الدنيا كما فى يوم بدر و يحل عليه و لا يفارقه عذاب دائم و هو عذاب الآخرة.

قوله تعالى: إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. فى مقام التعليل للأمر الذى فى الآيه السابقه، و اللام فى قوله: «لِلنَّاسِ» للتعليل أى لأجل الناس أن

تتلوه عليهم و تبلغهم ما فيه، و الباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أى ملابسا للحق لا يشوبه باطل.

و قوله: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّٰ فَاِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا اى يتفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادته الحياه و ثواب الدار الآخرة الى نفسه، و من ضل و لم يهتد به فإنما يعود شقاؤه و وباله من عقاب الدار الآخرة الى نفسه فالله سبحانه أجل من أن يتنفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم.

و قوله: وَ مَا اَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ اى مفوضا اليه أمرهم قائما بتدبير شئونهم حتى توصل ما فيه من الهدى الى قلوبهم.

و المعنى إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأننا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه الى نفسه و من ضل و لم يهتد به فإنما يعود ضرره الى نفسه و ما أنت و كيلا من قبلنا عليهم تدبر شئونهم فتوصل الهدى الى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء.

قوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا إِلَىٰ آخِرِ آيَاتِهِ، قال فى المجمع:

التوفى قبض الشيء على الإيفاء و الإتمام يقال: توفيت حقى من فلان و استوفيته بمعنى انتهى.

تقديم المسند اليه فى الآيه يفيد الحصر أى هو تعالى المتوفى لها لا غير و إذا انضمت الآيه الى مثل قوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١/)، و قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الأنعام ٦١/)، أفادت معنى الأصالة و التبعية أى إنه تعالى هو المتوفى بالحقيقه و ملك الموت و الملائكه الذين هم أعوانه أسباب متوسطه يعملون بأمره.

و قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَآئِئَاتِ حِينَ مَوْتِهَا المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموع الأرواح و الأبدان لأن المجموع غير مقبوض عند الموت و إنما المقبوض هو

الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف و التدبير و المراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي، و كذا المراد بمانمها.

و قوله: وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا معطوف على الأنفس في الجملة السابقة، و الظاهر أن المنام اسم زمان و في منامها متعلق بيتوفى و التقدير و يتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها.

ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاه في وقت النوم فقال: «فَيَمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى» أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاه حين موتها و لا يردها الى بدنها، و يرسل النفس الاخرى التي لم يقض عليها الموت الى بدنها الى أجل مسمى تنتهي اليه الحياه.

و جعل الأجل المسمى غايه للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالا واحدا و بعضها إرسالا بعد إرسال حتى ينتهي الى الأجل المسمى.

و يستفاد من الآيه أولا: أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه و تستقل عنه و تبقى بحيالها.

و ثانيا: أن الموت و النوم كلاهما توف و إن افترقا في أن الموت توف لا إرسال بعده و النوم توف ربما كان بعده إرسال.

ثم تم الآيه بقوله: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فيتذكرون أن الله سبحانه هو المدبر لأمرهم و أنهم اليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا.

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ الْخ؛ «أم» منقطعه أي بل اتخذ المشركون من دون الله شفعا و هم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السوره: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ و قال: يَقُولُونَ هُوَ لَآئِن شَفَعْنَا عِنْدَ

وقوله: قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ أمر بأن يردده عليهم بالمناقشه في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيح يعلم به ما يريد؟ ومن يريد؟ ومن يريده؟ فلا معنى لشفاعه الجماد الذي لا شعور له و كذا تتوقف على أن يملك الشفيح الشفاعة و يكون له حق أن يشفع و لا ملك لغير الله إلا أن يملكه الله شيئا و يأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعه أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه و لا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص.

فالاستفهام في «أَوْ لَوْ كَانُوا» الخ؛ للإنكار و المعنى قل لهم: هل تتخذونهم شفعاء لكم و لو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئا كالملائكة و لا يعقلون شيئا كالأصنام؟ فإنه سفه.

قوله تعالى: قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الخ؛ توضيح و تأكيد لما مر من قوله: «قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا» و اللام في «لِلَّهِ» للملك، و قوله: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» في مقام التعليل الجملة السابقه، و المعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها، و أما استغلال بعض عباده كالملائكة يملك الشفاعة مطلقا كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى: «مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» (يونس ٣).

و للآيه معنى آخر أدق إذا انضمت الى مثل قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ (الأنعام ٥١) و هو أن الشفيح بالحقيقه هو الله سبحانه و غيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهي الى توسط بعض صفاته تعالى بينه و بين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمه و المغفره بينه و بين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب و تخليصه من العذاب.

و الفرق بين هذا الملك و ما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكة في الوجه السابق

كما فى ملك زىء للءار بءلاف الملك فى هءا الوجه فىء المالك فىه ىءصف بمملوكه كملك زىء الشءاع لشفاعءه.

و قوله: **ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ءعلل آءر لكونه ىملك الشفاعة ءمىعا الءال على الءصر و ذلك أن الشفاعة إنما ىملكها الءى ىءءهى الىه أمر المشفوع له إن شاء قبلها و أصلء حال المشفوع له و أما ءیره فإنما ىملكها إذا رضى بها و أءن فىها و الله سبحانه هو الءى ىرءع الىه العباء ءون الءىن ىءعون من ءون الله فالله هو المالك للشفاعة ءمىعا فقولهم ىكون أولىاءهم شفعاء لهم مطلقا ثم عباءءهم لهم كذلك بناء بلا مبنى ىءءمء علىه.

قوله ءعالى: **وَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَ خِیدَهُ أَشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الءِىنِ لَا یُؤْمِنُونَ** بِالآءِرِهِ الخ؛ المرء من ذكره ءعالى وءهءه ءعله مفءءا بالءكر من ءیر ذكر آلهءهم و من مصادیقه قول لا إله إلا الله، و الاءمءراز الاءقباض و النفور عن الشىء.

و إنما ذكر من وصفهم ءءم إىمانهم بالآءره لأن ذلك هو الأصل فى اءمءرازهم و لو كانوا مؤمنىن بالآءره و أنهم ىرءعون الى الله فىءازىهم بأعمالهم عبءوه ءون أولىاءهم و لم ىرءبوا عن ذكره وءهءه.

و قوله: **وَ إِذَا ذُكِرَ الءِىنِ مِنْ ءُونِهِ إِذَا هُمْ یَشْتَبِهُونَ** المرء بالءىن من ءونه آلهءهم، و الاءءبشار سرور القلب بءىء ىظهر أءره فى الوجه.

قوله ءعالى: **قُلِ اللّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ عَالِمَ الْغَیْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ الخ؛** لما بلء الكلام مبلءا لا ىرءى معه فىهم ءیر لئسیانهم أمر الآءره و إنكارهم الرءوع الىه ءعالى ءءى كانوا ىشمءزون من ذكره ءعالى وءهءه أمره صلى الله علیه و آله و سلم أن ىذكره ءعالى وءهءه و ىذكرهم ءكمه بین عباءه فىما اءءلفوا فىه فى صوره الاءءءاء الىه ءعالى على ما فىه من الإقرار بالبعء و ءء وصف الله ءعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض أى مءرءها من ءءم العءم الى ساءه الوجود، و عالم الغیب و الشهاءه فلا ىءفى علیه شىء، و لازمه أن ىءكم بالءق

و ينفذ حكمه.

قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** الخ؛ المراد بالذين ظلموا هم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف، والظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال: **أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ** (الأعراف / ٤٥).

و المعنى: لو أن الظالمين المنكرين للمعاد ضعفى ما فى الأرض من أموال و ذخائر و كنوز لجعلوه فديه من سوء العذاب.

و قوله: **وَيَذَرُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** البداء و البدو بمعنى الظهور و الحساب و الحسبان العد، و الاحتساب الاعتداد بالشىء بمعنى البناء على عده شيئاً و كثيراً ما يستعمل الحسبان و الاحتساب بمعنى الظن كما قيل و منه قوله: **«مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ»** أى ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان و الظن حيث قال:

و الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله و يكون بعرض أن يعتريه فيه شك، و يقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر.

انتهى.

و مقتضى سياق الآيه أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة امورا على صفة هى فوق ما تصوروه و أعظم و أهول مما خطر بالهم لا أنهم يشاهدون أمورا ما كانوا يعتقدونها و يدعون بها و بالجمله كانوا يسمعون أن الله حسابا و وزنا للأعمال و قضاء و نارا و ألوانا من العذاب فيقيسون ما سمعوه-على إنكار منهم له-على ما عهدوه من هذه الامور فى الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر بالهم من صفتها فهذه الآيه فى وصف عذابه نظير قوله فى وصف نعيم أهل الجنة: **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**

ص: ٤٠٩

و أيضا مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء و الانكشاف بعد الاستتار كما يشير اليه قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

قوله تعالى: وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَي ظَهَرَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَفِيَةً عَلَيْهِمْ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أَي وَنَزَلَ عَلَيْهِمْ وَأَصَابَهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا إِذَا سَمِعُوا مِنْ أَوْلِيَاءِ الدِّينِ مِنْ شِدَائِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ وَأَنْوَاعِ عَذَابِهِ.

قوله تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ الْخ: الْآيَةِ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ الْبَيَانِيِّ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ الظَّالِمِينَ وَلِذَا صَدَرَتْ بِالْفَاءِ لِتَتَفَرَّعَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ تَفَرُّعَ الْبَيَانِ عَلَى الْمَيِّينِ.

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية داله على الحق و لم يصغوا الى الحجج المقامه عليهم و لم يسمعوا موعظه و لم يعتدوا بعبيره فجحدا ربوبيته تعالى و أنكروا البعث و الحساب و بلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده.

يَبَيِّنُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَدْعِيهِ طَبْعُ الْإِنْسَانِ الْمَائِلِ إِلَى اتِّبَاعِ هَوَى نَفْسِهِ وَ الْإِغْتِرَارِ بِمَا زِينَ لَهُ مِنَ نِعَمِ الدُّنْيَا وَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيهِ الْحَافِهِ بِهَا فَالْإِنْسَانُ حَلِيفُ النَّسِيَانِ إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ أَقْبَلَ إِلَى رَبِّهِ وَ أَخْلَصَ لَهُ وَ دَعَاهُ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ رَبُّهُ نِعْمَةً نَسَبَهُ إِلَى عِلْمِ نَفْسِهِ وَ خَبْرَتِهِ وَ نَسَى رَبَّهُ وَ جَهَلَ أَنَّهَا فَتْنَةٌ فَتَنَ بِهَا.

فقوله: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ أَي مَرَضٌ أَوْ شِدَّةٌ «دَعَانَا» أَي خَصَّنَا بِالِدَعَاءِ

و انقطع عن غيرنا.

و قوله: ثُمَّ إِذَا حَوْلَتْ أُهُ نِعْمَهُ مِمَّا قَالَ إِنْ مَا أُوتِيَتْهُ عَلِيٌّ عَلِمَ التَّخْوِيلَ الإِعْطَاءَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْهَبِ، وَ تَقْيِيدَ النِّعْمَةِ بِقَوْلِهِ: «مِمَّا» لِلدَّلَالَةِ عَلِيٌّ كُونَ وَصِفَ النِّعْمَةِ مَحْفُوظًا لَهَا وَ الْمَعْنَى خَوْلَانَهُ نِعْمَهُ ظَاهِرًا كُونَهَا نِعْمَهُ.

وَ ضَمِيرُ «أُوتِيَتْهُ» لِلنِّعْمَةِ بِمَا أَنَّهُ شَيْءٌ أَوْ مَالٌ وَ الْعِنَايَةُ فِي ذَلِكَ بِالإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَرَفُ بِكَوْنِهَا نِعْمَهُ مِمَّا بَلَّ يَقْطَعُهَا عَنَّا فَيَسْمِيهَا شَيْئًا أَوْ مَالًا وَ نَحْوَهُ وَ لَا يَسْمِيهَا نِعْمَهُ حَتَّى يَضْطَرُّهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِمَنْعَمٍ وَ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ: «أُوتِيَتْهُ» فَصَفَحَ عَنِ الْفَاعِلِ لِذَلِكَ وَ التَّعْبِيرُ أَنَّ أَعْنَى «نِعْمَهُ مِمَّا» «إِنْ مَا أُوتِيَتْهُ» مِنْ لَطِيفِ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَ قَدْ وَجَّهُوا تَذْكَيرَ الضَّمِيرِ فِي «أُوتِيَتْهُ» بِوَجْهِهِ آخَرَ غَيْرَ مَوْجَّهٍ مِنْ أَرَادَهَا فَلْيَرْجِعْ إِلَى الْمَفْصَلَاتِ.

وَ الْمَلَائِمُ لِسِيَاقِ الْآيَةِ أَنَّ يَكُونُ مَعْنَى «عَلِيٌّ عَلِمَ» عَلِيٌّ عَلِمَ مَنْى أَي أُوتِيَتْ هَذَا الَّذِي أُوتِيَتْ عَلِيٌّ عَلِمَ مَنْى وَ خَبْرَهُ بِطَرَقِ كَسْبِ الْمَعَاشِ وَ اقْتِنَاءِ الثَّرْوَةِ وَ جَمْعِ الْمَالِ.

وَ قَوْلُهُ: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَي بَلَّ النِّعْمَةَ الَّتِي خَوْلَانَهُ مِنْ فَتْنَةٍ أَي ابْتِلَاءٍ وَ امْتِحَانٍ نَمْتَحِنُهُ بِذَلِكَ وَ لَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَاصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا ضَمِيرُ «قَدْ قَالَهَا» رَاجِعٌ إِلَى الْقَوْلِ السَّابِقِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ مَقَالُهُ أَوْ كَلِمُهُ.

وَ الْآيَةُ رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ وَ إِثْبَاتٌ لِكَوْنِهَا فِتْنَةٌ يَمْتَحِنُونَ بِهَا بِأَنَّهُمْ لَوْ أُوتِيَتْهَا عَلِيٌّ عَلِمَ مِنْهُمْ وَ اِكْتَسَبُوهَا بِحَوْلِهِمْ وَ قُوَّتِهِمْ لِأَعْنَى عَنْهُمْ كَسَبَهُمْ وَ لَمْ يَصِبْهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَ حَفْظُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَ تَنَعَمُوا بِهَا وَ لَمْ يَهْلِكُوا دُونَهَا وَ لَيْسَ كَذَلِكَ فَهؤلاءِ الَّذِينَ قَبْلَهُمْ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَسَبَهُمْ وَ أَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا.

وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ تُشِيرُ بِقَوْلِهِ: «قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» إِلَى قَارُونَ وَ أَمْثَالِهِ وَ قَدْ حَكَى

عنه قول: «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عَلِيمٌ عِنْدِي» في قصته من سورة القصص.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ الإِشَارَةُ بِهِؤُلَاءِ إِلَى قَوْمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَعْنَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِكَ سَيَلْهُمُ سَبِيلٌ مِنْ قَبْلِهِمْ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ كَسَبَهُمْ وَوَبَالَاتٌ عَمَلَهُمْ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ لِلَّهِ.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ الخ؛ جواب آخر عن قول القائل منهم «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عَلِيمٌ» وقد كان الجواب الأول «فَمَا قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» الخ؛ جواباً من طريق النقص وهذا جواب من طريق المعارضه بالإشارة الى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق و يقدر.

بيان ذلك: أن سعى الإنسان عن علم وإرادته لتحصيل الرزق ليس سبباً تاماً موجبا لحصول الرزق وإلا لم يتخلف و من البين خلافه فكم من طالب رجع آيساً و ساع خاب سعيه.

فهناك علل و شرائط زمانيه و مكانيه و موانع مختلفه باختلاف الظروف خارجه عن حد الإحصاء إذا اجتمعت و توافقت أنتج ذلك حصول الرزق (١).

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٥٣ الى ٦١]

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَ أُنْيَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ أَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْبَ رَبِّي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاحِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةً أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)

ص: ٤١٢

(١-١). الزمر ٣٨-٥٢: بحث في بسط الرزق بمشيئته تعالى؛ بحث روائي في توفى الانفس حين موتها.

قوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ الْخ؛ أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوهُمْ مِنْ قَبْلِهِ وَيُنَادِيهِمْ بِلَفْظِهِ يَا عِبَادِي وَفِيهِ تَذْكَيرٌ بِحُجَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِمْ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ إِلَىٰ اسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ أَمَّا التَّذْكَيرُ بِالْحُجَّةِ فَلِأَنَّهُ يَشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُمْ عِبَادُهُ وَهُوَ مَوْلَاهُمْ وَ مِنْ حَقِّ الْمَوْلَىٰ عَلَىٰ عَبْدِهِ أَنْ يَطِيعَهُ وَيُعْبُدَهُ فَلَهُ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَىٰ طَاعَتِهِ وَ عِبَادَتِهِ، وَأَمَّا تَرْغِيبُهُمْ إِلَىٰ اسْتِجَابَةِ الدَّعْوَةِ فَلَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَيْهِ

تعالى الباعث لهم الى التمسك بذيل رحمته و مغفرته.

وقوله: الَّذِينَ اسْرِفُوا عَلَىٰ انْفُسِهِمُ الْاِسْرَافِ-على ما ذكره الراغب-تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان و إن كان ذلك في الإنفاق أشهر؛ و كأن الفعل مضمن معنى الجنايه أو ما يقرب منها و لذا عدى بعلی. و الإسراف على النفس هو التعدى عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك و سائر الذنوب الكبيره و الصغيره على ما يعطيه السياق.

و قال جمع: إن المراد بالعباد المؤمنون و قد غلب استعماله فيهم مضافا اليه تعالى في القرآن فمعنى يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون.

و يدفعه أن قوله: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْرِفُوا» الى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم و قوله في ذيل الآيات: «بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَ اسْتَكْبَرْتَ» الخ؛ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين.

و ما ورد في كلامه تعالى من لفظ «عِبَادِيَ» و المراد به المؤمنون بضعه عشر موردا جميعها محفوفه بالقرينه و ليس بحيث ينصرف عند الإطلاق الى المؤمنين كما أن الموارد التي أطلق فيها و اريد به الأعم من المشرك و المؤمن في كلامه كذلك.

و بالجمله شمول «عِبَادِيَ» في الآيه للمشركين لا- ينبغي أن يرتاب فيه، و القول بأن المراد به المشركون خاصه نظرا الى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب الى القبول من تخصيصه بالمؤمنين.

و قوله: لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْقَنُوطِ الْيَأْسُ، و المراد بالرحمه بقرينه خطاب المذنبين و دعوتهم هو الرحمه المتعلقة بالآخره دون ما هي أعم الشامله للدنيا و الآخره و من المعلوم أن الذى يفتقر اليه المذنبون من شئون رحمه الآخره بلا واسطه هو المغفره فالمراد بالرحمه المغفره و لذا علل النهى عن القنوط من الرحمه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» .

و فى الآيه التفات من التكلم الى الغيبه حيث قيل «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ» و لم يقل: إني أغفر و ذلك للإشاره الى أنه الله الذى له الأسماء الحسنى و منها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتى فإنى أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم.

□
و قوله: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً تعليل للنهى عن القنوط و إعلام بأن جميع الذنوب قابله للمغفره عامه لكنها تحتاج الى سبب مخصص و لا تكون جزافاً، و الذى عده القرآن سبباً للمغفره أمران: الشفاعة (1) و التوبه لكن ليس المراد فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» المغفره الحاصله بالشفاعه لأن الشفاعه لا تنال الشرك بنص القرآن فى آيات كثيره و قد مر أيضاً أن قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء / ٤٨) ناظر الى الشفاعه و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» موردها الشرك و سائر الذنوب.

فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفره الحاصله بالتوبه و كلامه تعالى صريح فى مغفره الذنوب جميعا حتى الشرك بالتوبه.

على أن الآيات السبع - كما عرفت - كلام واحد ذو سياق واحد متصل ينهى عن القنوط - و هو تمهيد لما يتلوه - و يأمر بالتوبه و الإسلام و العمل الصالح و ليست الآيه الاولى كلاماً مستقلاً منقطعاً عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفره فيها بالتوبه و أى سبب آخر مفروض للمغفره.

□
و الآيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً» من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم الى تقييد عموم المغفره فيها بالشرك و سائر الكبائر التى وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبه فالمغفره لا تنال إلا الصغائر من الذنوب.

ص: ٤١٥

(١ - ١). و قد مر الكلام فيها فى مباحث الشفاعه فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ عطف على قوله: «لَا تَقْنَطُوا»، و الإنايه الى الله الرجوع اليه و هو التوبه، و قوله: «إِلَىٰ رَبِّكُمْ» من وضع الظاهر موضع المضمرة و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و أنبئوا اليه و الوجه فيه الإشاره الى التعليل فإن الملائك في عبادته الله سبحانه صفه ربويه.

و المراد بالإسلام التسليم لله و الانقياد له فيما يريد، و إنما قال: «وَأَسْلِمُوا لَهُ» و لم يقل:

و آمنوا به لأن المذكور قبل الآيه و بعدها استكبارهم على الحق و المقابل له الإسلام.

و قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» متعلق بقوله: «وَأَنبِئُوا وَأَسْلِمُوا» و المراد بالعذاب عذاب الآخرة بقريته الآيات التاليه، و يمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذى لا- تقبل معه التوبه و منه عذاب الاستئصال قال تعالى: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ (المؤمن ٨٥)».

و المراد بقوله: «ثُمَّ لَا- تُنصِرُونَ» أن المغفره لا- تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبه مفروضه العدم و الشفاعة لا- تشمل الشرك.

قوله تعالى: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» الخطاب عام للمؤمن و الكافر كالخطابات السابقه و القرآن قد انزل الى الفريقين جميعا.

و فى الآيه أمر باتباع أحسن ما انزل من الله قيل: المراد به اتباع الأحكام من الحلال و الحرام دون القصص، و قيل: اتباع ما أمر به و نهى عنه كاتيان الواجب و المستحب و اجتناب الحرام و المكروه دون المباح، و قيل: الاتباع فى العزم و هى الواجبات و المحرمات، و قيل:

اتباع الناسخ دون المنسوخ، و قيل: ما أنزل هو جنس الكتب السماويه و أحسنها القرآن فاتباع أحسن ما انزل و هو اتباع القرآن.

و الإنصاف أن قوله فى الآيه السابقه: «وَأَسْلِمُوا لَهُ» يشمل مضمون كل من هذه الأقوال

فحمل قوله: «وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ» على شىء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب.

و لعل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التى تشير الى طريق استعمال حق العبوديه فى امتثال الخطابات الإلهيه الاعتقاديه و العمليه و ذلك كالخطابات الداعيه الى ذكر الله تعالى بالاستغراق و الى حبه و الى تقواه حق ثقافته و الى إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيى الإنسان حياه طيبه و ينفخ فيه روح الإيمان و يصلح أعماله و يدخله فى ولايه الله تعالى و هى الكرامه ليست فوقها كرامه.

و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أنسب لهذا المعنى فإن الدعوه الى عمل بالتخويف من مفاجاه الحرمان و مباغته المانع إنما تكون غالباً فيما يساهل المدعو فى أمره و يطيب نفسه بسوف و لعل، و هذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر و الإتيان بأجساد الأعمال، و يقرب منه قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال / ٢٤).

قوله تعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ الخ؛ قال فى المجمع: التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته، و قال: التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه. انتهى. و قال الراغب: الجنب الجارحه. قال: ثم يستعار فى الناحيه التى تليها لعادتهم فى استعاره سائر الجوارح لذلك نحو اليمين و الشمال. انتهى. فجنب الله جانبه و ناحيته و هى ما يرجع اليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله و مصداق ذلك أن يعبده وحده و لا يعصيه و التفريط فى جنب الله التقصير فى ذلك.

و قوله: وَ إِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ «أَنْ» مخففه من الثقيله، و الساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزأ.

و معنى الآية إنما نخطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لثلا تقول نفس منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله و إنى كنت من المستهزئين، و مواطن القول يوم القيامة.

قوله تعالى: «أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» ضمير تقول للنفس، و المراد بالهدايه الإرشاد و إراءه الطريق، و المعنى ظاهر و هو قطع للعدر.

قوله تعالى: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» لو للتمنى و الكره الرجعه، و المعنى أو تقول نفس متمنيه حين ترى العذاب يوم القيامة: ليت لى رجعه الى الدنيا فأكون من المحسنين.

قوله تعالى: «بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآئِي فَكَذَّبْتُ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتُ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ» رد لها و جواب لخصوص قولها ثانيا: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» و موطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك و لسياق الجواب شهاده عليه.

و قد فصل بين قولها و جوابه بقوله: «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى» الخ؛ و لم يجب إلا عن قولها: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي» الخ.

و الوجه فى الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقوله عنها مرتبه على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة و رأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال و قد فرطوا فيها و فاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا و نادوا بالحسره على تفریطهم «يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ» قال تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا» (الأنعام ٣١).

ثم إذا حوسبوا و أمر المتقون بدخول الجنة و قيل و أمّا زُوا الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (يس / ٥٩) تعلقوا بقولهم: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» .

ثم إذا امروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم ادخلوا فيها تمنوا الرجوع الى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا «أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً» قال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ

النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَدِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (الأَنْعَامُ ٢٧)، وقال حاكيا عنهم: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (المؤمنون ١٠٧).

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب و لو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم (١).

وقد خص قولهم الثاني: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي» الخ؛ بالجواب و أمسك عن جواب قولهم الأول و الثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق و أهله و في الثالث تمنيمهم للرجوع الى الدنيا و الله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة و يمنعهم أن يكلموه و لا يجيب عن كلامهم كما يشير الى ذلك قوله: قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَا كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ أَحْسَبُ فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِيْرًا خَيْرًا حَتَّىٰ آتَىٰ أَنسَٰ وَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ نَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰئِزُونَ (المؤمنون ١١١).

قوله تعالى: وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ الكذب على الله هو القول بأن له شريكا و أن له ولدا و منه البدعه في الدين.

و سواد الوجه آيه الذله و هي جزاء تكبرهم و لذا قال: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ» .

قوله تعالى: وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الظاهر أن مفازه مصدر ميمي بمعنى الفوز و هو الظفر بالمراد، و الباء في «بِمَفَازَتِهِمْ» للملابسه أو السببيه فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم.

ص: ٤١٩

و قوله: «لَا يَمْسُهُمْ» الخ؛ بيان لتنجيتهم كأنه قيل: ينجيهم لا يمسهم السود من خارجهم ولا هم يحزنون في أنفسهم.

و للآية نظر الى قوله تعالى في ذيل آيات سوره المؤمنون المنقوله آنفا: «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ» فتدبر و لا تغفل (١).

[سوره الزمر (٣٩): الآيات ٦٢ الى ٧٥]

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مُقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَرُكْنٌ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَاحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)

ص ٤٢٠:

١- ١). الزمر ٥٣-٦١: بحث روائى فى رحمه الله تعالى فى الذين اسرفوا على انفسهم؛ التوبه.

بيان:

قوله تعالى: **اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ** هذا هو الذى ذكر اعتراف المشركين به من قبل فى قوله: **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** (الآيه ٣٨ من السوره) و بنى عليه استناد الأشياء فى تدبيرها اليه.

و الجملة فى المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستندا اليه لما تقدم مرارا أن الخلق

ص: ٤٢١

لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق اليه الى اختصاص الملك به و هو قوله:

«لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» و من اختصاص الملك به الى كونه هو الوكيل على كل شىء القائم مقامه فى تدبير أمره.

و قد تقدم فى ذيل قوله: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الأنعام ١٠٢/) فى الجزء السابع من الكتاب كلام فى معنى عموم الخلقه لكل شىء.

قوله تعالى: وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ و ذلك لأن انتهاء خلق كل شىء وجوده اليه يقتضى أن يكون تعالى هو المالك لكل شىء فلا يملك شىء من الأشياء لا نفسه و لا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعالى، فهو لفقره مطلقاً لا يملك تدبيراً و الله المالك لتدبيره.

و أما تمليكه تعالى له نفسه و عمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكداً لملكه غير ناف و لا مناف حتى أن توكيله الملائكة على شىء من الأمر من شئون و كالتة تعالى عليهم لا تفويض للأمر و إبطال للوكالة فافهم ذلك.

و بالجمله إذ كان كل شىء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره و الأسباب و المسببات فى ذلك سواء فالله سبحانه هو ربها وحده.

فقد تبين أن الجمله مسوقه للإشارة الى توحده فى الربوبية و هو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» للدلالة على أنه هو الغنى المطلق و أن المنافع و المضار راجعه الى العباد، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شىء فيكون إشاره الى أن الأشياء محتاجه اليه فى بقائها كما أنها محتاجه اليه فى حدوثها، أجنبى عن معنى الآية بالمره.

قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الخ؛ المقاليد - كما قيل - بمعنى المفاتيح و لا مفرد له من لفظه.

و مفاتيح السماوات و الأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى: وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ

وَ الْأَرْضِ (المنافقون ٧) و خزائنها غيبها الذى يظهر منه الأشياء و النظام الجارى فيها فتخرج الى الشهاده قال تعالى: وَ إِن مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١).

و ملك مقاليد السماوات و الأرض كناية عن ملك خزائنها التى منها وجودات الأشياء و أرزاقها و أعمارها و آجالها و سائر ما يواجهها فى مسيرها من حين تبتدى منه تعالى الى حين ترجع اليه.

و هو أعنى قوله: «لَهُ مَقَالِيدُ» الخ؛ فى مقام التعليل لقوله: «وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» و لذا جىء به مفصولا من غير عطف.

و قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قد تقدم أن قوله:

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» -الى قوله- «وَ الْأَرْضِ» ذكر خلاصه ما تفيده الحجج المذكوره فى خلال الآيات السابقه، و عليه فقوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» الخ؛ معطوف على قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» و المعنى الذى تدل عليه الآيات و الحجج المتقدمه أن الله سبحانه خالق فما لك فوكيل على كل شىء أى متوحد فى الربوبيه و الالهيه و الذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحده و لم يعبدوه أولئك هم الخاسرون.

قوله تعالى: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» لما أورد سبحانه خلاصه ما تنطق به الحجج المذكوره فى السوره من توحده تعالى بالخلق و الملك و التدبير و لازم ذلك توحده تعالى فى الربوبيه و الالهيه أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهره الظاهره محل لعبادته غير الله و إجابته اقتراحهم و هل هى إلا الجهل.

فقوله: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ النَّسَاءَ» لتفريع مضمون الجملة على قوله: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» الى آخر الآيتين، و الاستفهام إنكارى، و «غير الله» مفعول «أَعْبُدُ» قدم

عليه لتعلق العناية به، و«تَأْمُرُونِي» معترض بين الفعل و مفعوله و أصله تأمرؤني أدغمت فيه إحدى النونين فى الأخرى.

و قوله: أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ خطابهم بصفه الجهل للإشارة الى أن أمرهم إياه بعباده غير الله و اقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته فى الربوبية و الألوهية ليس إلا جهلا منهم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ الْخ؛ فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكوره بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل و كيف يسوغ لك أن تعبده و قد دل الوحي على النهى عنه كما دل العقل على ذلك.

فقوله: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ اللام للقسم، و قوله: «لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ» بيان لما اوحى اليه، و تقدير الكلام و أقسم لقد أوحى اليك لئن أشركت، الخ؛ و إلى الذين من قبلك من الأنبياء و الرسل لئن أشركت ليحبطن عملكم و لتكونن من الخاسرين.

و خطاب النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و سائر الأنبياء عليهم السلام بالنهى عن الشرك و إنذارهم بحبط العمل و الدخول فى زمرة الخاسرين خطاب و إنذار على حقيقه معناهما كيف؟ و غرض السوره- كما تقدمت الإشارة اليه- بيان أن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين الى الإيمان به مكلف بما يكلفهم و لا يسعه أن يجيبهم الى ما يقترحون به عليه من عباده آلهتهم.

و أما كون الأنبياء معصومين بعصمه إلهيه يمتنع معها صدور المعصيه عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم و عدم صحه توجهه اليهم و لو كان كذلك لم تتصور فى حقهم معصيه كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم.

على أن العصمه- و هى قوه يمتنع معها صدور المعصيه- من شئون مقام العلم- كما تقدمت الإشارة اليه فى تفسير قوله تعالى: وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ (النساء ١١٣)- لا تنافى ثبوت الاختيار الذى هو من شئون مقام العمل و صحه صدور الفعل و الترك عن الجوارح.

فمنع العلم القطعى بمفسده شىء منعا قطعيا عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافى كون العالم بذلك مختارا فى الفعل لصحه صدوره و لا صدوره عن جوارحه فالعصمه لا تنافى بوجه التكليف.

و قوله: وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ظهر معناه مما تقدم و يمكن أن يكون اللام فى الخاسرين مفيدا للعهد، و المعنى و لتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله و أعرضوا عن الحجج الداله على وحدانيته.

قوله تعالى: يَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ إضراب عن النهى المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل: فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد، و تقديم اسم الجلاله للدلاله على الحصر.

و الفاء فى «فَاعْبُدْ» زائده للتأكيد على ما قيل، و قيل: هى فاء الجزاء و قد حذف شرطه و التقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله.

و قوله: وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ أى و كن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الداله على توحده فى الربوبيه و الالوهيه، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران ١٤٤) و قوله: وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَّاكِرِينَ (الأعراف ١٧) أن مصداق الشاكرين بحقيقه معنى الكلمه هم المخلصون بفتح اللام فراجع.

قوله تعالى: وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ الى آخر الآيه قدر الشىء هو مقداره و كميته من حجم أو عدد أو وزن و ما أشبه ذلك ثم استعير للمعنويات من المكانه و المنزله.

فقوله: «وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد و رجوع الأشياء اليه كما يدل عليه تعقيب الجملة بقوله: «وَ الْمَأْرُضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» الى آخر السوره حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامه، و قبضه الأرض و طيه السماوات و نفخ الصور لإيماته الكل ثم لإحيائهم و إشراق الأرض بنور

ربها و وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء و القضاء و توفيه كل نفس ما عملت و سوق المجرمين الى النار و المتقين الى الجنة فمن كان شأنه فى الملك و التصرف هذا الشأن و عرف بذلك أوجبت هذه المعرفة و الاقبال اليه بعبادته وحده و الإعراض عن غيره بالكليه.

لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد و لم يقدروه حق قدره و لم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته الى عباده من سواه.

و قوله: وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَى الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْزَاءِ وَ الْأَسْبَابِ الْفَعَالَهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَ الْقَبْضَةُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضَةِ، وَ الْقَبْضُ عَلَى الشَّيْءِ وَ كَوْنُهُ فِي الْقَبْضِ كِتَابَهُ عَنِ التَّسَلُّطِ التَّامِّ عَلَيْهِ أَوْ انْحِصَارِ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِ فِي الْقَابِضِ وَ الْمُرَادُ هَاهُنَا الْمَعْنَى الثَّانِي كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩) وَ غَيْرِهِ مِنَ الْآيَاتِ.

و قوله: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ يَمِينُ الشَّيْءِ يَدُهُ الْيَمْنَى وَ جَانِبُهُ الْقَوَى وَ يَكْنَى بِهَا عَنِ الْقَدْرَةِ، وَ يَسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ مُحْصَلَ الْجُمْلَتَيْنِ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» تَقَطُّعُ الْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ وَ السَّمَاوِيَّةِ وَ سَقُوطُهَا وَ ظُهُورُ أَنَّ لَا مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

و قوله: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ تَنْزِيهِهُ لَهُ تَعَالَى عَمَّا أَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَ الْوَهَيْتِهِ فَنَسَبُوا تَدْبِيرَ الْعَالَمِ إِلَى آلِهَتِهِمْ وَ عِبَدُوهَا.

قوله تعالى: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ الْخ؛ ظَاهِرٌ مَا وَرَدَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى فِي مَعْنَى نَفْخِ الصُّورِ أَنَّ النُّفْخَ نَفْخَتَانِ نَفْخَهُ لِلْإِمَاتَةِ وَ نَفْخَهُ لِلْإِحْيَاءِ، وَ هُوَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ رَوَايَاتُ أُمَّهِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ بَعْضُ مَا وَرَدَ مِنْ طَرَفِ أَهْلِ السَّنَةِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ إِنْ كَانَ بَعْضُ آخَرٍ مِنْ رَوَايَاتِهِمْ لَا يَخْلُو عَنْ إِبْهَامٍ وَ لَذَا اخْتَارَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ نَفْخَهُ لِلْإِمَاتَةِ وَ نَفْخَهُ لِلْإِحْيَاءِ وَ الْبَعْثِ وَ نَفْخَهُ لِلْفَرْعِ

و الصعق و قال بعضهم: إنها أربع نفخات و لكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد.

و لعل انحصار النفخ في نفختي الإمامة و الإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الاولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشيه، قال في المصباح: يقال: صعق الرجل صعقا و تصاعقا أى غشى عليه و أصعقه غيره، ثم قال: و قوله تعالى: «فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» أى مات. انتهى.

و قوله: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ استثناء من أهل السماوات و الأرض و اختلف في من هم؟

نعم لو تصور لله سبحانه خلق وراء السماوات و الأرض جاز استثناءهم من أهلها استثناء منقطعاً أو قيل: إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها و أما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلًا، و يؤيد هذا الوجه بعض (١) الروايات المرويه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

و قوله: ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يَنْظُرُونَ ضمير «فيه» للصور، و «أخرى» صفه محذوف موصوفها أى نفخه أخرى، و قيام جمع قائم و «يَنْظُرُونَ» أى ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف.

و المعنى: و نفخ في الصور نفخه اخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ما ذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينتظرون نظر المبهوت المتحير.

و لا- ينافى ما فى هذه الآيه من كونهم بعد النفخ قياما ينتظرون ما فى قوله: وَ نُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (يس ٥١) أى يسرعون، و قوله: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي

ص: ٤٢٧

١ - ١). و هو ما ورد فى قوله تعالى «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ» المؤمن: ١٦ أن الجواب بقوله «لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» من أرواح الأنبياء و غير ذلك من الروايات.

الصُّورِ فَتَيَّاتُونَ أَفْوَاجًا (النبا ١٨)، وقوله: وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاءِ آوَاتٍ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ (النمل ٨٧) فإن فرعهم فالنفخ وإسراعهم في المشى الى عرصه المحشر وإتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنه لا يدفع بعضها بعضا.

قوله تعالى: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا إلى آخر الآيه؛ إشراق الأرض إضاءتها، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسى كثيرا و اطلق أيضا على الإيمان و على القرآن بعنايه أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفى عليه لولاه قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧)، وقال:

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا (التغابن ٨).

و لا يبعد أن يراد-و الله أعلم-من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصه يوم القيامة من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدو الأعمال من خير أو شر أو طاعه أو معصيه أو حق أو باطل للناظرين، وإشراق الشىء هو ظهوره بالنور و لا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطه دونه فالأشياء مشرقه بنور مكتسب منه تعالى.

و هذا الإشراق و إن كان عاما لكل شىء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال: «وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا» و ذكره تعالى بعنوان ربوبيه الأرض تعريضا للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض و ما فيها.

و المراد بالأرض مع ذلك الأرض و ما فيها و ما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله: «وَ الْأَرْضُ جَمِيعًا قَبِضَتُهُ» ذلك.

و يستفاد ما قدمناه من مواضع كثيره من كلامه تعالى كقوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصِيرَةٍ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢) وقوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠)، وقوله: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّ النَّاسَ أَسْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨) و آيات اخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال و تجسمها و شهاده الأعضاء و غير ذلك.

و قوله: وَ وُضِعَ الْكِتَابُ قِيلَ: المراد به الحساب و هو كما ترى و قيل: المراد به صحائف الأعمال التى يحاسب عليها و يقضى بها، و قيل: المراد به اللوح المحفوظ و يؤيده قوله تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ أَنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية ٢٩).

و قوله: وَ جِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَدَاءِ أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف / ٦)، و أما الشهداء و هم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (النساء ٤١).

و قوله: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يظَلَمُونَ ضمير الجمع للناس المعلوم من السياق، و القضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كرارا فى كلامه تعالى قال: إِنْ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (يونس ٩٣).

قوله تعالى: وَ وُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ التوفيه الإعطاء بالتمام و قد علقته بنفس ما عملت دون جزائه و يقطع ذلك الريب فى كونه قسطا و عدلا من أصله و الآية بمنزله البيان لقوله: «وَ هُمْ لَا يظَلَمُونَ» .

و قوله: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ أى ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء عن جهل منه و حاجه بل لأن يجرى حكمه على القسط و العدل فهو أعلم بما يفعلون.

و الآية السابقة تتضمن القضاء و الحكم و هذه الآية إجراؤه و الآيات اللاحقه تفصيل إجرائه.

قوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ إِلَى آخِرِ آيَةِ السُّجُودِ بِالْفَتْحِ

فالسكون-على ما فى المجمع-الحث على السير،و الزمر جمع زمره و هى-كما فى الصحاح-الجماعه من الناس.

و المعنى «وَسِيقَ» و حث على السير «الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا» جماعه بعد جماعه «حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا» بلغوها «فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» لأجل دخولهم و هى سبعة قال تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ (الحجر ٤٤) «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» و هم الملائكه الموكلون عليها يقولون لهم تهجينا و إنكارا عليهم «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ» من نوعكم من البشر «يَتْلُونَ» و يقرءون «عَلَيْكُمْ آيَاتٍ رَبِّكُمْ» من الحجج الداله على وحدانيته و وجوب عبادته «قَالُوا» بلى قد جاءوا و تلوا «وَلَكِنْ» كفرنا و كذبنا و «حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» و كلمه العذاب هى قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الدَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩).

قوله تعالى: قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ القائل-على ما يفيدہ السياق-خزنه جهنم،و فى قوله: «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق.

قوله تعالى: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا لَمْ يَذْكُرْ فِي الْآيَةِ جَوَابَ إِذَا إِشَارَهُ إِلَى أَنَّهُ أَمْرٌ فَوْقَ مَا يُوَصَّفُ وَ وَرَاءَ مَا يَقْدَرُ بِقَدْرٍ، و قوله: «وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» حال أى جاؤها و قد فتحت أبوابها،و قوله: «خَزَنَتُهَا» هم الملائكه الموكلون عليها.

و المعنى «وَسِيقَ» و حث على السير «الَّذِينَ اتَّفَقُوا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا» جماعه بعد جماعه «حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَ» قد «فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَ» قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا» الموكلون عليها مستقبلين لهم «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» أنتم فى سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون «طِبْتُمْ» و لعله تعليل لإطلاق السلام «فَادْخُلُوا خَالِدِينَ» فيها.و هو أثر طبيهم.

قوله تعالى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. القائلون هم المتقون و المراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى و فيما اوحى الى سائر الانبياء من وعد المتقين بالجنة قال: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ (آل عمران ١٥) و قال: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (القلم ٣٤)، كذا قيل، و قيل: المراد بالوعد الوعد بالبعث و الثواب.

و لا- يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرْتُوبُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (المؤمنون ١١) و يكون قوله: «و أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ» عطف تفسير لقوله: «صَدَقْنَا وَعَدَّهُ» .

و قوله: وَ أَوْرَثْنَا الْأَرْضَ المراد بالأرض-على ما قالوا-أرض الجنة و هى التى عليها الاستقرار فيها و قد تقدم فى أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت فى معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانقلت اليهم.

و قوله: تَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ بيان لإيراثهم الأرض، و تبديل ضمير الأرض بالجنة للاشارة الى أنها المراد بالأرض.

و قيل: المراد بالأرض هى أرض الدنيا و هو سخيـف إلا أن يوجه بأن الجنة هى عقبى هذه الدار قال تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (الرعد ٢٢).
و المعنى و قال المتقون بعد دخول الجنة: الحمد لله الذى صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء و نختار-فلهم ما يشاءون فيها-.

و قوله: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ أى فنعـم الأجر أجر العاملين لله تعالى، و هو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة، و احتمال أن يكون من قوله تعالى.

قوله تعالى: وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحف الإحداق و الإحاطة بالشىء، و العرش هو المقام الذى يصدر

منه الفرامين و الأوامر الإلهيه التي يدبر بها العالم، و الملائكه هم المجرون لمشيته العاملون بأمره، و رؤيه الملائكه على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك و قد طويت السماوات.

و المعنى: و ترى يومئذ الملائكه و الحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه و هم يسبحون بحمد ربهم.

و قوله: «و قُضِيَ بَيْنَهُمْ» احتمال رجوع الضمير الى الملائكه، و رجوعه الى الناس و الملائكه جميعا، و رجوعه الى جميع الخلائق، و رجوعه الى الناس فالقضاء بين أهل الجنة و أهل النار منهم أو بين الأنبياء و اممهم.

و يضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله: «و قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يَظْلُمُونَ» فذكر القضاء بينهم ثانيا تكرر من غير موجب.

لكن ظاهر القضاء بين جماعه هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم و لا تحقق للاختلاف بين الملائكه، و هذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم و القضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم و مقدماته و تبعاته من حضور المتخاصمين و طرح الدعوى و شهاده الشهود و حكم الحاكم و إيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولا نفس الحكم الإلهي و بهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجرى عليهم من حين يبعثون الى حين دخول أهل النار النار و أهل الجنة الجنة و استقرارهم فيهما و بذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب.

و قوله: «و قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» كلمه خاتمه للبدء و العود و ثناء عام له تعالى أنه لم يفعل و لا يفعل إلا الجميل.

قيل: قائله المتقون و كان حمدهم الأول على دخولهم الجنة و الثاني للقضاء بينهم و بين غيرهم بالحق، و قيل: قائله الملائكه و لم ينسب اليهم صريحا لتعظيم أمرهم، و قيل: القائل جميع الخلائق.

و يؤيد الأول قوله تعالى في صفه أهل الجنة: وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (يونس ١٠) وهو حمد عام خاتم للخلقه كما سمعت.

ص: ٤٣٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعِيدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)

تتكلم السوره فى استكبار الكافرين و مجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذى يدعون اليه و لذلك نراها تذكر جدالهم و تعود اليه عوده بعد عوده ﴿م﴾ يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا﴾ «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ» .

فتكسر سوره استكبارهم و جدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الامم المكذبين و ما أعد الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف مما يجرى عليهم فى الآخرة.

و تدحض باطل أفاويلهم بوجوه من الحجج الناطقه بتوحده فى الربوبية و الالوهية و تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالصبر و تعده و المؤمنين به بالنصر، و تأمرهم أن يؤذنههم أنه مسلم لربه غير تارك لعبادته فليأسوا منه.

و السوره مكيه كلها لاتصال آياتها و شهاده مضامينها بذلك، و ما قيل فيه من الآيات أنه نزل بالمدينه لا يعبا به و سيجىء الإشاره إليها إن شاء الله.

قوله تعالى: حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» من قبيل إضافه الصفه الى موصوفها و التقدير هذا كتاب منزل من الله.

و تخصيص الوصفين «الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» بالذكر قيل: للإشاره الى ما فى القرآن من الإعجاز و أنواع العلوم التى يضيق عنها نطاق الأفهام، و قيل: هو من باب التفتن.

و الوجه أن يقال: إن السوره لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين و مجادلتهم فى آيات الله بالباطل جهلا و هم يحسبونه علما و يعتزون به كما حكى ذلك عنه فى خاتمه السوره بقوله: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» و كما حكى عن فرعون قوله لقومه فى

موسى: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ» وقوله لهم: «مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» .

افتتح الكلام في السوره بما فيه إشاره الى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم و استكبارهم بحسب أو هامهم، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل و ضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق و بينه بحججه الباهره.

و يؤيد هذا الوجه ما فى الآيه التاليه من قوله: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» الخ؛ على ما سنبين.

قوله تعالى: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» الإتيان بصيغه اسم الفاعل فى «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ» -لعله- للدلاله على الاستمرار التجددى فإن المغفره و قبول التوب من صفاته الفعلية و لا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر و يقبل التوب ثم يقبل.

و إنما عطف قابل التوب على ما قبله دون «شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ» لأن غافر الذنب و قابل التوب مجموعهما كصفه واحده متعلقه بالعباد المذنبين يغفر لهم تاره بتوبه و تاره بغيرها كالشفاعه.

و العقاب و المعاقبه المؤاخذه التى تكون فى عاقبه الذنب قال الراغب: و العقب و العقبى يختصان بالثواب نحو خير ثوابا و خير عقبا، و قال تعالى: و أولئك لهم عقبى الدار، و العاقبه إطلاقها يختص بالثواب نحو و العاقبه للمتقين، و بالإضافة قد تستعمل فى العقوبه نحو ثم كان عاقبه الذين أساءوا، و قوله: فكان عاقبتهما أنهما فى النار يصح أن يكون ذلك استعاره من ضده، و العقوبه و المعاقبه و العقاب تختص بالعذاب. انتهى.

فشديد العقاب كذى انتقام من أسماء الله الحسنى تحكى صفته تعالى فى جانب العذاب كما

يحكى الغفور و الرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة.

و الطول-على ما في المجمع-الإنعام الذى تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى فى معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله نعم القصار.

و ذكر هذه الأسماء الأربعة:غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذى الطول بعد اسم العليم للإشارة الى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقه المبني على العلم مبنى على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة.

و قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي الْمَصِيرُ ذكر كلمه التوحيد للإشارة الى وجوب عبادته وحده فلا تلغو الدعوه الدينيه بتنزيل الكتاب،و ذكر كون مصير الكل و رجوعهم اليه و هو البعث للإشارة الى أنه هو السبب العمده الداعى الى الإيمان بالكتاب و اتباعه فيما يدعو اليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذى يستتبع الخوف و الرجاء خوف العقاب و رجاء الثواب الداعيين الى عباده الله سبحانه.

قوله تعالى: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ لما ذكر تنزيل الكتاب و أشار الى الحججه الباهره على حقيقته،المستفاده من صفاته الكريمه المعدوده فى الآيتين،الداله على أنه منزّل بعلمه الذى لا يشوبه جهل و بالحق الذى لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقه بباطل جدالهم فلوح الى إن هؤلاء أهل العقاب و ليسوا بفائتين و لا مغفولا عنهم فإنهم كما نزل الكتاب ليغفر الذنب و يقبل التوب كذلك نزله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم جدالهم و لا يغرنه ما يشاهده من حالهم.

فقوله: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَقُلْ: ما يجادل فيه أى فى القرآن ليدل على أن الجدل فى الحق الذى تدل عليه الآيات بما هى آيات.على أن طرف جدالهم هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هو داع الى الحق الذى تدل الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق.على أن الجدل

فى الآيه التالىه مقيده بالباطل لإدحاض الحق.

فالمراد بالمجادله فى آيات الله هى المجادله لإدحاضها و دفعها و هى المذمومه و لا تشمل الجدال لإثبات الحق و الدفاع عنه كيف؟ و هو سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بذلك إذا كان جدالا بالتى هى أحسن قال تعالى: **وَاجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** (النحل ١٢٥).

و قوله: **إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر فى قلوبهم فلا يرجى زواله، و قد قيل **«مَا يُجَادِلُ»** و لم يقل: لا يجادل، و كذا ظاهر قوله: **«فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»** أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و إن لم يكونوا من أهل مكة.

و تقلبهم فى البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياه الى طور آخر و من نعمه الى نعمه فى سلامه و صحه و عافيه، و توجيه النهى عن الغرور الى تقلبهم فى البلاد كناية عن نهى النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالى: **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَخْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ** الخ؛ فى مقام الجواب عما يسبق الى الوهم أنهم استكبروا و جادلوا فى آيات الله فلم يكن بهم بأس و سبقوا فى ذلك.

و محصل الجواب: أن الامم الماضين كقوم نوح و الأخزاب من بعدهم كعاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم سبقوا هؤلاء الى مثل صنيعهم من التكذيب و الجدال بالباطل و هموا برسولهم ليأخذوه فحل بهم العقاب و كذلك قضى فى حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله الى ما يريد توهم باطل.

فقوله: **«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَخْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ»** دفع للدخل السابق و لذا جىء بالفصل، و قوله: **«وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ»** يقال: هم به أى قصده و يغلب فيه القصد بالسوء أى قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى فى قصصهم.

وقوله: وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ الْإِدْحَاضَ الْإِزَالَةَ وَالْإِبْطَالَ وَقوله: «فَأَخَذْتُهُمْ» أى عذبتهم، وفيه التفات من الغيبة الى التكلم وحده و النكته فيه الإشاره الى أن أمرهم فى هذا الطغيان و الاستكبار الى الله وحده لا يدخل بينه و بينهم أحد بنصره أو شفاعه كما قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (الفجر/ ١٤).

وقوله: فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ توجيه لذهن المخاطب الى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم و قطع دابرهم ليحضر شده ما نزل بهم و قد قصه الله فيما قص من قصصهم.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ظاهر السياق أن المشبه به هو ما فى الآيه السابقه من أخذهم و عقابهم، و المراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين، و المعنى كما أخذ الله المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة، و الذين كفروا من قومك منهم.

و فى قوله: كَلِمَةُ رَبِّكَ و لم يقل: كلمتى تطيب لى نفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تأييد له بالإشاره الى أن الركن الذى يركن اليه هو الشديد القوى.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٧ الى ١٢]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَمْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَفْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَمْ بَأْتُهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)

بيان:

قوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. لم يعرف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله: «وَمَنْ حَوْلَهُ» عليهم وقد قال فيهم:

وَ تَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ (الزمر ٧٥) أن حملة العرش أيضا من الملائكة.

وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب.

فقوله: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ أى الملائكة الذين يحملون العرش الذى منه تظهر الأوامر و تصدر الأحكام الإلهية التى بها يدبر العالم، والذين حول العرش من الملائكة و هم المقربون منهم.

وقوله: يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ أى ينزهون الله سبحانه و الحال أن تنزيههم له

ص: ٤٤٠

يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحه قدسه و من ذلك وجود الشريك في ملكه و يتنون عليه على فعله و تدبيره.

و قوله: «وَيُؤْمِنُونَ بِهِ إِيْمَانَهُمْ بِهِ-و الحال هذه الحال عرش الملك و التدبير لله و هم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقى الأوامر و ينزهونه عن كل نقص و يحمدونه على أفعاله-معناه الإيمان بوحدانيته في ربوبيته و ألوهيته ففي ذكر العرش و نسبه التنزيه و التوحيد و الإيمان الى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته و ألوهيته و يتخذونهم أربابا آلهه يعبدونهم.

و قوله: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» أى يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

و قوله: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا الخ؛حكاية متن استغفارهم و قد بدءوا فيه بالثناء عليه تعالى بسعه الرحمه و العلم،و إنما ذكروا الرحمه و شفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمه مبدأ إفاضه كل نعمه،و بعلمه يعلم حاجه كل محتاج مستعد للرحمه.

و قوله: فَاعْفُرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ تفريع على ما أثنوا به من سعه الرحمه و العلم،و المراد بالسبيل التى اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين و هو الإسلام و اتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم اليه تعالى بالإيمان و المعنى فاغفر للذين رجعوا اليك بالإيمان بوحدانيتك و سلوكك سبيلك الذى هو الإسلام و قهم عذاب الجحيم و هو غايه المغفره و غرضها.

قوله تعالى: رَبَّنَا وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ تَكَرَّرَ النداء بلفظه ربنا لمزيد الاستعطاف و المراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله و فى كتبه.

و قوله: وَمَنْ صِلَحْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ عطف على موضع الضمير فى قوله: «وَادْخُلْهُمْ» و المراد بالصلوح صلاحيه دخول الجنة،و المعنى و أدخل من

صلح لدخول الجنة من آبائهم و أزواجهم و ذرياتهم جنات عدن.

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين، و من المعلوم أيضا أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم الى الذين تابوا و اتبعوا سبيل الله و قد وعدهم الله جنات عدن، و الى من صلح و قد جعلوا الطائفة الاولى متبوعين و الثانية تابعين.

و يظهر منه أن الطائفة الاولى هم الكاملون فى الإيمان و العمل على ما هو مقتضى حقيقه معنى قولهم: ﴿لِّلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ فذكروهم و سألوه أن يغفر لهم و ينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن، و الطائفة الثانية هؤلاء فى المنزله ممن لم يستكمل الإيمان و العمل من ناقص الإيمان و مستضعف و سيئ العمل من منسوبى الطائفة الاولى فذكروهم و سألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الاولى الكاملين فى جناتهم و يقيهم السيئات.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الطور ٢١) غير أن الآيه التى نحن فيها أوسع و أشمل لشمولها الآباء و الأزواج بخلاف آيه سوره الطور، و المأخوذ فيها الصلوح و هو أعم من الإيمان المأخوذ فى آيه الطور.

و قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليلا لقولهم: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ الى آخر مسألتهم، و كان الذى يقتضيه الظاهر أن يقال: إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل الى ذكر الوصفين: العزيز الحكيم لأنه وقع فى مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَ عِلْمًا﴾. و لازم سعه رحمه و هى عموم الإعطاء أن له أن يعطى ما يشاء لمن يشاء و يمنع ما يشاء ممن يشاء و هذا معنى العزه التى هى القدره على الإعطاء و المنع، و لازم سعه العلم لكل شىء أن ينفذ العلم فى جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئا منها و لازمه إتقان الفعل و هو الحكمة.

فقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فى معنى الاستشفاع بسعه رحمته و سعه علمه تعالى

المذكورتين في مفتتح المسأله تمهيدا و توطئه لذكر الحاجه و هى المغفره و الجنه.

قوله تعالى: **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ الْخ**؛ ظاهر السياق أن الضمير فى «**قِهِمُ**» للذين تابوا و من صلح جميعا.

و المراد بالسيئات-على ما قيل-تبعات المعاصى و هى جزاؤها و سميت التبعات سيئات لأن جزاء السيئ سىئ قال تعالى: **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا** (الشورى ٤٠).

وقيل: المراد بالسيئات المعاصى و الذنوب نفسها و الكلام على تقدير مضاف و التقدير و قهم جزاء السيئات أو عذاب السيئات.

و الظاهر أن الآيه من الآيات المداله على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها و شرها، و قد تكرر فى كلامه تعالى أمثال قوله: **إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (التحریم ٧).

و كيف كان فالمراد بالسيئات التى سألوا و قايتهم عنها هى الأهوال و الشدائد التى تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرر فى قولهم «**وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ**» **وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ** .

وقيل: المراد بالسيئات نفس المعاصى التى فى الدنيا، و قولهم: «**يَوْمَئِذٍ**» إشاره الى الدنيا، و المعنى و احفظهم من اقتراف المعاصى و ارتكابها فى الدنيا بتوفيقك.

و فيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم: «**وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ**» و قولهم: «**وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ**» الخ؛ فالحق أن المراد بالسيئات ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال و الشدائد.

و يظهر من هذه الآيات المشتمله على دعاء الملائكه و مسألتهم:

أولاً: أن من الأدب فى الدعاء أن يبدأ بحمده و الثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجه ثم يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبه له.

و ثانياً: أن سؤال المغفره قبل سؤال الجنه و قد كثر ذكر المغفره قبل الجنه فى كلامه تعالى إذا

ذكر معا، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أى نعمه كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمه.

و ذكر بعضهم أن فى قوله: «فَسَاغِرُ لِلَّذِينَ تَابُوا» الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبه تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجبا لكان لا يحتاج فيه الى مسألتهم بل كان يفعل الله سبحانه لا محاله.

وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافى صحه مسألته و طلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: «رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ» فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها و وعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد، و أصرح من هذه الآية قوله يحكى عن المؤمنين: رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (آل عمران ١٩٤).

و قبول التوبه مما أوجهه الله تعالى على نفسه و جعله حقا للتائبين عليه قال تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (النساء ١٧) فطلب كل حق أوجهه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفره للتائب هو فى الحقيقه رجوع اليه لاستنجاز ما وعده و إظهار اشتياق للفوز بكرامته.

و كذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطيه من عطايا تفضل سواء كانت واجبه الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه و قهره عليه إذ هو المؤثر فى كل شىء لا- يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه و يتول معناه الى قضائه تعالى فعل شىء من الأفعال و إفاضه عطيه من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بمشيئه من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه متفضلا به فالفعل تفضل منه و إن كان واجب الصدور، و أما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلا أوضح.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ المقت أشد البغض. لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع الى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم.

و ظاهر الآيه و الآيه التاليه أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به فى الآخره بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم فى الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء الى الإيمان كان مقتا و شده بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

و ينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم: أقسم لمقت الله و شده بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم و شده بغضكم لها إذ تدعون-حكاية حال ماضيه-الى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ سِياق الآيه و ما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق، و إنما يقولونه و هم فى النار بدليل قولهم: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» .

و تقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسييب و توسل الى التخلص من العذاب و لامت حين مناص؛ و ذلك أنهم كانوا-و هم فى الدنيا-فى ريب من البعث و الرجوع الى الله فأنكروه و نسوا يوم الحساب و كان نسيان ذلك سبب استرسالهم فى الذنوب و ذهابهم لوجوههم فى المعاصى و نسيان يوم الحساب مفتاح كل معصيه و ضلال قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (ص ٢٦).

ثم لما أماتهم الله إمامته بعد إمامته و أحياهم إحياءه بعد إحياءه زال ارتيابهم فى أمر البعث و الرجوع الى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت و الحياه بعد الحياه و قد كانوا يرون أن الموت فناء، و يقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين.

و بالجمله زال عنهم الارتياح بحصول اليقين و بقيت الذنوب و المعاصي و لذلك توسلوا الى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاها الله عنهم في قوله:

وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (الم السجده ١٢)، و تارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآيه المبحوث عنها و قد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم و أفعالهم لهم أن يشاءوا ما شاءوا و أن يفعلوا ما فعلوا و لا حساب و لا ذنب.

و من ذلك يظهر وجه ترتب قولهم: «فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا» على قولهم: «أَمَنَّا ائْتَيْنِي وَ أَحْيَيْتَنَا ائْتَيْنِي» فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات و ذنوبا.

و المراد بقولهم: «أَمَنَّا ائْتَيْنِي وَ أَحْيَيْتَنَا ائْتَيْنِي» - كما قيل - الإيمانه عن الحياه الدنيا و الإحياء للبرزخ ثم الإيمانه عن البرزخ و الإحياء للحساب يوم القيامة فالآيه تشير الى الإيمانه بعد الحياه الدنيا و الإيمانه بعد الحياه البرزخيه و الى الإحياء في البرزخ و الإحياء ليوم القيامة و لو لا الحياه البرزخيه لم تتحقق الإيمانه الثانيه لأن كلا من الإيمانه و الإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه.

و لم يتعرضوا للحياه الدنيا و لم يقولوا: و أحْيَيْتَنَا ثلاثا و إن كانت إحياء لكونها واقع بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد و هو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة و أما الحياه الدنيويه فإنها و إن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقينا بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد و هم أحياء في الدنيا.

و قولهم: فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ دعاء و مسأله في صورته الاستفهام، و في تنكير الخروج و السبيل إشاره الى رضاهم بأى نوع من الخروج كان من أى سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد و اليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخِيدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** الخ؛ خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة، و يحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعى زجرهم عن الشرك.

و الإشارة بقوله: «**ذَلِكُمْ**» الى ما هم فيه من الشده، و فى قوله: «**وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ**» دلالة على الاستمرار، و الكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق و معاداتهم لتوحيدته تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد و يؤمنون بكل ما فيه سمه الشرك فهم لا يراعون لله حقا و لا يحترمون له جانبا فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته و لا يراعى فى حكمه لهم جانبا.

و بهذا المعنى يتصل قوله: «**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**» بأول الآيه و يتفرع عليه كأنه قيل:

فإذا قطعتم عن الله بالمره و كفرتم بكل ما يريده و آمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم و يحكم فيكم بما يحكم من غير أى رعايه لحالكم.

فالأيه فى معنى قوله: **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** (التوبه ٦٧)، و الجملة أعنى قوله: «**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**» خاصه بحسب السياق و إن كانت عامه فى نفسها، و فيها تهديد و يتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلى الكبير.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ٢٠]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُحْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الَازِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لِمَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعَ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠)

بيان:

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ هِيَ الْعَلَائِمُ وَالْحُجُجُ الدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ تَعَالَى فِي الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْأَلُوْهِيَّةِ بِدَلِيلٍ مَا سَيُجَىءُ مِنْ تَفْرِيعِ قَوْلِهِ:

«فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» عَلَيْهِ، وَالْآيَاتُ مَطْلُوقَةٌ شَامِلَةٌ لِلْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْمَشْهُودَةِ فِي الْعَالَمِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ صَحِيحِ الْإِدْرَاكِ وَالْآيَاتِ الَّتِي تَجْرَى عَلَى أَيْدِي الرُّسُلِ وَالْحُجُجِ الْقَائِمَةِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ.

وَالجَمْلَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُجَّةٍ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَاكَ إِلَهٌ تَجِبُ عِبَادَتُهُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَكَانَتْ عِبَادَتُهُ كِمَالًا لِلْإِنْسَانِ وَسَعَادَةٌ لَهُ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ فِي تَمَامِ التَّدْبِيرِ وَكَامِلِ الْعَنَاءِ أَنْ يَهْدِيَ الْإِنْسَانَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي تَدُلُّ الْآيَاتُ الْكُونِيَّةُ عَلَى رَبُّوبِيَّتِهِ وَأَلُوْهِيَّتِهِ وَيُؤَيِّدُ دَلَالَتَهَا الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ بِالْإِتْيَانِ بِالْآيَاتِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَأَمَّا آلِهَتُهُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا آيَةَ مِنْ قَبْلِهِمْ تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْإِلَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْحُجُجُ يَشِيرُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ

ص: ٤٤٨

فيما روى عنه: «لو كان لربك شريك لأتتك رسله».

وقوله: وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا فَجِهْ أُخْرَى عَلَى وَحْدَانِيتهِ تَعَالَى مِنْ جِههِ الرِّزْقِ فَإِنَّ رِزْقَ الْعِبَادِ مِنْ شُؤْنِ الرَّبُّوبِيهِ وَالْأَلُوْهِيهِ وَالرِّزْقِ مِنَ اللَّهِ دُونَ شُرَكَائِهِمْ فَهُوَ الرَّبُّ الْإِلَهُ دُونِهِمْ.

وقد فسروا الرزق بالمطر، و السماء بوجهه العلوي، ولا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها و بنزولها من السماء بروزها من الغيب الى الشهاده على ما يفيداه قوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١).

وقوله: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ معترضه تبين أن حصول التذکر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل و هم المنيبون الراجعون الى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر و الجحود يبطل استعداد التذکر بالحجة و الاتباع للحق.

قوله تعالى: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عامًا للمؤمنين و غيرهم متفرعا على الحجج السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية و هم المكذبون المجادلون بالباطل.

كأنه قيل: إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى و هو الرزاق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا و جادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين، و أما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم و لا آية تفيدهم و لا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص و دعوا الكافرين يكرهون ذلك.

قوله تعالى: رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ عَلِيِّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ النخ؛ صفات ثلاث له تعالى و كل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله:

«هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» و الآية و ما بعدها مسوقه للإنداز.

وقد أورد لقوله: «رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ» تفاسير شتى فقيل: معناه رافع درجات الأنبياء

و الأولياء فى الجنة، وقيل: رافع السماوات السبع التى منها تصعد الملائكة الى عرشه، وقيل:

رفيع مصاعد عرشه، وقيل: كناية عن رفعه شأنه و سلطانه.

و الذى يعطيه التدبر أن الآيه و ما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشا تجتمع فيه أزمه أمور الخلق و ينتزل منه الأمر متعاليا بدرجات رفيعه هى مراتب خلقه و لعلها السماوات التى وصفها فى كلامه بأنها مساكن ملائكته و أن أمره ينتزل بينهم و هى التى تحجب عرشه عن الناس.

ثم إن له يوما هو يوم التلاقى يرفع فيه الحجاب ما بينه و بين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم و طى السماوات بيمينه و إظهار عرشه لهم فيكشف لهم أنه هو المليك على كل شىء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم.

فالمراد بالدرجات الدرجات التى يرتقى منها الى عرشه و يعود قوله: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ» كناية استعاريه عن تعالى عرش ملكه عن مستوى الخلق و غيبته و احتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعه و مراحل بعيدة.

و قوله: يُلْقَى الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إشارة الى أمر الرساله التى من شأنها الإنذار، و تقييد الروح بقوله: «مَنْ أَمْرِهِ» دليل على أن المراد بها الروح التى ذكرها فى قوله: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥/١)، و هى التى تصاحب ملائكة الوحي كما يشير اليه قوله: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل ٢/١).

فالمراد باللقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه، و المراد بقوله: «مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته، و فى معنى الروح الملقاه على النبى أقوال أخر لا يعاب بها.

و قوله: يُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ و هو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء

الخالق و المخلوق أو لالتقاء أهل السماء و الأرض أو لالتقاء الظالم و المظلوم أو لالتقاء المرء و عمله و لكل من هذه الوجوه قائل.

و يمكن أن يتأيد القول الثانى بما تكرر فى كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (الروم ٨/١)، و قوله: إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ (هود ٢٩/١)، و قوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦/١) و معنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغله و ظهور أن الله هو الحق المبين و بروزهم لله.

قوله تعالى: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ الخ؛ تفسير ليوم التلاق، و معنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم و ارتفاع الأسباب الوهميه التى كانت تجذبهم الى نفسها و تحجبهم عن ربهم و تغفلهم عن إحاطه ملكه و تفردة فى الحكم و توحده فى الربوبيه و الالوهيه.

فقوله: يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ إشاره الى ارتفاع كل سبب حاجب، و قوله: «لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» تفسير لمعنى بروزهم لله و توضيح فقلوبهم و أعمالهم بعين الله و ظاهرهم و باطنهم و ما ذكروه و ما نسوه مكشوفه غير مستوره.

و قوله: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ سؤال و جواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقه اليوم و هى ظهور ملكه و سلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق.

و فى توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شىء ملكه و تسلط عليه بسلب الاستقلال عنه و هو واحد فله الملك وحده.

قوله تعالى: الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ الباء فى «بِمَا كَسَبَتْ» للصله و المراد بيان خصيصه اليوم و هى أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ تَجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧/١).

وقوله: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ تعليل لنفى الظلم فى قوله: «لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ» أى إنه تعالى سريع فى المحاسبه لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطئ فيجزى نفسا غير جزائها فيظلمها.

و هذا التعليل ناظر الى نفي الظلم الناشئ عن الخطاء و أما الظلم عن عمد و علم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم.

قوله تعالى: وَ أَنْذَرْنَاهُمْ يَوْمَ الْمَآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَمَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ الى آخر الآيه. الآزفه من أوصاف القيامة و معناها القريبه الدانيه قال تعالى: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ يَرَاهُ قَرِيباً (المعارج ٧).

وقوله: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ الحناجر جمع حنجره و هى رأس الغلصمه من خارج و كون القلوب لدى الحناجر كناية عن غايه الخوف كأنها تزول عن مقرها و تبلغ الحناجر من شدة الخوف، و كاظمين من الكظم و هو شدة الاغتمام.

وقوله: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ الْحَمِيمِ الْقَرِيبِ أى ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحميه القرابه قال تعالى: فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ (المؤمنون / ١٠١)، و لا شفيع يطاع فى شفاعته.

قوله تعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ قيل: الخائنه مصدر كالخيانه نظيره الكاذبه و اللاغيه بمعنى الكذب و اللغو، و ليس المراد بخائنه الأعين كل معصيه من معاصيها بل المعاصى التى لا تظهر للغير كسارقه النظر بدليل ذكرها مع ما تخفى الصدور.

وقيل «خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ» من قبيل إضافه الصفه الى الموصوف، و لازمه كون العلم بمعنى المعرفه و المعنى يعرف الأعين الخائنه، و الوجه هو الأول.

وقوله: (وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) و هو ما تسره النفس و تستره من وجوه الكفر و النفاق

و هيئات المعاصى.

قوله تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ الْحَخْ؛ هذه حجه أخرى على توحده تعالى بالالوهيه أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامة و علمه بخائنه الأعين و ما تخفى الصدور تمهيدا و توطئه.

و محصلها أن من اللازم الضرورى فى الالوهيه أن يقضى الإله فى عبادته و بينهم و الله سبحانه هو يقضى بين الخلق و فيهم يوم القيامة و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئا.

و من قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عبادته بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء و الحكم قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢)، و قال:

إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٤٧)، و لا نصيب لغيره تعالى فى الخلق فلا نصيب له فى القضاء.

و من قضائه تعالى تشريع الدين و ارتضاؤه سبيلا لنفسه قال تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ (الإسراء ٢٣).

و قوله: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى له حقيقه العلم بالمسموعات و المبصرات لذاته، و ليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله و أذن فيه لا لذاته (١).

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٥٤]

أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَ قَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنَّ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنَّ يَكُ صَادِقًا يُصِصْ بِكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ كَذَابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَ مَنْ يُضِلَّهُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُشْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُنْبِغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَطَلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ ضَيْدًا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧) وَ قَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا

لَهُدَاهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَإِلَىٰ قَوْمٍ مَّا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّكَ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدُّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنْ الْمُسِيرِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَفَّاجُونَ فِي الدَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ الْجَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمُ الْعَذَابُ (٥٢) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَ ذِكْرًا لِلأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٤)

ص: ٤٥٣

(١-١). المؤمن ١٣-٢٠: بحث روائي في: روح القدس؛ يوم القيامة؛ قوله تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ».

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَسْتَبْرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَى آخِرِ آيَةِ الْاِسْتِفْهَامِ إِنْكَارِي، و الواقى اسم فاعل من الوقايه بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره.

و المعنى: أ و لم يسيروا هؤلاء الذين أرسلناك اليهم «فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا» نظر تفكر و اعتبار «كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» من الامم الدارجه المكذبين لرسولهم «كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» أى قدره و تمكنا و سلطه «وَ آثَارًا» كالمدائن الحصينه و القلاع المنيعه و القصور العاليه المشيده «فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» و أهلكتهم بأعمالهم «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» يقيهم و حافظ يحفظهم.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ الْخ؛ الإشاره بذلك الى الأخذ الإلهي، و المراد بالبينات الآيات الواضحات، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ لَعَلَّ الْخَوَارِقَ الْمَعْجِزَةَ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَ غَيْرَهُمَا وَ بِالسُّلْطَانِ الْمُبِينِ السُّلْطَةُ الْإِلَهِيَّةُ

القاهره التى أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله و يطفئ نوره، و قيل: المراد بالآيات الحجج و الدلالات و بالسلطان معجزاته من العصا و اليد و غيرهما، و قيل: غير ذلك.

قوله تعالى: **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** فرعون جبار القبط و ملكهم، و هامان وزيره و قارون من طغاه بنى إسرائيل ذو الخزان المليئه؟ و إنما اختص الثلاثة من بين الامتين بالذكر لكونهم اصولا ينتهى اليهم كل فساد و فتنه فيهما.

قوله تعالى: **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ الْخ**؛ مقيسه بين ما جاءهم به موسى و دعاهم اليه و بين ما قبلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق و كان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق و كان ما جاء به من عند الله و كان من الواجب أن يقبلوه و لا يردوه فقبلوه بالكيد و قالوا ما قالوا لثلاثا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه.

و يشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون و هو من بنى إسرائيل و لا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء و استحياء النساء كان قبل الدعوه صادرا فى حق بنى إسرائيل عامه و هذا الحكم فى حق المؤمنين منهم خاصه فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته و بغضه موسى و المؤمنين من قومه.

و فى قوله: **الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** و لم يقل: آمنوا به إشارة الى مظاهرتهم موسى فى دعوته.

قوله تعالى: **وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ الْخ**؛ «ذروني» أى اتركوني، خطاب يخاطب به ملاءه، و فيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى و يكف عنه كما يشير اليه قوله تعالى: **قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ (الشعراء ٣٦)**.

و قوله: **«وَ لِيَدْعُ رَبَّهُ»** كلمه قالها كبرا و عتوا يقول: اتركوني أقتله و ليدع ربه فلينجيه من يدي و ليخلصه من القتل إن قدر.

وقوله: إِنِّي أَخْلَفُ أَنْ يَبْدُلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ-تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم، أما من جهة دينهم- وهو عبادة الأصنام-فإن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده، وأما من جهة دنياهم فكان يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيثول الأمر الى المشاجره والقتال وانسلاّب الأمن.

قوله تعالى: وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ-مقابله منه عليه السلام لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذه منه بربه، وقوله:

«عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ» فيه مقابله منه أيضا لفرعون في قوله: «وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله: «عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ» الى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقى عائذه من شرهم وقد وقى.

و من هنا يظهر أن الخطاب في قوله: «وَ رَّبِّكُمْ» لفرعون و من معه دون قومه من بنى إسرائيل.

وقوله: «مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» يشير به الى فرعون و كل من يشاركه في صفتي التكبر و عدم الإيمان بيوم الحساب و لا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلا.

قوله تعالى: وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ الى آخر الآيه.

ظاهر السياق أن «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» صفة رجل و «يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» صفة اخرى فكان الرجل من القبط من خاصه فرعون و هم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقية.

وقيل: قوله: «مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» مفعول ثان لقوله: «يَكْتُمُ» قدم عليه، والغالب فيه و إن كان التعدى الى المفعول الثانى بنفسه كما فى قوله: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (النساء ٤٢)» لكنه قد يتعدى اليه بمن كما صرح به فى المصباح.

و فيه أن السياق يأباه فلا نكته ظاهره تقتضى تقدم المفعول الثانى على الفعل من حصر

و نحوه. على أن الرجل يكرر نداء فرعون و قومه بلفظه «يا قومى» و لو لم يكن منهم لم يكن له ذلك.

و قوله: أ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ إنكار لعزمهم على قتله، و فى قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» دليل على أن فى البيّنات التى جاء بها دلاله على أن الله ربهم أيضا كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم.

و قوله: وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ قِيلَ: إن ذكره هذا التقدير تلتطف منه لا أنه كان شاكا فى صدقه.

و قوله: وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصَِّبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ فِيهِ تنزل فى المخاصمه بالاكْتفاء على أيسر التقادير و أقلها كأنه يقول: و إن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب و لا أقل من إصابه بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابه جميع ما وعد.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ تعليل للتقدير الثانى فقط و المعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه و إن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون فى نفي ربوبيه ربكم و اتخاذ أرباب من دونه و الله لا يهدى من هو مسرف كذاب، و أما على تقدير كذبه فلا ربوبيه لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه.

و من هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجمله تعليلا للتقديرين جميعا متعلقه بكلتا الجملتين غير مستقيم.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ظُهُورُهُمْ غَلَبْتَهُمْ وَ عَلَوْهُمْ فِي الْأَرْضِ، و الأرض أرض مصر، و بأس الله أخذه و عذابه و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين فى أرض مصر على من دونكم من بنى

إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله و عذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصح و أوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافيه ما يريد له نفسه.

قوله تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ أَي طريق الصواب المطابقه للواقع يريد أنه على يقين مما يهدى اليه قومه من الطريق و هى مع كونها معلومه له مطابقه للواقع، وهذا كان تمويها منه و تجلدا.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ -الى قوله- لِلْعِبَادِ الْمُرَادِ بِالَّذِي آمَنَ هُوَ مُؤْمِن آل فرعون، ولا يعبأ بما قيل:

إنه موسى لقوه كلامه، والمراد بالأحزاب الامم المذكورون فى الآيه التاليه قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم، وقوله: «مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ» بيان للمثل السابق و الدأب هو العاده.

و المعنى: يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأقسام الماضين مثل العاده الجاربه من العذاب عليهم واحدا بعد واحد لكفرهم و تكذيبهم الرسل، أو مثل جزاء عادتهم الدائمه من الكفر و التكذيب و ما الله يريد ظلما للعباد.

قوله تعالى: وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ -الى قوله- مِنْ هَادٍ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و لعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادى بعضهم بعضا و ينادون بالويل و الثبور على ما اعتادوا به فى الدنيا.

وقيل: المراد بالتنادى المناداه التى تقع بين أصحاب الجنه و أصحاب النار على ما ذكره الله تعالى فى سوره الأعراف، و هناك وجوه آخر ذكروها لا جدوى فيها.

و قوله: يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مِمَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ الْمُرَادِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ و لعل المراد أنهم يفرون فى النار من شده عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال

تعالى: كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (الحج / ٢٢).

وقوله: وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ بِمَنْزِلِهِ التعليل لقوله: «مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ» أى تفرون مدبرين ما لكم من عاصم و لو كان لكان من جانب الله و ليس و ذلك لأن الله أضلهم و من يضل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لَمَا ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ أَضْلَهُمْ وَ لَا هَادِيَ لَهُمْ اسْتَشْهَدَ لَهُ بِمَا عَامَلُوا بِهِ يوسف عليه السلام فى رسالته اليهم حيث شكوا فى نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا: لا نبي بعده.

فالمعنى: و أقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التى لا تدع ريبا فى رسالته من الله فما زلتم فى شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك و مات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم و لم تبالوا.

ثم أكدته - و هو فى معنى التعليل - بقوله: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» .

قوله تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ الْخُصْمُ؛ وَ لِكُلِّ مُسْرِفٍ مُرْتَابٌ فَإِنْ مِنْ تَعَدَى طَوْرَهُ بِالْأَعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ وَ اتَّبَعَ الْهَوَى وَ اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِهِ الْارْتِيَابُ فَكَانَ لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى عِلْمٍ وَ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَى حُجَّةٍ تَهْدِيهِ إِلَى الْحَقِّ جَادِلٌ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ بَرَهَانٍ إِذَا خَالَفتْ مَقْتَضَى هَوَاهُ.

وقوله: كَذَلِكَ يُطْبِعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جُبَابًا يَفِيدُ أَنْ قُلُوبَهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا فَلَا يَفْقَهُونَ حُجَّةً وَ لَا يَرْكَنُونَ إِلَى بَرَهَانٍ.

قوله تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا - إلى قوله - فِي بُجَابٍ أَمْرٌ مِنْهُ لَوْزِيرُهُ هَامَانُ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ بِنَاءً يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْإِطْلَاقِ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَ لَعَلَّهُ أَصْدَرَ هَذَا الْأَمْرَ أَثْنَاءَ مُحَاجَّتِهِ الَّذِي آمَنَ وَ بَعْدَ الْإِنْصِرَافِ عَنْ قَتْلِ مُوسَى وَ لِذَلِكَ وَقَعَ ذِكْرُهُ بَيْنَ مَوَاعِظِ

الذى آمن واحتجاجاته.

والصرح-على ما فى المجمع-البناء الظاهر الذى لا يخفى على عين الناظر و إن بعد، و الأسباب جمع سبب و هو ما تتوصل به الى ما يبتعد عنك.

وقوله: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ فى معنى التعليل لأمره ببناء الصرح، و المعنى آمرِك ببنائه لأنى أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله: «أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ» و فرع عليه قوله: «فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُّوسَى» كأنه يقول: إن الإله الذى يدعو و يدعو اليه موسى ليس فى الأرض إذ لا إله فيها غيرى فلعله فى السماء فابن لى صرحا لعلى أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماويه الكاشفه عن خبايا السماء فأطلع من جهتها الى إله موسى و إنى لأظنه كاذبا.

وقوله: وَ كَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَ صِيدَ عَنِ السَّبِيلِ مفاد السياق أنه فى معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذى كان يدعو اليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا و صده عن سبيل الرشاد فرأى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل فى آيات الله بالباطل و أتى بمثل هذه الأعمال القبيحه و المكائد السفهيه لإدحاض الحق.

و لذلك ختمت الآيه بقوله: «وَ مَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ» أى هلاك و انقطاع.

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يدعوهم الى اتباعه ليهديهم، و اتباعه اتباع موسى، و سبيل الرشاد السبيل التى فى سلوكها إصابه الحق و الظفر بالسعادة، و الهدايه بمعنى إرادته الطريق، و فى قوله: «أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» تعريض لفرعون حيث قال: «وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ هذا هو السناد الذى يستند اليه سلوكك سبيل الرشاد و التدين بدين الحق لا غنى عنه

بحال و هو الاعتقاد بأن للإنسان حياه خالده مؤبده هي الحياه الآخره و أن هذه الحياه الدنيا متاع في الآخره و مقدمه مقصوده لأجلها، و لذلك بدئ به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئه و العمل الصالح.

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا إِلَى آخِرِ آيَةٍ. أى إن الذى يصيبه و يعيش به في الآخره يشاكل ما أتى به في هذه الحياه الدنيا التي هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل و الآخره دار جزاء.

من عمل في الدنيا سيئه ذات صفه المساءه فلا يجزى في الآخره إلا مثلها مما يسوؤه و من عمل صالحا من ذكر أو انثى من غير فرق بينهما في ذلك و الحال أنه مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

و فيه إشاره الى المساواه بين الذكر و الانثى في قبول العمل و تقييد العمل الصالح في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ (المائدة/٥) الى غيرها من الآيات.

و قد جمع الدين الحق و هو سبيل الرشاد في أوجز بيان و هو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيئ أو صالح فليعمل صالحا و لا يعمل سيئا، و زاد بيانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاهِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ - الى قوله - الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ كَأَنَّهُ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ قَابَلُوهُ بِدَعْوَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ أَوْ قَدَّرَهَا لَهُمْ لَمَّا شَاهَدَ جِدَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ وَ إِصْرَارَهُمْ عَلَى الشَّرْكِ فَنَسَبَ إِلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ بِشَهَادَةِ حَالِهِمْ فَأَظْهَرَ الْعَجَبَ مِنْ مَقَابِلَتِهِمْ دَعْوَتَهُ الْحَقَّ بِدَعْوَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ.

فقال: و يا قوم ما لى أدعوكم الى النجاه أى النجاه من النار و تدعوننى الى النار و قد كان يدعوهم الى سبب النجاه و يدعوهم الى سبب دخول النار فجعل الدعوه الى السببين دعوه الى

المسيبين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ثم فسر ما دعوه اليه و ما دعاهم اليه فقال: تدعونني لأكفر أى الى أن أكفر بالله و أشرك به ما ليس لى به علم أى أشرك به شيئاً لا حجه لى على كونه شريكاً فأفتري على الله بغير علم، و أنا أدعوكم الى العزيز الذى يغلب و لا يغلب، الغفار لمن تاب اليه و آمن به أى أدعوكم الى الإيمان به و الإسلام له.

قوله تعالى: **لَا جْرَمَ أَنتُمْ تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ**؛ لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لا بد، و مفاد الآية إقامة الحجه على عدم كون ما يدعون اليه إلها من طريق عدم الدعوه اليه و فى ذلك تأييد لقوله فى الآية السابقة: **«مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ»**.

و المعنى: ثبت ثبوتاً أن ما تدعونني اليه ما تسمونه شريكاً له سبحانه ليس له دعوه فى الدنيا إذ لم يعهد نبي أرسل الى الناس من ناحيته ليدعوهم الى عبادته، و لا فى الآخرة إذ لا رجوع اليه فيها من أحد، و أما الذى أدعوكم اليه و هو الله سبحانه فإن له دعوه فى الدنيا و هى التى تصداها أنبيأؤه و رسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج و البيئات، و فى الآخرة و هى التى يتبعها رجوع الخلق اليه لفصل القضاء بينهم، قال تعالى: **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (الإسراء ٥٢)**.

و من المعلوم كما قررناه فى ذيل قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ (الآيه ١٣ من السوره)** أن الربوبيه لا تتم بدون دعوه فى الدنيا و نظيرتها الدعوه فى الآخرة، و إذ كان الذى يدعوهم اليه ذا دعوه فى الدنيا و الآخرة دون ما يدعونه اليه فهو الإله دون ما يدعون اليه.

و قوله: **وَ أَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** معطوف على قوله: **«أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي»** أى لا جرم أن مردنا الى الله فيجب الإسلام له و اتباع سبيله

و رعايه حدود العبوديه، ولا جرم أن المسرفون و هم المتعدون طور العبوديه-و هم أنتم- أصحاب النار فالذى أدعوكم اليه فيه النجاه دون ما تدعوننى اليه.

قوله تعالى: فَسَيَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ صدر الآيه موعظه و تخويف لهم و هو تفريع على قوله: «وَ أَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ» الخ؛ أى إذ كان لا بد من الرجوع الى الله و حلول العذاب بالمسرفين و أنتم منهم و لم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عايتم العذاب و تعلمون عند ذاك أنى كنت ناصحا لكم.

و قوله: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر الى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل و التسليم و الاعتبار مختلف:

فالتفويض من العبد رده ما نسب اليه من الأمر الى الله سبحانه و حال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا اليه، و التوكل من العبد جعله ربه و كيلا يتصرف فيما له من الأمر، و التسليم من العبد مطاوعته المحضه لما يريد الله سبحانه فيه و منه من غير نظر الى انتساب أمر اليه فهى مقامات ثلاث من مقامات العبوديه: التوكل ثم التفويض و هو أدق من التوكل ثم التسليم و هو أدق منهما.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ تعليل لتفويضه أمره الى الله، و فى وضع اسم الجلاله موضع ضميره-و كان مقتضى الظاهر الإضمار إشاره الى عله بصيرته بالعباد كأنه قيل: إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا تَفْرِيعٌ عَلَى تَفْوِيضِهِ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ فَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ وَ وَقَاهُ سَيِّئَاتٍ مَكْرَهُمْ، و فيه إشاره الى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه.

قوله تعالى: وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ -الى قوله- أَشَدَّ الْعَذَابِ

أى نزل بهم و أصابهم العذاب السيئ فسوء العذاب من إضافه الصفه الى موصوفها و فى التوصيف بالمصدر مبالغه، و آل فرعون أشياعه و أتباعه، و ربما يقال آل فلان و يشمل نفسه.

و قوله: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب و ليس من الاستئناف فى شىء.

و الآيه صريحه أولا فى أن هناك عرضا على النار ثم إدخالا فيها و الإدخال أشد من العرض، و ثانيا: فى أن العرض على النار قبل قيام الساعه التى فيها الإدخال و هو عذاب البرزخ-عالم متوسط بين الموت و البعث- و ثالثا: أن التعذيب فى البرزخ و يوم تقوم الساعه بشىء واحد و هو نار الآخره لكن البرزخين يعذبون بها من بعيد و أهل الآخره بدخولها.

و فى قوله: غُدُوًّا وَعَشِيًّا إشاره الى التوالى من غير انقطاع، و لعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكليه نسبه ما الى الغداه و العشى.

و فى قوله: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ.

قوله تعالى: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا -الى قوله- بَيْنَ الْعِبَادِ يَفِيدُ السِّيَاقُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي «يَتَحَاجُّونَ» لآلِ فِرْعَوْنَ و من الدليل على ذلك تغيير السياق فى قوله بعد: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ» و المعنى و حاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون فى النار أو و اذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا فى الدنيا لكم تبعا و كان لازم ذلك أن تكفونا فى الحوائج و تنصرونا فى الشدائد و لا شده أشد مما تحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار و إن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض.

و هذا ظهور مما رسخ فى نفوسهم فى الدنيا من الالتجاء بكبريائهم و متبوعيهم من دون الله

يظهر منهم ذلك يوم القيامة و هم يعلمون أنهم في يوم لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا و الأمر يومئذ لله و له نظائر محكيه عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ و خلفهم و إنكارهم أعمالهم و تكذيب بعضهم لبعض و غير ذلك.

و قوله: **قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا كُفِّرُوا بِاللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** جواب من مستكبريهم عن قولهم و محصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطه عن التأثير و قد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوه و القدره فحالنا و حالكم - و نحن جميعا في النار - واحده.

فقولهم: **«إِنَّا كُفِّرُوا بِاللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ»** مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب و تأثيراتها و أثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلننا نختص دونكم بقوه حتى نغنى عنكم شيئا من العذاب.

و مما قيل في الآيه أن الضمير في قوله: **«يَتَحَاوُونَ»** لمطلق الكفار من أهل النار و هو بعيد كما عرفت، و قيل: الضمير لقريش و هو أبعد.

قوله تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ** مكالمه بين أهل النار - و منهم آل فرعون - و بين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصه آل فرعون، و هم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم.

و المراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه، و يتول معناه الى قطعه من العذاب.

قوله تعالى: **قَالُوا أَوْ لَمْ تُكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك و هو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق

و هو الكفر بالنبوه فلم يجبهم الخزنه فيما سألوهم من الدعاء إثباتا و لا نفيًا بل ردوهم الى أنفسهم مشيرين الى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

و قوله: وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ أَي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدى الى هدف الإجابة و هو تتمه كلام الخزنه على ما يعطيه السياق، و يحتمل أن يكون من كلامه تعالى، على بعد.

و الجملة على أى حال تفيد معنى التعليل و المحصل: ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون، و الكافرون لا يستجاب لهم دعاء.

و تعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته و ذلك أن الله سبحانه و إن وعد عباده وعدا قطعيا أن يجيب دعوه من دعاه منهم فقال: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره ١٨٦)، و الدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يرد البتة لكن الذى يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء و طلب حقيقه و أن يتعلق ذلك بالله حقيقه أى يدعو الداعى و يطلب جدا و ينقطع فى ذلك الى الله عن سائر الأسباب التى يسميها أسبابا.

و الكافر بعذاب الآخرة و هو الذى ينكرها و يستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدى لرفعه أما فى الدنيا فظاهر، و أما فى الآخرة فلأنه و إن أيقن به بالمعاینه و انقطع الى الله سبحانه لما هو فيه من الشده و قد انقطعت عنه الأسباب لكن صفه الإنكار لزمته وبالا و قد جوزى بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا.

على أن الكلام فى انقطاعه الى الله أيضا كالكلام فى طلبه الجدى للتخلص و أنى له الانقطاع الى الله هناك و لم يتلبس به فى الدنيا فافهمه.

و بذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآيه على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنك عرفت أن مدلول الآيه عدم استجابته دعائه فيما يكفر به و ينكره لا مطلقا كيف؟ و هناك آيات كثيره تذكر استجابته دعائه فى موارد الاضطرار.

قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ الْأَشْهَادُ جمع شهيد بمعنى شاهد، والآيه وعد نوعى لا وعد شخصى لكل واحد شخصى منهم فى كل واقعه شخصيه، وقد تقدم كلام فى معنى النصر الإلهى فى تفسير قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (الصفات ١٧٢).

قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِزَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ تفسير ليوم يقوم الأشهاد، و ظاهر إضافه المصدر الى فاعله فى قوله: «مَعْرِزَتُهُمْ» و لم يقل: أن يعتذروا، تحقق معذره ما منهم يومئذ، و أما قوله: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (المرسلات ٣٦) فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة و عقباته لدلاله آيات اخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ. و قوله: وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ أى البعد من رحمه الله، و قوله: «لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» أى الدار السيئه و هى جهنم.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ -الى قوله- الْأَلْبَابِ خاتمه لما تقدم من إرسال موسى بالآيات و السلطان المبين و مجادله آل فرعون فى الآيات بالباطل و محاجه مؤمن آل فرعون، يشير بها و قد صدرت بلام القسم الى حقيه ما ارسل به و ظلمهم فيما قابلوه به.

و المراد بالهدى الدين الذى اوتيه موسى، و «بايرات بنى إسرائيل الكتاب» إبقاء التوراه بينهم يعملون بها و يهتدون.

و قوله: هُدًى وَ ذِكْرٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ أى حال كون الكتاب هدى يهتدى به عامتهم و ذكرى يتذكر به خاصتهم من اولى الألباب.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٥٥ الى ٦٠]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَمَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَ قَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تفرّيع على ما تقدم من الأمر بالاعتبار في قوله: «أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» و ما أورد بعده من قصه موسى و مآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل و نصره تعالى للحق و أهله.

و المعنى: إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين و مجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق و سيفي لك بما وعد، و المراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الآية؛ من وعد النصر.

وقوله: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ أَمْرٌ لَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لما يعد بالنسبه اليه ذنبا و إن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفه للأمر المولوى لمكان عصمته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و قد تقدم كلام فى معنى الذنب و المغفره فى أواخر الجزء السادس من الكتاب.

و للذنب المنسوب اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ معنى آخر سنشير اليه فى تفسير أول سورة الفتح إن شاء اللهُ تعالى، و قيل: المراد بذنبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ذنب امته أعطى الشفاعة فيه.

و قوله: وَ سَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكَارِ أَى نزهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرا متواليا بتوالى الأيام أو فى كل صباح و مساء، و كونه بالعشى و الإبكار على المعنى الأول من قبيل الكنايه.

و قيل: المراد به صلاتا الصبح و العصر، و الآيه مدنيه.

و فيه أن المسلم من الروايات و منها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكه قبل الهجره فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكه قبل فرض بقيه الصلوات الخمس.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ الْخ؛ تأكيد لما تقدم فى الآيه السابقه من أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالصبر و تطيب نفسه بتأييد وعد النصر، و محصله أن هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم و لن ينالوا فلا يحزنك جدالهم و طب نفسا من ناحيتهم.

فقوله: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ حصر للسب الموجب لمجادلتهم فى الكبر أى ليس عاملهم فى ذلك طلب الحق أو الارتباب فى آياتنا و الشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق و لا حجه و لا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذى فى صدورهم و هو الداعى لهم الى الجدال، الكبر، يريدون به إدحاض الحق الصريح.

و قوله: مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال

و الجدل يراد به إبطال الحق و محق الدعوه الحقه، و المعنى ما هم ببالغى مرادهم و بغيتهم من الجدل الذى يأتون به لكبرهم.

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ أَى فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال: وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّي
عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

و قوله: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أَى السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم و الذى يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء.

قوله تعالى: لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اللام للقسم، و المراد بالسموات و
الأرض مجموع العالم، و معنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغى بغيتهم و ليسوا بمعجزين فإن الله الذى قدر على
خلق مجموع العالم و لم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمه ليس يعجزه جزء يسير منه و هو الناس المخلوقون الذين هم أهون
عليه و لكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أى كيد يكيدونه.

قوله تعالى: وَ مَا يَشِيئُوا أَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ الْخ؛ لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيره واحده فإن منهم
الأعمى و البصير و لا يستويان و عطف عليهما الذين آمنوا و عملوا الصالحات و المسيء فالطائفه الاولى اولو بصيره يتذكرون بها
و الثانيه أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون.

و قوله: قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ خطاب للناس بداعى التوبيخ و هو الوجه فى الالتفات من الغيبه الى الحضور.

قوله تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَهُ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ذكّرهم تعالى فى هذه الآية بإتيان الساعه و فى الآية التاليه
بدعوه ربهم إياهم الى دعائه

و عبادته كما نبه الذى آمن من آل فرعون فى القصة السابقه بإتيان الساعه و بأن لله الدعوه و ليس لآلهتهم دعوه فى الدنيا و لا فى الآخره.

قوله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ دَعْوَةَ اللَّهِ مِنْ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَ وَعَدَ بِالِاسْتِجَابَةِ، وَ قَدْ أَطْلَقَ الدَّعْوَةَ وَ الدَّعَاءَ وَ الاسْتِجَابَةَ إِطْلَاقًا، وَ قَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي مَعْنَى الدَّعَاءِ وَ الإِجَابَةِ فِي ذِيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (البقره/ ١٨٦) فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ.

و قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَكِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ الدخول الذله، و قد بدل الدعاء عباده فدل على أن الدعاء عباده.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٦١ الى ٦٨]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُوَفِّكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِالآيَاتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَارًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ صَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صَوْرَكُمْ وَ رَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا- ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلَ مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا الْآيَةَ؛ أى جعل لأجلكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه من التعب الذى عرض لكم وجه النهار من جهة السعى فى طلب الرزق، والنهار مبصرًا لتبتغوا من فضل ربكم و تكسبوا الرزق، وهذا من أركان تدبير الحياه الإنسانيه.

وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ امتنان عليهم بالفضل و تقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم و لو شكروه لعبدوه و وضع «الناس» الثانى موضع الضمير للإشاره الى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ (إبراهيم ٣٤).

قوله تعالى: ذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنى تُؤْفَكُونَ أى ذلكم الذى يدبر أمر حياتكم و رزقكم بسكون الليل و سعى النهار هو الله تعالى و هو ربكم لأن تدبير أمركم اليه.

وقوله: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أى و رب كل شىء لأنه خالق كل شىء و الخلق لا ينفك

عن التدبير و لانزم ذلك أن لا يكون فى الوجود رب غيره لا لكم و لا لغيركم و لذلك عقبه بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أى فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الالوهيه من شئون الربوبيه.

و قوله: فَأَنى تُؤَفِّكُونَ أى فكيف تصرفون عن عبادته الى عباده غيره.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ أى كمثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهره غير خفيه فالانصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد.

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَ السَّمَاءَ بِنَاءً الى آخر الآيه؛ القرار المستقر الذى يستقر عليه، و البناء -على ما قيل- القبه و منه أبنيه العرب للقباب المضروبه عليهم. يذكر تعالى نعمه استقرار الإنسان على الأرض و تحت السماء.

و قوله: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ الفاء للتفسير و المعنى أحسن خلق صوركم و ذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز فى صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعه العجيبه على ما لا يقوى عليه شىء من سائر الموجودات الحيه، و يلتذ من مزايا الحياه بما لا يتيسر لغيره أبدا.

و قوله: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ هى الأرزاق المتنوعه التى تلائم بطبائعها طبيعه الإنسان من الحبوب و الفواكه و اللحوم و غيرها، و ليس فى الحيوان متنوع فى الرزق كالإنسان.

و قوله: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ أى المدبر لأمركم، و قوله: «فَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» ثناء عليه عزّ و جل بربوبيته لجميع العالمين، و قد فرعه على ربوبيته و تدبيره للإنسان إشاره الى أن الربوبيه واحده و تدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإن النظام الجارى نظام واحد روعى فى انطباقه على كل، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ

للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين.

قوله تعالى: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الخ؛ فى جملة «هُوَ الْحَيُّ» إطلاق لا مقيد له لا عقلا و لا نقلا مضافا الى إفاده الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياه لا يداخلها موت و لا يزيلها فناء فهو تعالى حى بذاته و غيره كائنا ما كان حى بإحياء غيره.

و إذا فرض هناك حى بذاته و حى بغيره لم يستحق العباده بذاته إلا من كان حيا بذاته، و لذلك عقب قوله: «هُوَ الْحَيُّ» بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و قد سيقت الجملتان توطئه للأمر بدعائه و لا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد و إخلاص الدين له وحده لأنه الحى بذاته دون غيره و لأنه المعبود بالاستحقاق الذاتى دون غيره، و لذلك فرع على قوله: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» قوله: «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» .

و قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثناء عليه بربوبيته للعالمين.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ معنى الآيه ظاهر، و فيه إيثار للمشركين من موافقته لهم فى عباده آلهتهم» و قد تكرر هذا المعنى فى سورة الزمر و يمكن أن يستأنس منه أن هذه السوره نزلت بعد سورة الزمر.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ الخ؛ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهى اليه فخلقهم من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفه من البسائط الأرضيه.

و قوله: ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ الخ؛ أى ثم خلقناكم من نطفه حقيره معلومه الحال «ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» كذلك «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ» من بطون امهاتكم «طِفْلاً» أى أطفالا، و الطفل - كما قيل - يطلق على الواحد و الجمع قال تعالى: أَوِ الطُّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَيَّ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا أَشَدَّكُمْ اللّام للغايه و كأن متعلقها محذوف و التقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم و هو من العمر زمان اشتداد القوى «ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا شُيُوخًا» معطوف على «لِيَتَّبِعُوا» «و مِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلُ» فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمل كالشيخوخه و بلوغ الأشد و غيرهما.

وَ لِيَتَّبِعُوا أَجَلًا مُّسَمًّى و هو النهايه من الأمد المضروب الذى لا سبيل للتغير اليه أصلا، و هو غايه عامه لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى: وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ (الأنعام ٢). و لذلك لم تعطف الجملة بثم حتى تتميز من الغائتين المذكورتين سابقا.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم، و هذا غايه خلقه الإنسان بحسب حياته المعنويه كما أن بلوغ الأجل المسمى غايه حياته الدنيا الصوريه.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ السخ؛ أى هو الذى يفعل الإحياء و الإماتة و فيهما نقل الأحياء من عالم الى عالم و كل منهما مبدأ لتصرفاته بالنعم التى يتفضل بها على من يدبر أمره.

و قوله: فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ تقدم تفسيره كرارا.

[سوره غافر (٤٠): الآيات ٦٩ الى ٧٨]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرِفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَ بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) أُدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَسَبِّسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِذَا مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ (٧٧) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصِرُّونَ «أَلَمْ تَرَ» مفيد للتعجب و «أنى» بمعنى كيف، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق الى الباطل و عن الهدى الى الضلال.

والتعرض لحال المجادلين هاهنا من حيث الإشارة الى كونهم مصروفين عن الحق و الهدى و مآل ذلك، وفيما تقدم من قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ مِنْ حَيْثُ إِنْ الداعى لهم الى ذلك الكبر و أنهم لا يبلغون ما

يريدون فلا تكرر.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ الذى يعطيه سياق الآيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و عليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم، و بقوله: «بِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا» ما جاءت به الرسل عليهم السلام من عند الله من كتاب و دين فالوثنيه منكرون للنبوه.

و قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تفریع على مجادلتهم و تكذيبهم و تهديد لهم أى سوف يعلمون حقيقه مجادلتهم فى آيات الله و تكذيبهم بالكتاب و بالرسل.

قوله تعالى: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ فى المجمع: الأغلال جمع غل و هو طوق يدخل فى العنق للذل و الألم و أصله الدخول، و قال: السلاسل جمع سلسله و هى الحلق منتظمه فى جهه الطول مستمره و قال: السحب جر الشىء على الأرض. هذا أصله، و قال: السجر أصله إلقاء الحطب فى معظم النار كالتنور الذى يسجر بالوقود. انتهى.

و قوله: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ ظرف لقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» قيل: الإتيان بإذ- و هو للماضى» للدلاله على تحقق الوقوع و إن كان موقعه المستقبل فلا تنافى، فى الجمع بين سوف و إذ.

و «الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ» مبتدأ و خبر، و «السَّلَاسِلُ» معطوف على الأغلال، و «يُسْجَرُونَ فِي الْحَمِيمِ» خبر بعد خبر، و «فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» معطوف على «يُسْجَرُونَ» .

و المعنى: سوف يعلمون حقيقه عملهم حين تكون الأغلال و السلاسل فى أعناقهم يجرون فى الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون فى النار.

و قيل: معنى قوله: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» ثم يصيرون وقود النار، و يؤيده قوله تعالى فى

صفه جهنم: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (البقره ٢٤)، و قوله: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (الأنبياء ٩٨).

قوله تعالى: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أَي قِيلَ لَهُمْ وَ هُمْ يَتَقَلَّبُونَ بَيْنَ السَّحْبِ وَ السَّجْرِ: أَيِن مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى يَنْصُرُواكُمْ بِالْإِنجَاءِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ أَوْ يَشْفَعُوا لَكُمْ كَمَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَيُشْفَعُونَ لَكُمْ قَبَالَ عِبَادَتِكُمْ لَهُمْ؟

و قوله: قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا أَي غَابُوا عَنَّا مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَلَّتِ الدَّابَّةُ إِذَا غَابَتْ فَلَمْ يَعْرِفْ مَكَانَهَا، وَ هَذَا جَوَابُهُمْ عَمَا قِيلَ لَهُمْ: أَيِن مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

و قوله: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا إِضْرَابٌ مِنْهُمْ عَنِ الْجَوَابِ الْأَوَّلِ لَمَا يَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّ الْآلِهَةَ كَانُوا يَزْعُمُونَ لَهُمْ شُرَكَاءَ لَمْ يَكُونُوا إِلَى أَسْمَاءٍ لَا مَسْمِيَّاتٍ لَهَا وَ مَفَاهِيمٍ لَا يَطَابِقُهَا شَيْءٌ وَ لَمْ يَكُنْ عِبَادَتُهُمْ لَهَا إِلَّا سُدَى، وَ لِذَلِكَ نَفَوْا أَنَّ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ شَيْئًا قَالَتْ تَعَالَى:

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ (يونس ٢٨) وَ قَالَ: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام ٩٤).

و قيل: هَذَا مِنْ كَذِبِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام / ٢٣).

و قوله: كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ أَي إِضْلَالَهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ وَ هُمُ السَّاتِرُونَ لِلْحَقِّ يَشْبَهُ هَذَا الضَّلَالِ وَ هُوَ أَنَّهُمْ يَرُونَ الْبَاطِلَ حَقًّا فَيَقْصِدُونَهُ ثُمَّ يَتَّبِعُونَ لَهُمْ بَعْدَ ضَلَالِ سَعِيهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بَاطِلًا فِي صُورِهِ حَقٌّ وَ سَرَابًا فِي سِيَمَاءِ الْحَقِيقَةِ.

وَ الْمَعْنَى: عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي أَعْنَى كَوْنِ قَوْلِهِمْ: «بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا» كَذِبًا مِنْهُمْ:

كَمَثَلِ هَذَا الْإِضْلَالِ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ فَيَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ إِلَى الْكُذْبِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ مَعِ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** الفرح مطلق السرور، و المرح الإفراط فيه و هو مذموم، و قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجله و أكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنيه، و قال: المرح شدة الفرح و التوسع فيه. انتهى.

و قوله: **ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ** الإشارة الى ما هم فيه من العذاب و الباء في «بِمَا كُنتُمْ» للسببيه أو المقابله.

و المعنى: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجله و بسبب كونكم تفرطون في الفرح و ذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا و زينتها و معاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون و يمرحون بإحياء باطلهم و إماته الحق و اضطهاده.

قال في المجمع: قيد الفرح و أطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه و قد يكون بالباطل فيذم عليه، و المرح لا يكون إلا باطلا. انتهى.

قوله تعالى: **أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ** أى ادخلوا أبوابها المقسومه لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم، و قد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها.

قوله تعالى: **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله و هى النار و أن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالصبر معللا ذلك بأن وعد الله حق.

و قوله: **فَأَمَّا نُرْيِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ** هو عذاب الدنيا «أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ» بالموت فلم نرك ذلك «فَأَلَيْنَا يُرْجَعُونَ» و لا يفوتونا فننجز فيهم ما وعدناه.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** الخ؛ بيان لكيفية النصر المذكور في الآيه السابقه أن آيه النصر

-التي جرت سنه الله على إنزالها للقضاء بين كل رسول و امته و إظهار الحق على الباطل كما يشير اليه قوله: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس ٤٧)-لم يفوض أمرها الى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله، و حالك حالهم، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم، و من الممكن أن نتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضى بينهم بالحق و خسر هنالك المبطلون. هذا ما يفيد السباق.

فقوله: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَضَيْنَا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْضِصْ عَلَيْكَ مَسُوقٌ لِلإِشَارَةِ إِلَى كَوْنِ مَا سَيَذْكُرُهُ سَنَهُ جَارِيَهُ مِنْهُ تَعَالَى.

و قوله: وَ مَا كَانَ لِرَّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْآيَةِ؛ و إن كانت أعم من الآيه المعجزه التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته، و الآيه التي تنصر الحق و تقضى بين الرسول و بين امته و الكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني و هي القاضيه بين الرسول و امته.

و قوله: فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ أَى إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ بِالْعَذَابِ قُضِيَ بِالْحَقِّ فَأُظْهِرَ الْحَقُّ وَ أَزْهَقَ الْبَاطِلَ وَ خَسِرَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَتَمَسِّكُونَ بِالْبَاطِلِ فِي دُنْيَاهُمْ بِالْهَلَاكِ وَ فِي آخِرَتِهِمْ بِالْعَذَابِ الدَّائِمِ.

و استدلل بالآيه على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن، و فيه أن الآيه مكيه لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصه بعض الرسل الى حين نزولها بمكها، و قد ورد في سورة النساء:

وَ رُسُلًا قَدْ قَضَيْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْضِصْهُمْ عَلَيْكَ (النساء ١٦٤) و لم يذكر في السور النازله بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن.

و في المجمع و روى عن علي عليه السلام أنه قال: بعث الله نبيا أسود لم يقص علينا قصته، و روى في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط و ابن مردويه عنه ما في معناه.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآى آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أ فَلَمْ يَسْـَٔرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا
بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤)
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)

بيان:

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته و يدبر به أمره
الأنعام و المراد بها الإبل و البقر و الغنم، و قيل: المراد بها هاهنا الإبل خاصة.

فقوله: جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ الجعل هنا الخلق أو

التسخير، واللام في «لِتَرْكَبُوا» للغرض و«من» للتبعيض، والمعنى خلق لأجلكم أو سخر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والبقر والغنم تأكلون.

قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ نَخ؛ كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك، وقوله: «وَ لَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صِيْدُورِكُمْ» أى ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا، حال كونكم عليها بالركوب، حاجه فى صدوركم وهى الانتقال من مكان الى مكان لأغراض مختلفه.

وقوله: وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ كناية عن قطع البر والبحر بالأنعام والفلك.

قوله تعالى: وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآئِي آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ تقدم معنى إراءته تعالى آياته فى تفسير أوائل السوره، وكأن الجملة أعني قوله: «وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» غير مقصوده لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هى تمهيد وتوطئه للتوبيخ الذى فى قوله: «فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ» أى أى هذه الآيات التى يريكم الله إياها عيانا وبيانا، تنكرون إنكارا يمهد لكم الإعراض عن توحيده.

قوله تعالى: أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ تَوْبِيخَ لَهُمْ وَعَطْفَ لَأَنْظَارِهِمْ إِلَىٰ مَا جَرَىٰ مِنْ سَنَةِ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ فِي الْأَمَمِ السَّالِفِهِ، وقد تقدمت نظيره الآيه فى أوائل السوره وكان الغرض هنا أن يتبين لهم أن الله أخذ كلا منهم بذنوبهم لما كانت تأتيمهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآيه بقوله: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ»، والغرض هاهنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا ولم ينفعهم فى دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذى عندهم ولا توبتهم وندامتهم مما عملوا.

وقد صدرت الآيه بفاء التفريع ف قيل «أ فَلَمْ يَسِيرُوا» الخ؛ مع الالتفات من الخطاب الى

الغيبه، وكان الكلام تفریح على قوله: «فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ» فكأنه لما ذمهم و أنكر إنكارهم آياته رجح و انصرف عنهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مشيراً الى سقوطه من منزله الخطاب و قال: إذا كانت آياته تعالى ظاهره بينه لا تقبل الإنكار و من جملتها ما فى آثار الماضين من الآيات الناطقه و هم قد ساروا فى الأرض و شاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كما و كيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم و قوه.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الْخَفِيِّ؛ ضمائر الجمع فى الآية- وهى سبع- للذين من قبلهم، و المراد بما عندهم من العلم ما وقع فى قلوبهم و شغل نفوسهم من زينه الحياه الدنيا و فنون التدبير للظفر بها و بلوغ لذائذها و قد عد الله سبحانه ذلك علماً لهم و قصر علمهم فيه، قال تعالى: يَعْلمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (الروم ٧)، و قال: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (النجم ٣٠).

و المراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبره و العلم الظاهرى و انجذابهم اليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقه التى جاءت بها رسلهم، و استهانتهم بها و سخريتهم لها، و لذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: «وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ» .

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ البأس شدة العذاب، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا الْخَفِيُّ؛ ذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ الى الاختيار، و قوله: «سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» أى سنه الله سنه ماضيه فى عباده أن لا تقبل توبه بعد رؤيه البأس «وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا
وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنَكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦)
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَإِنكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ فِيهَا وَ
قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أُوحِيَ فِي كُلِّ سَمَاةٍ أَمْرُهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكُ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

قوله تعالى: **حَمَّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** خبر مبتدأ محذوف، والمصدر بمعنى المفعول، والتقدير هذا منزل من الرحمن الرحيم، والتعرض للصفتين الكريمتين: الرحمن الدال على الرحمة العامه للمؤمن والكافر، والرحيم الدال على الرحمة الخاصه بالمؤمنين للإشارة الى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم.

قوله تعالى: **كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** خبر بعد خبر، والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله الى مرتبه البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه و تعقل مقاصده و الى هذا يشير قوله تعالى: **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (هود ١)، وقوله: **وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٍ (الزخرف ٤).

وقوله: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» حال من الكتاب أو من آياته، وقوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول «يَعْلَمُونَ» إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم.

ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عنايه خاصه بالعرب في نزول القرآن عربيا وهو الذي يشعر به أيضا قوله الآتي: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» الآية؛ وقريب منه قوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ» (الشعراء ١٩٩).

ولا ينافي ذلك عموم دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعامة البشر لأن دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانت مرتبه على مراحل فأول ما دعا الناس بالموسم فقبول بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سرا مده ثم أمر بدعوه عشيرته الأقربين كما يشير اليه قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (الشعراء ٢١٤) ثم أمر بدعوه قومه كما يشير اليه قوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (الحجر ٩٤) ثم أمر بدعوه الناس عامه كما يشير اليه قوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» (الأعراف ١٥٨)، وقوله: «وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (الأنعام ١٩).

على أن من المسلم تاريخا أنه كان من المؤمنين به سلمان و كان فارسيا، و بلال و كان حبشيا، و صهيب و كان روميا، و دعوته لليهود و وقائعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معهم، و كذا كتابه الى ملك إيران و مصر و حبشه و الروم في دعوتهم الى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوه.

قوله تعالى: «بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَاعْرَضْ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» «بَشِيرًا وَ نَذِيرًا» حالان من الكتاب في الآية السابقه، و المراد بالسمع المنفى سمع القبول كما يدل عليه قرينه الإعراض.

قوله تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ» قال

الراغب: الكن ما يحفظ فيه الشيء. قال: الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء و الجمع أكنه نحو غطاء و أغطيه قال تعالى: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ». انتهى.

فقوله: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو صلى الله عليه وآله وسلم اليه من التوحيد كأنها مغطاه بأغطيه لا يتطرق إليها شيء من خارج.

وقوله: وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ أَي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئا من هذه الدعوه، وقوله: «وَمِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ» أى حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أياسوه صلى الله عليه وآله وسلم من قبول دعوته بما أخبروه أولا بكون قلوبهم فى أكنه فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها، و ثانيا بكون طرق ورودها الى القلوب و هى الآذان مسدوده فلا تلجها دعوه و لا ينفذ منها إنذار و تبشير، و ثالثا بأن بينهم و بينه صلى الله عليه وآله وسلم حجابا مضروبا لا يجمعهم معه جامع و فيه تمام الإياس.

وقوله: فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ تفریع على ما سبق، و لا يخلو من شوب تهديد، و عليه فالمعنى إذا كان لا سبيل الى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ فى مقام الجواب عن قولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم: إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضا و أكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بينى و بينكم حجاب مضروب أو لا ينفذ كلامى فى آذانكم أو لا- يرد قولى فى قلوبكم غير أن الذى أقول لكم و أدعوكم اليه و حى يوحى إلى و هو أنما إلهكم الذى يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون.

وقوله: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ أى فإذا لم يكن إلا إلهها واحدا لا شريك له

فاستوا اليه بتوحيده و نفى الشركاء عنه و استغفروه فيما صدر عنكم من الشرك و الذنوب.

قوله تعالى: وَ وَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء و لا يوحّدونه، و قد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاه و كفرهم بالآخرة.

و المراد بإيتاء الزكاه مطلق إنفاق المال للفقراء و المساكين لوجه الله فإن الزكاه بمعنى الصدقه الواجبه فى الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السوره و هى من أقدم السور المكيه.

و قوله: وَ هُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم و هو إنكار المعاد، و لذلك أتى بضمير النصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ أى غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم، و فسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى:

يُزَكُّونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (المؤمن ٤٠).

و جواز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذى يكدر الصنيعه، و يمكن أن يوجه هذا الوجه بأن فى تسميه ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق و إن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى: إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (الدهر ٢٢).

و قوله تعالى: قُلْ أَيْنَ كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا الْآيَه؛ أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانيه فى خلق السماوات و الأرض و تدبير أمرهما بعد ما أمره أولا بدفع قولهم:

«قُلُوبُنَا فِي أَكْثِهِ» الخ.

و الاستفهام للتعجب و لذا أكد المستفهم عنه بان و اللام كأن المستفهم لا يكاد يدعن

بكفرهم بالله و قولهم بالأنداد مع ظهور المحجّه و استقامه الحجه.

و قوله: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً تفسير لقوله: «لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ» الخ؛ و الأنداد جمع ند و هو المثل، و المراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه فى الربوبية و الالهيه.

و قوله: ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فى الإشاره بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى و تنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوغ لأن يتوهم رباً آخر سواه و إلها آخر غيره.

و المراد باليوم فى قوله: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» برهه من الزمان دون مصداق اليوم الذى نعده و نحن على بسيط أرضنا هذه و هو مقدار حركه الكره الأرضيه حول نفسها مره واحده فإنه ظاهر الفساد، و إطلاق اليوم على قطعه من الزمان تحوى حادثه من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال، و من ذلك قوله تعالى: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (آل عمران ١٤٠)، و قوله: فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ (يونس / ١٠٢)، و غير ذلك.

فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامه، و فى عددهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأولى مرحلتين متغايرتين كمرحله النىء و النضج أو الذوبان و الانعقاد أو نحو ذلك.

قوله تعالى: وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ مِنْ فَوْقِهَا الى آخر الآيه. معطوف على قوله:

«خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» و لا ضير فى تخلل الجملتين «وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» بين المعطوف و المعطوف عليه لأن الاولى تفسير لقوله: «لَتَكْفُرُونَ» و الثانيه تقرير للتعجب الذى فيه الاستفهام.

و الرواسى صفه لموصوف محذوف و التقدير جبالا رواسى أى ثابتات على الأرض و ضمائر

التأنيث الخمس في الآيه للأرض.

وقوله: **وَبَارَكْ فِيهَا** أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع به ما على الأرض من نبات و حيوان و إنسان في حياته أنواع الانتفاعات.

وقوله: **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** قيل: الظرف أعنى قوله: «**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**» بتقدير مضاف و هو متعلق بقدر، و التقدير قدر الأوقات في تتمه أربعة أيام من حين بدء الخلق-فيومان لخلق الأرض و يومان-و هما تتمه أربعة أيام- لتقدير الأوقات.

و الذي ذكر في هذه الآيات من أيام خلق السماوات و الأرض أربعة أيام يومان لخلق الأرض و يومان لتسوية السماوات سبعا بعد كونها دخانا و أما أيام الأوقات فقد ذكرت أياما لتقديرها لا لخلقها، و ما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات و الأرض في ستة أيام لا مجموع خلقها و تقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجمله الأخيره فقط و لا حذف و لا تقدير في الآيه و المراد بيان تقدير أوقات الأرض و أرزاقها في الفصول الأربعة من السنه.

وقوله: **سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** مفعول مطلق لفعل مقدر أي استوت الأوقات المقدره استواء للسائلين أو حال من الأوقات أي قدرها حال كونها مستويه للسائلين يقتاتون بها جميعا و تكفيهم من دون زياده أو نقيصه.

و السائلون هم أنواع النبات و الحيوان و الإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم الى الأرزاق و الأوقات فهم سائلون ربهم (1) قال تعالى: **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن / ٢٩)**، و قال: **وَ اتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم / ٣٤)**.

ص: ٤٩٣

١ - ١). ظاهر الآيتين و إن كان اختصاصهما بذوى العقول لكنهما و خاصه الثانيه تفيدان إن المراد بالسؤال هو الحاجه و الاستعداد و عليه فالآيه تعم النبات و الاتيان بضمير اولى العقل للتغليب.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ الاستواء-على ما ذكره الراغب-إذا عدى بعلى أفاد معنى الاستيلاء نحو الرحمن على العرش استوى، وإذا عدى بإلى أفاد معنى الانتهاء إليه.

و أيضا فى المفردات أن الكره بفتح الكاف المشقة التى تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، و الكره بضم الكاف ما تناله من ذاته و هو يعافه.

فقوله: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ» أى توجه إليها و قصدها بالخلق دون القصد المكانى الذى لا يتم إلا بانتقال القاصد من مكان الى مكان و من جهة الى جهة لتنزله تعالى عن ذلك.

و ظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل: إن «ثُمَّ» لإفاده التراخى بحسب الخبر لا بحسب الوجود و التحقق و يؤيده قوله تعالى: أَمْ السَّمَاءُ بُنِيَتْ بِهَا - إلى أن قال- وَ الْمَأْرُضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (النازعات/٣٢) فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقا.

و الاعتراض عليه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء و دحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كرويه فليس دحوها و بسطها غير تسويتها كره و هو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض الى إخراج مائها و مرعاها و إرساء جبالها و هذه بعينها جعل الرواسى من فوقها و المباركة فيها و تقدير أقواتها التى ذكرها فى الآيات التى نحن فيها مع خلق الأرض و عطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخى الزمانى فإن قوله فى آية النازعات: بَعِيدَ ذَلِكَ أَظْهَرَ فى التراخى الزمانى من لفظه «ثُمَّ» فيه فى آية حم السجده و الله أعلم.

و قوله: وَ هِيَ دُخَانٌ حال من السماء أى استوى الى السماء بالخلق حال كونها شيئا سماه الله دخانا و هو مادتها التى ألبسها الصورة و قضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدوده

متميزا بعضها من بعض، و لذا أفرد السماء فقال: «أَسْتَوِي إِلَى السَّمَاءِ» .

و قوله: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ أُنِّيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً تفرّيع على استوائه الى السماء و المورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها و للأرض: «أُنِّيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» كلمه إيجاد و أمر تكوينى كقوله لشيء أراد وجوده: كن، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٣/).

و مجموع قوله لهما: «أُنِّيَا» الخ؛ و قولهما له: «أَتَيْنَا» الخ؛ تمثيل لصفه الإيجاد و التكوين على الفهم الساذج العرفى و حقيقه تحليليه بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سرايه العلم فى الموجودات و كون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله، و قد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث، و سيجىء شطر من الكلام فيه فى تفسير قوله: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الآيه ٢١ من السوره) إن شاء الله.

و فى قوله: إِنِّيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً إيجاب الإتيان عليهما و تخييرهما بين أن تفعل ذلك بطوع أو كره، و لعل المراد بالطوع و الكره- هما بوجه قبول الفعل و نوع ملاءمه و عدمه- هو الاستعداد السابق للكون و عدمه فيكون قوله: «أُنِّيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً» كناية عن وجوب إتيانها بلا- مناص و أنه أمر لا- يتخلف البتة أرادنا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمثلان الأمر عن استعداد سابق و قبول ذاتى و سؤال فطرى إذ قالتا: أتينا طائعين.

و قوله: قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ جواب السماء و الأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع، و التعبير باللفظ الخاص بأولى العقل- طائعين- لمكان المخاطبه و الجواب و هما من خواص أولى العقل، و التعبير بلفظ الجمع دون أن تقولوا: أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعد أنفسهما غير متميزه من سائر مخلوقاته تعالى المطيعه لأمره فأجابتا عن لسان الجميع، نظير ما قيل فى قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (الحمد ٥/).

ثم إن تشريك الأرض مع السماء فى خطاب «أُنِّيَا» الخ؛ مع ذكر خلقها و تدبير أمرها قبلا لا

يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود و اتصال في النظام الجارى فيهما و هو كذلك فإن الفعل و الانفعال و التأثير و التأثير دائر بين أجزاء العالم المشهود.

و فى قوله: فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ تَلْوِيحَ عَلَى أَى حَالٍ إِلَى كَوْنِ «ثُمَّ» فِى قَوْلِهِ: «ثُمَّ اسْتَوَى» لِلتَّرَاخَى بِحَسَبِ رَتْبِهِ الْكَلَامِ.

قوله تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا الْأَصْلُ فِى مَعْنَى الْقَضَاءِ فَصَلِّ الْأَمْرَ، وَ ضَمِيرُ «هِنَّ» لِلسَّمَاءِ عَلَى الْمَعْنَى، وَ «سَبْعَ سَمَاوَاتٍ» حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ وَ «فِي يَوْمَيْنِ» مُتَعَلِّقٌ بِقَضَائِهِنَّ فَتَفِيدُ الْجُمْلَةَ أَنَّ السَّمَاءَ لَمَّا اسْتَوَى سَبْحَانَهُ إِلَيْهَا وَ هِيَ دَخَانٌ كَانَ أَمْرُهَا مَبْهَمًا غَيْرَ مُشَخَّصٍ مِنْ حَيْثُ فَعَلِيهِ الْوُجُودُ فَفَصَلَ تَعَالَى أَمْرُهَا بِجَعْلِهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ.

وَ الْآيَةُ وَ مَا قَبْلَهَا نَازِرَةٌ إِلَى تَفْصِيلِ مَا أَجْمَلَ فِى قَوْلِهِ: أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا (الأنبياء ٣٠).

و قوله: وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا قِيلَ: الْمُرَادُ بِأَمْرِ السَّمَاءِ مَا تَسْتَعِدُّ لَهُ أَوْ تَقْتَضِيهِ الْحُكْمَةُ فِيهَا مِنْ وَجُودِ مَلَكٍ أَوْ كَوْكَبٍ وَ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَ الْوَحَى هُوَ الْخَلْقُ الْإِبْجَادُ، وَ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: «فَقَضَاهُنَّ» مُقَيَّدَةٌ بِالْوَقْتِ الْمَذْكُورِ لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَ الْمَعْنَى وَ خَلَقَ فِى كُلِّ سَمَاءٍ مَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكَوَاكِبِ وَ غَيْرِهَا.

وَ أَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ إِرَادَةَ الْخَلْقِ مِنَ الْوَحَى وَ أَمْثَالِ الْمَلَكِ وَ الْكَوْكَبِ مِنَ الْأَمْرِ تَحْتَاجُ إِلَى عُنَايَةٍ زَائِدَةٍ لَا تَثْبِتُ إِلَّا بِدَلِيلٍ بَيِّنٍ، وَ كَذَا تَقْيِيدُ الْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفَةِ بِالْوَقْتِ الْمَذْكُورِ فِى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا.

وَ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ التَّكْلِيفُ الْإِلَهِيُّ الْمَتَوَجِّهُ إِلَى أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْوَحَى بِمَعْنَاهِ الْمَعْرُوفِ وَ الْمَعْنَى وَ أَوْحَى إِلَى أَهْلِ كُلِّ سَمَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَ فِيهِ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى: «فِي كُلِّ سَمَاءٍ» وَ لَمْ يَقُلْ: إِلَى كُلِّ سَمَاءٍ لَا يُوَافِقُهُ

وقيل: المراد بأمرها ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهَا، وهذا الوجه في الحقيقة راجع الى أحد الوجهين السابقين فإن أريد بالوحي الخلق والإيجاد رجع الى أول الوجهين وإن أريد به معناه المعروف رجع الى ثانيهما.

والذى وقع فى كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوح الى معنى أدق مما ذكره فقد قال تعالى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ (الم السجده ٥)، وقال:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (الطلاق ١٢)، وقال: وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (المؤمنون ١٧).

دلت الآية الاولى على أن السماء مبدأ لأمره تعالى النازل الى الأرض بوجه و الثانيه على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء الى سماء حتى ينتهى الى الأرض، و الثالثه على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذى العرش أو لسلوك الملائكه الحاملين للأمر الى الأرض كما يشير اليه قوله: تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر ٤)، وقوله:

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (الدخان ٤).

و لو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني و هو كلمه الإيجاد كما يستفاد من قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٢)، أفادت الآيات بانضمام بعضها الى بعض أن الأمر الإلهي الذى مضيه فى العالم الأرضى هو خلق الأشياء و حدوث الحوادث تحمله الملائكه من عند ذى العرش تعالى و تسلك فى تنزيه طرق السماوات فتنزله من سماء الى سماء حتى تنتهى به الى الأرض.

و إنما تحمله ملائكه كل سماء الى من دونهم كما يستفاد من قوله: حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (سبأ ٢٣) و قد تقدم الكلام فيه و السماوات مساكن الملائكه كما يستفاد من قوله: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ (النجم)

(٢٦)، وقوله: لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (الصفافات ٨).

فلأمر نسبه الى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها، ونسبه الى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميلة لهم و هو وحيه اليهم فإن الله سبحانه سماه قولاً كما قال: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ (النحل ٤٠).

فتحصّل بما مر أن معنى قوله: «وَ أَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» أوحى في كل سماء الى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي. المنسوب الى تلك السماء المتعلقة بها، و أما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعة فلا دليل عليه من لفظ الآية.

قوله تعالى: وَ زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض و هي طباق بعضها فوق بعض كما قال: خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا (الملك ٣).

و الظاهر من معنى تزيينها بمصابيح و هي الكواكب كما قال: إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (الصفافات ٦) أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالفناديل المعلقة و لو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضاً لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجميعها و لم تختص الزينة ببعضها كما يفيد السياق فلا وجه لقول القائل: إنها في الجميع لكن لكونها ترى متألثة على السماء الدنيا عدت زينة لها.

و أما قوله: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (نوح ١٦) فهو بالنسبة اليها معاشر المستضيئين بالليل و النهار كقوله:

وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (النبا ١٣).

وقوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» إشاره الى ما تقدم من النظم و الترتيب (١)(٢).

[سوره فصلت (٤١): الآيات ١٣ الى ٢٥]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقِهِ عَادٍ وَ ثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ
لَسَمَ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِيرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ
لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْعَذَابَ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَ هُمْ لَا يُنصِرُونَ (١٦) وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَيَّ
الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ
إِلَى الدَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَ قَالُوا
لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ
يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَ ذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ
بِرَبِّكُمْ أَرْذَاكُمْ فَأَصِيبْكُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالدَّارُ مَثْوَى لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْجِلُوا فَلَمَّا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ
قُرْنَاءَ فَرِيئُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ
(٢٥)

ص: ٤٩٩

١- ١). حم السجده ١-١٢: بحث في السماوات السبع.

٢- ٢). حم السجده ١-١٢: بحث روائي حول: قصه اجتماع قريش و ارسالها عتبه بن ربيعه الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؛ خلق السماوات و الارض؛ امان اهل السماء؛ امان اهل الارض.

بيان:

قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ تَمُودَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الصَاعِقَةُ الْمَهْلِكَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَهَى، وَ
قَالَ الرَّاعِبُ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ص: ٥٠٠

اللغة: الصاعقه على ثلاثه أوجه: الموت كقوله: «فَصَيِّحَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ» و قوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ» و العذاب كقوله: «أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقِهِ عَادٍ وَ ثَمُودَ» و النار كقوله:

«وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ» و ما ذكره فهو أشياء حاصله من الصاعقه فإن الصاعقه هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت و هي في ذاتها شيء واحد، و هذه الأشياء تأثيرات منها. انتهى.

و على ما مر تنطبق الصاعقه على عذابي عاد و ثمود و هما الريح و الصيحه، و التعبير بالماضى في قوله: «أَنْذَرْتُكُمْ» للدلاله على التحقق و الوقوع.

قوله تعالى: إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ الْخ؛ ظرف لصاعقه الثانيه فإن الإنذار بالصاعقه بالحقيقه إنذار بوقوعها و حلولها فالمعنى مثل حلول صاعقه عاد و ثمود إذ جاءتهم، الخ.

و نسبه المجيء الى الرسل و هو جمع - مع أن الذى ذكر فى قصتهم رسولان هما هود و صالح - باعتبار أن الرسل دعوتهم واحده و المبعوث منهم الى قوم مبعوث لآخرين و كذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى: كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٢٣/) و قال: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٤١/)، و قال: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (الشعراء ١٦٠/) الى غير ذلك.

و قول بعضهم: إن إطلاق الرسل و هو جمع على هود و صالح عليهما السلام و هما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثه و هو شائع، و من هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع فى قوله: «إِذْ جَاءَتْهُمْ» الى عاد و ثمود.

ممنوع بما تقدم، و أما إرجاع ضمير الجمع الى عاد و ثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعا مثلهما.

و قوله: مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أى من جميع الجهات فاستعمال هاتين

الجهتين في جميع الجهات شائع، و جَوَزَ أن يكون المراد به الماضي و المستقبل فقوله: «جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ» كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوه و جلوه و فرادى و مجتمعين بالتبشير و الإنذار و لذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» و هو التوحيد.

و قوله: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً رَدَّ مِنْهُمْ رِسَالَتَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ إِرْسَالَ رَسُولِ الْبِنَا لِأَرْسَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَ قَدْ تَقَدَّمَ كِرَارًا مَعْنَى قَوْلِهِمْ هَذَا وَ أَنَّهُ مَبْنَى عَلَى إِنْكَارِهِمْ نُبُوَّةِ الْبَشَرِ.

و قوله: «فَإِذَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» تفریع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أى فإذا لم يشأ و لم يرسل فإننا بما أرسلتم به و هو التوحيد كافرين.

قوله تعالى: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ النَّخ؛ رَجُوعٌ إِلَى تَفْصِيلِ حَالِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى حَدِّتِهِ، مِنْ كَفَرِهِمْ وَ وَبَالَ ذَلِكَ، وَ قَوْلُهُ: «بِغَيْرِ الْحَقِّ» قِيدٌ تَوْضِيحِي لِلْإِسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ دَائِمًا، وَ الْبَاقِي ظَاهِرٌ.

قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ النَّخ؛ فسر الصرصر بالريح الشديدة السموم، و بالريح الشديدة البرد، و بالريح الشديدة الصوت و تلازم شدة الهبوب، و النحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحسا خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشثومات.

و قيل: أيام نحسات أى ذوات الغبار و التراب لا يرى فيها بعضهم بعضا، و يؤيده قوله فى سورة الأحقاف: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (الأحقاف ٢٤)».

و قوله: «وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» أى لا منج ينجيهم و لا شفيع يشفع لهم. و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى النَّخ؛ المراد

بهدايتهم إراءتهم الطريق و دلالتهم على الحق بيان حق الاعتقاد و العمل لهم، و المراد بالاستحباب الإيثار و الاختيار، و لعله بالتضمين و لذا عدى الى المفعول الثانى بعلى و المراد بالعمى الضلال استعاره، و فى مقابله الهدى له إيماء الى أن الهدى بصر كما أن الضلاله عمى، و الهون مصدر بمعنى الذل و توصيف العذاب به للمبالغه أو بحذف ذى و التقدير صاعقه العذاب ذى الهون.

و المعنى: و أما قوم ثمود فدللتهم على طريق الحق و عرفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختروا الضلال الذى هو عمى على الهدى الذى هو بصر فأخذتهم صيحه العذاب ذى المذله- أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقه بمعنى العذاب و الإضافه بيانيه- بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ضم التقوى الى الإيمان معبرا عن التقوى بقوله: «وَ كَانُوا يَتَّقُونَ» الدال على الاستمرار للدلاله على جمعهم بين الإيمان و العمل الصالح و ذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله:

وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و الظاهر أن الآيه متعلقه بالقصتين جميعا متممه لهما و إن كان ظاهر المفسرين تعلقها بالقصه الثانيه.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ الحشر إخراج الجماعه عن مقرهم و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها. كذا قال الراغب، و «يُوزَعُونَ» من الوزع و هو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا.

و المراد بأعداء الله- على ما قيل- المكذبون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم من مشركى قومه لا مطلق الكفار و الدليل عليه قوله الآتى: «وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ» الآيه.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

«مَا» فِي «إِذَا مَا جَاؤُهَا» زائده للتأكيد والضمير للنار.

و شهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته، و لو لا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعورا و نطقا يوم القيامة فعلت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتا يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة، و لا تمت بذلك على العبد المنكر حجه و هو ظاهر.

و ظاهر الآيه أن شهادة السمع و البصر أداؤهما ما تحمله و إن لم يكن معصية مأتيا بها بواسطتهما كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر، و شهادة البصر أنه رأى الآيات الداله على وحدانيه الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع الى الغيبه أو سائر ما يحرم الإصغاء اليه فتكون الآيه على حد قوله تعالى: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (الإسراء ٣٦).

و على هذا يختلف السمع و الأبصار و الجلود فيما شهدت عليه فالسمع و الأبصار تشهد على معصية العبد و إن لم تكن بسببهما و الجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة، و هذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم: «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا» على ما سيجيء.

و المراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآيه مطلق الجلود و شهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتع المحرمه كالزنا و نحوه، و يمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي و الأرجل المذكوره في قوله: أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ (يس ٦٥) على بعد.

و قيل: المراد بالجلود الفروج و قد كنى بها عنها تأدبا.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا اعتراض و عتاب منهم لجلودهم فى شهادتها عليهم، وقيل: الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب و إنما خصوها بالسؤال دون سماعهم و أبصارهم مع اشتراكها فى الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هى بنفسها أسبابا و آلات مباشرة له بخلاف السمع و الأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها.

وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تفرغ لهم و زياده تشنيع و فضاحه و خاصه لو كان المراد بالجلود الفروج و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ الْخَبْرُ؛ إرجاع ضمير اولى العقل الى الجوارح لمكان نسبه الشهاده و النطق إليها و ذلك من شئون اولى العقل.

و المتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقه من غير تجوز هو إظهار ما فى الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم و كشفه لغيره، قال الراغب: و لا يكاد يستعمل النطق فى غير الإنسان إلا تبعا و بنوع من التشبيه و ظاهر سياق الآيات و ما فيها من ألفاظ القول و التكلم و الشهاده و النطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقه معناه.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقا و تكلما حقيقه عن علم تحملته سابقا بدليل قولها: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ». ثم إن قولها: «أَنْطَقَنَا اللَّهُ» جوابا عن قول المجرمين «لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا»؟ إراءه منها للسبب الذى أوجب نطقها و كشف عن العلم المدخر عندها المكنون فى ضميرها فهى ملجأه الى التكلم و النطق، و لا يضر ذلك نفوذ شهادتها و تمام الحججه بذلك فإنها إنما ألجئت الى الكشف عما فى ضميرها لا على الستر عليه و الإخبار بخلافه كذبا و زورا حتى ينافى جواز الشهاده و تمام الحججه.

و قوله: الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ توصيف لله سبحانه و إشاره الى أن النطق ليس مختصا بالأعضاء حتى تختص هى بالسؤال بل هو عام شامل لكل شئ و السبب الموجب له

هو الله سبحانه.

وقوله: وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ من تنتمه الكلام السابق أو هو من كلامه، و هو احتجاج على علمه بأعمالهم و قد أنطق الجوارح بما علم.

يقول: إن وجودكم يبتدئ منه تعالى و ينتهى اليه تعالى فعند ما تظهرون من كنتم العدم -و هو خلقكم أول مره- يعطيكم الوجود و يملككم الصفات و الافعال فتنسب اليكم ثم ترجعون و تنتهون اليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب اليه فلا يبقى ملك إلا و هو لله سبحانه.

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولا و آخرا فما عندكم من شىء فى أول وجودكم هو الذى أعطاكموه و ملكه لكم و هو أعلم بما أعطى و أودع، و ما عندكم من شىء حينما ترجعون اليه هو الذى يقبضه منكم اليه و يملكه فكيف لا يعلمه، و انكشافه له سبحانه حينما يرجع اليه إنطاقه لكم و شهادتكم على أنفسكم عنده.

و بما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ» بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» فالمراد به أول وجودهم (١)(٢).

قوله تعالى: وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ الْخ؛ لا شك أن الله سبحانه خالق كل شىء لا يوجد غيره فلا يحول بين خلقه و بينه شىء و لا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شىء أينما كان و كيفما كان قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج ١٧) و قال: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (الأحزاب ٥٢).

ص: ٥٠٦

١- ١. حم السجده ١٣-٢٥: بحث اجمالى قرآنى فى ان العلم سار فى الموجودات عامه.

٢- ٢. حم السجده ١٣-٢٥: بحث اجمالى فلسفى فى علم الموجودات.

فإنسان أينما كان كان الله معه، و أى عمل عمله كان الله مع عمله، و أى عضو من أعضائه استعمله و أى سبب أو أداء أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو و السبب و الأداء و الطريق قال تعالى: وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (الحديد ٤)، و قال: أَمْ مَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (الرعد ٣٣)، و قال: إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمُرْصَادٍ (الفجر ١٤).

و من هنا يستنتج أن الإنسان- و هو جار فى عمله- واقع بين مراصد كثيره يرصده من كل منها ربه و يرقبه و يشهده فمرتكب المعصيه و هو متوغل فى سيئته غافل عنه تعالى فى جهل عظيم بمقام ربه و استهانته به سبحانه و هو يرصده و يرقبه.

و هذه الحقيقه هى التى تشير اليه الآيه أعنى قوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ» الخ؛ على ما يعطيه السياق.

فقوله: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ نفى لاستئذانهم و هم فى المعاصى قبلا و هم فى الدنيا و قوله: «أَنْ يَشْهَدَ» الخ؛ منصوب بنزع الخافض و التقدير من أن يشهد، الخ.

و قوله: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ اسْتِدْرَاكًا فِي مَعْنَى الاضطراب عن محذوف يدل عليه صدر الآيه، و التقدير و لم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم و لكن ظننتم، الخ، و الآيه تقرير و توبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه اليهم يوم القيامة من قبله تعالى.

و محصل المعنى و ما كنتم تستخفون فى الدنيا عند المعاصى من شهادة أعضائكم التى تستعملونها فى معصيه الله و لم يكن ذلك لظنكم أنها لا- إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا- يعلم كثيرا مما تعملون أى لم تستهينوا عند المعصيه بشهاده أعضائكم و إنما استهنتم بشهادتنا.

فلاستدراك و معنى الإضراب فى الآيه نظير ما فى قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» (الأنفال ١٧)، و قوله: «وَمَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (البقره ٥٧).

و قوله: «كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ» و لم يقل: لا يعلم ما تعملون و لعل ذلك لكونهم

معتقدين بالله و بصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله.

و يستفاد من الآية أن شهادته الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى: **وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** (يونس ٦١).

و لهم في توجيه معنى الآية أقوال آخر لا يساعد عليها السياق و لا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها.

قوله تعالى: **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** الإرداء من الردى بمعنى الهلاك، و «ذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ» مبتدأ و خبر و «أَرْدَاكُمْ» خبر بعد خبر، و يمكن أن يكون «ظَنُّكُمْ» بدلا من ذلكم.

و معنى الآية على الأول و ذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغنى من الحق شيئا و العلم و الشهادة على حالها أهلككم ذلكم الظن فأصبحتم من الخاسرين.

و على الثاني و ظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيرا مما تعملون أهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي و أدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين.

قوله تعالى: **فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ** في المفردات: الثواء الإقامة مع الاستقرار. انتهى، و في المجمع الاستعتاب طلب العتبي و هي الرضا و هو الاسترضاء، و الإعتاب الإرضاء، و أصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لإعادته ما كان من الألفه. انتهى.

و معنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم و مستقرهم و إن يطلبوا الرضى و يعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم و يقبل إعتابهم و معذرتهم فالآية في معنى قوله: **إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ** (الطور ١٦).

قوله تعالى: وَ قَيَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ ۖ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أصل التقييض - كما في المجمع - التبديل، و القرآن جمع قرين و هو معروف.

فقوله: وَ قَيَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا إشارة إلى أنهم لو آمنوا و اتقوا لأيدهم الله بمن يسدهم و يهديهم كما قال: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيْدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ (المجادلة ٢٢) لكنهم كفروا و فسقوا فبدل الله لهم قرآن من الشياطين يقارنونهم و يلازمونهم، و إنما يفعل ذلك بهم مجازاه لكفرهم و فسوقهم.

و قوله: فَزَيَّنُوا لَهُمْ ۖ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ لعل المراد التمتع المادية التي هم مكبون عليها في الحال و ما تعلق به آمالهم و أمانيتهم في المستقبل.

و قوله: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَى ثبت و وجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في امم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن و الانس و كلمة العذاب قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة ٣٩) كقوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٨٥). و قوله: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم.

و يظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنس.

[سورة فصلت (٤١): الآيات ٢٦ إلى ٣٩]

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (٢٦) فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَابًا الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضِلْنَا مِنْ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا - مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَ لَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عِدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نِزْغٌ فَاسْتَعْذَبِ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ اللغو من الأمر ما لا أصل له و من الكلام ما لا معنى له يقال: لغى يلغى و يلغو لغوا أى أتى باللغو، و الإشارة الى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره.

و الآية تدل على نهايه عجزهم عن مخاصمه القرآن بإتيان كلام يعادله و يماثله أو إقامه حجه تعارضه حتى أمر بعضهم بعضاً أن لا ينصتوا له و يأتوا بلغو الكلام عند قراءه النبي صلى الله عليه و آله و سلم القرآن ليختل به قراءته و لا تفرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره و هو الغلبه.

قوله تعالى: فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً الخ؛ اللام للقسم، و المراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن و إن كانت الآية مطلقه بحسب اللفظ.

و قوله: وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ قيل: المراد العمل السيئ الذى كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل، و قيل: المراد بيان جزاء ما هو أسوأ أعمالهم و سكت عن الباقي مبالغه فى الزجر.

قوله تعالى: ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ الخ؛ «ذَلِكَ جَزَاءُ» مبتدأ و خبر

و «النَّارُ» بدل أو عطف بيان من «ذَلِكَ» أو خبر مبتدأ محذوف و التقدير هي النار أو مبتدأ خبره «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ» .

و قوله: لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ أى النار محيطه بهم جميعا و لكل منهم فيها دار تخصه خالدا فيها.

و قوله: جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعنى قوله: «ذَلِكَ جَزَاءٌ» نظير قوله: فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (الإسراء ٦٣).

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضلانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ محكى قول يقولونه و هم فى النار، يسألون الله أن يريهم متبوعيههم من الجن و الإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالا لهما و تشديدا لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلًا:

«نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ» .

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الخ؛ قال الراغب: الاستقامه تقال فى الطريق الذى يكون على خط مستو، و به شبه طريق الحق نحو «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» . قال: و استقامه الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» . انتهى. و فى الصحاح: الاستقامه الاعتدال يقال: استقام له الأمر. انتهى.

فالمراد بقوله: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» لزوم وسط الطريق من غير ميل و انحراف و الثبات على القول الذى قالوه، قال تعالى: فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ (التوبه ٧) و قال:

وَ اسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (الشورى ١٥) و ما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع الى ما ذكر.

و الآيه و ما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال

و قوله: تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْأَقْوَامُ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم و تطيب نفوسهم و البشرى بالكرامه.

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف و الحزن، و الخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذى يخافونه و الحرمان من الجنة الذى يخشونه، و الحزن إنما يكون من مكروه واقع و شر لازم كالسيئات التى يحزنون من اكتسابها و الخيرات التى يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم فى أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفوره لهم و العذاب مصروف عنهم.

ثم يبشرونهم بالجنة الموعوده بقولهم: «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» و فى قولهم:

«كُنتُمْ تُوعَدُونَ» دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياه الدنيا.

قوله تعالى: نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ الخ؛ من تتمه البشاره، و على هذا فذكر ولايتهم لهم فى الحياه الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئه و التمهيد الى ذكر الآخرة للاشاره الى أن ولايه الآخرة مترتبه على ولايه الدنيا فكأنه قيل: نحن أولياؤكم فى الآخرة كما كنا-لما كنا- أولياءكم فى الحياه الدنيا و سنتولى أمركم بعد هذا كما تولينا قبل.

و كون الملائكة أولياء لهم لا- ينافى كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمه و الكرامه ليس لهم من الأمر شيء، و لعل ذكر ولايتهم لهم فى الآيه دون ولايته تعالى للمقابلة و المقايسه بين أوليائه تعالى و أعدائه إذ قال فى حق أعدائه: «وَقَيَضْنَا لَهُمْ قُرْنَا» الخ؛ و قال فى حق أوليائه عن لسان ملائكته: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ» .

و بالمقابله يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد و التأييد فإن الملائكة المسددين هم

المخصوصون بأهل ولايه الله، و أما الملائكه الحرس و موكلو الأرزاق و الآجال و غيرهم فمشترون بين المؤمن و الكافر.

و قيل: الآيه من كلام الله دون الملائكه.

و قوله: «و لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ضَمِيرٌ فِيهَا» في الموضوعين للآخريه، و أصل الشهوه نزوع النفس بقوه من قواها الى ما تريده تلك القوه و تلتذ به كشهوه الطعام و الشراب و النكاح، و أصل الادعاء- هو افتعال من الدعاء- هو الطلب فالجمله الثانيه أعنى قوله: «و لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ» أوسع نطاقا من الاولى أعنى قوله: «لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ» فإن الشهوه طلب خاص و مطلق الطلب أعم منها.

فالآيه تبشرهم بأن لهم في الآخريه ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل و شرب و نكاح و غير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك و أعلى كعبا و هو أن لهم ما يشاءون فيها كما قال تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا (ق ٣٥).

قوله تعالى: «و مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا- مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ عَمِلَ صَالِحًا وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلآيه اتصال بقوله السابق: «و قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَ الْغَوَا فِيهِ» الآيه فإنهم كانوا يخاصمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كما ينازعون القرآن، و قد ذكر في أول السوره قولهم: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» الآيه فأيد سبحانه في هذه الآيه نبيه بأن قوله و هو دعوته أحسن القول.

فقوله: «و مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا- مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ الْمَرَادُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ إِنْ كَانَ لَفِظُ الْآيَةِ يَعْمُ كُلَّ مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَ لَمَّا أَمَكَّنَ أَنْ يَدْعُو الدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ لِعَرَضِ فَاسِدٍ وَ لَيْسَتْ الدَّعْوَةُ الَّتِي هَذَا شَأْنُهَا مِنَ الْقَوْلِ الْأَحْسَنِ قِيْدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ عَمِلَ صَالِحًا» فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَكْشِفُ عَنْ نِيَّةِ صَالِحِهِ غَيْرَ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَكْشِفُ عَنِ الْإِعْتِقَادِ الْحَقِّ وَ الْإِلْتِرَامِ بِهِ، وَ لَا حَسَنَ فِي قَوْلِ لَا يَقُولُ بِهِ صَاحِبِهِ وَ لِذَا قِيْدَهُ بِقَوْلِهِ: «وَ قَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وَ الْمَرَادُ بِالْقَوْلِ الرَّأْيِ وَ الْإِعْتِقَادِ

على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: **وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ** الآية لما ذكر أحسن القول و أنه الدعوه الى الله و القائم به حقا هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم التفت اليه ببيان أحسن الطريق الى الدعوه و أقربها من الغايه المطلوبه منها و هى التأثير فى النفوس فخاطبه بقوله: **«لَا تَسْتَوِي»** الخ.

فقوله: **وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ** أى الخصله الحسنه و السيئه من حيث حسن التأثير فى النفوس، و **«لَا»** فى **«وَ لَا السَّيِّئَةُ»** زائده لتأكيد النفي.

و قوله: **إِذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** استئناف فى معنى دفع الدخول كأن المخاطب لما سمع قوله: **«لَا تَسْتَوِي»** الخ؛ قال: فما ذا أصنع؟ فقيل **«اذْفَع»** الخ؛ و المعنى اذفع بالخصله التى هى أحسن الخصله السيئه التى تقابلها و تضادها فادفع بالحق الذى عندك باطلهم لا يبطل آخر و بحلمك جهلهم و بعفوك إساءتهم و هكذا.

و قوله: **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** بيان لأثر الدفع بالأحسن و نتيجه، و المراد أنك إن دفعت بالتي هى أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولى شفيق. قيل **«الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ»** أبلغ من **«عدوك»** و لذا اختاره عليه مع اختصاره.

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هى أحسن و مدحه أحسن التعظيم و أبلغ المدح بقوله:

وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ أى ذو نصيب وافر من كمال الإنسانيه و خصال الخير.

و فى الآية مع ذلك دلالة ظاهره على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصه.

قوله تعالى: **وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ **النزغ** النخس و هو غرز جنب الدابه أو مؤخرها بقضيب و نحوه ليهيج، و **«ما»** فى **«إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ»** زائده و الأصل و إن ينزغنك فاستعد.

و **النزغ** هو الشيطان أو تسويله و وسوسته، و الأول هو الأنسب لمقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فإنه لا

سبيل للشيطان اليه بالسوسه غير أنه يمكن أن يقلب له الامور بالسوسه على المدعوين من أهل الكفر و الجحود فيالغوا في جحودهم و مشاقتهم و إيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن و يثول هذا الى نزع من الشيطان بتشديد للعداوه في البين كما في قوله: مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي (يوسف ١٠٠/)، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ الْآيَه (الحج ٥٢/).

و لو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حملة على مطلق الدستور تتيما للأمر، و هو بوجه من باب «إياك أعنى و اسمعى يا جاره».

و قوله: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ العوذ و العياذ بكسر العين و المعاذ و الاستعاذه بمعنى و هو الالتجاء و المعنى فالتجئ بالله من نزعه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم.

قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ الخ؛ لما ذكر سبحانه كون دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أحسن القول و وصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد الى أصل الدعوه فاحتج على الوحدانيه و المعاد في هذه الآيات الثلاث.

فقوله: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ الخ؛ احتجاج بوحدته التدبير و اتصاله على وحده الرب المدبر، و بوحدته الرب على وجوب عبادته وحده، و لذلك عقبه بقوله: «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ» الخ.

فالكلام في معنى دفع الدخول كأنه لما قيل «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ» الخ؛ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل: فما ذا نصنع؟ فقيل «لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لَا لِلْقَمَرِ» هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجده و اعبدوه وحده، و عامه الوثنيين كانوا يعظمون الشمس و القمر و إن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل، و ضمير «خَلَقَهُنَّ» لليل و النهار و الشمس و القمر.

و قوله: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أَى إِنْ عبادته لا تجماع عباده غيره.

قوله تعالى: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ السَّامَةَ الملال، والمراد «الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (الأعراف ٢٠٦).

وقوله: يُسَبِّحُونَ لَهُ و لم يقل: يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أى يسبحونه خاصة، وقوله: «بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى دائما لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار.

و المعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجده لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسيحا دائما لا ينقطع من غير سأمه وهم الذين عند ربك.

قوله تعالى: وَمِنَ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً الْخَشُوعَ التذلل، والاهتزاز التحرك الشديد، والربو النشوء والنماء والعلو، واهتزاز الأرض و ربوها تحركها بنباتها و ارتفاعه.

[سوره فصلت (٤١): الآيات ٤٠ الى ٥٤]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يَقَالُ لِمَكَ إِلَّا- مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَعَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا لَوْ لَا- فَصَلَّتْ آيَاتُهُ أَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَهُ يَرْدُ عِلْمَ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُوسِسْ قَنُوطٌ (٤٩) وَ لئن أذفناه رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعِيدٍ ضَرَاءٌ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لئن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْبَانِي فَلَنَسْتَبِشَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنَدَيُقِنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَنَدُو دُعَاءِ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَيُنزِئُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا الخ؛ سياق تهديد لملحدى هذه الأمة كما يؤيده الآيه التاليه، و الإلحاد الميل.

و إطلاق قوله: «يُلْحِدُونَ» و قوله: «آيَاتِنَا» يشمل كل إلحاد فى كل آيه فىشمل الإلحاد فى الآيات التكوينية كالشمس و القمر و غيرهما فىعدونها آيات لله سبحانه ثم يعودون فىعبودونها، و يشمل آيات الوحي و النبوه فىعدون القرآن افتراء على الله و تقولا من النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد فى آيات الله بوضعها فى غير موضعها و الميل بها الى غير مستقرها.

و قوله: أَمْ مَنْ يُلْقَى فِي الدَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إيدان بالجزاء و هو الإلقاء فى النار يوم القيامة قسرا من غير أى مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو

ص: ٥١٩

عذر مسموع فليس لهم إلا- النار يلقون فيها، والظاهر أن قوله: «أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لإبانه أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات و ملحد فيها و يظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة.

و قوله: «إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» تشديد في التهديد.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ» -الى قوله- مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ المراد بالذكر بالقرآن لما فيه من ذكر الله، و تقييد الجملة بقوله: «لَمَّا جَاءَهُمْ» يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش و غيرهم.

و قد اختلفوا في خبر «إِنَّ» و يمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» الخ؛ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في النار يوم القيامة، و إنما حذف ليذهب فيه و هم السامع أى مذهب ممكن و الكلام مسوق للوعيد.

و الى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف: إن قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بدل من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا»

و قوله: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ» للضمير للذكر و هو القرآن، و العزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب، و المعنى الثانى أنسب لما يتعقبه من قوله: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» .

و قوله: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» إتيان الباطل اليه و روده فيه و صيروره بعض أجزاءه أو جميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحقه أو بعضها غير حقه أو ما فيه من الأحكام و الشرائع و ما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغى العمل به.

و عليه فالمراد بقوله: «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ» زمانا الحال و الاستقبال أى زمان

النزول و ما بعده الى يوم القيامة، وقيل: المراد بما بين يديه و من خلفه جميع الجهات، كالصباح و المساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات و هذا العموم على الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي فى قوله: «لَا يَأْتِيهِ» .

و المدلول على أى حال أنه لا- تناقض فى بياناته، و لا كذب فى أخباره، و لا بطلان يتطرق الى معارفه و حكمه و شرائعه، و لا يعارض و لا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آيه من وجه الى وجه.

فألايه تجرى مجرى قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر ٩).

و قوله: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ بمنزله التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتيه الباطل، الخ؛ أى كيف لا يكون كذلك و هو منزل من حكيم متقن فى فعله لا يشوب فعله وهن، محمود على الإطلاق.

قوله تعالى: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا- مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ الخ؛ «مَا» فى «مَا يُقَالُ لَكَ» نافية، و القائلون هم الذين كفروا حيث قالوا: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ فى كلامه أو يريد أن يتأمر علينا، و القائلون لما قد قيل للرسول امهم.

و المعنى: ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت اليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسول من قبلك أى مثل ما قد قيل لهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ فى موضع التهديد و الوعيد أى إن ربك ذو هاتين الصفتين أى فانظر أو فلينظروا ما ذا يصيبهم من ربهم و هم يقولون ما يقولونه لرسوله؟ أ هو مغفره أم عقاب؟ فالآيه فى معنى قوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى ما علمتم من حسنه أو سيئه أصابكم جزاؤه بعينه.

و قيل: المعنى ما يوحى اليك فى أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحى للرسول من قبلك و هو أن ربك لذو مغفره و ذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحى، و «إِنَّ رَبَّكَ» الخ؛ بيان لا

قوله تعالى: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** قال الراغب: العجمه خلاف الإبانه. قال: والعجم خلاف العرب والعجمى منسوب اليهم، والأعجم من فى لسانه عجمه عربيا كان أو غير عربى اعتبارا بقله فهمهم عن العجم. انتهى. فالأعجمى غير العربى البليغ سواء كان من غير أهل اللغه العربيه أو كان منهم و هو غير مفصح للكنه فى لسانه، و إطلاق الأعجمى على الكلام كإطلاق العربى من المجاز.

فالمعنى: و لو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ فى نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت و بينت آياته و أجزاءه فانفصلت و بانت بعضها من بعض بالعربيه و البلاغه أ كتاب مرسل أعجمى و مرسل اليه عربى؟ أى يتنافيان و لا يتناسبان.

و إنما قال: «عَرَبِيٌّ» و لم يقل: عربيون أو عربيه مع كون من أرسل اليه جمعا و هم جماعه العرب، إذ القصد الى مجرد العربيه من دون خصوصيه للكثيره بل المراد بيان التنافى بين الكلام و بين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو كثيرا.

و قوله: **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفَاءٌ** بيان أن أثر القرآن و خاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان و هم الذين آمنوا و الذين لا يؤمنون، و هو هدى و شفاء للذين آمنوا يهديهم الى الحق و يشفى ما فى قلوبهم من مرض الشك و الريب. و هو عمى على الذين لا يؤمنون- و هم الذين فى آذانهم و قر- يعميهم فلا يبصرون الحق و سبيل الرشاد.

و فى توصيف الذين لا يؤمنون بأن فى آذانهم و قرا إيماء الى اعترافهم بذلك المنقول عنهم فى أول السوره «**وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ**» .

و قوله: **أُولَئِكَ يَتَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ** أى فلا يسمعون الصوت و لا يرون الشخص و هو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظه و لا يعقلون الحججه.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ الْخ؛ تسليه للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم عن جحود قومه و كفرهم بكتابه.

و قوله: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمُ الْكَلِمَةُ هِيَ قَوْلُهُ: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (الأعراف ٢٤).

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ أَي فِي شَكِّ مَرِيبٍ مِنْ كِتَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام.

بيان حال قومه ليتسلى به النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم فيما يرى من قومه.

قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا؛ الخ؛ أى إِنْ الْعَمَلُ قَائِمٌ بِصَاحِبِهِ نَاعَتْ لَهُ فَلَوْ كَانَ صَالِحًا نَافِعًا انْتَفَعَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَ إِنْ كَانَ سَيِّئًا ضَارًا تَضَرَّرَتْ بِهِ نَفْسُهُ فَلَيْسَ فِي إِيْصَالِهِ تَعَالَى نَفْعُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى صَاحِبِهِ وَ هُوَ الثَّوَابُ وَ لَا فِي إِيْصَالِ ضَرَرِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ إِلَى صَاحِبِهِ وَ هُوَ الْعِقَابُ ظَلَمٌ وَ وَضَعُ لِلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

و لو كان ذلك ظلما كان تعالى في إثابته و تعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلما للعبيد لكنه ليس بظلم و لا أنه تعالى ظلماً لعبيده و بذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: «وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» و لم يقل: و ما ربك بظالم.

قوله تعالى: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ - إلى قوله - إِلَّا بِعِلْمِهِ ارْتِدَادُ عِلْمِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ اخْتِصَاصُهُ بِهِ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَ قَدْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى.

و قوله: وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامٍهَا «ثَمَرَاتٍ» فاعل «تَخْرُجُ» و «مِنْ» زائده للتأكيد كقوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (النساء ٧٩)، و أَكْمَامٌ جَمْعُ كَمٍّ وَ هُوَ وَعَاءُ الثَّمَرِهِ وَ «مَا» مَبْتَدَأُ خَبْرِهِ «إِلَّا بِعِلْمِهِ» وَ الْمَعْنَى وَ لَيْسَ تَخْرُجُ ثَمَرَاتٌ مِنْ أَوْعِيَّتِهَا وَ لَا تَحْمَلُ أَنْثَى وَ لَا تَضَعُ حَمْلَهَا إِلَّا مَصَاحِبًا لَعَلِمَهُ أَي هُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ جَزْئِيَّاتِ حَالَاتِ كُلِّ شَيْءٍ.

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محولاً - لأحوالها عالم بها و بجزئيات حالاتها مراقب لها، و هذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده، ففي الآية إشارة إلى توحده تعالى في الربوبية

و الالوهيه، و لذا ذُيِّل هذا الصدر بقوله: «و يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ» الخ.

قوله تعالى: «و يَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا آذْنَاكَ مَا مَدَّ مِنْ شَهِيدٍ» -الى قوله- مِنْ مَحِيصِ الظرف متعلق بقوله: «قَالُوا» و قيل: ظرف لمضممر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ»، و قيل: متعلق بمحذوف نحو اذكر، و لعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذى ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفى الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى و اعتراف المشركين بذلك يوم القيامة.

و الإيدان الإعلام، و المراد بالشهادة الشهاده القوليه أو الشهاده بمعنى الرؤيه الحضوريه و على الثانى فقوله: «و ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» عطف تفسير يبين به سبب انتفاء الشهاده.

و قوله: «و ظُنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصِ الظن» -على ما قيل- بمعنى اليقين، و المحييص المهرب و المفرو، و المعنى: و يوم ينادى الله المشركين: أين شركائى؟ -على زعمكم- قالوا:

أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء- أو ما منا من يشاهد الشركاء و غاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله فى الدنيا، و أيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب.

قوله تعالى: «لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَ إِن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلُ قَنُوطَ السَّامَةِ الْمَلال، و اليأس و القنوط بمعنى و هو انقطاع الرجاء، و الدعاء الطلب.

شروع فى ختم الكلام فى السوره ببيان ما هو السبب فى جحودهم و دفعهم الحق الصريح، و هو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر يعجز عن دفعه يئس من الخير و تعلق بذيل الدعاء و المسأله و توجه الى ربه، و إذا مسه خير اشتغل به و أعجب بنفسه و أنساه ذلك كل حق و حقيقه.

و المعنى: لا يمل الإنسان من طلب الخير و هو ما يراه نافعا لحياته و معيشته و إن مسه الشر

فكثير اليأس و القنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي.

قوله تعالى: «وَلَيْتُنَّ أَذَقْنَاكَ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي الْخَيْرُ؛ الْأَصْلُ بِالنَّظَرِ إِلَى مِثْلِ الْخَيْرِ الَّذِي ذَاقَهُ هُوَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ذَاقَ خَيْرًا قَالَ: هَذَا لِي لَكِنْ بَدَّلَ ذَاقَ مِنْ «أَذَقْنَاكَ» وَ «الْخَيْرِ» مِنْ قَوْلِهِ: «رَحْمَةً مِنَّا» لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْخَيْرَ الَّذِي ذَاقَهُ هُوَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَذَقَهُ إِيَّاهَا وَ لَيْسَ بِمَصِيبِهِ بِرَأْسِهِ وَ لَا هُوَ يَمْلِكُهُ وَ لَوْ كَانَ يَمْلِكُهُ لَمْ يَنْفَكْ عَنْهُ وَ لَمْ يَمْسَسْهُ الضَّرَاءُ، وَ لِذَا قِيدَ قَوْلُهُ: «وَلَيْتُنَّ أَذَقْنَاكَ» الْخَيْرُ؛ بِقَوْلِهِ: «مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسَّتَهُ» .

و قوله: «لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي أَيُّ أَمْلِكُهُ فَلِي أَنْ أَفْعَلَ فِيهِ مَا أَشَاءُ وَ أَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ أُرِيدُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَمْنَعَنِي مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ أَوْ يَحَاسِبَنِي عَلَى فَعْلٍ، وَ لِهَذَا الْمَعْنَى عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ:

«وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً» فَإِنَّ السَّاعَةَ هِيَ يَوْمُ الْحِسَابِ.

و قوله: «وَلَيْتُنَّ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِيِّ أَيُّ لِمَثُوبَةِ الْحُسْنِيِّ أَوْ لِلْعَاقِبَةِ الْحُسْنِيِّ، وَ هَذَا مَبْنِي عَلَى مَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَ اسْتِحْقَاقِ الْخَيْرِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا مَلَكَتَهُ مِنَ الْخَيْرِ لَوْ كَانَ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّمَا هُوَ لِكِرَامَةِ نَفْسِي عَلَيْهِ وَ عَلَى هَذَا فَإِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي كَأَنَّهُ لِي عِنْدَهُ الْعَاقِبَةُ الْحُسْنِيَّةُ.

فالمعنى: و أقسم لئن أذقنا الإنسان رحمه هي منا و لا يستحقها و لا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته و ذلك يدل على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل و قال: هذا لي -يشير إلى شخص النعمة و لا يسميها رحمه- و ليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه و يحاسبني عليه و ما أظن الساعة- و هي يوم الحساب- قائمه، و أقسم لئن رجعت إلى ربي و قامت ساعه كانت لي عنده العاقبة الحسنی لكرامتي عليه كما أنعم علي من النعمة.

و الآيه نظيره قوله في قصه صاحب الجنة: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَيْتُنَّ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُتَقَلِّبًا (الكهف ٣٦)» و قد تقدم بعض

الكلام فيه.

و قوله: فَلَتَبَيَّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ تهديد و وعيد.

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ النَّأَى الْإِبْتِعَادُ، والمراد بالجانب الجارحه و هى الجنب أو المراد الجهة و المكان فقوله: «نَأَى بِجَانِبِهِ» كناية عن الابتعاد بنفسه و هو كناية عن التكبر و الخيلاء، و المراد بالعريض الواسع، و الدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر و أصر عليه الداعى، و الآيه فى مقام ذم الإنسان و توبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه و تكبر و إذا سلب النعمة ذكر الله و أقبل عليه بالدعاء مستمرا مصرا.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «أَرَأَيْتُمْ» أى أخبرونى، و الشقاق و المشاقه الخلاف، و الشقاق البعيد الخلاف الذى لا يقارب الوفاق و هو شديده، و قوله: «مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» كناية عن المشركين و لم يقل: منكم بل أتى بالموصول و الصله و ذلك فى معنى الصفه ليدل على عله الحكم و هو الشقاق البعيد من الحق.

و المعنى: قل للمشركين أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل منكم؟ أى لا- أضل منكم لأنكم فى خلاف فعيد من حق ما فوجه حق.

فمفاد الآيه أن القرآن يدعوكم الى الله ناطقا بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه فى دعواه و هذا يكفى فى وجوب النظر فى أمره دفعا للضرر المحتمل و أى ضرر أقوى من الهلاك الأبدى فلا معنى لإعراضكم عنه بالكليه.

قوله تعالى: سَتُنْرِihَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ الخ: الآفاق جمع أفق و هو الناحيه، و الشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود و هو

و ضمير «أَنَّهُ» للقرآن على ما يعطيه سياق الآيه و يؤيده الآيه السابقه التي تذكر كفرهم بالقرآن،و على هذا فالآيه تعد إراءه آيات فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقا،و الآيات التي شأنها إثبات حقيته القرآن هي الحوادث و المواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ و المؤمنين و يمكن لهم فى الأرض و يظهر دينهم على الدين كله و ينتقم من مشركى قريش الى غير ذلك.

فأمر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بالهجره الى المدينه و قد اشتد الأمر عليه و على من آمن به غايتها فلاسماء تظلمهم و لا أرض تقلهم ثم قتل صنديد قريش فى بدر و لم يزل يرفع ذكره و يفتح على يديه حتى فتح مكه و دانت له جزيره العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعموره فأرى سبحانه المشركين آياته فى الآفاق و هي النواحي التي فتحتها للمسلمين و نشر فيها دينهم،و فى أنفسهم و هو قتلهم الذريع فى بدر.

و ليست هذه آيات فى أنفسها فكم من فتح و غلبه يذكره التاريخ و مقاتل ذريعه يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه وعد بها و القرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها.

و يمكن أن يكون المراد بإراءه الآيات و تبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده و تظل السعاده على النوع الإنسانى و هي الغايه لخلقهم،و قد تقدم استفاده ذلك من قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ الْآيَه (النور/ ٥٥)؛ وغيره و أيدناه بالدليل العقلى.

و الفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول الى مشركى مكه و من يتبعهم خاصه و على الثانى الى مشركى الامه عامه و الخطاب على أى حال اجتماعى،و يمكن الجمع بين

و يمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظه من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام و تضل عنه الدعاوى و تبطل الأسباب و لا يبقى إلا الله عز اسمه و يؤيده ذيل الآيه و الآيه التاليه، و ضمير «أَنَّهُ الْحَقُّ» على هذا لله سبحانه.

و قوله: «أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فَأَعْلَمَ يَكْفِي» هو «بِرَبِّكَ» و الباء زائده، و «أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» بدل من الفاعل، و الاستفهام للإنكار، و المعنى أو لم يكف في تبين الحق كون ربك مشهودا على كل شيء إذ ما من شيء إلا و هو فقير من جميع جهاته اليه متعلق به و هو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء و إن لم يعرفه بعض الأشياء.

و اتصال الجملة أعنى قوله: «أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» الخ؛ بقوله: «سَيُنزِّلُ مِنْ سَمَاءٍ مَاءً يَكْفِي» الخ؛ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضيه ظاهر، و أما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوتهم الى التوحيد فانتقل من الدلاله على حقيقته القرآن للدلاله على حقيقته ما يدعو اليه الى الدلاله على حقيقته ما يدعو اليه مستقيما من غير واسطه كأنه قيل: سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذى يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل: و هذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أو لم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء؟

قوله تعالى: «أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» الخ؛ الذى يفيد السيق أن فى الآيه تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كل شيء و هو أقوى براهين التوحيد و أوضحها لمن تعقل لأنهم فى مريه و شك من لقاء ربهم و هو كونه تعالى غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شيء من خلقه.

ثم نبه بقوله: «أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ» على ما يرتفع به هذه المريه و تثبت من أصلها و هو

إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحه قدسه و كبريائه فلا يخلو عنه مكان و ليس في مكان و لا يفقده شيء و ليس في شيء.

ص: ٥٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (۱) عسق (۲) كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا - إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶)

تتكلم السوره حول الوحي الذى هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه و رسله كما يدل عليه ما فى مفتحتها من قوله: «كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ» الآية؛ و ما فى مختتمها من قوله: «وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً؛ الآيات، و رجوع الكلام إليه مره بعد أخرى فى قوله: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا الآية؛ و قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا الآية؛ و قوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ الآية؛ و ما يتكرر فى السوره من حديث الرزق على ما سيجىء.

فالوحي هو الموضوع الذى يجرى عليه الكلام فى السوره و ما فيها من التعرض لآيات التوحيد و صفات المؤمنين و الكفار و ما يستقبل كلا من الفريقين فى معادهم و رجوعهم الى الله سبحانه مقصود بالقصد الثانى و كلام جره كلام.

و السوره مكيه و قد استثنى قوله: «وَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ إِلَىٰ تَمَامِ ثَلَاثِ آيَاتٍ، و قوله: «قُلْ لَا أُشْرِكُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» الى تمام أربع آيات و سيجىء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «حم عسق» من الحروف المقطعه الواقعه فى أوائل عده من السور القرآنيه، و ذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد فى غيره من الكتب السماويه.

و قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين فى تفسيرها و قد نقل عنهم الطبرسى فى مجمع البيان أحد عشر قولاً فى معناها:

أحدها: أنها من المتشابهات التى استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثانى: أن كلا منها اسم للسوره التى وقعت فى مفتحتها.

الثالث: أنها أسماء القرآن أى لمجموعه.

الرابع: أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله: «الم» معناه أنا الله أعلم، وقوله:

«المِر» معناه أنا الله أعلم و أرى، وقوله: «المص» معناه أنا الله أعلم و أفصل، وقوله:

«كهيعص» الكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من العليم، والصاد من الصادق، وهو مروى عن ابن عباس، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفه فى أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمه كالميم من أعلم.

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعه لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول:

الروحمون يكون الرحمن وكذلك سائرهما إلا أنا لا نقدر على تأليفها وهو مروى عن سعيد بن جبير.

السادس: أنها أقسام الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه و هى شريفه لكونها مباني كتبه المنزله، وأسمائه الحسنى و صفاته العليا، و اصول لغات الامم على اختلافها.

السابع: أنها إشارات الى آلائه تعالى و بلائه و مده الأتوام و أعمارها و آجالهم.

الثامن: أن المراد بها الإشاره الى بقاء هذه الامه على ما يدل عليه حساب الجمل.

التاسع: أن المراد بها حروف المعجم و قد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال:

اب و يراد به جميع الحروف.

العاشر: أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصلوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن و أن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: **لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ الْآيَةَ**؛ فربما صفقوا و ربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى تلاوته، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها و تفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن فى مسامعهم.

الحادى عشر: أنها من قبيل تعداد حروف التهجى و المراد بها أن هذا القرآن الذى عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التى تتحاورون بها فى خطبكم و كلامكم فإذا لم تقدرُوا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى، وإنما كررت الحروف فى مواضع استظهارها فى الحجج، و هو مروى عن قطرب و اختاره أبو مسلم الأصبهاني و اليه يميل جمع من المتأخرين.

فهذه أحد عشر قولاً- و فيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس فى «الم» أن الألف اشارة الى الله و اللام الى جبريل و الميم الى محمد صلى الله عليه و آله و سلم، و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعة فى أوائل السور المفتحة بها إشارة الى الغرض المبين فيها كأن يقال: إن «ن» إشارة الى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و «ق» إشارة الى القرآن أو القهر الإلهى المذكور فى السورة، و ما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ.

و الحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن اليه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم فى بحث المحكم و المتشابه فى أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال فى معنى المتشابه، و عرفت أن الإحكام و التشابه من صفات الآيات التى لها دلالة لفظية على مداليلها، و أن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها و متشابهاتها، و على هذا فلا- هذه الحروف المقطعة متشابهات و لا معانيها المراد بها تأويلات لها.

و أما الأقوال العشرة الأخر فإنما هى تصويرات لا تتعدى حد الاحتمال و لا دليل يدل على شىء منها.

نعم فى بعض الروايات المنسوبة الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع و السابع و الثامن و العاشر و سيأتى نقلها و الكلام فى مفادها فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

و الذى لا ينبغى أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت فى سور شتى و هى تسع و عشرون

سوره افتتح بعضها بحرف واحد و هي ص و ق و ن، و بعضها بحرفين و هي سور طه و طس و يس و حم. و بعضها بثلاثة أحرف كما في سورتى «الم» و «الر» و طسم و بعضها بأربعة أحرف كما في سورتى «المص» و «المر» و بعضها بخمسة أحرف كما في سورتى «كهيعص» و «حم عسق» .

و تختلف هذه الحروف أيضا من حيث إن بعضها لم يقع إلا فى موضع واحد مثل «ن» و بعضها واقعه فى مفتتح عدة من السور مثل «الم» و «المر» و «طس» و «حم» .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبير فى هذه السور التى تشترك فى الحروف المفتتح بها مثل الميمات و الرءات و الطواسين و الحواميم، وجدت فى السور المشتركة فى الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور.

و يؤكد ذلك ما فى مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما فى مفتتح الحواميم من قوله:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ» أو ما هو فى معناه، و ما فى مفتتح الرءات من قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» أو ما هو فى معناه، و نظير ذلك واقع فى مفتتح الطواسين، و ما فى مفتتح الميمات من نفى الريب عن الكتاب أو ما هو فى معناه.

و يمكن أن يحسد من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعه و بين مضامين السور المفتحة بها ارتباطا خاصا، و يؤيد ذلك ما نجد أن سوره الأعراف المصدرة بالمص فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و ص، و كذا سوره الرعد المصدرة بالمر فى مضمونها كأنها جامعه بين مضامين الميمات و الرءات.

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله صلى الله عليه و آله و سلم خفيه عنا لا سبيل لأفهامنا العاديه إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين المودعه فى السور ارتباطا خاصا.

و لعل المتدبر لو تدبر فى مشتركات هذه الحروف و قايىس مضامين السور التى وقعت فيها

بعضها الى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

و لعل هذا معنى ما روته أهل السنه عن على عليه السّلام-على ما فى المجمع-أن لكل كتاب صفوه و صفوه هذا الكتاب حروف التهجى.

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ -الى قوله- الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ مقتضى كون غرض السوره بيان الوحي بتعريف حقيقته و الإشاره الى غايته و آثاره أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى شخص الوحي بإلقاء هذه السوره الى النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فيكون تعريفا لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار اليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا فى تعريف الإنسان مثلا هو كزيد.

و عليه يكون قوله: «إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ» فى معنى اليكم جميعا، و إنما عبر بما عبر للدلاله على أن الوحي سنه إلهيه جاريه غير مبتدعه، و المعنى أن الوحي الذى نوحيه اليكم معشر الأنبياء-نبيا بعد نبي سنه جاريه-هو كهذا الذى تجده و تشاهده فى تلقى هذه السور.

و قد أخذ جمهور المفسرين قوله: «كَذَلِكَ» إشاره الى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون فى الحقيقه إشاره الى المعارف التى تشتمل عليها السوره و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السوره مما أوحاه الله تعالى الى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه، و قد عرفت أنه لا يوافق غرض السوره و يأباه سياق آياتها.

و قوله: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ خمس من أسمائه الحسنى، و قوله: «لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فى معنى المالك، و هو واقع موقع التعليل لأصل الوحي و لكونه سنه إلهيه جاريه فالذى يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هدايه الناس الى سعادته حياتهم فى الدنيا و الآخره و ليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد، و لا هو تعالى يهمل أمر هدايه عباده لأنه حكيم

متقن في أفعاله و من إتقان الفعل أن السياق الى غايته.

و من حقه تعالى أن يتصرف فيهم و في امورهم كيف يشاء، لأنه مالكهم و له أن يعبدهم و يستعبدهم بالأمر و النهي لأنه على عظيم فلكل من الأسماء الخمسه حظه من التعليل، و ينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهه لا ولى غيره.

قوله تعالى: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ الخ؛ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

الذى يهدى اليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقه الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق الى الأرض قال تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (المؤمنون / ١٧).

و الوجه في تقييد «يَتَفَطَّرْنَ» بقوله: «مِنْ فَوْقِهِنَّ» ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق و العظمه المطلقه فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

على ما فيه من إعظام أمر الوحي و إعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذى العظمه المطلقه تكاد السماوات يتفطرن بنزوله و لكونه كلاما نازلا من عند ذى العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فألا-يه في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيره قوله: حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (سبأ ٢٣) في إعظامه من حيث تلقى ملائكة السماوات إياه، و نظيره قوله: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ (الحشر ٢١) في إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيره قوله: إِنَّا سَيِّئِلْقَى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (المزمل ٥) في استثقاله و استصعاب حمله. هذا

ما يعطيه السياق.

وقوله: وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَى ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحه قدسه و يشنون عليه بجميل فعله، و مما لا يليق بساحه قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحى و هو منه فعل جميل، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض، و حصول المغفره إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديه بالاهتداء بهدايه الله سبحانه فسؤالهم المغفره لهم مرجعه الى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى و الملائكه يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن فى الأرض من طريق الوحى ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك.

و يشهد على هذا المعنى وقوع الجمله فى سياق بيان صفة الوحى و كذا تعلق الاستغفار بمن فى الأرض إذ لا معنى لطلب المغفره منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: اتَّخَذَ اللَّهُ وَاَمَدًا و قد حكى الله تعالى عنهم: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية (المؤمن ٧) فالمتعين حمل سؤال المغفره على سؤال سببها و هو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

وقوله: أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ أَى أن الله سبحانه لا تصافه بصفتى المغفره و الرحمه و تسميه باسمى الغفور الرحيم يليق بساحه قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفره و الرحمه من عنده و هو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به الى سعادتهم من طريق الوحى و التكليم.

قيل: و فى قوله: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ» الخ؛ إشاره الى قبول استغفار الملائكه و أنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفره رحمه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ لما استفيد من الآيات السابقه أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولى غيره

و هو يتولى أمر من فى الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحى الى أنبيائه على ما يقتضيه أسماءه الحسنى و صفاته العليا، و لازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار فى هذه الآية الى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له فى الربوبية و الألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون و أن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، و ليس على النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسئولاً عن أعمالهم.

فقوله: **اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ** أى يحفظ عليهم شركهم و ما يتفرع عليه من الأعمال السيئة.

فقوله: **وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** أى مفوضا اليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدایتهم الى الحق، و الكلام لا يخلو من نوع من التسليه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم (١).

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٧ الى ١٢]

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

ص: ٥٣٨

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا الْإِشَارَةُ إِلَى الْوَحْيِ الْمَفْهُومِ مِنْ سَابِقِ السِّيَاقِ، وَام الْقُرَى هِيَ مَكَّةُ الْمُشْرِفَةِ وَالْمُرَادُ بِإِنذَارِ ام الْقُرَى إِنذَارُ أَهْلِهَا، وَالْمُرَادُ بِمَنْ حَوْلَهَا سَائِرُ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ مِمَّنْ هُوَ خَارِجٌ مَكَّةَ كَمَا يُؤَيِّدُهُ تَوْصِيفُ الْقُرْآنِ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الدَّعْوَةَ النَّبَوِيَّةَ كَانَتْ ذَاتَ فِى تَوْسِعِهَا فَابْتَدَأَتْ الدَّعْوَةَ الْعَلْنِيَّةَ بِدَعْوَةِ الْعَشِيرَةِ الْأَقْرَبِينَ كَمَا قَالَ: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (الشعراء/٢١٤) ثُمَّ تَوْسَعَتْ فَتَعَلَّقَتْ بِالْعَرَبِ عَامَةً كَمَا قَالَ: قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (حم السجده/٣) ثُمَّ بِجَمِيعِ النَّاسِ كَمَا قَالَ: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ بِالتَّوَسُّعِ تَدْرِيجًا قَوْلُهُ تَعَالَى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (ص ٨٧) فَإِنَّ الْخُطَابَ عَلَى مَا يَعْطِيهِ سِيَاقُ السُّورَةِ لِكُفَّارِ قَرِيْشٍ يَقُولُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ ذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ لَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ دُونَ بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ لِلْجَمِيعِ فَلَا مَعْنَى لِأَنَّ يَسْأَلُ بَعْضَهُمْ - كَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ - بَعْضًا عَلَيْهِ أَجْرًا.

على أن تعلق الدعوه بأهل الكتاب و خاصة باليهود و النصارى من ضروريات القرآن،

و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي و بلال الحبشي و صهيب الرومي من ضروريات التاريخ.

و قيل المراد بقوله: «مَنْ حَوْلَهَا» سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها و يؤيده التعبير عن مكة بام القرى.

و الآيه- كما ترى- تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي و هو النبوه فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوه و الإنذار.

قوله تعالى: وَ تُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ عطف على «تُنذِرَ» السابق و هو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل:

لتنذر الناس و تخوفهم من الله و خاصه من سخطه يوم الجمع.

و قوله: يَوْمَ الْجُمُعِ مفعول ثان لقوله: «تُنذِرَ» و ليس بظرف له و هو ظاهر، و يوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى: ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ -الى أن قال- فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (هود ١٠٥).

و قوله: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ في مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل: لما ذا ينذرهم يوم الجمع؟ فقيل «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» أى إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب و شقى معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء و الهبوط في مهبط الهلكه.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً الى آخر الآيه لما كانت الآيه مسوقه لبيان لزوم الإنذار و النبوه من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق الى الذهن من جعلهم امه واحده مطلق رفع التفرق و التميز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفه واحده من غير فرق و ميزه، و لم تقع عند ذلك حاجه الى النبوه و الإنذار.

و قوله: وَ لَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا نَصِيْرَ اسْتَدْرَاكٍ يَبِيْنُ فِيْهِ اَنْ سَنَّتَهُ تَعَالَى جَرَتْ عَلَى التَّفْرِيقِ وَ لَمْ يَشَأْ جَعَلَهُمْ اِمَهً وَاحِدَهً يَدُلُّ عَلَى ذَلِكُ قَوْلُهُ: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ» الدَّالُّ عَلَى الاسْتِمْرَارِ، وَ لَمْ يَقُلْ: وَ لَكِنْ اَدْخَلَ وَ نَحْوَهُ.

وَ قَدْ قُوْبِلَ فِي الْآيَةِ قَوْلُهُ: «مَنْ يَشَاءُ» بِقَوْلِهِ: «وَ الظَّالِمُونَ» فَالْمُرَادُ بِمَنْ يَشَاءُ غَيْرَ الظَّالِمِيْنَ وَ قَدْ فَسَّرَ الظَّالِمِيْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: فَأَذَنٌ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ اَنْ لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلٰى الظَّالِمِيْنَ الَّذِيْنَ يَصُدُّوْنَ عَن سَبِيْلِ اللّٰهِ وَ يَبْغُوْنَهَا عَوْجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف ٤٥) فَهَمْ الْمَعَانِدُونَ الْمُنْكَرُونَ لِلْمَعَادِ.

وَ قُوْبِلَ اَيْضًا بَيْنَ الْاِدْخَالِ فِي الرَّحْمَةِ وَ بَيْنَ نَفْيِ الْوَلِيِّ وَ النَّصِيْرِ فَالْمُدْخَلُونَ فِي رَحْمَتِهِ هُمُ الَّذِيْنَ وَلِيَهُمُ اللّٰهُ، وَ الَّذِيْنَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيْرٍ هُمُ الَّذِيْنَ لَا يَدْخُلُهُمُ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ، وَ اَيْضًا الرَّحْمَةُ هِيَ الْجَنَّةُ وَ انْتِفَاءُ الْوَلَايَةِ وَ النَّصْرَةُ يَلَازِمُ السَّعِيْرَ.

فَمَحْمَلُ مَعْنَى الْآيَةِ: اَنْ اللّٰهُ سَبَّحَانَهُ اِنَّمَا قَدَرَ النَّبُوْهَ وَ الْاِنْذَارَ الْمَتَفَرِّعَ عَلَى الْوَحْيِ لِمَكَانٍ مَا سَيَعْتَرِيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ فَرِيقِيْنِ، لِيَتَحَرَّزُوا مِنَ الدَّخُوْلِ فِي فَرِيقِ السَّعِيْرِ.

وَ لَوْ اَرَادَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ اِمَهً وَاحِدَهً فَاسْتَوَتْ حَالُهُمْ وَ لَمْ يَتَفَرَّقُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِيقِيْنِ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ ذَلِكُ مَا تَقْتَضِيْ النَّبُوْهَ وَ الْاِنْذَارَ فَلَمْ يَكُنْ وَحْيًا لَكِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَرُدْ ذَلِكُ بَلْ جَرَتْ سَنَّتُهُ عَلَى اَنْ يَتَوَلَّى اَمْرَ قَوْمٍ مِنْهُمْ وَ هُمُ غَيْرُ الظَّالِمِيْنَ فَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ وَ فِي رَحْمَتِهِ، وَ لَا يَتَوَلَّى اَمْرَ آخِرِيْنَ وَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَيَكُونُوا الْاَوْلَى لَهُمْ وَ لَا نَصِيْرٍ وَ يَصِيْرُوا اِلَى السَّعِيْرِ لَا مُخْلَصٌ لَهُمْ مِنَ النَّارِ.

فَقَدْ تَحَصَّلَ مِمَّا تَقَدَّمَ اَنْ الْمُرَادُ بِجَعَلَهُمْ اِمَهً وَاحِدَهً هُوَ التَّسْوِيْهُ بَيْنَهُمْ بِاِدْخَالِ الْجَمِيْعِ فِي الْجَنَّةِ وَ اِدْخَالِ الْجَمِيْعِ فِي السَّعِيْرِ اَيِّ اِنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ بِمَلْزَمٍ بِاِدْخَالِ السَّعْدَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَ الْاَشْقِيَاءِ فِي النَّارِ فَلَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَفْعَلْ لَكِنَّهُ شَاءَ اَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ الْفَرِيقِيْنَ وَ جَرَتْ سَنَّتُهُ عَلَى ذَلِكُ وَ وَعَدَ بِذَلِكُ وَ هُوَ لَا يَخْلُفُ الْمِيْعَادَ وَ مَعَ ذَلِكُ فَقَدْرَتُهُ الْمَطْلَقَةُ بِاَقِيَّتِهِ عَلَى حَالِهَا لَمْ تَنْسَلِبْ وَ لَمْ تَتَّغَيَّرْ فَقَوْلُهُ:

«وَ تُنْذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيْهِ» اِلَى تَمَامِ الْآيَتِيْنَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ فِي سُوْرَةِ هُوْدٍ: اِنَّ فِيْ ذَلِكُ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكُ يَوْمٌ مَّجْمُوْعٌ لَّهُ النَّاسُ اِلَى تَمَامِ سَبْعِ آيَاتٍ فَرَاوَجَ

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ -الى قوله- فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ تَفِيدُ الْإِنْكَارَ كَمَا ذَكَرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ. لَمَّا أَفَادَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَتَوَلَّى أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ وَأَنَّ الظَّالِمِينَ هُمُ الْكَافِرُونَ الْمَعَانِدُونَ لَا وَلِيَ لَهُمْ تَعْرُضُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ يَدِينُونَ لَهُمْ وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَلِيًّا يَدِينُونَ لَهُ وَيَعْبُدُونَهُ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ عَلَى وَجوب اتخاذه وليا بالحجه بعد الحججه و ذلك قوله: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ» الخ.

فقوله: فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ تعليل للانكار السابق لاتخاذهم من دونه اولياء فيكون حجه لوجوب اتخاذه وليا، و الجملة-فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ- تَفِيدُ حَصْرَ الْوَلَايَةِ فِي اللَّهِ وَ قَدْ تَبَيَّنَتِ الْحُجَّةُ عَلَى أَصْلِ وَلايَتِهِ وَ انْحِصَارِهَا فِيهِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ كَمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ.

و المعنى: أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ وليا أن يتخذه وليا و لا يتعداه الى غيره إذ لا ولي غيره.

و قوله: وَ هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى حجه ثانيه على وجوب اتخاذه تعالى وحده وليا، و محصله أن عمده الغرض في اتخاذ الولي و التدبير له بعبوديته التخلص من عذاب السعير و الفوز بالجنة يوم القيامة و الميثب و المعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ وليا دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء و لا يشعرون أيا ن يبعثون.

و قوله: وَ هُوَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ حجه ثالثه على وجوب اتخاذه تعالى وليا

دون غيره، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدره على ما يتولاه من شئون من يتولاه و أموره، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدره لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى و تقدس.

□
وقوله: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ حجه رابعه على كونه تعالى وليا لا ولي غيره، وحكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه و تثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفي، والاختلاف ربما كان في عقيدته كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة و شئون الحياه فهو أعنى الحكم يساوق القضاء مصداقا و إن اختلفا مفهوما.

ثم الحكم و القضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولاية و إن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا الى ثالث فاتخذاه حكما ليحكم بينهما و يتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى و أعطياه من نفسهما القبول و التسليم فهو وليهما في ذلك.

و الله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده و آثار وجوده قائما به تعالى فله الحكم و القضاء بالحق قال تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (القصص ٨٨/)، و قال: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (المائدة ٢/).
قال: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (آل عمران ٦٠/).

و حكمه تعالى إما تكويني و هو تحقيقه و تثبيته المسببات قبل الأسباب المجتمعه عليها المتنازعه فيها بتقديم ما نسميه سببا تاما على غيره قال تعالى حاكيا عن يعقوب عليه السلام: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (يوسف ٦٧/). و إما تشريعي كالتكاليف الموضوعه في الدين الإلهي الراجعه الى الاعتقاد و العمل قال تعالى: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (يوسف ٤٠/).

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه و هو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه و هو إعلانه و إظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهده عيان و إيقان فيسعد به و بآثاره من كان مع الحق و يشقى بالاستكبار عليه و تبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى: **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** (البقره ١١٣/).

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم و أعمالهم اختلاف تشريعى لا يرفعه إلا الأحكام و القوانين التشريعيه و لولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير اليه قوله تعالى: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ** (البقره ٢١٣/)، و قد تبين أن الحكم التشريعى لله سبحانه فهو الولى فى ذلك فيجب أن يتخذ وحده وليا فيعبد و يدان بما أنزله من الدين.

و هذا معنى قوله: **«وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ»** و محصل الحججه أن الولى الذى يعبد و يدان له يجب أن يكون رافعا لاختلافات من يتولونه مصلحا لما فسد من شئون مجتمعهم سائقا لهم الى سعادته الحياه الدائمه بما يضعه عليهم من الحكم و هو الدين، و الحكم فى ذلك الى الله سبحانه، فهو الولى الذى يجب أن يتخذ وليا لا غير.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** كلام محكى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الإشارة بذلكم الى من أقيمت الحجج فى الآيتين على وجوب اتخاذه وليا و هو الله سبحانه، و لازم ولايته ربوبيته.

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولى لا ولى غيره أمر صلى الله عليه و آله و سلم بإعلام أنه الله و أنه اتخذه وليا بالاعتراف له بالربوبية التى هى ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور

من الآثار و هو قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» .

و ذلك أن ولايه الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الامور و تنظيم الأسباب و المسببات بحث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلا- ما قدر له من الوجود و البقاء، و تتعلق بنظام التشريع و هو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين و أحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به الى كمال سعادته.

و لازم اتخاذه تعالى ربا و ليا من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير اليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية و الركون اليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي اليه كل سبب و هذا هو التوكل، و من جهة التشريع الرجوع الى حكمه في كل واقعه يستقبله الإنسان في مسير حياته و هذا هو الإنابة فقوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» أى أرجع في جميع اموري، تصريح بإرجاع الأمر اليه تكويننا و تشريعا.

قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَنَّهُ صَرَحَ بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ رَبُّهُ لِقِيَامِ الْحُجُجِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ حُدَّهُ عَقِبَ ذَلِكَ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَ الَّتِي بَعْدَهَا عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى وَ حُدَّهُ.

و محصل الحجج: أنه تعالى موجد الأشياء و فاطرها بالإخراج من كتم العدم الى الوجود و قد جعلكم أزواجا فكثركم بذلك و جعل من الأنعام أزواجا فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، و هذا خلق و تدبير، و هو سميع لما يساله خلقه من الحوائج فيقضى لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا و هو الذى يملك مفاتيح خزائن السماوات و الأرض التى ادخر فيها ما لها من خواص و وجودها و آثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود و هو الذى يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم و يضيق عن علم منه بذلك. و هذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للامور.

فقوله: «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» أى موجدها من كتم العدل على سبيل الإبداع.

وقوله: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا و ذلك بخلق الذكر و الانثى للذين يتم بتزاوجهما أمر التوالد و التناسل و تكثر الأفراد «وَ مِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا» أى و جعل من الأنعام أزواجاً «يَذُرُّكُمْ فِيهِ» أى يكثركم فى هذا الجعل، و الخطاب فى «يَذُرُّكُمْ» للإنسان و الأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري.

و قوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ أى ليس مثله شىء، فالكاف زائده للتأكيد و له نظائر كثيره فى كلام العرب.

و قوله: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أى السميع لما يرفع اليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الرحمن ٢٩/١)، و قال:

وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ (إبراهيم ٣٤/١)، و قال: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (الحديد ٤/١).

قوله تعالى: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الى آخر الآيه المقاليد المفاتيح و فى إثبات المقاليد للسموات و الأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر فى الكون من الحوادث و الآثار الوجوديه.

و قوله: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ بسط الرزق توسعته و قدره تضيقه و الرزق كل ما يمد به البقاء و يرتفع به حاجه من حوائج الوجود فى استمراره.

و تذييل الكلام بقوله: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للإشارة الى أن الرزق و اختلافه فى موارد البسط و القدر ليس على سبيل المجازفه جهلا بل عن علم منه تعالى بكل شىء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله و الرزق بحسب حاله و ما يحف بهما من الأوضاع و الأحوال الخارجيه، و هذا هو الحكمه فهو يبسط و يقدر بالحكمه.

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَيْبَقَتِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

بيان:

قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى يقال: شرع الطريق شرعا أى سواه طريقا واضحا بينا. قال الراغب: الوصيه التقدم الى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم: أرض واصيه متصله النبات و يقال: أوصاه و وصاه انتهى. و فى معناه إشعار بالأهميه فما كل أمر يوصى به و إنما يختار لذلك ما يهتم به الموصى و يعتنى بشأنه.

ف قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا» أى بين و أوضح لكم من الدين و هو سنه الحياه ما قدم و عهد الى نوح مهتما به، و اللائح من السياق أن الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أمته، و أن المراد مما وصى به نوحا شريعته نوح عليه السَّلام.

و قوله: «وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ظَاهِرَ الْمَقَابِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ الْمُرَادُ بِمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مَا اخْتَصَتْ بِهِ شَرِيعَتُهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَ الْأَحْكَامِ، وَ إِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْإِيحَاءِ دُونَ التَّوْصِيَةِ لِأَنَّ التَّوْصِيَةَ كَمَا تَقْدِمُ إِنَّمَا تَتَّعَلَقُ مِنَ الْأُمُورِ بِمَا يَهْتَمُّ بِهِ وَ يَعْنِي بِشَأْنِهِ خَاصَهُ وَ هُوَ أَهْمُ الْعُقَائِدِ وَ الْأَعْمَالِ، وَ شَرِيعَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا جَلَّ وَ دَقَّ مَحْتَوِيَهُ عَلَى الْأَهْمِ وَ غَيْرِهِ بِخِلَافِ شُرَائِعِ غَيْرِهِ فَقَدْ كَانَتْ مَحْدُودَةً بِمَا هُوَ الْأَهْمُ الْمُنَاسِبُ لِحَالِ أُمَّمِهِمْ وَ الْمَوْافِقُ لِمَبْلَغِ اسْتِعْدَادِهِمْ.

و الالتفات في قوله: «وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا» من الغيبه الى التكلم مع الغير للدلاله على العظمه فإن العظماء يتكلمون عنهم و عن خدمهم و أتباعهم.

و قوله: «وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى عَطْفَ عَلِيٍّ قَوْلُهُ: «مَا وَصَّيْنَا بِهِ» وَ الْمُرَادُ بِهِ مَا شَرَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و الترتيب الذى بينهم عليه السَّلام فى الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السَّلام، و إنما قدم ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للتشريف و التفضيل كما فى قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ (الأحزاب ٧)» و إنما قدم نوحا و بدأ به للدلاله على قدم هذه الشريعة و طول عهدها.

و استفاد من الآيه امور:

أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتتان و خاصه بالنظر الى ذيل الآيه و الآيه التاليه يعطى أن الشريعة المحمديه جامعته للشرائع الماضيه و لا ينافيه قوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ (المائد ٤٨)» لأن كون الشريعة شريعته خاصه لا ينافى جامعيتها.

الثانى: أن الشرائع الإلهيه المنتسبه الى الوحي إنما هى شريعته نوح و إبراهيم و موسى

و عيسى و محمد عليهم السلام إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعيه المذكوره.

و لازم ذلك أولا: أن لا شريعه قبل نوح عليه السلام بمعنى القوانين الحاكمه فى المجتمع الإنسانى الرافعه للاختلافات الاجتماعيه و قد تقدم نبذه من الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ الْآيَةَ (البقره ٢١٣).

و ثانيا: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعتهم الى بعثه إبراهيم و بعدها على شريعه إبراهيم الى بعثه موسى و هكذا.

الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع و اولى العزم هم هؤلاء الخمسه المذكورون فى الآيه إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادته الأنبياء و يدل على تقدمهم أيضا قوله: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ (الأحزاب ٧).

و قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا» أن تفسيريه، و إقامه الدين حفظه بالاتباع و العمل و اللام فى الدين للعهد أى أقيموا هذا الدين المشروع لكم، و عدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه و عدم الاختلاف فيه.

لما كان شرع الدين لهم فى معنى أمرهم جميعا باتباعه و العمل به من غير اختلاف فسر به بالأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعا إقامه الدين جميعا و عدم التفرق و التشتت فيه بإقامه بعض و ترك بعض، و إقامته بالإيمان بجميع ما أنزل الله و العمل بما يجب عليه العمل به.

فجميع الشرائع التى أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرق فيه فأما الأحكام السماويه المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامه فيها ظاهر و أما الأحكام المشرعه فى بعض هذه الشرائع المنسوخه فى الشريعه اللاحقه فحقيقه الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفه من الناس فى زمن خاص و معنى نسخه تبيين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (الأحزاب ٤) فالحكم المنسوخ

حق دائما غير أنه خاص بطائفة خاصه في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به و يعملوا به و يجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل و هذا معنى إقامته و عدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامه الدين و عدم التفرق فيه في قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان.

و قوله: كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ المراد بقوله: «مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» دين التوحيد الذي كان يدعو اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآيه التاليه، و المراد بكبره على المشركين تخرجهم من قبوله.

و قوله: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ الاجتباء هو الجمع و الاجتلاب، و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «إِلَيْهِ» الثاني و الثالث راجعا الى ما يرجع اليه الأول و المعنى الله يجمع و يجتلب الى دين التوحيد-و هو ما تدعوهم اليه-من يشاء من عباده و يهدى اليه من يرجع اليه فيكون مجموع قوله: «كَبَّرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ» في معنى قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِِبْرَاهِيمَ (الحج ٧٨).

قوله تعالى: وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا- مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ الى آخر الآيه؛ ضمير «تَفَرَّقُوا» للناس المفهوم من السياق، و البغى الظلم أو الحسد، و تقييده بقوله:

«بَيْنَهُمْ» للدلاله على تداوله، و المعنى و ما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعه باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذا-أو ناشئا-من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلما أو حسدا تداولوه بينهم.

و هذا هو الاختلاف في الدين المؤدى الى الانشعابات و التحزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه الى البغى، و أما الاختلاف المؤدى الى نزول الشريعه و هو الاختلاف في شئون الحياه و التفرق في امور المعاش فهو أمر عائد الى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم

و هو الذريعه الى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير اليه قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ (البقره ٢١٣) كما تقدم فى تفسير الآيه.

و قوله: وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ لَقَضَيْتَ بَيْنَهُمُ الْمِرَادَ بِالْكَلِمَةِ مِثْلَ قَوْلِهِ: حِينَ إِهْبَاطِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (البقره ٣٦).

و المعنى: و لو لا- أن الله قضى فيهم الاستقرار و التمتع فى الأرض الى أجل سماه و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم فى دينه و انحرافهم عن سبيله لأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

و قوله: وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٍ ضَمِيرٍ «مِنْ بَعْدِهِمْ» لاولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف، و الذين اورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآيه أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقه كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا، بغيا بينهم، و أخلافهم الذين اورثوا الكتاب من بعدهم فى شك مريب-موقع فى الريب- منه.

قوله تعالى: فَلَاذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. تفرغ على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و امهم ثم انقسام امهم الى أسلاف اختلفوا فى الدين عن علم بغيا، و الى أخلاف شاكين مرتابين فيما اورثوه من الكتاب أى فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لأجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» .

و اللام فى قوله: «فَلَاذَلِكَ» للتعليل، و قيل: اللام بمعنى الى أى الى ما شرع لكم من الدين فادع و استقم كما أمرت، و الاستقامه- كما ذكر الراغب- لزوم المنهاج المستقيم، و قوله: «وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» كالمفسر له.

و قوله: وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ تُسَوِّيه بَيْنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ مِنْ

حيث تصديقها والإيمان بها و هي الكتب المنزله من عند الله المشتمله على الشرائع.

و قوله: «وَأُمِرْتُ لِأَعِيدَ لَكُمْ قِيلَ: اللام زائده للتأكيد نظير قوله: «وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام ٧١)»، والمعنى: و أمرت أن أعدل بينكم أى اسوى بينكم فلا اقدم قويا على ضعيف ولا غنيا على فقير ولا كبيرا على صغير، ولا أفضل أبيض على أسود ولا عربيا على عجمي ولا هاشميا أو قرشيا على غيره فالدعوه متوجهه الى الجميع، والناس قبال الشرع الإلهي سواء.

فقوله: «آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ تَسْوِيهِ بَيْنَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ مِنْ حَيْثُ الْإِيمَانُ بِهَا، وَقَوْلُهُ: «وَأُمِرْتُ لِأَعِيدَ لَكُمْ» تَسْوِيهِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ الدَّعْوَةُ وَ تَوْجُوهَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ.

و قوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ الْخ»؛ فى مقام التعليل لما ذكر من التسويه بين الكتب و الشرائع فى الإيمان بها و بين الناس فى دعوتهم و شمول الأحكام لهم، و لذا جىء فى الكلام بالفصل من غير عطف.

فقوله: «اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ رَبَّ الْكُلِّ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ تَعَالَى فَلَيْسَ لَهُمْ أَرْبَابٌ كَثِيرُونَ حَتَّى يَلْحَقَ كُلُّ بَرِيءٍ وَ يَتَفَاضَلُوا بِالْأَرْبَابِ وَ يَقْتَصِرَ كُلُّ مَنْهُمْ بِالْإِيمَانِ بِشَرِيعَةِ رَبِّهِ بَلَّ اللَّهُ هُوَ رَبُّ الْجَمِيعِ وَ هُمْ جَمِيعًا عِبَادُهُ الْمَمْلُوكُونَ لَهُ الْمُدَبِّرُونَ بِأَمْرِهِ وَ الشَّرَائِعَ الْمُنزَلَةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عِنْدِهِ فَلَا مَوْجِبَ لِلْإِيمَانِ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ كَمَا يُؤْمِنُ الْيَهُودُ بِشَرِيعَةِ مُوسَى دُونَ مَنْ بَعْدَهُ وَ كَذَا النَّصَارَى بِشَرِيعَةِ عِيسَى دُونَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بَلَّ الْوَاجِبَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ كِتَابٍ نَازَلَ مِنْ عِنْدِهِ لِأَنَّهَا جَمِيعًا مِنْ عِنْدِهِ.

و قوله: «لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ وَ إِنِ اخْتَلَفَتْ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَ مِنْ حَيْثُ الْجَزَاءِ ثَوَابًا أَوْ عِقَابًا إِلَّا- أَنَّهُ لَا- تَتَعَدَّى عَامِلَهَا فَلِكُلِّ امْرئٍ مَا عَمِلَ فَلَا يَنْتَفِعُ أَحَدٌ بِعَمَلِ آخَرَ وَ لَا يَتَضَرَّرُ بِعَمَلِ غَيْرِهِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْدَمَ امْرَأً لِلانْتِفَاعِ بِعَمَلِهِ

أو يؤخر امرأاً للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك الى الله فيما يحاسب به عباده لا الى الناس-النبى فمن دونه-الذين هم جميعا عباد مملوكون لا- يملك منهم نفس من نفس شيئا، وهذا هو الذى ذكره تعالى في محاوره نوح عليه السلام قومه: **قَالُوا أُنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ قَالُوا مَا عَلِمْنَا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ** (الشعراء ١١٣/)، وكذا قوله يخاطب النبى صلى الله عليه وآله وسلم: **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ٥٢/)**.

وقوله: **لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم لَعَلَّ الْمُرَاد أَنَّهُ لَا حُجَّةَ تَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ تَكُونُ فِيمَا بَيْنَنَا يَقِيمُهَا بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ يَثْبُتُ بِهَا تَقَدُّمُهُ عَلَيْهِ.**

ويمكن أن يكون نفى الحجة كناية عن نفى لازمها وهو الخصومه أى لا خصومه بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن فى أننا جميعا عباده واحد وكل نفس ما عملت فلا حجة فى البين أى لا خصومه حتى تتخذ لها حجة.

وقوله: **اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا** المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب فى الجمل السابقه، والمراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامه للحساب والجزاء على ما قيل.

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم فى الربوبية فهو رب الجميع والجميع عباده فيكون قوله: **«اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا»** تأكيداً لقوله السابق: **«اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ»** وتوطئه وتمهيدا لقوله:

«وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعا واليه منتهانا لأنه اليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

وكان مقتضى الظاهر فى التعليل أن يقال: **«اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكم أعمالكم لا حجة بينى وبينكم على محاذاه قوله: «آمَنْتُ» وَأُمِرْتُ لِأَعْدَلَ»** لكن عدل عن المتكلم وحده الى المتكلم مع الغير لدلاله قوله السابق: **«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا»** الخ؛ وقوله:

«اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» أن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبى صلى الله عليه وآله وسلم

و يلبون دعوته و يتبعون شريعته.

فالمراد بالمتكلم مع الغير فى «رَبَّنَا» و «لَنَا أَعْمَالُنَا» و «بَيْنَنَا» هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ، وَ بِالْمَخَاطِبِينَ فِي قَوْلِهِ: «وَرَبُّكُمْ» وَ «أَعْمَالُكُمْ» وَ «بَيْنَكُمْ» سَائِرَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ الْمُشْرِكِينَ، وَ الْآيَةَ عَلَى وَزَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٦٤).

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ الْحِجَّةُ هِيَ الْقَوْلُ الَّذِي يَقْصَدُ بِهِ إِثْبَاتُ شَيْءٍ أَوْ إِبْطَالُهُ مِنَ الْحُجِّ بِمَعْنَى الْقَصْدِ، وَ الدَّحْضُ الْبَطْلَانُ وَ الزَّوَالُ.

و المعنى: -على ما قيل- و الذين يحاجون فى الله أى يحتجون على نفى ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له و دخلوا فى دينه لظهور الحججه و وضوح المحججه حجتهم باطله زائله عند ربهم و عليهم غضب منه تعالى و لهم عذاب شديد.

و الظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة و هو التلقى بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطره الإنسانيه السليمه فإن الدين بما فيه من المعارف فطرى تصدقه و تستجيب له الفطره الحيه قال تعالى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمُؤْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام ٣٦)، و قال: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨)، و قال: فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (الروم ٣٠).

و محصل الآية: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو فى دينه بعد استجابه الفطره السليمه له أو بعد استجابه الناس بفطرتهم السليمه له حجتهم باطله زائله عند ربهم و عليهم غضب منه و لهم عذاب شديد لا يقادر قدره.

و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقه حيث تذكر أن الله شرع ديننا و وصى

به أنبياءه و اجتبي اليه من شاء من عباده فالمحاجه في أن لله ديناً يستعبد به عباده داحضه و من الممكن حينئذ أن يكون قوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» في مقام التعليل و حجه مدحضه لحجتهم فتدبر فيه.

سوره الشورى (٤٢): الآيات ١٧ الى ٢٦

اشاره

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَقَعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)

قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ الخ؛ كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه و آثاره كَمَا ذَكَرَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ كَمَا ذَكَرَكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ وَ قَدْ غَيَّرَ السِّيَاقَ فِي مَفْتَحِ هَذَا الْفَصْلِ فَجِئْنَا بِالْجُمْلَةِ الْأَسْمِيَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِتَوْصِيْفِهِ تَعَالَىٰ بِإِنزَالِ الْكِتَابِ وَ الْمِيزَانِ «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ» الخ؛ و لازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب و الميزان به.

و لعل الوجه فيه ما تقدم في الآيه السابقة من ذكر المحاجه في الله «وَ الَّذِينَ يُخَيَّرُونَ فِي اللَّهِ» فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق و الميزان، و لازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت.

و كيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة و الدين الحاكم في المجتمع

البشرى، وقد تقدم فى تفسير قوله تعالى: كَذَانَ الدَّاسُ أُمَّةٌ وَإِحْدَهُ الْآيَةُ (البقره ٢١٣)؛ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب فى الكتاب، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحباً للحق لا يخالطه اختلاف شيطانى ولا نفسانى.

والميزان ما يوزن و يقدر به الأشياء، والمراد به بقريته ذيل الآيه و الآيات التالىة هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد و الأعمال فتحاسب عليه و يجرى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين باصوله و فروعه، و يؤيده قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ (الحديد ٢٥)، على ما هو ظاهر قوله: «مَعَهُمْ» .

و قوله: وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ لما كان الميزان المشعر بالحساب و الجزاء يومى الى البعث و القيامة انتقل الى الكلام فيه و إنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال و التبشير بما أعدّ فيه للصالحين.

و الإجراء الإعلام، و المراد بالساعة-على ما قيل-إتيانها و لذا جىء بالخبر مذكراً، و المعنى: ما الذى يعلمك لعل إتيان الساعة قريب و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع و يعمّ الانذار و التخويف.

قوله تعالى: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا الخ؛ المراد استعجالهم استعجال سخرية و استهزاء و قد تكرر فى القرآن نقل قولهم:

«مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

و الإشفاق نوع من الخوف، قال الراغب: الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه، قال تعالى: «وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» فإذا عدى بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، و إذا عدى بفى فمعنى العناية فيه أظهر، قال تعالى: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ مُشْفِقُونَ مِنْهَا انتهى.

وقوله: أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ المماراه الإصرار على الجدل، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطئوا طريق الحياه التي إصابتها أهم ما يتصور للانسان فتوهموها حياه مقطوعه فانيه انكبوا فيها على شهوات الدنيا و إنما هي حياه خالده باقيه يجب عليهم أن يتزوّدوا من دنياهم لاخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشده فوقعوا في سبيل الغي.

□
□
قوله تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ في معنى اللطف شيء من الرفق و سهوله الفعل و شيء من الدقه في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق و الدقه و كان الفاعل يفعل برفق و سهوله و يقع فعله على الامور الدقيقه كان لطيفا كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق و سهوله المماس لدقائق أجزائها الباطنه. و إذا القيت الخصوصيات الماديه عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الامور بإحاطته و علمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

و قد رتب الرزق في الآيه على كونه تعالى لطيفا بعباده قويا عزيزا دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق و لا يعصيه و بقوته عليه لا يعجز عنه و بعزته لا يمنعه مانع عنه.

و المراد بالرزق ما يعمّ موهبه الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآيه التاليه، و لذا ألحق القول فيه بقوله: «اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ» .

□
قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ السَّخْبَ؛ الْحَرْثُ الزَّرْعُ و المراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعاره كأن الأعمال الصالحه بذور و ما تنتجه في الآخرة حرث.

□
و المراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه و مضاعفته، قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا (الأنعام ١٦٠)، و قال: وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ (البقره ٢٦١).

وقوله: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ أَى و من كان يريد النتائج الدنيويه بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نُؤتته من الدنيا و ما له في الآخرة نصيب، و فى التعبير بإرادته الحرث إشاره الى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا و الآخرة كما قال تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى (النجم ٣٩).

و قد ابهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: «نُؤْتِهِ مِنْهَا» إشاره الى أن الأمر الى المشيه الإلهيه فربما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (الإسراء ١٨).

و المحصل من معنى الآيتين: أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعا ذو قوه مطلقه و عزّه مطلقه يرزق عباده على حسب مشيته و قد شاء فى من أراد الآخرة و عمل لها أن يرزقه منها و يزيد فيه، و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يُؤتته منها و ما له فى الآخرة من نصيب.

و يظهر من ذلك أن الآيه الاولى عامه تشمل الفريقين، و المراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا و الآخرة، و كذا الرزق و أن الآيه الثانيه فى مقام تفصيل ما فى قوله: «يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ» من الإجمال.

قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ الى آخر الآيه لما بين أن الله سبحانه هو الذى أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذى هو ميزان أعمالهم و أنه بلطفه و قوته و عزته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ما أراد منها و يزيد، و أن من أراد الدنيا و نسى الآخرة لا نصيب له فيها سَجَل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع دينا غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله و لا يرزق فى الآخرة رزقا حسنا إلا من آمن بها و عمل لها.

فقوله: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ الْخ؛ فى مقام الإنكار، وقوله: «وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ لَقَضَيْ بَيْنَهُمْ» إشاره الى الكلمه التى سبقت منه تعالى أنهم يعيشون فى الأرض الى أجل مسمى، وفيه إكبار لجرمهم و معصيتهم.

وقوله: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وعيد لهم على ظلمهم، وإشاره الى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعد بهم فى الدنيا فلهم فى الآخرة عذاب أليم.

وقوله تعالى: تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقع بهم الخ؛ الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذى شرعه لعباده المعرضون عن الساعه، والمعنى: يرى الرءون هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

و الآيه من الآيات الظاهره فى تجسم الأعمال.

وقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ فى المجمع: إن الروضه الأرض الخضره بحسن النبات، و الجنة الأرض التى تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجره المخضره متونها.

وقوله: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أى إن نظام الأسباب مطوى فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاءون ذلك هو الفضل الكبير.

وقوله: ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ تبشير للمؤمنين الصالحين، و إضافه العباد تشريفيه.

وقوله تعالى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى الذى نفى سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرساله و الدعوه الدينيه، و قد حكى الله ذلك عن عده ممن قبله صلى الله عليه و آله و سلم من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم امته:

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الشعراء و غيرها.

وقد حكى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك إذ قال: وَمَا تَسَاءَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (يوسف ١٠٤/١)، وقد أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخاطب الناس بذلك بتعابير مختلفة حيث قال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (ص ٨٦/١)، وقال: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ (سبأ ٤٧/١)، وقال: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (الأنعام ٩٠/١)، فأشار الى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر.

وقال: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (الفرقان ٥٧/١)، ومعناه على ما مر في تفسير الآية: إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ الى ربه سبيلا أى يستجيب دعوتى باختياره فهو أجرى أى لا شىء هناك وراء الدعوه أى لا أجر.

وقال تعالى في هذه السوره: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» فجعل أجر رسالته الموده فى القربى، و من المتقين من مضامين سائر الآيات التى فى هذا المعنى أن هذه الموده أمر يرجع الى استجابته الدعوه إما استجابته كلها و إما استجابته بعضها الذى يهتم به و ظاهر الاستثناء على أى حال أنه متصل بدعوى كون الموده من الأجر و لا حاجه الى ما تمخّله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه.

و أما معنى الموده فى القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم:

ف قيل - و نسب الى الجمهور - أن الخطاب لقريش و الأجر المسئول هو مودّتهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لقربته منهم و ذلك لأنهم كانوا يكذبونه و يبغضونه لتعرضه لآلهتهم على ما فى بعض الأخبار فامر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يسألهم: إن لم يؤمنوا به فليؤدوه لمكان قربته منهم و لا يبغضوه و لا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابه، و فى اللسبويه.

و فيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطى الأجر فيعطى العامل ما يعادل ما امتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش و هم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما

كان يصح على تقدير إيمانهم به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر، وعلى تقدير الإيمان به-والنبوه أحد الأصول الثلاثة في الدين-لا يتصور بغض حتى تجعل الموده أجراً للرسالة و يسأل.

و بالجمله لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسئولين و لا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا الموده.

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أى حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم و الاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجمله بجميع قيودها فأجد التأمل فيه.

و قيل: المراد بالموده فى القربى ما تقدم و الخطاب للأَنْصار فقد قيل: إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما نبوه فنزلت الآية فردّه، و قد كان له منهم قرابه من جهه سلمى بنت زيد النجارية و من جهه أخوال أمه آمنه على ما قيل.

و فيه أن أمر الأَنْصار فى حبهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب و هم الذين سأله أن يهاجر اليهم، و بؤءوا له الدار، و فدوه بالأنفس و الأموال و البنين و بذلوا كل جهدهم فى نصرته و حتى فى الإحسان على من هاجر اليهم من المؤمنين به، و قد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: **وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَ يُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (الحشر ٩/)**، و هذا مبلغ حبهم للمهاجرين اليهم لأجل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فما هو الظنّ فى حبهم له؟

و إذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتوسل الى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابه البعيده؟

على أن العرب ما كانت تعتنى بالقرابه من جهه النساء ذاك الاعتناء و فيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا

بنوهنّ أبناء الرجال الأبعاد

ص: ٥٦٢

و القائل:

و إنما امهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنسب آباء

و إنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابه و ساوى بين أولاد البنين و أولاد البنات و قد تقدم الكلام في ذلك.

و قيل: الخطاب لقريش و المودّه في القربى هي المودّه بسبب القرابه غير أن المراد بها موده النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لا موده قريش كما في الوجه الأول، و الاستثناء منقطع، و محصل المعنى: أنى لا أسألكم أجرا على ما أدعوكم اليه من الهدى الذى ينتهى بكم الى روضات الجنات و الخلود فيها و لا أطلب منكم جزاء لكن حبى لكم بسبب قرابتكم منى دفعنى الى أن أهديكم اليه و أدلكم عليه.

و فيه أنه لا يلائم ما يخده الله سبحانه له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فى طريق الدعوه و الهدايه فإنه تعالى يسجل عليه فى مواضع كثيره من كلامه أن الأمر فى هدايه الناس الى الله و ليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع الى هدايه أحد لحب قرابه أو يعرض عن هدايه آخرين لبغض أو كراهه و مع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله: «قُلْ لاَ أَشِئُكُمْ» الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنما اندفع الى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه.

و قيل: المراد بالموده فى القربى موده الأقرباء و الخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى: لا أسألكم على دعائى أجرا إلا أن تودوا أقرباءكم.

و فيه أن موده الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب اليه فى الإسلام قال تعالى: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ آيَدَهُمْ بَرُوحٍ مِنْهُ (المجادله ٢٢)»، و سياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصه أو مقيدة لعموم قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أو

ص: ٥٦٣

إطلاقه حتى تكون الموده للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة على أن هذه الموده الخاصه لا تلائم خطاب قريش أو عامه الناس.

بل الذى يفيد سباق الآيه أن الذى يندب اليه الإسلام هو الحب فى الله من غير أن يكون للقرايه خصوصيه فى ذلك، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرايه و الرحم لكنه بعنوان صله الرحم و إيتاء المال، على حبه ذوى القربى لا بعنوان موده القربى فلا حب إلا الله عز اسمه.

و لا- مساغ للقول بأن الموده فى القربى فى الآيه كناية عن صلتهم و الإحسان اليهم بإيتاء المال إذ ليس فى الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقى غير الملائم لما ندب اليه الإسلام من الحب فى الله.

و قيل: معنى القربى هو التقرب الى الله، و الموده فى القربى هي التودد اليه تعالى بالطاعه و التقرب فالمعنى: لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوا اليه تعالى بالتقرب اليه.

و فيه أن فى قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» على هذا المعنى إبهاما لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد اليه- أو وده تعالى- بالتقرب اليه و المشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عباده الآلهه توددا اليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (الزمر ٢٣)، هُوَ لَأَشْفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ (يونس ١٨)

فسؤال التودد الى الله بالتقرب اليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، و جعل ذلك أجرا مطلوبيا ممن يرى شركه نوع تودد الى الله بالتقرب اليه، و خطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام -و المقام مقام تمحيضه صلى الله عليه و آله و سلم نفسه فى دعوتهم الى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئا قط- مما لا يرتضيه الذوق السليم.

على أن المستعمل فى الآيه هو الموده دون التودد فالمراد بالموده حبهم لله فى التقرب اليه و لم يرد فى كلامه تعالى إطلاق الموده على حب العباد لله سبحانه و إن ورد العكس كما فى قوله: إِنَّ

رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (هود ٩٠/)، و قوله: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (البروج ١٤/)، و لعل ذلك لما فى لفظ الموده من الإشعار بمراعاة حال المودود و تعاوده و تفقده، حتى قال بعضهم على ما حكاه الراغب- إن موده الله لعباده مراعاته لهم.

و الإشكال السابق على حاله و لو فسرت الموده فى القربى بمواده الناس بعضهم بعضا و محاببتهم فى التقرب الى الله بأن تكون القربات أسبابا للموده و الحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون.

و قيل: المراد بالموده فى القربى، موده قرابه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هم عترته من أهل بيته عليهم السلام و قد وردت به روايات من طرق أهل السنه و تكاثرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآيه بمودتهم و موالاتهم، و يؤيده الأخبار المتواتره من طرق الفريقين على وجوب موالاته أهل البيت عليهم السلام و محبتهم.

ثم التأمل الكافى فى الروايات المتواتره الوارده من طرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم المتضمنه لإرجاع الناس فى فهم كتاب الله بما فيه من اصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه الى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين و حديث السفينه و غيرهما لا- يدع ريبا فى أن إيجاب مودتهم و جعلها أجرا للرساله إنما كان ذريعه الى إرجاع الناس اليهم فيما كان لهم من المرجعيه العلميه.

فالموده المفروضه على كونها أجرا للرساله لم تكن أمرا وراء الدعوه الدينيه من حيث بقائها و دوامها، فالآيه فى مؤداها لا تغاير مؤدى سائر الآيات النافيه لسؤال الأجر.

و يقول معناها الى أنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن الله لما أوجب عليكم موده عامه المؤمنين و من جملتهم قرابتي فإنى أحاسب مودتكم لقرابتي و أعدّها أجرا لرسالتي، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (مريم ٩٦/) و قال: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (التوبه ٧١/).

و بذلك يظهر فساد ما اورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوه لما فيه من التهمه فإن أكثر طلبه الدنيا يفعلون شيئا و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم.

و أيضا فيه منافاه لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ (يوسف ١٠٤).

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنما هو بحسب الدعوى و أما بحسب الحقيقه فلا يزيد مدلول الآيه على ما يدل عليه الآيات الأخر النافيه لسؤال الأجر كما عرفت و ما فى ذلك من النفع عائد اليهم فلا مورد للتهمه.

على أن الآيه على هذا مدنيه خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمه إلهيه-بعد الإيمان به و تصديق عصمته-فيما يأتيهم به من ربهم و لو جاز اتهامهم له فى ذلك و كان ذلك غير مناسب لشأن النبوه لا يصلح لأن يخاطب به، لا طرد مثل ذلك فى خطابات كثيره قرآنيه كالأيات الداله على فرض طاعته المطلقه و الداله على كون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله، و الداله على خمس ذوى القربى، و ما ابيح له فى أمر النساء و غير ذلك.

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمه و دفعها فى قوله الآتى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الآيه على ما سيأتى.

و هب أنا صرفنا الآيه عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعا لما ذكر من التهمه فما هو الدافع لها عن الأخبار التى لا تحصى كثره الوارده من طرق الفريقين فى إيجاب موده أهل البيت عنه صلى الله عليه و آله و سلم؟

و أما منافاه هذه الوجه لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه، و الآيه بقياس مدلولها الى الآيات النافيه لسؤال الأجر نظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الفرقان ٥٧).

قال فى الكشف بعد اختياره هذا الوجه: فإن قلت: هلا قيل: إلا موده القربى أو إلا الموده للقربى، و ما معنى قوله: إلا الموده فى القربى؟

قلت: جعلوا مكانا للموده و مقرا لها كقولك: لى فى آل فلان موده، و لى فيهم هوى و حب شديد، تريد احبهم و هم مكان حبى و محله.

قال: و ليست فى بصله للموده كاللام إذا قلت: إلا- الموده للقربى. إنما هى متعلقه بمحذوف تعلق الطرف به فى قولك: المال فى الكيس، و تقديره: إلا الموده ثابتة فى القربى و متمكنه فيها.

انتهى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسَيْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ الاقتراف الاكتساب، و الحسنه الفعله التى يرتضيها الله سبحانه و يثيب عليها، و حسن العمل ملاءمته لسعاده الإنسان و الغايه التى يقصدها كما أن مساءته و قبحه خلاف ذلك، و زياده حسنها إتمام ما نقص من جهاتها و إكماله و من ذلك الزياده فى ثوابها كما قال تعالى:

وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (العنكبوت ٧)، و قال: لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ (النور ٣٨).

و المعنى: و من يكتسب حسنه نزد له فى تلك الحسنه حسنا- برفع نقائصها و زياده أجرها- إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله.

و قيل: المراد بالحسنه موده قربى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و يؤيده ما فى روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام أن قوله: «قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» الى تمام أربع آيات نزلت فى موده قربى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و لازم ذلك كون الآيات مدنيه و أنها ذات سياق واحد و أن المراد بالحسنه من حيث انطباقها على المورد هى الموده، و على هذا فالإشارة بقوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى» الخ؛ الى بعض ما تفوه به المنافقون ثقاقلا عن قبوله و فى المؤمنين سماعون لهم، و بقوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ» الى آخر الآيتين؛ الى توبه الراجعين منهم و قبولها.

و فى قوله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ التفات من التكلم الى الغيبه و الوجه فيه الإشارة الى عله الاتصاف بالمغفره و الشكر فإن المعنى: إن الله غفور شكور لأنه عز اسمه.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِلَى آخِرِ آيَةٍ أَمْ مَنْقُطَعَهُ، والكلام مسوق للتوبيخ و لازمه إنكار كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ مفترياً على الله كذباً.

□
و قوله: فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفريه فتأتى بها وإنما هو وحى من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر الى مشيئته تعالى فَإِنْ يَشَأِ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَ سَدَّ بَابَ الْوَحْيِ الْيَكِّ، لكنه شاء أن يوحى اليك و يبين الحق، و قد جرت سنته أن يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته.

□
فقوله: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» كناية عن إرجاع الأمر الى مشيئته الله و تنزيهه لساحه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ أن يأتي بشيء من عنده.

و هذا المعنى - كما سترى - أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و التوبيخ متوجها الى المنافقين و مرضى القلوب.

□
و قوله: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ: الإتيان بالمضارع - يمحو و يحق - للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنّه جاريه له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي و التكليم الربوبي و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحة عن الضمير الغيبي.

□
و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ تعليل لقوله: «وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» الخ؛ أى إنه يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم يا نزال الوحي و توجيه الدعوه.

□
قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَغْفِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ يقال: قبل منه و قبل عنه قال فى الكشاف: يقال: قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدأ قبولي و منشأه، و معنى قبلته عنه عزلته و أبتته عنه.

انتهى.

و فى قوله: وَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ تحضيض على التوبه و تحذير عن اقتراقات السيئات و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فاعل «يَسْتَجِيبُ» ضمير راجع اليه تعالى و «الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ فى موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للذين آمنوا-على ما قيل- و قيل: فاعل «يَسْتَجِيبُ» هو «الَّذِينَ» و هو بعيد من السياق.

و الاستجابه إجابته الدعاء و لما كانت العباده دعوه له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابه لهم، و الدليل على هذا المعنى قوله: «و يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» فإن ظاهره زياده الثواب و كذا مقابله استجابه المؤمنين بقوله: «و الْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» .

بحث روائى:

فى المجمع روى زادن عن على عليه السلام قال: فىنا فى آل حم آيه لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن.

ثم قرأ قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى .

قال الطبرسى: و إلى هذا أشار الكميت فى قوله:

وجدنا لكم فى آل حم آيه

تأولها منا تقى و مهرب

و فيه و صحّ عن الحسن بن على عليهما السلام أنه خطب الناس فقال فى خطبته: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال: قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى .

و فى الكافى بإسناده عن عبد الله بن عجلان عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: «قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» قال: هم الأئمه.

أقول: والأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جدا مرويه عنهم.

و في الدر المشهور أخرج أحمد بن حميد و البخارى و مسلم و الترمذى و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: «إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» فقال سعيد بن جبیر: هم قريبي آل محمد فقال ابن عباس: عجلت إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابه فقال: إلا أن تصلوا ما بينى و بينكم من القرابه.

أقول: و رواه أيضا عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق، و قد تقدم في بيان الآيه أن هذا المعنى غير مستقيم و لا منطبق على سياق الآيه، و من العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآيه منسوخه بقوله تعالى: قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .

و فيه أخرج أبو نعيم و الديلمى من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ: لا أسألكم عليه أجرا إلا الموده في القربى أن تحفظونى فى أهل بيتى و تودوهم لى.

و فيه أخرج ابن المنذر، و ابن أبى حاتم و الطبرانى و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآيه: «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال: على و فاطمه و ولداها.

أقول: و رواه الطبرسى فى المجمع و فيها «و ولداها» مكان «و ولداها».

و فيه أخرج ابن جرير عن أبى الديلم قال: لما جىء بعلى بن الحسين أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم و استأصلكم فقال له على بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: أ ما قرأت «قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

و فيه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس «و مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً» قال: الموده لآل محمد.

أقول: وروى ما فى معناه فى الكافى بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام.

وفى تفسير القمى حدثنى أبى عن ابن أبى نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول فى قول الله عزّ وجل: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» يعنى فى أهل بيته.

قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إنا قد آوينا ونصرنا فخذ طائفه من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عزّ وجل «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» أى فى أهل بيته.

ثم قال: لا ترى أن الرجل يكون له صديق وفى نفس ذلك الرجل شىء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عزّ وجل أن لا يكون فى نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شىء على أمته ففرض الله عليهم الموده فى القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضا، وإن تركوا تركوا مفروضا.

قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتى من بعدى، وقال طائفه: ما قال هذا رسول الله وجلده وقالوا كما حكى الله عزّ وجل:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» فقال عزّ وجل: «فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ» قال: لو افترت «وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ» يعنى يبطله «وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» يعنى بالأئمه والقائم من آل محمد عليهم السلام إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أقول: وروى قصة الأنصار السيوطى فى الدر المنثور عن الطبرانى وابن مردويه من طريق ابن جبير وضعفه.

[سورة الشورى (٤٢): الآيات ٢٧ الى ٥٠]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَأْبٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسَيِّئِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفَى عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْأَنْثَى وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِرَبِّهِ ظَلَمَهُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَرْدٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيِّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا أَنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِذَا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

قوله تعالى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» و القدر بفتح الدال و سكونها كميته الشيء و هندسته و منه قوله: «وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ» أو جعل الشيء على كميته معينه و منه قوله: «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ» (المرسلات ٢٣).

و البغى الظلم، و قوله: «بِعِبَادِهِ» من وضع الظاهر موضع الضمير، و النكته فيه الإشاره الى بيان كونه خيرا بصيرا بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له، و كذا قوله السابق: «لِعِبَادِهِ» لا يخلو من إشاره الى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد على مولاه.

و معنى الآية: و لو وسع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض -لما أن من طبع سعه المال الأشرف و البطر و الاستكبار و الطغيان كما قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَن لِّيَطْغَى» أَنْ رَأَىٰ أَنَّهُ يُغْنَىٰ (العلق ٧) -و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كميته معينه إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتاه ذلك.

ففى قوله: **وَ لَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ** بيان للسنة الإلهيه فى إيتاء الرزق بالنظر الى صلاح حال الناس أى إن لصلاح حالهم أثر فى تقدير أرزاقهم، ولا ينافى ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنة اخرى حاكمه على هذه السنة و هى سنة الابتلاء و الامتحان، قال تعالى: **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** (التغابن ١٥)، و سنة اخرى هى سنة المكر و الاستدراج، قال تعالى: **سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** (الأعراف ١٨٣).

فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال: **وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَّا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ** (آل عمران ١٥٤) أو يغير النعمه و يكفر بها فيغير الله فى حقه سنته فيعطيه ما يطغيه، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد ١١).

و كما أن إيتاء المال و البنين و سائر النعم الصوريه من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقه و الشرائع السماويه المنتهيه الى الوحي من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها و التلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

فلو نزلت المعارف و الأحكام عن آخرها دفعه واحده-على ما لها من الإحاطه و الشمول لجميع شئون الحياه الإنسانيه-لشقت على الناس و لم يؤمن بها إلا الأوحى منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ تدريجا و على مكث و هتأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض، قال تعالى: **وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ** (الإسراء ١٠٦).

و كذا المعارف العاليه التى هى فى بطون المعارف الساذجه الدينيه لو لم يضرب عليها بالحجاب و بينت لعامة الناس على حد الظواهر المبينه لهم لم يتحملوها و دفعته أفهامهم إلا الأوحى منهم لكن الله سبحانه كلمهم فى ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه

و سعه صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا (الرعد ١٧).

و كذلك الأحكام و التكاليف الشرعيه لو كلف بجميعها جميع الناس لتحرّجوا منها و لم يتحملوها لكنه سبحانه قسّمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضيه لتوجه التكاليف المتنوعه بينهم.

فالرزق بالمعارف و الشرائع من أى جهه فرض كالرزق الصورى مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يُنْشِئُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ القنوط اليأس، و الغيث المطر، قال فى مجمع البيان: الغيث ما كان نافعا فى وقته، و المطر قد يكون نافعا و قد يكون ضارا فى وقته و غير وقته. انتهى. و نشر الرحمه تفريق النعمه بين الناس بإنبات النبات و إخراج الثمار التى يكون سببها المطر.

و فى الآيه انتقال من حديث الرزق الى آيات التوحيد التى لها تعلق ما بالأرزاق، و يتلوها فى هذا المعنى آيات، و تذييل الآيه بالاسمين: الولي الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه فى فعله الجميل.

قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ السخ؛ البث التفريق، و يقال: بثّ الريح التراب إذا أثاره، و الدابه كل ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعا، و المعنى ظاهر.

و ظاهر الآيه أن فى السموات خلقا من الدواب كالأرض، و قول بعضهم: إنما فى السموات من دابه هى الملائكه يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكه غير معهود.

و قوله: وَ هُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ إشاره الى حشر ما بثّ فيهما من دابه و قد عبّر بالجمع لمقابلته البث الذى هو التفريق، و لا دلالة فى قوله: «عَلَىٰ جَمْعِهِمْ» حيث أتى

بضمير أولى العقل على كون ما فى السموات من الدواب أولى عقل كالإنسان لقوله تعالى:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُنَمُّ إِلَيْهِ رَبَّهُمْ يُحْشَرُونَ
(الأنعام ٣٨).

و القدير من أسمائه تعالى الحسنى و هو الذى أركزت فيه قدره و ثبتت، قال الراغب:

القدره إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئه له بها يتمكن من فعل شىء ما، و إذا وصف الله بها فهى نفى العجز عنه، و محال أن يوصف غير الله بالقدره المطلقه معنى و إن أطلق عليه لفظا بل حقه أن يقال: قادر على كذا، و متى قيل: هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، و لهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدره من وجه إلا و يصح أن يوصف بالعجز من وجه و الله تعالى هو الذى ينتفى عنه العجز من كل وجه.

و القدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لا زائدا عليه و لا ناقصا عنه و لذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: «إنه على ما يشاء قدير»، و المقتدر يقاربه نحو «عِنْدَ مَلِيكَ مُقْتَدِرٍ» لكن قد يوصف به البشر، و إذا استعمل فى الله فمعناه معنى القدير و إذا استعمل فى البشر فمعناه المتكلف و المكتسب للقدره، انتهى.

و هو حسن غير أن فى قوله: إن القدره إذا وصف بها الله فهى نفى العجز عنه مساهله ظاهره فإن صفاته تعالى الذاتيه كالحياه و العلم و القدره لها معان إيجابيه هى عين الذات لا معان سلبيه حتى تكون الحياه بمعنى انتفاء الموت و العلم بمعنى انتفاء الجهل و القدره بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون و لازمه خلؤ الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء، و لازم هذا المعنى الإيجابى انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ الْمُصِيبَةُ النَّائِبَةُ تَصِيبُ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهَا تَقْصِدُهُ، و المراد بما كسبت أيديكم المعاصى

و السيئات، وقوله: «وَيَغْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» أى عن كثير مما كسبت أيديكم و هى السيئات.

و الخطاب فى الآيه اجتماعى موجّه الى المجتمع غير منحلّ الى خطابات جزئيه و لازمه كون المراد بالمصيبه التى تصيبهم المصائب العامه الشامله كالفحط و الغلاء و الوباء و الزلازل و غير ذلك.

فيكون المراد أن المصائب و النوائب التى تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم و الله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآيه فى معنى قوله تعالى: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَحْرِ وَ الْبَحْرُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** (الروم ٤١)، وقوله: **وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِن كَذَّبُوا** (الأعراف ٩٦)، و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد ١١)، و غير ذلك من الآيات الداله على أن بين أعمال الإنسان و بين النظام الكونى ارتباطا خاصا فلو جرى المجتمع الإنسانى على ما يقتضيه الفطره من الاعتقاد و العمل لنزلت عليه الخيرات و فتحت عليه البركات و لو أفسدوا أفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنه الإلهيه إلا أن ترد عليه سنه الابتلاء أو سنه الاستدراج و الإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: **ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَآخَذْنَاَهُمْ بِعَثَّةٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ** (الأعراف ٩٥).

و يمكن أن يكون الخطاب فى الآيه عامّا منحلا الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبه فى نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه و ما يتعلق به مستندا الى معصيه أتى بها و سيئه عملها و يعفو الله عن كثير منها.

و كيف كان فالخطاب فى الآيه لعامه الناس من المؤمن و الكافر و هو الذى يفيد السياق و تؤيده الآيه التاليه هذا أولا، و المراد بما كسبته الأيدي المعاصى و السيئات دون مطلق

الأعمال، وهذا ثانياً، والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال و بينها من الارتباط و التداعى دون جزاء الأعمال و هذا ثالثاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، معنى الآية ظاهر و هى باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم و ليس لكم من دونه من ولى يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب و لا نصير ينصركم و يعينكم على دفعها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾، الجوارى جمع جاريه و هى السفينه، و الأعلام جمع علم و هو العلامه و يسمى به الجبل و شبهت السفائن بالجمال لعظمها و ارتفاعها و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ الْخَاضِعِ﴾، ضمير «يَشَأْ» لله تعالى، و ظل بمعنى صار، و «رَوَاكِدَ» جمع راكمه و هى الثالثه فى محلها و المعنى: إن يشاء الله يسكن الريح التى تجرى بها الجوارى فيصرن أى الجوارى ثوابت على ظهر البحر.

و قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمه المنعم بقول أو فعل، و المعنى: إن فيما ذكر من أمر الجوارى من كونها جاريه على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقله للناس و أمتعتهم من ساحل الى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعينه و اشتغل بالتفكر فى نعمه و التفكير فى النعمه من الشكر.

وقيل: المراد بكل صَبَّارٍ شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى الضراء أو فى السراء فإن كان فى الضراء كان من الصابرين و إن كان فى السراء كان من الشاكرين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ الْإِيبَاقِ الْإِهْلَاقِ﴾، و ضمير التأنيث للجوارى و ضمير التذكير للناس، و يوبقهن و يعف معطوفات على «يُسْكِنُ»،

و المعنى: إن يشأ يهلك الجوارى ياغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أى إن بعضها كاف فى اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها.

قوله تعالى: وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ قِيلَ:

هو غايه معطوفه على اخرى محذوفه، و التقدير نحو من قولنا: ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص، و هذا كثير الورد فى القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغايه كقوله: وَ يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران / ١٤٠).

و قوله: وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام / ٧٥).

و جواز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتنى أكرمك و أعطيك كذا و كذا بنصب أعطيك، و المسأله نحويه خلافه فليرجع الى ما ذكره فيه.

قوله تعالى: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الخ؛ تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق و تقسيم له الى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن و الكافر و ما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين، و فيه تخلص الى ذكر صفات المؤمنين و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة.

فقوله: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الخطاب للناس على ما يفيد السباق دون المشركين خاصه، و المراد بما أُوتيتم من شىء جميع ما أعطيه للناس و رزقه من النعيم، و إضافه المتاع الى الحياه للإشاره الى انقطاعه و عدم ثباته و دوامه، و المعنى: فكل شىء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به فى أيام قلائل.

و قوله: وَ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أُنْبِئِي لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ المراد بما عند الله ما ادخره الله ثوابا ليثيب به المؤمنين، و اللام فى «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للملك و الظرف لغو، و قيل اللام متعلق بقوله: «أُنْبِئِي» و الأول أظهر، و كون ما عند الله خيرا لكونه

خالصا من الألم و الكدر و كونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ عطف على قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» والآيه و آيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنه و قول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

و كبائر الإثم المعاصي الكبيره التي لها آثار سوء عظيمه و قد عدّ تعالى منها شرب الخمر و الميسر، قال تعالى: قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ (البقره ٢١٩)، و الفواحش جمع فاحشه و هي المعصيه الشنيعه النكراء و قد عدّ تعالى منها الزنا و اللواط قال: وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً (الإسراء ٣٢)، و قال حاكيا عن لوط: أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (النمل ٥٤).

و قوله: يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ و هو فى سورة مكيه إشاره الى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصي و الفواحش.

و فى قوله: وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ إشاره الى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل: و يغفرون إذا غضبوا ففى الكلام جهات من التأكيد و ليس قصرا للمغفره عند الغضب فيهم.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْخ؛ الاستجابه هى الإجابه و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحه-على ما يفيدہ السياق-و ذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكيه و لم يشرّع يومئذ أمثال الزكاه و الخمس و الصوم و الجهاد، و فى قوله: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» من الإشاره الى إجمال الأعمال الصالحه المشرّعه نظير ما تقدّم فى قوله: «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ» الخ؛ و نظير الكلام جار فى الآيات التاليه.

و قوله: وَ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ قال الراغب: و التشاور و المشاوره و المشوره

استخراج الرأى بمراجعته البعض الى البعض من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخرجته منه، قال تعالى: «وَ شَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ» و الشورى الأمر الذى يتشاور فيه، قال تعالى: «وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» انتهى. فالمعنى: الأمر الذى يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه، و يظهر من بعضهم أنه مصدر، و المعنى: و شأنهم المشاوره بينهم.

و كيف كان ففيه إشاره الى أنهم أهل الرشد و إصابه الواقع يمعنون فى استخراج صواب الرأى بمراجعته العقول فالآيه قريبه المعنى من قول الله تعالى: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (الزمر ١٨).

و قوله: «وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» إشاره الى بذل المال لمرضات الله.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» قال الراغب: الانتصار و الاستنصار طلب النصره. انتهى. فالمعنى: الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصره من الآخرين و إذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحده فكأن الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومه قبله و أعدوا عليه النصره.

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر.

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافى المغفره عند الغضب المذكوره فى جمله صفاتهم فإن المقاومه دون الظلم و سد بابه عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريه، قال تعالى: «وَ إِنِ اسْتَنْصَيْتُمْ رُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ (الأنفال ٧٢)»، و قال: «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ (الحجرات ٩)».

قوله تعالى: «وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» الى آخر الآيه بيان لما جعل للمتصر فى انتصاره و هو أن يقابل الباغى بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغى.

قيل: و سمي الثانيه و هى ما يأتى بها المنتصر سيئه لأنها فى مقابله الاولى كما قال تعالى:

فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ (البقره ١٩٤/١)، وقال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الاولى و جزاؤها سيئه لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعايه لتحقيقه معنى اللفظ و إشاره الى أن مجازاه السيئه بمثلها إنما تحمد بشرط المماثله من غير زياده.

و قوله: فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَعَدَّ جَمِيلٌ عَلَى الْعَفْوِ وَالْإِصْلَاحِ، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه و بين ربه، و قيل: المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء.

و قوله: إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله الى الظالم أو لوجه إياه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، و لوجه تعالى الإحسان و الفضل.

قوله تعالى: وَ لَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاتَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ -الى قوله- لَمَنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ضَمِيرٌ «ظُلْمِهِ» راجع الى المظلوم، و الإيضافه من إضافه المصدر الى مفعوله.

الآيات الثلاث تبين و رفع لبس من قوله في الآيه السابقه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فيبين سبحانه بقوله أولا:

«وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَاتَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي، و إرجاع ضمير الأفراد الى الموصول أولا باعتبار لفظه، و ضمير الجمع ثانيا باعتبار معناه.

و بين بقوله ثانيا: إِنَّمَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَنَّ السَّبِيلَ كُلَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ في الانتقام منهم للمظلومين، و أكد ذلك ذيلا بقوله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

و بين بقوله ثالثا: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ أن الدعوه الى

الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار و إنما هي إرشاد الى فضيله هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذى هو من عزم الامور، وقد أكد الكلام بلام القسم أولا و باللام فى خبر إن ثانيا لإفاده العناية بمضمونه.

قوله تعالى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ الخ؛ لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أنّ لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعاده عقباهم التى هداهم الله إليها التفت الى غيرهم و هم الظالمون الآيسون من تلك الهدايه الموصله الى السعاده المحرومون من هذا الرزق الكريم فيبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون الى ما عنده من الرزق و لا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولى حتى يتولى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق، فهم صفر الأ-كف يتمنون عند مشاهدته العذاب الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ الخ؛ من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم و عدم ولى آخر يتولى أمرهم فيهديهم و يرزقهم موضع المسبب و هو الهدايه و الرزق.

و قوله: «و تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَيْلًا إِلَيْنَا مَرَدًّا مِنْ سَبِيلٍ» إشاره الى تمنيههم الرجوع الى الدنيا بعد اليأس عن السعاده و مشاهدته العذاب.

و تَرَى خطاب عام وجه الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بما أنه راء و معناه و ترى و يرى كل من هو راء، و فيه إشاره الى أنهم يتمنون ذلك على رءوس الأشهاد، و المرد هو الرد.

قوله تعالى: وَ تَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ضَمِير «عَلَيْهَا» للنار للدلاله المقام عليها و خفى الطرف ضعيفه و إنما ينظر من طرف خفى. الى المكاره المهوله من ابتلى بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها و لا يجترئ أن يمتلئ بها بصره كالمبصور ينظر الى السيف، و الباقي ظاهر.

و قوله: وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيِ إِنَّ الْخَاسِرِينَ كُلَّ الْخَسِرَانِ وَ بِحَقِيقَتِهِ هُمُ الَّذِينَ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِحِرْمَانِهَا عَنِ النِّجَاحِ وَ أَهْلِيهِمْ بِعَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَ قِيلَ أَهْلُوهُمْ أَزْوَاجُهُمْ مِنَ الْحُورِ وَ خَدَمُهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا وَ لَا يَخْلُو مِنْ وَجْهِ نَظَرِ الْآيَاتِ وَرِاثَةِ الْجَنَّةِ.

وَ هَذَا الْقَوْلُ الْمُنْسُوبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا يَقُولُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَ التَّعْبِيرُ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ الْوَقْعِ - لَا فِي الدُّنْيَا كَمَا يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِهِمْ فَلَيْسَ لِاسْتِنَادِهِ تَعَالَى إِلَى مَقَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَجْهٌ فِي مِثْلِ الْمَقَامِ، وَ لَيْسَ الْقَائِلُونَ بِهِ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتِينَ مِنْ كَانُوا وَ إِنَّمَا هُمُ الْكَامِلُونَ مِنْهُمْ الْمَأْذُونُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ النَّاطِقُونَ بِالْصَّوَابِ مُحْضًا كَأَصْحَابِ الْأَعْرَافِ وَ شُهَدَاءِ الْأَعْمَالِ قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ (هُود ١٠٥). وَ قَالَ: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النَّبَأُ ٣٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الْخ؛ هَذَا التَّعْبِيرُ أَعْنَى قَوْلِهِ: «وَ مَا كَانَ لَهُمْ» الْخ؛ دُونَ أَنْ يُقَالَ: وَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ كَمَا قِيلَ أَوْلَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى ظَهْوَرِ بَطْلَانِ دَعْوَاهُمْ وَ لِيَاةِ أَوْلِيَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَ أَنْ ذَلِكَ كَانَ بَاطِلًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ صَالِحٍ لِتَعْلِيلِ صَدْرِ الْآيَةِ وَ هُوَ كَالنَّتِيجَةِ لِجَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ فِي حَالِ الظَّالِمِينَ فِي عِقَابِهِمْ، وَ نَوْعِ انْعِطَافِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ حَدِيثِ تَشْرِيعِ الشَّرِيعَةِ وَ السَّبِيلِ بِالْوَحْيِ.

فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى السَّعَادَةِ إِلَّا سَبِيلَ اللَّهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ فَمَنْ أَضَلَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ لِكُفْرِهِ وَ تَكْذِيبِهِ بِسَبِيلِهِ فَلَا سَبِيلَ لَهُ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى سَعَادَةِ الْعَقْبِيِّ وَ التَّخَلُّصِ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْهَلَاكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: إِسْتَجِيبُوا لِرَبُّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ دَعْوَهُ وَ إِذْخَارِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاقُ، وَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ الْمَرَادَ بِالْيَوْمِ يَوْمَ الْمَوْتِ غَيْرَ وَجِيهِ.

و فى قوله: «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» (لَا) لطفى الجنس و «مَرَدَّ» اسمه و «لَهُ» خبره و «مِنَ اللَّهِ» حال من «مَرَدَّ»، و المعنى: يوم لا رد له من قبل الله أى إنه مقضى محتوم لا يردّه الله البتة فهو فى معنى ما تكرر فى كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه.

و قوله: مَا لَكُمْ مِنْ مَلْحٍ يَوْمَئِذٍ و مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ الملجأ الملاذ الذى يلتجأ اليه و النكير- كما قيل- مصدر بمعنى الإنكار، و المعنى: ما لكم من ملاذ تلتجئون اليه من الله و ما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهه.

قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ عدول من خطابهم الى خطاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلغا لدين الله إن عليه إلا البلاغ و لم يرسل حفيظا عليهم مسئولا عن إيمانهم و طاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لإقبالهم عليه.

قوله تعالى: وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ بالرحمه كناية عن الاشتغال بالنعمة و نسيان المنعم، و المراد بالسئته المصيبه التى تسوء الإنسان إذا أصابته، و قوله: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ» من وضع الظاهر موضع الضمير، و النكته فيه تسجيل الذمّ و اللوم عليه بذكره باسمه.

و فى الآيه استشعار بإعراضهم و توبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفله إن ذكر بنعمه يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله، و إن ذكر بسئته تصيبه بما قدّمت يدها شغله الكفران عن ذكر ربه فهو فى غفله عن ذكر ربه فى نعمه كانت أو فى نقمه فكاد أن لا تنجح فيه دعوه و لا تنفع فيه موعظه.

قوله تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيهما من قبيل الرزق.

وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقه الرحمه وإصابه السيئه وأن الإنسان يفرح بالرحمه و يكفر فى السيئه فذكر تعالى فى هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و يشتغل به و لا لمن أصابته السيئه أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه.

و يبعده أنه تعالى لم ينسب السيئه فى الآيه السابقة الى نفسه بل الى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبه القسامين جميعا فى هذه الآيه الى مشيئته و دعوتهم الى التسليم لها.

و كيف كان فقوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» فيه قصر الملك و السلطنه فى تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيئته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيه أو يضطره على الخلق.

و قوله: يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ الْإِنَاثَ جمع أنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر، و ظاهر التقابل أن المراد هبه الإناث فقط لمن يشاء و هبه الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كررت المشيه، قيل: وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون فى أذهانهم و خاصه العرب.

و قوله: أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا أى يجمع بينهم حال كونهم ذكرانا و إناثا معا فالتزويج فى اللغة الجمع، و قوله: «وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا» أى لا- يلد و لا- يولد له، و لما كان هذا أيضا قسما برأسه قتيده بالمشيه كالقسامين الأولين، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقه جمع بين القسامين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشيه فيهما.

و قوله: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ تعليل لما تقدم أى إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا

[سوره الشورى (٤٢): الآيات ٥١ الى ٥٣]

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣)

بيان:

قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذُنِهِ مَا يَشَاءُ الخ؛ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى فى الجزء الثانى من الكتاب، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى و التكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع فى كلامه تعالى قال: يَا مُوسَى إِنَّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتى وَ بَكلامى (الأعراف /١٤٤)، و قال: وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (النساء / ١٦٤)، و من مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحى.

و على هذا لا موجب لعد الاستثناء فى قوله: «إِلَّا وَحْيًا» منقطعاً بل الوحى و القسمان

ص: ٥٨٨

(١ - ١). الشورى ٢٧-٥٠: بحث روائى حول قوله تعالى: «لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ»؛ مصائب اولياء الله؛ الشورى.

المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان يارسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: وَحِيّاً -و الوحي الإشاره السريعه على ما ذكره الراغب-مفعول مطلق نوعى و كذا المعطوفان عليه فى معنى المصدر النوعى،و المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا- هذه الأنواع الثلاثه أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر التريديد فى الآيه بأو هو التقسيم على مغايره بين الأقسام و قد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب،و الرسول الذى يوحى الى النبى و لم يقيد القسم الأول بشىء فظاهر المقابله يفيد أن المراد به التكليم الخفى من دون أن يتوسط واسطه بينه تعالى و بين النبى أصلاً، و أما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحى و كل منهما واسطه غير أن الفارق أن الواسطه الذى هو الرسول يوحى الى النبى نفسه و الحجاب واسطه ليس بموح و إنما الوحي من ورائه.

فتحصّل أن القسم الثالث «أَوْ يُرْسَل رَسولاً- فَيُوحَى بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» وحي بتوسط الرسول الذى هو ملك الوحي فيوحى ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْمَأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤)، و قال: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ (البقره ٩٧)، و الموحى مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ (يوسف ٣).

و أن القسم الثانى «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» وحي مع واسطه هو الحجاب غير أن الواسطه لا- يوحى كما فى القسم الثالث و إنما يتدئ الوحي مما وراءه لمكان من، و ليس وراء بمعنى خلف و إنما هو الخارج عن الشىء المحيط به، قال تعالى: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (البروج)

(٢٠)، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور، قال تعالى: فَلَمَّا آتَاهُمَا نُورًا نُبِيًّا مِنْ شَطَائِبِ الْوَادِ الْمَأْيَمِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ (القصص ٣٠)، ومن هذا الباب ما أوحى الى الأنبياء في مناماتهم.

و أن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطه بينه و بين ربه من رسول أو أى حجاب مفروض.

و لما كان للوحى فى جميع هذه الأقسام نسبه اليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحى اليه بأى قسم من الأقسام تحقق و بهذه العناية أسند جميع الوحى اليه فى كلامه كما قال:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلِمًا أَوْحَيْنَا إِلَيْ نُوْحٍ وَ النَّبِيِّنَّ مِنْ بَعْدِهِ (النساء ١٦٣). و قال: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ (النحل ٤٣).

و قوله: إِنَّهُ عَلَّمْنِي حِكْمِيَّ تَعْلِيلٍ لِمُضْمُونِ الْآيَةِ فَهُوَ تَعَالَى لَعَلَّوَهُ عَنِ الْخَلْقِ وَ النِّظَامِ الْحَاكِمِ فِيهِمْ يَجَلُّ أَنْ يَكْلِمَهُمْ كَمَا يَكْلِمُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، و لَعَلَّوَهُ وَ حِكْمَتَهُ يَكْلِمَهُمْ بِمَا اخْتَارَ مِنَ الْوَحْيِ وَ ذَلِكَ أَنْ هَدَايَهُ كُلَّ نَوْعٍ إِلَى سَعَادَتِهِ مِنْ شَأْنِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ: أَلَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، و قَالَ: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل ٩)، و سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ الَّتِي يَسْلُكُ سَبِيلَ سَعَادَتِهِ بِالشُّعُورِ وَ الْعِلْمِ فِي إِعْلَامِ سَعَادَتِهِ وَ الدَّلَالَةِ إِلَى سُنَنِ الْحَيَاةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا وَ لَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ الْعَقْلُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهِ الْإِخْطَاءُ وَ الْإِصَابَةُ فَاخْتَارَ سَبْحَانَهُ لِذَلِكَ طَرِيقَ الْوَحْيِ الَّتِي لَا يَخْطِئُ الْبَتَّةَ، وَ قَدْ فَضَّلْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْحِجَّةِ فِي مَوَارِدٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ الْخ؛ ظاهر السياق كون «كَذَلِكَ» إشارة الى ما ذكر فى الآيه السابقه من الوحى بأقسامه الثلاث، و يؤيده الروايات الكثيره الداله على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَمَا كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ بِتَوْسِطِ جَبْرِيْلٍ وَ هُوَ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ كَانَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي الْمَنَامِ وَ هُوَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي

و يوحى اليه من دون توسط واسطه و هو القسم الأول.

و المراد بإيحاء الروح-على ما قيل-إيحاء القرآن و أيد بقوله: «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا» الخ، و من هنا قيل: إن المراد بالروح القرآن.

لكن يبقى عليه أولاً: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف و الشرائع التى تتلبس بها و تدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك و أبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل اليك بوحينا، و على هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب فى قوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مِمَّا الْكِتَابُ وَ لَا الْإِيمَانُ» لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائدا مستغنى عنه.

و ثانياً: أن القرآن و إن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى:

إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (الأنفال/٢٤)، و قال: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام/١٢٢)، لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله: «مَنْ أَمَرْنَا» و الظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوى يصاحب الملائكة فى نزولهم، قال تعالى: تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر/٤)، و قال: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صِيْفًا (النبا/٣٨)، و قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء/٨٥)، و قال: وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره/٨٧)، و قد سمي جبريل الروح الأمين و روح القدس حيث قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (الشعراء/١٩٣)، و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ (النحل/١٠٢).

و يمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام و إن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه صلى الله عليه و آله و سلم بتفاصيل ما فى الكتاب من المعارف و الشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكه عنه و آثاره الحسنه صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: و كذلك أوحينا اليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب و لا ما تجده فى نفسك من أثره الحسن الجميل و هو

و عن الثانى أن المعهود من كلامه فى معنى الروح و إن كان ذلك لكن حمل الروح فى الآيه على ذلك المعنى و إرادته الروح الأمرى أو جبريل منه يوجب أخذ «أَوْحَيْنَا» بمعنى أرسلنا إذلا- يقال: أوحينا الروح الأمرى أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال و الجوابان لا يخلوان عن شىء.

و قيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه فى كتابه روحا قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤/) و قال: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ .

و قيل: المراد بالروح الروح الأمرى الذى ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا (النحل ٢/)، فالمراد بإيحاؤه اليه إنزاله عليه.

و يمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرّفه فى قوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ (يس ٨٢/)، هو كلمته، و الروح من أمره كما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (الإسراء ٨٥/)، فهو كلمته، و هو يصدق ذلك قوله فى عيسى بن مريم عليه السلام: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ (النساء ١٧١/)، و إنزال الكلمه تكليم فلا ضير فى التعبير عن إنزال الروح بإيحاؤه، و الأنبياء مؤيدون بالروح فى أعمالهم كما أنهم يوحى اليهم الشرائع به قال تعالى: وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ قد تقدمت الإشارة اليه فى تفسير قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِتْيَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣/).

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الانزال و الارسال بالقول بكون قوله: «رُوحًا» منصوبا بنزع الخافض و رجوع ضمير «جَعَلْنَاهُ» الى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب

و المعنى و كذلك أوحينا اليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب و ما الايمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نورا، الخ؛ هذا و ما أذكر أحدا من المفسرين قال به.

و قوله: مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنْ الْآيَةَ مَسْوُوقَةً لِبَيَانِ أَنْ مَا عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا مِنْ قَلْبِهِ نَفْسَهُ وَ إِنَّمَا أُوتِيَ مَا أُوتِيَ مِنْ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ بَعْدَ النَّبُوَّةِ فَالْمُرَادُ بِعَدَمِ دَارِيَّتِهِ بِالْكِتَابِ عَدَمُ عِلْمِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الْمَعَارِفِ الْعَقْدِيَّةِ وَ الشَّرَائِعِ الْعِلْمِيَّةِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أُوتِيَ الْعِلْمَ بِهِ بَعْدَ النَّبُوَّةِ وَ الْوَحْيِ، وَ بِعَدَمِ دَارِيَّتِهِ بِالْإِيمَانِ عَدَمُ تَلَبُّسِهِ بِالْإِلْتِمَامِ التَّفْصِيلِيِّ بِالْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ وَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَ قَدْ سُمِّيَ الْعَمَلُ إِيمَانًا فِي قَوْلِهِ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ (البقره ١٤٣).

فالمعنى: ما كان عندك قبل وحى الروح الكتاب بما فيه من المعارف و الشرائع و لا كنت متلبسا بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي و العملي بمضامينه و هذا لا ينافي كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مؤمنا بالله موحدا قبل البعثة صالحا في عمله فإن الذى تنفيه الآيه هو العلم بتفاصيل ما فى الكتاب و الالتزام بها اعتقادا و عملا و نفى العلم و الالتزام التفصيليين لا يلزم نفى العلم و الالتزام الاجماليين بالايان بالله و الخضوع للحق.

و بذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآيه على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان غير متلبس بالايان قبل بعثته.

و يندفع أيضا ما عن بعضهم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يزل كاملا فى نفسه علما و عملا و هو ينافي ظاهر الآيه أنه ما كان يدري ما الكتاب و لا الايمان.

و وجه الاندفاع من الضرورى وجود فرق فى حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل النبوه و بعدها و الآيه تشير الى هذا الفرق، و ان ما حصل له بعد النبوه لا صنع له فيه و إنما هو من الله من طريق الوحي.

و قوله: وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ضَمِيرٌ «جَعَلْنَاهُ» لِلرُّوحِ وَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ نَشَاءُ» عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَرَادَ بِالرُّوحِ الْقُرْآنُ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ مَنْ آمَنَ بِهِ فَإِنَّهُمْ جَمِيعًا مَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ.

و على تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء و من آمن بهم من أممهم فإنه يهدى بالوحي الذى نزل به، الأنبياء و المؤمنين من أممهم و يسدد الأنبياء خاصه و يهديهم الى الأعمال الصالحه و يشير عليهم بها.

و على هذا تكون الآيه فى مقام تصديق النبى صلى الله عليه و آله و سلم تصدقه فى دعواه أن كتابه من عند الله بوحي منه، و تصدقه فى دعواه أنه مؤمن بما يدعو اليه فيكون فى معنى قوله تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (يس ٥).

و قوله: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» إشاره الى أن الذى يهدى اليه صراط مستقيم و أن الذى يهديه من الناس هو الذى يهديه الله سبحانه، فهدايتته صلى الله عليه و آله و سلم هدايه الله.

قوله تعالى: صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ الخ؛ بيان للصراط المستقيم الذى يهدى اليه النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و توصيفه تعالى بقوله: «الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ» للدلاله على الحجه على استقامه صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شىء ملك الغايه التى تسير إليها الأشياء و السعاده التى تتوجه إليها، فكانت الغايه و السعاده هى التى عينها، و كان الطريق إليها و السبيل الذى عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذى شرعه و بينه، و ليس يملك أحد شىئا حتى ينصب له غايه و نهايه أو يشرع له إليها سبيلا، فالسعاده التى يدعو سبحانه إليها حق السعاده و الطريق الذى يدعو اليه حق الطريق و مستقيم الصراط.

و قوله: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» تنبيه على لازم ملكه لما فى السماوات و ما فى الأرض فإن لازمه رجوع امورهم اليه و لازمه كون السبيل الذى يسلكونه- و هو من جملة امورهم- راجعا اليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعنى قوله: «تَصِيرُ» للاستمرار.

و فيه إشعار بلمّ الوحي و التكليم الإلهي، إذ لما كان مصير الأشياء اليه تعالى كان لكل نوع

اليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه اليه و يسوقه الى غايته كما قال: وَ عَلَى اللَّهِ قَضِيْدُ السَّبِيْلِ (النحل ٩)، و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته و هو فى الإنسان التكليم المسمى بالوحي و الإرسال (١).

ص: ٥٩٥

١ - ١) ٥٣-٥١: بحث روائى فى: نزول الوحي و تلقى رسول الله الوحي و تغيير حالته عند نزول الوحي؛ الروح الذى اوحى الله لرسوله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِذَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَافِحًا أُنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَ لئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْمَرْوَجَ كُلَّهُا وَ جَعَلَ لَكُم مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)
لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى
رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

السوره موضوعه للإينذار كما تشهد به فاتحتها و خاتمتها و المقاصد المتخلله بينهما إلا ما فى قوله: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» الى تمام ست آيات استطراديه.

تذكر أن السنّه الإلهيه إنزال الذكر و إرسال الأنبياء و الرسل و لا يصدّه عن ذلك إسراف الناس فى قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء و الرسل و يهلك المستهزئين بهم و المكذبين لهم ثم يسوقهم الى نار خالده.

و قد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أولاً ثم سمى منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، و ذكرت من إسراف الكفار أشياء و من عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولدا و أن الملائكه بنات لله ففيها عناية خاصه بنفى الولد عنه تعالى فكثرت ذلك و ردّته و أوعدهم بالعذاب، و فيها حقائق متفرقه اخرى.

و السوره مكيه بشهاده مضامين آياتها إلا قوله: «وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا»

الآية؛ و لم يثبت كما سيأتى إن شاء الله.

قوله تعالى: وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ظاهره أنه قسم و جوابه قوله: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» الى آخر الآيتين، و كون القرآن مبينا هو إبانته و إظهاره طريق الهدى كما قال تعالى:

وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ (النحل ٨٩)، أو كونه ظاهرا فى نفسه لا- يرتاب فيه كما قال: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ (البقره ٢).

قوله تعالى: إِذْ نُنزِّلُ الْكِتَابَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ الضمير للكتاب، و «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أى مقروا باللغه العربيه و «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» غايه الجعل و غرضه.

و جعل رجاء تعقله غايه للجعل المذكور يشهد بأن له مرحله من الكينونه و الوجود لا ينالها عقول الناس، و من شأن العقل أن ينال كل أمر فكرى و إن بلغ من اللطافه و الدقه ما بلغ فمفاد الآيه أن الكتاب بحسب موطنه الذى له فى نفسه أمر وراء الفكر أجنبى عن العقول البشرىه و إنما جعله الله قرآنا عربيا و ألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، و الرجاء فى كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ تأكيد و تبين لما تدلّ عليه الآيه السابقه أن الكتاب فى موطنه الأصلي وراء تعقل العقول.

و الضمير للكتاب، و المراد بام الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (البروج ٢٢)، و تسميته بام الكتاب لكونه أصل الكتب السماويه يستنسخ منه غيره، و التقييد بام الكتاب و «لَدِينًا» للتوضيح لا للاحتراز، و المعنى: أنه حال كونه فى أم الكتاب لدينا-حالا لازمه-لعلى حكيم، و سيجىء فى أواخر سوره الجاثيه كلام فى أم الكتاب إن شاء الله.

و المراد بكونه عليا على ما يعطيه مفاد الآيه السابقه أنه رفيع القدر و المنزله من أن تناله العقول، و بكونه حكيما أنه هناك محكم غير مفصل و لا مجزى الى سور و آيات و جمل و كلمات

كما هو كذلك بعد جعله قرآنا عربيا كما استفدناه من قوله تعالى: **كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (هود ١).

و هذا النعتان أعنى كونه عليا حكيما هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل فى فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم و الألفاظ أولا و كان مؤلفا من مقدمات تصديقيه يترتب بعضها على بعض كما فى الآيات و الجمل القرآنيه، و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم و الألفاظ و كان غير متجزئ الى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل الى نيله.

فمحصل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا فى اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع و إحكام لا تناله العقول لدينك الوصفين و إنما أنزلناه بجعله مقروءا عربيا رجاء أن يعقله الناس.

قوله تعالى: **أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَافِحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ** الاستفهام للإنكار، و الفاء للتفريع على ما تقدم، و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم. قال فى المجمع: و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابه فأراد أن يصرفه عن جهه ضربه بعصا أو سوط ليعدل به الى جهه اخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف و العدل. انتهى.

و الصفح بمعنى الإعراض فصفحا مفعول له، و احتمال أن يكون بمعنى الجانب «أَنْ كُنْتُمْ» محذوف الجار و التقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله: «أَفَنَضْرِبُ» .

و المعنى: أ فنصرف عنكم الذكر - و هو الكتاب الذى جعلناه قرآنا لتعقلوه - للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أ فنصرفه عنكم الى جانب لكونكم مسرفين أى إنا لا نصرفه عنكم لذلك.

قوله تعالى: **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** «كُمْ» للتكثير، و الأولون هم الامم الدارجه و «مَا يَأْتِيهِمْ» الخ؛ حال و العامل فيها «أَرْسَلْنَا» .

و الآيتان و ما يتلوها فى مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم بيان أن كونكم قوما

مُسرفين لا يَمنعنا من إجراء سنّه الهدايه من طريق الوحي فإننا كثيرا ما أرسلنا من نبي في الامم الماضين و الحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزءوا به و انجزّ الأمر الى ان أهلكننا من اولئك من هو أشد بطشا منكم.

فكما كانت عاقبه إسرافهم و استهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبه اسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ وعيد لقومه.

قوله تعالى: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ قَالَ الرَّابِعُ:

البطش تناول الشىء بصوله. انتهى و فى الآيه التفات فى قوله: «مِنْهُمْ» من الخطاب الى الغيبه، و كأن الوجه فيه العدول عن خطابهم الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لعدم اعتبارهم بهذه القصص و العبر و ليكون تمهيدا لقوله بعد: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و يؤيده قوله بعد: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» خطابا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ. و معنى قوله: «وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» و مضى فى السور النازله قبل هذه السوره من القرآن و صف الامم الأولين و أنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزءون.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ فى الآيه و ما يتلوها الى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى و توحيده فيها مع إشاره ما الى المعاد و تبكيت لهم على اسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هى بعينها تدبير لامور العباد كجعل الأرض لهم مهذا و جعله فيها سبلا و انزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لامورهم فهو الرب لا رب غيره.

و بذلك تبين أن الآيه تقدمه و توطئه لما تتضمنه الآيات التاليه من الحججه و قد تقدم فى هذا الكتاب مرارا أن الوثنيه لا تنكر رجوع الصنع و اليجاد اليه تعالى وحده و انما تدعى رجوع أمر التدبير الى غيره.

قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ اى جعل لكم الأرض بحيث ترَبُونَ فيها كما يربى الأطفال فى المهد، وجعل لكل فى الأرض سبلا و طرقا تسلكونها و تهتدون بها الى مقاصدكم.

قوله تعالى: وَ الَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ قيد تنزيل الماء بقدر للاشاره الى أنه عن اراده و تدبير لا كيف اتفق و الانشار الاحياء، و الميت مخفف الميت بالتشديد، و توصيف البلده به باعتبار أنها مكان لأن البلده أيضا انما تتصف بالموت و الحياه باعتبار أنها مكان، و الالتفات عن الغيبه الى التكلم مع الغير فى «فَأَنْشَرْنَا» لاطهار العنايه.

و لما استدل بتنزيل الماء بقدر و احياء البلده الميتة على خلقه و تدبيره استنتج منه أمرا آخر لا يتم التوحيد الا به و هو المعاد الذى هو رجوع الكل اليه تعالى فقال: «كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ» أى كما أحيا البلده الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء.

قوله تعالى: وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ قيل: المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر و انثى و أبيض و أسود و غيرها، و قيل: المراد الزوج من كل شىء فكل ما سوى الله كالفوق و التحت و اليمين و اليسار و الذكر و الأنثى زوج.

و قوله: وَ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ أى تركبونه، و الركوب اذا نسب الى الحيوان كالفرس و الابل تعدى بنفسه فيقال: ركبت الفرس و اذا نسب الى مثل الفلك و السفينه تعدى بفي فيقال: ركب فيه قال تعالى: فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ ففى قوله: «مَا تَرْكَبُونَ» أى تركبونه تغليب لجانب الأنعام.

قوله تعالى: لَتَسْتَثْوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا -الى قوله- لَمُنْقَلِبُونَ الاستواء على الظهر الاستقرار عليها، و الضمير فى «ظُهُورِهِ» راجع الى لفظ الموصول فى «مَا تَرْكَبُونَ» و الضمير فى قوله: «إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ»

للموصول أيضا فكما يقال: استويت على ظهر الدابة يقال: استويت على الدابة.

و المراد بذكر نعمه الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك و الأنعام ذكر النعم التي يتتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان الى مكان و حمل الأثقال قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لَتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ (إبراهيم ٣٢)، و قال: وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا - الى أن قال- وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ (النحل / ٧)، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم اليه.

و قوله: وَ تَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ أى مطيقين و الإقران الإطاقه.

و ظاهر ذكر النعمه عند استعمالها و الانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمه غير قول «سُبْحَانَ الَّذِي» الخ؛ فإن هذا القول تسييح و تنزيه له عما لا يليق بساحه كبريائه و هو الشريك فى الربوبيه و الالوهيه، و ذكر النعمه شكر- كما تقدم- و الشكر غير التنزيه.

و يؤيد هذا ما ورد عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام فى ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسييح يقول: «سُبْحَانَ الَّذِي» الخ.

و روى فى الكشاف عن الحسن بن على عليهما السلام أنه رأى رجلا يركب دابه فقال: سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هَذَا فقال: أ بهذا أمرتم؟ فقال: و بى أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمه ربكم.

و قوله: وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ أى صائرون شهاده بالمعاد.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ١٥ الى ٢٥]

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَ أَصْفًاكُمْ بِالْبَيْنِينَ (١٦) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مِمَّنْ يُنَشِّطُوا فِي الْحَلِيهِ وَ هُوَ فِي الْخِصَمِ غَيْرٌ مُّبِينٌ (١٨) وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (١٩) وَ قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَ إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ (٢٥)

بيان:

قوله تعالى: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ المراد

ص: ٦٠٣

بالجزء الولد فإن الولاده إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

و إنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة الى استحاله دعواهم، فإن جزئيه شيء من شيء كيفما تصورت لا تتم الا بتركب فى ذلك الشيء و الله سبحانه واحد من جميع الجهات.

و قد بان بما تقدم أن «مَنْ عِبَادِهِ» بيان لقوله: «جُزْءٌ» و لا ضير فى تقدّم هذا النوع من البيان على المبين و لا فى جمعيه البيان و أفراد المبين.

قوله تعالى: أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفًا كُمْ بِالْبَنِينَ أَى أَخْلَصَكُمْ لِلْبَنِينَ فَلَكُمْ بَنُونَ و ليس له إلا البنات و أنتم ترون أن البنت أحسن من الابن فتثبتون له أحسن الصنفين و تخصون أنفسكم بأشرفهما، و هذا مع كونه قولاً محالاً فى نفسه إزراء و إهانته ظاهره و كفران.

و تقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة-على ربوبيتهم و الوهيتهم-مخلوقين لله، و الالتفات فى الآيه الى خطابهم لتأكيد الإلزام و تثبيت التوبيخ، و التنكير و التعريف فى «بَنَاتٍ» و «بِالْبَنِينَ» للتحقير و التفضيم.

قوله تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ المثل هو المثل و الشبه المجانس للشيء و ضرب الشيء مثلاً أخذه مجانسا للشيء «بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا» الانثى، و الكظم المملوء كربا و غيظا.

و المعنى: و حالهم أنه إذا بشر أحدهم بالانثى الذى جعلها شبيهاً مجانسا للرحمن صار وجهه مسوداً من الغم و هو مملوء كربا و غيظا لعدم رضاهم بذلك و عدّه عارا لهم لكنهم يرضونه له.

و الالتفات فى الآيه الى الغيبه لحكاية شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

قوله تعالى: أَوْ مَنْ يُنشَأُ فى الحليّه وَهُوَ فى الخِصامِ غَيْرٌ مُّبِينٌ أَى أَوْ

جعلوا لله سبحانه من ينشأ في الحليه أى يتربى في الزينه و هو فى المخاصمه و المحاجه غير مبين لحجته لا- يقدر على تقرير دعواه.

و إنما ذكر هذين النعتين لأن المرأه بالطبع أقوى عاطفه و شنقه و أضعف تعقلا بالقياس الى الرجل و هو بالعكس و من أوضح مظاهر قوه عواطفها تعلقها الشديد بالحليه و الزينه و ضعفها فى تقرير الحجه المبني على قوه التعقل.

قوله تعالى: وَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا الخ؛ هذا معنى قولهم: إن الملائكه بنات الله و قد كان يقول به طوائف من عرب الجاهليه و اما غيرهم من الوثنيه فربما عدوا فى آلهتهم إلهه هى ام إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكه إناثا كما هو ظاهر المحكى فى الآيه الكريمه.

و إنما وصف الملائكه بقوله: «الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ» ردا لقولهم بانوثتهم لأن الإناث لا- يطلق عليهن العباد، و لا- يلزم منه اتصافهم بالذكوره الذى يتصف به الحيوان فإن الذكوره و الانوثه اللتين فى الحيوان من لوازم وجوده المادى المجهز للتناسل و توليد المثل، و الملائكه فى معزل من ذلك.

و قوله: أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَيُكْتَبُ سَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ رد لدعواهم الانوثه فى الملائكه بأن الطريق الى العلم بذلك الحس و هم لم يروه حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

فقوله: أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ الخ؛ استفهام إنكارى و وعيد على قولهم بغير علم أى لم يشهدوا خلقهم و سكتب فى صحائف أعمالهم هذه الشهاده عليهم و يسألون عنه يوم القيامه.

قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا- يَخْرُصُونَ حجه عقليه داحضه محكيه عنهم يمكن أن تقرر تاره لإثبات صحه عباده الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضروره لاستحاله تخلف

مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك و عدم مشيئته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادته الشركاء و الملائكة منهم، و هذا المعنى هو المنساق الى الذهن من قوله في سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ١٤٨/)، على ما يعطيه السياق ما قبله و ما بعده.

و تقرّر تاره لإبطال النبوه القائله أن الله يوجب عليكم كذا و كذا و يحرم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء و لا نحلّ و لا نحرم شيئاً لم نعبد الشركاء و لم نضع من عندنا حكماً لاستحاله تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم و نحلّ و نحرم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منا شيئاً، فقول إن الله يأمركم بكذا و ينهاكم عن كذا و بالجمله إنه شاء كذا باطل.

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل: وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ (النحل / ٣٥)، بالنظر الى السياق.

و قولهم في محكي الآيه المبحوث عنها: «لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ» على ما يفيدته سياق الآيات السابقه و اللاحقه مسوق للاحتجاج على المعنى الأول و هو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آيه سورة الأنعام و أخصّ منها.

و قوله: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» أى هو منهم قول مبنى على الجهل فإنه مغالطه خلطوا فيها بين الإراده التكوينية و الإراده التشريعيه و أخذ الاولى مكان الثانية، فمقتضى الحجه أن لا إرادته تكوينيه منه تعالى متعلقه بعدم عبادتهم الملائكة و انتفاء تعلق هذا النوع من الإراده بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإراده التشريعيه به.

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادته التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادته التشريعيه أن يوحّدوه و لا يعبدوا الشركاء، و الإراده التشريعيه لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتباريه غير حقيقيه، و إنما تستعمل

فى الشرائع و القوانين و التكاليف المولويه، و الحقيقه التى تبتنى عليها هى اشتمال الفعل على مصلحه أو مفسده.

و قوله: **إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** الخرص -على ما يظهر من الراغب- القول على الظن و التخمين، و فسر أيضا بالكذب.

قوله تعالى: **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ** ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» للقرآن، و فى الآيه نفى أن يكون لهم حجه من طريق النقل كما أن فى الآيه السابقه نفى حجتهم من طريق العقل، و محصل الآيتين أن لا حجه لهم على عباده الملائكه لا من طريق العقل و لا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

قوله تعالى: **يَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ** الامه الطريقه التى تؤمّ و تقصد، و المراد بها الدين، و الإضراب عما تحصل من الآيتين، و المعنى: لا دليل لهم على حقيه عبادتهم بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أى إنهم متشبثون بتقليد آباءهم فحسب.

قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا خًا؛ أَى** إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الامم المشركين و ما أرسلنا من قبلك فى قريه من نذير و هو النبى إلا تشبث متعموها بذيل التقليد و قالوا: إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم مقتدون لن نتركها و لن نخالفهم.

و نسبه القول الى مترفيهم للاشاره الى أن الإتراف و التنعم هو الذى يدعوهم الى التقليد و يصرفهم عن النظر فى الحق.

قوله تعالى: **قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ خًا؛ القائل هو النذير، و الخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعيه، و العطف فى «أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ» على**

محذوف يدل عليه كلامهم، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون و لو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ والمحصل: هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتم به من الدين أهدى منه؟ و وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لا هدى فيه من باب مجاراه الخصم.

و قوله: قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ جواب منهم لقول النذير «أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ» وهو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ أى تفرّع على ذلك الإرسال و الرد بالتقليد و التحكم أنا أهلكتناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبه اولئك السابقين من أهل القرى، و فيه تهديد لقوم النبی صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٢٦ الى ٤٥]

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَ قومه إِنِنى براءٌ مما تعبدون (٢٦) إِلَّا الَّذى فَطَرَنى فَإِنَّه سَيَهْدى (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَ قَالُوا لَوْ لَآ نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَ لَوْ لَآ أَنْ يَكُونَ الذُّرَّ أُمَمًا وَ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوبِتَهُمْ سَافِئًا مِنْ فَضْلِهِ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِيُوبِتَهُمْ أَبْوابًا وَ سُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكُونَ (٣٤) وَ زُخْرُفًا وَ إِن كُلاً ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) وَ مَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيُصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتى إِذا جَاءَنَا قَالُوا يَا لَيْتَ بَيْنى وَ بَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينٌ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَ فَأَنْتَ تُشْمِعُ الصَّمَّمَ أَوْ تَهْدى الْعُمى وَ مَنْ كان فى ضلالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِما نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذى وَعَدْنَاهُمْ فَأَنا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذى أُوْحى إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ الْبَرَاءَ مَصْدَرٌ مِنْ بَرِيءٍ فَهُوَ بَرِيءٌ فَمَعْنَى «إِنِّي بَرَاءٌ»: إِنِّي ذُو بَرَاءٍ أَوْ بَرِيءٌ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ مِثْلَ زَيْدٍ عَدْلٍ.

و في الآية إشارة الى تبرى إبراهيم عليه السلام مما كان يعبده أبوه و قومه من الأصنام و الكواكب بعد ما حاجهم فيها فاستندوا فيها الى سيره آباؤهم على ما ذكر في سور الأنعام و الأنبياء و الشعراء و غيرها.

و المعنى: و اذكر لهم إذ تبرأ إبراهيم عن آلهه أبيه و قومه إذ كانوا يعبدونها تقليدا لآبائهم من غير حجة و قام بالنظر وحده.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أَي إِلَّا الَّذِي أَوْجَدَنِي وَ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ فِي تَوْصِيْفِهِ تَعَالَى بِالْفَطْرِ إِشَارَةٌ إِلَى الْحِجَةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَ أَلُوْهِتِهِ فَإِنَّ الْفَطْرَ وَ الْإِيْجَادَ لَا يَنْفَكُّ عَنْ تَدْبِيرِ أَمْرِ الْمَوْجُودِ الْمَفْطُورِ فَالَّذِي فَطَرَ الْكُلَّ هُوَ الَّذِي يَدَبِّرُ أَمْرَهُمْ فَهُوَ الْحَقِيقُ أَنْ يَعْبُدَ.

و قوله: فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ أَي إِلَى الْحَقِّ الَّذِي أَطْلَبُهُ، وَ قِيلَ: أَي إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِشَارَةٌ إِلَى خَاصَّةِ أُخْرَى رُبُوبِيَّةٍ وَ هِيَ الْهَدَايَةُ إِلَى السَّبِيلِ الْحَقِّ يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ الْإِنْسَانُ فَإِنَّ السُّوقَ إِلَى الْكَمَالِ مِنْ تَمَامِ التَّدْبِيرِ فَعَلَى الرَّبِّ الْمُدَبِّرِ لِأَمْرِ مَرْبُوبِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى كَمَالِهِ وَ سَعَادَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، وَ قَالَ:

وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (النحل ٩)، فَالرجوع الى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩).

و الاستثناء في قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مر مرارا،

فقول بعضهم: إنه متصل، و أنهم كانوا يقولون: الله ربنا مع عبادتهم الأوثان، كما ترى.

قوله تعالى: وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في «جَعَلَهَا» لله سبحانه، و الضمير البارز- على ما قيل- لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السّلام و معناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» نفى الآلهة غير الله لا- نفى الآلهة و إثبات الإله تعالى (1) و هو ظاهر فلا حاجة الى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السّلام.

و المراد بعقبه ذريته و ولده، و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أي يرجعون من عباده آلهة غير الله الى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم- و هم العابدون لغير الله بدعوه بعضهم و هم العابدون لله- الى عبادته تعالى، و بهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوهم عن الموحّد ما داموا، و لعل هذا عن استجابته دعائه عليه السّلام إذ يقول وَ اجْتَنِبْنِي وَ يَتَّبِعْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (إبراهيم ٣٥).

و يظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السّلام لا تخلو من هذه الكلمة الى يوم القيامة.

قوله تعالى: بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ إضراب عما يفهم من الآية السابقة، و المعنى: أن رجوعهم عن الشرك الى التوحيد كان هو الغاية المرجوّه منهم لكنهم لم يرجعوا بل متّعت هؤلآء من قومك و آبآءهم فتمتعوا بنعمى «حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ» .

و المراد بالحق الذى جاءهم هو القرآن، و بالرسول المبين محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ هذا طعنهم فى الحق الذى جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن فى الرسول. كما أن قولهم الآتى:

ص: ٦١١

١- ١). و ذلك أن «الله» فيها مرفوع على البدليه لا منصوب على الاستثناء.

«لَوْ لَا نَزَّلَ» الخ؛ كذلك.

قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» المراد بالقريتين مكة والطائف، و مرادهم بالعظمه-على ما يفيد السياق- ما هو من حيث المال و الجاه اللذين هما ملاك الشرافه و علو المنزله عند أبناء الدنيا، و المراد بقوله: «رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا.

و مرادهم أن رساله منزله شريفه إلهيه لا- ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم فقير فاقد لهذه الخصله، فلو كان القرآن الذي جاء به وحيا نازلا من الله فلولا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزله.

قوله تعالى: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسِمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» الخ؛ المراد بالرحمه-على ما يعطيه السياق- النبوه.

و قال الراغب: العيش الحياه المختصه بالحيوان، و هو أخص من الحياه لأن الحياه تقال في الحيوان و في الباري تعالى و في الملك، و يشتق منه المعيشه لما يتعيش به. انتهى. و قال:

التسخير سياقه الى الغرض المختص قهرا- الى أن قال:- و السخرى هو الذي يقهر فيتسخر بإرادته. انتهى.

و الآيه و الآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: «لَوْ لَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ» الخ؛ و محصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياه الدنيا يعيشون بها و يرتزقون و هي رحمه منا لا قدر لها و لا منزله عندنا و ليست إلا متاعا زائلا نحن نقسمها بينهم و هي خارجه عن مقدرتهم و مشيتهم فكيف يقسمون النبوه التي هي الرحمه الكبرى و هي مفتاح سعادته البشر الدائمه و الفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا و يمنعونها ممن شاءوا.

فقوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» الاستفهام للانكار، و الالتفات الى الغيبه في

قوله: «رَحْمَهُ رَبِّكَ» و لم يقل:رحمتنا،للدلاله على اختصاص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بعنايه الربوبيه فى النبوه.

و المعنى:أنهم لا يملكون النبوه التى هى رحمه لله خاصة به حتى يمنعوك منها و يعطوها لمن هووا.

و قوله: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بيان لوجه الإنكار فى الجملة السابقه بأنهم عاجزون عن قسمه ما هو دون النبوه بمراحل و لا منزله له و هو معيشتهم فى الحياه الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزله منها بما لا يقدر قدره و هو النبوه التى هى رحمه ربك الخاصه به.

و الدليل على أن الأرزاق و المعاش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى و الفقر و العافيه و الصحه و فى الأولاد و سائر ما يعدّ من الرزق،و كلّ يريد أن يقتنى منها ما لا مزيد عليه،و لا يكاد يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمناه و يرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير فى شىء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلفا فهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيئه من الله دون الإنسان.

على أن الإراده و العمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصه لحصول المطلوب الذى هو الرزق و وراءهما أسباب كونه لا تحصى خارجه عن مقدره الإنسان لا يحصل المطلوب إلا بحصولها جميعا و اجتماعها عليه و ليست إلا بيد الله الذى اليه تنتهى الأسباب.

هذا كله فى المال و أما الجاه فهو أيضا مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصه بها ترتفع درجات الإنسان فى المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفظنه و الدهاء و الشجاعه و علو الهمة و إحكام العزيمه و كثره المال و العشيره و شىء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه،و ذلك قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا» .

فيتين بمجموع القولين أعنى قوله: «نَحْنُ قَسَمْنَا» الخ؛ وقوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» الخ؛ أن القاسم للمعيشه و الجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير، وقوله: «وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» أى النبوه خير من المال فكيف يملكون قسمها و هم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

و من الممكن أن يكون قوله: «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ» عطف تفسير على قوله:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ» الخ؛ يبين قسم المعيشه بينهم بيان علل انقسامها فى المجتمع الإنسانى، بيان ذلك أن كثره حوائج الإنسان فى حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها فى عيش انفرادى أحوجته الى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام و الاستدراار أولا و على طريق التعاون و التعاضد ثانيا كما مرّ فى مباحث النبوه من الجزء الثانى من الكتاب.

فآل الأمر الى المعاوضه العامه المفيده لنوع من الاختصاص بأن يعطى كل مما عنده من حوائج الحياه ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج اليه فيعطى مثلا ما يفضل من حاجته من الماء الذى عنده و قد حصّله و اختصّ به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء، و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعى فيقتنى مما يحتاج اليه ما يختص به، و لازم ذلك أن يحتاج غيره اليه فيما عنده من متاع الحياه فيتسخر له فيفيده ما يحتاج اليه كالتباز يحتاج الى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضه و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله و هكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده و الآخرون متسخرون له بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط لما أن كلا يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفه باختلاف تعلق الهمم و القصود به.

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشه كل ما يعاش به أعم من المال و الجاه أو خصوص المال

و غيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلاً: «وَ رَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» فإن المراد به المال و غيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع.

قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنَّ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً -الى قوله- وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ الآيه و ما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال و زينه لا قدر لها عند الله سبحانه و لا منزله.

قالوا: المراد بكون الناس أمه واحده كونهم مجتمعين على سنّه واحده هي الكفر بالله لو رأوا أن زينه الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله و المؤمن سفر الكف منها مطلقاً، و المعارج الدرجات و المصاعد.

و المعنى: و لو لا- أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضه و درجات عليها يظهر لغيرهم.

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس أمه واحده كونهم جميعاً على نسبه واحده تجاه الأسباب العامله فى حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن و الكافر، فمن سعى سعياً للرزق و وافقته الأسباب و العوامل الموصله الاخرى نال منه مؤمناً كان أو كافراً، و من لم يجتمع له حرم ذلك و قتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً.

و المعنى: لو لا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصله الى زخارف الدنيا و لا يختلفوا فيها بالإيمان و الكفر لجعلنا لمن يكفر، الخ.

قوله تعالى: وَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَتَاباً وَ سُيُوراً عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ وَ زُخْرُفًا تَنْكِيرٌ «أَبْوَاباً» و «سُيُوراً» للتفخيم، و الزخرف الذهب أو مطلق الزينه، قال فى المجمع: الزخرف كمال حسن الشئ و منه قيل للذهب، و يقال: زخرفه زخرفه إذا حسّنه و زينّه، و منه قيل للنقوش و التصاوير: زخرف، و فى الحديث إنه صلى الله عليه و آله و سلم لم يدخل الكعبه حتى أمر بالزخرف فنحى.

انتهى. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَإِنْ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ «إِنْ» للنفي و «لَمَّا» بمعنى إلا أى ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشه إلا متاع الحياه الدنيا الزائله الفانيه التى لا تدوم.

و قوله: وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ المراد بالآخره بقرينه المقام الحياه الآخره السعيده كأن الحياه الآخره الشقيه لا تعد حياه.

و المعنى: أن الحياه الآخره السعيده بحكم من الله تعالى و قضاء منه مختصه بالمتقين، و هذا التخصيص و القصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمه واحده فى الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى: وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يُقَالُ: عَشَى يَعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان يبصره آفه لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط، و عشا يعشو عشوا و عشوا من باب نصر ينصر إذا تعامى و تعشى بلا آفه، و التقيض التقدير و الإتيان بشىء الى شىء، يقال: قِيضَ له إذا جاء به اليه.

لما انتهى الكلام الى ذكر المتقين و أن الآخره لهم عند الله قرنه بعاقبه أمر المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيرا الى أمرهم من أوله و هو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمه قرناء الشيطان فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا عذاب الآخره معهم.

فقوله: وَمَنْ يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا أى من تعامى عن ذكر الرحمن و نظر اليه نظر الأعشى جئنا اليه بشيطان، و قد عبر تعالى عنه فى موضع آخر بالإرسال فقال: أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأ (مريم ٨٣)، و إضافه الذكر الى الرحمن للإشاره الى أنه رحمه.

و قوله: فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ أى مصاحب لا يفارقه.

قوله تعالى: وَإِنَّهُمْ لَيَصْبُونَ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ ضمير «إِنَّهُمْ» للشياطين، و ضمائر الجمع الباقيه للعاشين عن الذكر، و اعتبار الجمع نظرا الى

المعنى فى «وَمَنْ يَعِشْ» الخ؛ و الصّدّ الصّرف، و المراد بالسبيل ما يدعو اليه الذكر من سبيل الله الذى هو دين التوحيد.

و المعنى: و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم-أى العاشين أنفسهم-مهتدون الى الحق.

قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿حَتَّىٰ﴾ غايه لاستمرار الفعل الذى يدل عليه قوله فى الآيه السابقه:

«لَيُصُدُّوهُم» و قوله: «يَحْسَبُونَ» أى لا يزال القرناء يصدونهم و لا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

و المراد بالمجىء اليه تعالى البعث، و ضمير «جَاءَنَا» و «قَالَ» راجع الى الموصول باعتبار لفظه، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق.

و المعنى: و إنهم يستمرون على صدهم عن السبيل و يستمر العاشون عن الذكر على حساب أنهم مهتدون فى انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم، قال مخاطبا لقرينه متاذيا من صحابته: يا ليت بينى و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت.

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابه القرناء وراء عذابهم بالنار، و لذا يتمنون التباعد عنهم و يخصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب.

قوله تعالى: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم، و المراد باليوم يوم القيامة، و قوله: «أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ» فاعل «لَنْ يَنْفَعَكُمُ» و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم، و «إِذْ ظَلَمْتُمْ» واقع موقع التعليل.

و المراد-و الله أعلم-أنكم إذا أساء بعضكم الى بعض فى الدنيا فأوقعه فى مصيبه ربما

تسليتم بعض التسلى لو ابتلى هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسليا و تشفيا لكن لا- ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم فى العذاب فإن اشتراكهم معكم فى العذاب و كونهم معكم فى النار هو بعينه عذاب لكم.

قوله تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** لما ذكر تقييذه القرناء لهم و تقلبيهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا يقدر على معرفه الحق فزع عليه أن تبه صلى الله عليه و آله و سلم أن هؤلاء صم عمى لا يقدر هو على إسماعهم كلمه الحق و هدايتهم الى سبيل الرشده فلا يتجشم و لا يتكلف فى دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم، و الاستفهام للانكار، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: **فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ** المراد بالإذهاب به توفيه صلى الله عليه و آله و سلم قبل الانتقام منهم، و قيل: المراد إذهابه بإخراجه من بينهم، و قوله: **«فَأِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ»** أى لا- محاله، و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه صلى الله عليه و آله و سلم أو حال كونه بينهم، و قوله: **«فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ»** أى اقتدارنا يفوق عليهم.

و قوله فى الصدر: **«فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ بِكَ»** أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما و النون للتأكيد، و محصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محاله.

قوله تعالى: **فَأَسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوه من سننه تعالى و إن كتابه النازل عليه حق و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين، و لا مطمع فى إيمانهم و سينتقم الله منهم.

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد فى التمسك بالكتاب الذى أوحى اليه لأنه على صراط مستقيم.

قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله، و بهذا المعنى تكرر مرارا في السوره، و اللام في «لَكَ وَ لِقَوْمِكَ» للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكليف اليهم، و يؤيده بعض التأييد قوله: «وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ» أى عنه يوم القيامة.

و عن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذى يذكر به، و المعنى: و إنه لشرف عظيم لك و لقومك من العرب تذكرون به بين الامم.

قوله تعالى: «وَ سِئْلٌ مِّنْ أَرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى: فَسِئْلُ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْقِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ (يونس ٩٤)، و فائده هذا المجاز أن المسئول عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم (١).

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٤٦ الى ٥٦]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَ أَخَذْنَا هُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَ نَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَسِّرِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)

ص: ٦١٩

١- ١). الزخرف ٢٦-٤٥: بحث روائى فى: الكلمه الباقيه فى عقب ابراهيم عليه السلام؛ قوله تعالى: «وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»؛ و قوله تعالى: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»؛ امه واحده.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللام في «لَقَدْ» للقسم، و الباء في قوله: «بِآيَاتِنَا» للمصاحبه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرساله، و المراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافا بالآيات.

قوله تعالى: وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا الخ؛ الاخت المثل، و قوله: «هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» كناية عن كون كل واحده منها بالغه في الدلاله على حقيه الرساله، و جمله «وَ مَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ» الخ؛ حال من ضمير «مِنْهَا»، و المعنى: فلما أتاهم

بالمعجزات إذا هم منها يضحكون و الحال أن كلا منها تامه كامله فى إعجازها و دلالتها من غير نقص و لا قصور.

وقوله: **وَ أَخَذْنَا هُم بِالْعِزَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** أى رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم الى قبول رسالته، و المراد بالعذاب الذى أخذوا به آيات الرجز التى نزلت عليهم من السنين و نقص من الثمرات و الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات كما فى سورة الأعراف.

وقوله: **وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** **إِنَّا لَمُهْتَدُونَ** ما فى «**بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**» مصدرية أى بعهدك و المراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

و قولهم: يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكبارا منهم كما قالوا: ادع ربك و لم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكبارا، و المراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم و وعدوه الاهتداء.

و قيل: معنى الساحر فى عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظمونه و لم يكن صفه ذم. و ليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم: ادع لنا ربك.

وقوله تعالى: **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ** النكت نقض العهد و خلف الوعد، و وعدهم هو قولهم: «**إِنَّا لَمُهْتَدُونَ**» .

وقوله تعالى: **وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ** أى ناداهم و هو بينهم، و فصل «قال» لكونه فى موضع جواب السؤال كأنه قيل: فما ذا قال؟ فقيل: قال كذا.

و قوله: **وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** أى من تحت قصرى أو من بستانى الذى فيه قصرى المرتفع العالى البناء، و الجملة أعنى قوله: «**وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ**» الخ؛ حاله أو

«وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ» معطوف على «مُلْكُ مِصْرَ» وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» حال من الأنهار، و الأنهار أنهار النيل.

وقوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» في معنى تكرير الاستفهام في قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» الخ.

قوله تعالى: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ الْمُهِنَ الْحَقِيرَ الضَّعِيفَ مِنَ الْمَهَانَةِ بِمَعْنَى الْحَقَارَةِ، وَيُرِيدُ بِالْمُهِنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَا بِهِ مِنَ الْفَقْرِ وَرِثَاةِ الْحَالِ.

وقوله: «وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» أي يفصح عن مراده ولعله كان يصف موسى عليه السَّلَامُ به باعتبار ما كان عليه قبل رسالته لكن الله رفع عنه ذلك لقوله: «قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى» (طه ٣٦) بعد قوله عليه السَّلَامُ: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي» (طه ٢٨).

وقوله في صدر الآية: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» الخ؛ أم فيه إما منقطعه لتقرير كلامه السابق والمعنى:

بل أنا خير من موسى لأنه كذا وكذا، وإما متصله، وأحد طرفي التردد محذوف مع همزه الاستفهام، والتقدير: أ هذا خير أم أنا خير، الخ؛ و في المجمع قال سيويوه والخليل: عطف أنا بأم على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» لأن معنى «أَنَا خَيْرٌ» معنى أم تبصرون فكأنه قال: أ فلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى. أي إن موضع «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس.

و كيف كان فالإشارة الى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير و توصيفه بقوله:

«الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ» للتحقير و للدلالة على عدم خيريته.

قوله تعالى: «فَلَوْ لَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ الْأَسْوِرَةَ جَمْعُ سَوَارٍ بِالْكَسْرِ، وَقَالَ الرَّاعِبُ: هُوَ مَعْرَبٌ دَسْتَوَارُهُ قَالُوا: كَانَ مِنْ دَابَّهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَوَّدُوا رِجْلًا - سَوْرَهُ بِسَوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ طَوْقُهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ فَالْمَعْنَى لَوْ كَانَ رَسُولًا وَسَادَ النَّاسِ بِذَلِكَ لَأُلْقِيَ إِلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ.

و قوله: أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالأستباق و الاستواء بمعنى التسابق و التساوى، و المراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته، و هذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (الفرقان ٧).

قوله تعالى: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ أى استخفَّ عقول قومهم و أحلامهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ الْإِسَافُ الْإِغْضَابُ أى فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، و الغضب منه تعالى إرادته العقوبه.

قوله تعالى: فَجَعَلْنَاهُمْ سِلْفًا وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ السلف المتقدم و الظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم فى دخول النار، و المثل الكلام السائر الذى يتمثل به و يعتبر به، و الظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا.

[سورة الزخرف (٤٣): الآيات ٥٧ الى ٦٥]

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَ قَالُوا أَا إِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لَا يَصِدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِبَيِّنَاتٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (٦٣) إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ (٦٥)

قوله تعالى: **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** -الى قوله- **خَصِمُونَ** الآية؛ الى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظرا الى كون السوره مكيه و مع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: **«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا»** هو ما أنزله الله من وصفه في أول سوره مريم فإنها السوره المكيه الوحيدة التي وردت فيها قصه عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا، و السوره تقص قصص عده من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ (مريم ٥٨)**، وقد وقع في هذه الآيات قوله: **«إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ»** و هو من الشواهد على كون قوله: **«وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا»** إشاره الى ما فى سوره مريم.

و المراد بقوله: **«إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** بكسر الصاد أى يضجون و يضحكون ذم لقريش فى مقابلتهم المثل الحق بالتهكم و السخرية، و قرئ «يصدون» بضم الصاد أى يعرضون و هو

أنسب للجمله التاليه.

وقوله: وَقَالُوا آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ الاستفهام للانكار أى آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمه والكرامه أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بما له من الصفه عند النصارى أنه إله فردّوا على النبی صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأن آلهتنا خير منه وهذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك الى أن الذى فى القرآن من وصفه لا يعنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

وقوله: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أَي مَا وَجَّهُوا هَذَا الْكَلَامَ «آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» اليك إلاً جدلاً يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقا «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» أى ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها.

وقوله: إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ رَدِّ لَمَّا يَسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» أنه إله النصارى كما سيجىء (١).

قوله تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي يَسْتَدْعِيهِ السِّيَاقُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِابْنِ مَرْيَمَ، وَالْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مَثَلًا عَلَى مَا قِيلَ - كَوْنَهُ آيَةً عَجِيبَةً إِلَهِيَةً يَسِيرُ ذِكْرَهُ كَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ.

و المعنى: ليس ابن مريم إلا عبدا متظاهرا بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوه و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهره على يديه و غير ذلك و جعلناه آيه عجيبه خارقه نصف به الحق لبني إسرائيل.

و هذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم: «آلِهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» الظاهر فى تفضيلهم آلهتهم فى ألوهيتها على المسيح عليهم السّلام فى ألوهيته و محصّله أن المسيح لم يكن إلها حتى ينظر فى منزلته فى

ص: ٦٢٥

(١ - ١). الزخرف ٥٧-٦٥: بحث حول قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

ألوهيه وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

قوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ الظاهر أن الآية متصله بما قبلها مسروده لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليهم السلام فيخلق الطير و يحيى الموتى و يكلم الناس فى المهد إلى غير ذلك، فيكون كالملائكة المتوسطين فى الإحياء و الإماتة و الرزق و سائر أنواع من الكمال عند الوثنيه مع ذلك عبداً غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنيه مختص بالملائكة و هو ملاك الوهيتهم و معبوديتهم و بالجمله هم يحيلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذى يخصونه بالملائكة.**

فاجيب فإن لله أن يزكى الإنسان و يطهره من دناس المعاصى بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش فى الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله و يظهر منه ما يظهر من الملائكة (١).

و على هذا فمن فى قوله: «مِنْكُمْ» للتبويض، و قوله: «يَخْلُقُونَ» أى يخلف بعضهم بعضاً.

و فى المجمع أن «من» فى قوله: «مِنْكُمْ» تفيد معنى البديله كما فى قوله:

فليت لنا من ماء زمزم شربه

مبرّده باتت على الطهيان (٢)

و قوله: «يَخْلُقُونَ» أى يخلفون بنى آدم و يكونون خلفاء لهم، و المعنى: و لو نشاء أهلكناكم و جعلنا بدلکم ملائكة يسكنون الأرض و يعمرونها و يعبدون الله.

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمه.

قوله تعالى: **وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلشَّاعِرِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ**

ص: ٦٢٦

١- ١. و ليس هذا من الانقلاب المحال فى شىء بل نوع من التكامل الوجودى بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين فى محله.

٢- ٢. الطهيان قله الجبل، و معنى البيت: ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربه من الماء مبرده بقيت ليله على قله الجبل.

قوله تعالى: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ضمير «مِنْ بَيْنِهِمْ» لمن بعث اليهم عيسى عليه السلام والمعنى: فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه، و من مؤمن به غال فيه، و من مقتصد لزم الاعتدال.

و قوله: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ» تهديد و وعيد للقالى منهم و الغالى.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٦٦ الى ٧٨]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهُهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ نَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)

قوله تعالى: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ النظر الانتظار، و البغتة الفجأه، و المراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالى: مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (يس ٤٩)، فلا يتكرر المعنى فى قوله: «بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

و المعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعه مباغتة لهم و هم غافلون عنها مشغولون بامور دنياهم أى إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشىء من أسباب النجاه و قعد ينتظر الهلاك فى الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب.

قوله تعالى: الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ الأخلاء جمع خليل و هو الصديق حيث يرفع خله صديقه و حاجته، و الظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخاله و التحاب فى الله كما فى مخالاه المتقين أهل الآخره و المخاله فى غيره كما فى مخالاه أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

و الوجه فى عداوه الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المحاله إعانه أحد الخليلين الآيه فى مهام اموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانه على الشقوه الدائمه و العذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة: يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذُّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (الفرقان ٢٩)، و أما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد و تنفعهم يومئذ.

و فى الخبر النبوى: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام و قلت الأنساب و ذهبت الآخوه

إِلَّا الْإِخْوَةَ فِي اللَّهِ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «الْإِخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (١).

قوله تعالى: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» الخ؛ و في الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ الموصول بدل من المنادى المضاف في «يَا عِبَادِ» أو صفة له، و الآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبى و كتاب و أى آية أخرى داله، و المراد بالإسلام التسليم لإرادة الله و أمره.

قوله تعالى: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هى النساء المؤمنات فى الدنيا دون الحور العين لأنهن فى الجنة غير خارجات منها.

و الجبور على ما قيل -السرور الذى يظهر أثره و حباره فى الوجه و الحبره الزينه و حسن الهيئه، و المعنى: ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم المؤمنات و الحال أنكم تسرون سرورا يظهر أثره فى وجوهكم أو تزينون بأحسن زينه.

قوله تعالى: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائِحٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ الْخ؛ الصحف جمع صحفه و هى القصعه أو أصغر منها، و الأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروه له، و فى ذكر الصحف و الأكواب إشارة الى تنعمهم بالطعام و الشراب.

و قوله: وَ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوه الطبيعىه من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارك فيه

ص: ٦٣٠

الإنسان و عامه الحيوان، والمراد بما تلذه الأعين الجمال و الزينه و ذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما فى المناظر البهجه و الوجه الحسن و اللباس الفاخر، و لذا غيّر التعبير فعبر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهااء و فيما يتعلق بالأعين باللذاه و فى هذين القسمين تنحصر اللذاذ النفسانيه عندنا.

و يمكن أن تندرج اللذاذ الروحيه العقليه فيما تلذه الأعين فإن الالتذاذ الروحي يعد من رؤيه القلب.

قال فى المجمع: و قد جمع الله سبحانه فى قوله: «مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ» ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما فى الجنه من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمتها هاتان الصفتان. انتهى.

و قوله: وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إخبار و وعد و تبشير بالخلود و لهم فى العلم به من اللذاه الروحيه ما لا يقاس بغيره و لا يقدر بقدر.

قوله تعالى: وَ تَلْعَكَ الْجِنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قيل: المعنى أعطيتموها بأعمالكم، و قيل أورثتموها من الكفار و كانوا داخلها لو آمنوا و عملوا صالحا، و قد تقدم الكلام فى المعنيين فى تفسير قوله تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (المؤمنون/ ١٠).

قوله تعالى: لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ أضاف الفاكهه الى ما مرت الإشاره اليه من الطعام و الشراب لإحصاء النعمه، و «من» فى «مِنْهَا تَأْكُلُونَ» للتبعيض و لا يخلو من إشاره الى أنها لا تنفد بالأكل.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار و يؤيده إيرادها فى مقابله المتقين و هو أخص من المؤمنين.

والتفتير التخفيف و التقليل، و الإبلاس اليأس و بأسهم من الرحمه أو من الخروج من النار.

قوله تعالى: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ و ذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوه و الهلكه.

قوله تعالى: وَ زَادُوا بِمَا مَالِكٌ لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ مَالِكٌ هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامه و الخاصه.

و خطابهم مالكا بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوثُونَ (المطففين ١٥)، و قال: قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (المؤمنون ١٠٨).

فالمعنى: أنهم يسألون مالكا أن يسأل الله أن يقضى عليهم.

و المراد بالقضاء عليهم إمامتهم، و يريدون بالموت الانعدام و البطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوه و أليم العذاب، و هذا من ظهور ملكاتهم الدنيويه فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام و فوت لا انتقال من دار الى دار فيسألون الموت بالمعنى الذى ارتكز فى نفوسهم و إلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما فى حقيقته.

و قوله: «قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ» أى فيما أُنتم فيه من الحياه الشقيه و العذاب الأليم، و القائل هو مالِك جوابا عن مسألتهم.

قوله تعالى: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ظاهره أنه من تمام كلام مالِك يقوله عن لسان الملائكه و هو منهم، و قيل: من كلامه تعالى و يبعده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى.

و الخطاب لأهل النار بما أنهم بشر، فالمعنى: لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم و هم المجرمون كارهون للحق.

وقيل: المراد بالحق مطلق الحق أى حق كان فهم يكرهونه و ينفرون منه و أما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشتمزون منه.

و المراد بكرهتهم للحق الكراهه بحسب الطبع الثانى المكتسب بالمعاصى و الذنوب لا بحسب الطبع الأول الذى هو الفطره التى فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله، قال تعالى: لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم ٢٠/٣٠)، وقال: وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨/٨).

و يظهر من الآيه أن الملاك فى السعاده و الشقاء قبول الحق و ردّه.

[سوره الزخرف (٤٣): الآيات ٧٩ الى ٨٩]

أَمْ أَبْرَأُوا أَمْراً فَإِذَا مُبْتَرَمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ
السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ
بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَ قِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

بيان:

قوله تعالى: أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ الابرام خلاف النقض و هو الاحكام، و أم منقطعه.

و المعنى: على ما يفيدته سياق الآيه و الآيه التاليه، بل أحكموا أمرا من الكيد بك يا محمد فإننا محكمون الكيد بهم فالآيه فى معنى قوله تعالى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (الطور ٤٢).

قوله تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ السر ما يستسرونه فى قلوبهم و النجوى ما يناجيه بعضهم بعضا بحيث لا يسمعه غيرهما، و لما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر و النجوى جميعا بالسمع.

و قوله: بَلَىٰ وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ أى بلى نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَعْدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ إبطال لالوهيه الولد بإبطال أصل وجوده من جهه علمه بأنه ليس، و التعبير بإن الشرطيه دون لو الداله على الامتناع- و كان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد، لاستنزاهم عن رتبه المكابره الى مرحله الانتصاف.

ص: ٦٣٤

و المعنى: قل لهم إن كان للرحمن ولد كما يقولون: فأنا أول من يعبده أداءً لحقّ بنوّته و مسانخته لوالده، لكنى أعلم أنه ليس و لذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه.

قوله تعالى: **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** تسبيح له سبحانه عما ينسبون اليه، و الظاهر أن «رَبِّ الْعَرْشِ» عطف بيان لرب السماوات و الأرض لأن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و هو عرش ملكه تعالى الذى استوى عليه و حكم فيه و دبر أمره.

و لا- يخلو من إشاره الى حجه على الوجدانية إذ لما كان الخلق مختصا به تعالى حتى باعتراف الخصم و هو من شئون عرش ملكه، و التدبير من الخلق و اليجاد فإنه إيجاد النظام الجارى بين المخلوقات فالتدبير أيضا من شئون عرشه فربوبيته للعرش ربوبيه لجميع السماوات و الأرض.

قوله تعالى: **فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** و عيد إجمالى لهم بأمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بالاعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذّرهم منه من عذاب يوم القيامة.

و المعنى: فاتركهم يخوضوا فى أباطيلهم و يلعبوا فى دنياهم و يشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذى يوعده و هو يوم القيامة كما ذكر فى الآيات السابقة «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ» الخ.

قوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** أى هو الذى هو فى السماء إله مستحق للمعبودية و هو فى الأرض إله أى هو المستحق لمعبودية أهل السماوات و الأرض وحده، و يفيد تكرار «إِلَهٌ» كما قيل التأكيد و الدلالة على أن كونه تعالى إلهما فى السماء و الأرض بمعنى تعلق ألوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو فى أحدهما.

و فى الآيه مقابله لما يثبت الوثنيه لكل من السماء و الأرض إلهها أو آلهه، و فى تذييل الآيه بقوله: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ» الدال على الحصر إشاره الى وحدانيته فى الربوبيه التى لازمها الحكمه و العلم.

قوله تعالى: وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ثناء عليه تعالى بالتبارك و هو مصدريته للخير الكثير.

و كل من الصفات الثلاث المذكوره حجه على توحيده فى الربوبيه أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبيه لمن يدبر الأمر و التدبير للملك، و أما اختصاص علم الساعه به فلأن الساعه هى المنزل الأقصى اليه يسير الكل و كيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم به بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه، و أما رجوع الناس اليه فإن الرجوع للحساب و الجزاء و هو آخر التدبير فمن اليه الرجوع فإليه التدبير و من اليه التدبير له الربوبيه.

قوله تعالى: وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ السياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أى يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكه و الجن و البشر و غيرهم.

و المراد «بِالْحَقِّ» الحق الذى هو التوحيد، و الشهاده به الاعتراف به، و المراد بقوله: «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» حيث أطلق العلم علمهم بحقيقه حال من شفَعوا له و حقيقه عمله كما قال: لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ قَالَ صَوَابًا (النبا ٣٨)، و إذا كان هذا حال الشفَعاء لا يملكونها إلا بعد الشهاده بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال: «وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى» .

و الآيه مصرّحه بوجود الشفاعة.

قوله تعالى: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى الى متى يصرفون عن الحق الذى هو التوحيد الى الباطل الذى هو الشرك، و ذلك أنهم معترفون

أن لا خالق إلا الله و التدبير الذى هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مرارا فالرب المعبود هو الذى بيده الخلق و هو الله سبحانه.

قوله تعالى: وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ضمير «قيله» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بلا إشكال، و القيل مصدر كالقول و القول، و «قيله» معطوف على ما قيل على الساعة فى قوله: «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»، و المعنى: و عنده علم قوله: «يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ».

قوله تعالى: فَاصْبِرْ لَهُمْ وَ قُلْ سَيَسْلَمُ سَوْفَ يَعْلَمُونَ أمر بالإعراض عنهم و إقناظ من إيمانهم، و قوله: «قُلْ سَيَسْلَمُ» أى وادعهم موادعه ترك من غير هم لك فيهم، و فى قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تهديد و وعيد.

ص: ٦٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (۱) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (۳) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ (۴) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ
كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (۸)

يتلخص غرض السوره في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا و عذاب الآخرة و قد

سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله الى الناس لإنذارهم و قد نزل رحمه منه تعالى لعباده خير نزول في ليله القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.

غير أن الناس و هم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم و سيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون الى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم يذكر لهم تنظيرا لأول الوعيدين قصه إرسال موسى عليه السلام الى قوم فرعون لإنجاء بنى إسرائيل و تكذيبهم له و إغراقهم نكالا منه.

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين و هو الرجوع الى الله في يوم الفصل فيقيم الحجه على أنه آت لا محاله ثم يذكر طرفا من أخباره و ما سيجرى فيه على المجرمين و يصيبهم من ألوان عذابه، و ما سيثاب به المتقون من حياه طيبه و مقام كريم.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها.

قوله تعالى: **حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ** الواو للقسم و المراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِذْ كُنَّا مُنذِرِينَ** المراد بالليله المباركه التي نزل فيها القرآن ليله القدر على ما يدل قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ** (القدر ١)، و كونها مباركه ظرفيتها للخير الكثير الذي ينسط على الخلق من الرحمه الواسعه، و قد قال تعالى: **وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلُهُ الْقَدْرِ لَيْلُهُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** (القدر ٣).

و ظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض و ظاهر قوله: **فِيهَا يُفْرَقُ الدال** على الاستمرار أنها تتكرر و ظاهر قوله تعالى: **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** (البقره ١٨٥)، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية و تقع في كل سنه قمرية مره واحده في شهر رمضان، و أما أنها أى ليله هي؟ فلا- إشعار في كلامه تعالى بذلك، و أما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

و المراد بنزول الكتاب فى ليله مباركه على ما هو ظاهر قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ» وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقَدْرِ (القدر ١)، وقوله: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ (البقره ١٨٥)، أن النازل هو القرآن كله.

و لا يدفع ذلك قوله: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (الإسراء ١٠٦)، وقوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (الفرقان ٣٢)، الظاهرين فى نزوله تدريجا، و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله: فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ (سوره محمد ٢٠)، وقوله: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ (التوبه ١٢٧) و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضا ما لا يحصى من الأخبار المتضمنه لأسباب النزول.

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مره مجموعا و جمله فى ليله واحده من ليالى شهر رمضان، و مره تدريجا و نجوما فى مده ثلاث و عشرين سنه و هى مده دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

لكن الذى لا- ينبغى الارتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور و الآيات بما فيه من السياقات المختلفه المنطبقه على موارد النزول المختلفه الشخصيه لا- يقبل النزول دفعه فإن الآيات النازله فى وقائع شخصيه و حوادث جزئيه مرتبطه بأزمته و أمكنه و أشخاص و أحوال خاصه لا- تصدق إلا مع تحقق موارد المتفرقه زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك الموارد و صارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مره جمله، و مره نجوما.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال و التفصيل فيكون نازلا مره إجمالا و مره تفصيلا و نعى بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير اليه قوله تعالى: كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (هود ١)، وقوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (الزخرف ٤/٤)، وقد مرّ الكلام في معنى الإحكام و التفصيل في تفسير سورتي هود و الزخرف.

□ □ و قوله: «إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» واقع موقع التعليل، و هو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع، فإنما هو إنذار و الإنذار سنّه جاريه له تعالى لم تزل تجرى في السابقين من طريق الوحي الى الأنبياء و الرسل و بعثهم للإنذار الناس.

قوله تعالى: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ضَمِيرٌ «فِيهَا» ليليه و الفرق فصل الشىء من الشىء بحيث يتمايزان و يقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا- يتميز بعض أجزاءه من بعض و لا- يتعين خصوصياته و أحواله كما يشير الى ذلك قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر ٢١/٢١).

فلا- امور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان: مرحله الإجمال و الإبهام و مرحله التفصيل، و ليله القدر- على ما يدل عليه قوله: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»- ليله يخرج فيها الامور من مرحله الإحكام الى مرحله الفرق و التفصيل، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الامور المحكمه فرق في ليله القدر.

و لعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كل آيه أو آيات أو سوره من كتابه فيستدعى نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعه و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرقا.

و مآل هذا الوجه اطلاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ على القرآن في مرحله نزوله الى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض و استقراره في مرحله العين، و على هذا الوجه لا حاجة الى تفريق المرتين بالإجمال و التفصيل كما تقدم في الوجه الأول.

□ □ □ قوله تعالى: أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ المراد بالأمر الشأن و هو حال من

الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمرا من عندنا و مبتدأ من لدنا، و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهى و المعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، و هو على أى حال متعلق بقوله: «يُفَرِّقُ» .

و يمكن أن يكون متعلقا بقوله: «أَنْزَلْنَاهُ» أى حال كون الكتاب أمرا أو بأمر من عندنا، و قوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ» لا يخلو من تأييد لذلك، و يكون تعليلا له و المعنى: إنا أنزلناه أمرا من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى إنزاله رحمه من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضه الرحمه على الناس أو لاقضاء رحمه ربك إنزاله فقوله: «رَحْمَةً» حال على المعنى الاول و مفعول له على الثانى و الثالث.

و فى قوله: مِنْ رَبِّكَ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبه و وجهه إظهار العناية بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لأنه هو الذى انزل عليه القران و هو المنذر المرسل الى الناس.

و قوله: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لما كانت الوثنيه يرون أن لكل صنّف من الخلق إلها أو أكثر و ربما اتخذ قوم منهم إلها غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله: «مِنْ رَبِّكَ» بقوله: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ» الخ؛ لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ ليست بالاختصاص كالتى بينهم بل هو تعالى ربه و رب السماوات و الأرض و ما بينهما، و لذلك عقبه أيضا فى الآيه التاليه بقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و قوله: إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه و حدثت بقصته فالمعنى هو الذى يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شىء.

قوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ لما

كان مدلول الآيه السابقه انحصار الربوبيه و هى الملك و التدبير فيه تعالى و الالوهيه و هى المعبوديه بالحق من لوازم الربوبيه عقبه بكلمه التوحيد النافيه لكل إله دونه تعالى.

و قوله: يُحْيِي وَ يُمِيتُ من أخص الصفات به تعالى و هما من شئون التدبير، و فى ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتى من إنذارهم بالمعاد.

و قوله: رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فيه كمال التصريح بأنه ربهم و رب آبائهم فليعبدوه و لا يتعللوا باتباع آبائهم فى عباده الأصنام، و لتكميل التصريح سقت الجملة بالخطاب فقول «رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمْ» .

و هما أعنى قوله: «يُحْيِي وَ يُمِيتُ» و قوله: «رَبُّكُمْ» خبران لمبتدأ محذوف و التقدير هو يحيى و يميت، الخ (١).

[سوره الدخان (٤٤): الآيات ٩ الى ٣٣]

بَيْلٌ هُمْ فِي شَكِّكَ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يُغشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَ رَبُّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاقَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِبْ بِيَدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَ أَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهِيوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَابٍ وَ عِيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاغٌ مُّبِينٌ (٣٣)

ص: ٤٤٣

قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ضمير الجمع لقوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أى إنهم لا- يوقنون و لا- يؤمنون بما ذكر من رساله الرسول و صفه الكتاب الذى أنزل عليه بل هم فى شك و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بديانهم، و ذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» .

قوله تعالى: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ الارتقاب الانتصار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس .

و قوله: يَغْشَى النَّاسَ أى يشملهم و يحيط بهم، و المراد بالناس أهل مكة على القول الأول، و عامه الناس على القول الثانى .

قوله تعالى: هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أى يقول الناس يوم تأتى السماء بدخان مبين: هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته و إظهار الإيمان بالدعوه الحقه فيقولون: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

قوله تعالى: أئى لَهُم الذِّكْرَى وَ قَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ أى من أين لهم أن يتذكروا و يدعنوا بالحق و الحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر فى رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و فى الآيه رد صدقهم فى وعدهم .

قوله تعالى: ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ التولى الإعراض، و ضمير «عَنْهُ» للرسول و «مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ» خبران لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع الى الرسول و المعنى:

ثم أعرضوا عن الرسول و قالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه الى الله سبحانه، قال تعالى: وَ لَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل /

(١٠٣)، و ثانيا بأنه مجنون مختل العقل.

قوله تعالى: **إِذَا كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا** **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** أى إنا كاشفون للعذاب زمانا انكم عائدون الى ما كنتم فيه من الكفر و التكذيب هذا بناء على القول الأول و الآية تأكيد لرد صدقهم فيما و عدوه من الإيمان.

و أما على القول الثانى فالأقرب أن المعنى: إنكم عائدون الى العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى** **إِنَّا مُنْتَقِمُونَ** البطش - على ما ذكره الراغب - تناول الشىء بصوله، و هذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثانى يوم القيامة، و ربما أيد توصيف البطشه بالكبرى هذا القول الثانى فإن بطش يوم القيامة و عذابه أكبر البطش و العذاب، قال تعالى: **فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ** (الغاشية / ٢٤)، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: **وَلَأَجْرُ الْآخِرِ أَكْبَرُ** (النحل / ٤١).

قوله تعالى: **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ** **وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ** الفتنه الامتحان و الابتلاء للحصول على حقيقه الشىء، و قوله: «و **جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**» السخ؛ تفسير للامتحان، و الرسول الكريم موسى عليه السلام، و الكريم هو المتصف بالخصال الحميده قال الراغب:

الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله: «**فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**» و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التى تظهر منه، و لا يقال:

هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: و كل شىء شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى:

أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا انتهى.

قوله تعالى: **أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ** **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** تفسير لمجىء الرسول فإن معنى مجىء الرسول تبليغ الرساله و كان من رساله موسى عليه السلام الى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بنى إسرائيل و لا يعذبوهم، و المراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبر عنهم بذلك

استرحاما و تلويحا الى أنهم فى استكبارهم و تعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله.

و فى قوله: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ حيث وصف نفسه بالأمانه دفع لاحتمال أن يخونهم فى دعوى الرساله و إنجاء بنى إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من ارضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملاي حوله: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ (الشعراء ٢٥).

قوله تعالى: وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أى لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي و الإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول فى رسالته استعلاء و تجبر على من أرسله و الدليل على أن المراد ذلك تلعيل النهى بقوله: «إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أى حجه بارزه من الآيات المعجزه أو حجه المعجزه و حجه البرهان.

قيل: و من حسن التعبير الجمع بين التأديه و الأمين و كذا بين العلو و السلطان.

قوله تعالى: وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَوَجُّمُونِ أَى التجأت اليه تعالى من رجمكم إياى فلا تقدرتون على ذلك، و الظاهر أنه إشاره الى ما آمنه ربه قبل المجيء الى القوم كما فى قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى (طه ٤٦).

قوله تعالى: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَمَا عَتَرْتُمُنِي لِي وَ لَمْ تَأْمِنُوا لِي فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ أى إن لم تؤمنوا لى فكونوا بمعزل منى لا لى و لا على و لا تتعرضوا لى بخير أو شر، و قيل: المراد تنحوا عنى و انقطعوا، و هو بعيد.

قوله تعالى: فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاقِيَهُمْ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ أى دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعى له الى الدعاء و هو إجرامهم الى حد يستحقون معه الهلاك و يعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال: «فَأَسْرِبِجَادِي» الخ؛ و هو الإهلاك.

قوله تعالى: فَاسْرِبِجَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ الإسراء: السير بالليل فيكون

قوله: «لَيْلًا» تأكيداً له و تصرّيحاً به، و المراد بعبادى بنو إسرائيل، و قوله: «إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ» أى يتبعكم فرعون و جنوده، و هو استئناف يخبر عما سيقع عقب الإسراء.

و فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير فقال له: أسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون يتبعكم فرعون و جنوده.

قوله تعالى: وَ أَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ قال فى المفردات: و اترك البحر رهوا أى ساكناً، و قيل: سعه من الطريق و هو الصحيح. انتهى. و قوله: «إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ» تعليل لقوله: «وَ أَتْرَكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا» .

و فى الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً و التقدير: أسر بعبادى ليلاً يتبعكم فرعون و جنوده حتى إذا بلغت البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعا فى إدراككم فهم جند مغرقون.

قوله تعالى: كَمْ تَرَكَوا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ «كَمْ» للتكثير أى كثيراً ما تركوا، و قوله: «مِنْ جَنَاتٍ» الخ؛ بيان لما تركوا، و المقام الكريم المساكن الحسنه الزاهيه، و النعمه بفتح النون التنعم و بناؤها بناء المره كالضربه و بكسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع كالجلسه و فسروا النعمه هاهنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك، و فاكهين من الفاكهه بمعنى حديث الانس و لعل المراد به هاهنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هى أنواع الثمار.

و قوله: كَذَلِكَ قيل: معناه الأمر كذلك، و قيل: المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه، و قيل: الإشارة الى الإخراج المفهوم من الكلام السابق، و المعنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها.

و يمكن أن يكون حالاً من مفعول «تَرَكَوا» المحذوف و المعنى: كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أى على حالها و الله أعلم.

قوله تعالى: وَ أَوْزَنَّا قَوْمًا آخِرِينَ الضمير لمفعول «تَرَكَوْا» المحذوف المبين بقوله: «مِنْ جَنَاتٍ» الخ؛ والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخيلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

وقوله: «وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» كناية عن سرعه جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج الى علاج في رفعه حتى يتأخر به.

قوله تعالى: وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَهُوَ مَا يُصِيبُهُمْ وَهُمْ فِي إِسَارِهِ فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك.

قوله تعالى: مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «مِنْ فِرْعَوْنَ» بدل من قوله: «مِنْ الْعَذَابِ» إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون، أو من غير حذف يجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة، وقوله: «إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى متكبرا من أهل الإسراف والتعدى عن الحد.

قوله تعالى: وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ أى اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيد السياق.

و المراد بالعالمين جميع العالمين من الامم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثره الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الامم بكثره الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل من التيه وهم يتظللون بالغمام و يأكلون المن و السلوى الى غير ذلك.

و عالمو أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فإنهم لم يختاروا على الامه الاسلاميه

التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (آل عمران ١١٠)، و قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج ٧٨).

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ البلاء الاختبار و الامتحان أى و أعطينا بنى إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر و لقد أوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد فى غيرهم من الامم و ابتلوا بذلك ابتلاء مبينا.

قيل: و فى قوله: «فِيهِ» إشارة الى أن هناك امورا اخرى ككونه معجزه.

و فى تذييل الفصه بهذه الآيات الأربع أعنى قوله: «وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ -الى قوله- بَلَاءٌ مُبِينٌ» نوع تطيب لفس النفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إيماء الى أن الله تعالى سينجيه و المؤمنين به من فراعنه مكه و يختارهم و يمكنهم فى الأرض فينظر كيف يعملون.

[سوره الدخان (٢٤): الآيات ٣٤ الى ٥٩]

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَمْ هُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ قَوْمٌ تُبْعِ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنْ يَوْمَ الْفُضَيْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
(٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنْ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامَ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَعَلِي
الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ
(٤٩) إِنْ هَذَا إِلَّا مَثَلٌ كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ
مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَ
وَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ
مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

قوله تعالى: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ رجوع الى أول الكلام من قوله: «يَلْهُم فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ» والإشارة بهؤلاء الى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد، وقولهم: «إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَىٰ» يريدون به نفى الحياه بعد الموت الملازم لنفى المعاد بدليل قولهم بعده: «وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ» أى بمبعوثين، قال فى الكشاف: يقال: أنشر الله الموتى و نشرهم اذا بعثهم. انتهى.

فقولهم: إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتْنَا الْأُولَى الضمير فيه للعاقبه و النهايه أى ليست عاقبه امرنا و نهايه وجودنا و حياتنا إلا موتتنا الاولى فنعدم بها و لا حياه بعدها أبدا.

و وجه تقييد الموته فى الآيه بالاولى، بأنه ليس بقيد احترازى إذ لا ملازمه بين الأول و الآخر أو بين الأول و الثانى فمن الجائز أن يكون هناك شىء أول و لا ثانى له و لا فى قباله آخر، كذا قيل.

قوله تعالى: فَاتُّوا بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث و الإحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم: «فَاتُّوا بِبَابِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» أى فليحى آبؤنا الماضون بدعائكم أو بأى وسيله اتخذتموها حتى نعلم صدقكم فى دعواكم أن الأموات سيحيون و أن الموت ليس بانعدام.

قوله: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَ أَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبع و الذين من قبلهم من الامم.

و تبع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن و اسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب و قيل: سعد أبو كرب و سيأتى فى البحث الروائى نبذه من قصته و فى الكلام نوع تلويح الى سلامه تبع نفسه

من الإهلاك.

قوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ضمير التثنيه فى قوله: «وَمَا بَيْنَهُمَا» لجنسى السماوات والأرض ولذا لم يجمع، و الباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» للملابسه أى ما خلقناهما إلا متلبسين بالحق، و جَوَز بعضهم كونها للسببيه أى ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الإيمان و الطاعه و البعث و الجزاء، و لا يخفى بعده.

و مضمون الآيتين حجه برهانيه على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء آخر ثم يعدمها و يحيى هذا ثم يميتة و يحيى آخر و هكذا كان لاعبا فى فعله عابثا به و اللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمى ينتقل اليه الأشياء و ما فى هذا العالم الدنيوى الفانى البائد مقدمه للانتقال الى ذلك العالم و هو الحياه الآخره.

و قد فصلنا القول فى هذا البرهان فى تفسير الآيه ١٦ من سوره الأنبياء، و الآيه ٢٧ من سوره ص فليراجع.

و قوله: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تقرير لهم بالجهل.

قوله تعالى: إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ بيان لصفه اليوم الذى يشته البرهان السابق و هو يوم القيامه الذى فيه يقوم الناس لرب العالمين.

و سماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق و الباطل و بين المحق و المبطل و المتقين و المجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

و قوله: مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أى موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم.

قوله تعالى: يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ بيان

ص: ٦٥٣

ليوم الفصل، و المولى هو الصاحب الذى له أن يتصرف فى أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره و المولى الأول فى الآيه هو الأول و الثانى هو الثانى.

و الآيه تنفى أولا- إغناء مولى عن مولاه يومئذ، و تخبر ثانيا أنهم لا ينصرون و الفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المعنى فى عمله و لا يكون لمن يغنى عنه صنع فى ذلك، و النصره إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصه و يتم له ذلك بنصره الناصر.

و الوجه فى انتفاء الإغناء و النصر يومئذ أن الأسباب المؤثره فى نشأه الحياه الدنيا تسقط يوم القيامه، قال تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (البقره ١٦٦)، و قال: فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ (يونس ٢٨).

قوله تعالى: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ استثناء من ضمير «لَا هُمْ يُنصِرُونَ» و الآيه من أدله الشفاعة يومئذ و قد تقدم تفصيل القول فى الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير «لَا هُمْ يُنصِرُونَ» الى الناس جميعا على ما هو الظاهر. و أما لو رجع الى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع و المعنى: لكن من رحمه الله و هم المتقون فإنهم فى غنى عن مولى يغنى عنهم و ناصر ينصرهم.

و أما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلا من «مولى» فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شىء من أسباب النجاه و من كان على هذه الصفه لم يغن عنه مغن و لا استثناء و الشفاعة نصره تحتاج الى بعض أسباب النجاه و هو الدين المرضى و قد تقدم فى بحث الشفاعة، نعم يمكن أن يوجه بما سيجىء فى روايه الشحام.

و قوله: إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أى الغالب الذى لا يغلبه شىء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه، و مفيض الخير على من يريد أن يرحمه و يفيض الخير عليه و مناسبه الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهره.

قوله تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامٌ الْأَثِيمِ تقدم الكلام في شجره الزقوم في تفسير سورة الصافات، والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمدامه على معصيه أو بالإكثار من المعاصي والآيه الى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما، والغلي والغليان معروف، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة، وقوله: «كَالْمُهْلِ» خبر ثان لقوله: «إِنَّ» كما أن قوله: «طَعَامٌ الْأَثِيمِ» خبر أول، وقوله: «يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ» خبر ثالث، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ الاعتلاء الزعزعه و الدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أى نقول للملائكة خذوا الأثيم و ادفعوه بعنف الى وسط النار لتحيط به قال تعالى: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (التوبه ٤٩).

قوله تعالى: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ كأن المراد بالعذاب ما يعذب به، وإضافته الى الحميم بيانيه والمعنى: ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذى يعذب به.

قوله تعالى: ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خطاب يخاطب به الأثيم و هو يقاسى العذاب بعد العذاب، و توصيفه بالعزه و الكرامه على ما هو عليه من الذله و اللأمه استهزاء به تشديدا لعذابه و قد كان يرى فى الدنيا لنفسه عزه و كرامه لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: وَمَا أَظُنُّ الشَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى (حم السجده ٥٠).

قوله تعالى: إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ الامتراء الشك و الارتياب، والآيه تتمه قولهم له: «ذُوقْ» الخ؛ وفيها تأكيد و إعلام لهم بخطئهم و زلتهم فى الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهده عيان، ولذا عبّر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبر

عن إدراك ألم المولمات و لذه الملمات إدراكا تاما بالذوق.

و يمكن أن تكون الآيه استثناءفا من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم فى يوم القيامة، و ربما أئده قوله: «كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» بخطاب الجمع و الخطاب فى الآيات السابقه بالإفراد.

قوله تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ المقام محل القيام بمعنى الثبوت و الركوز و لذا فسر أيضا بموضع الإقامه، و الأمين صفه من الأمن بمعنى عدم إصابه المكروه، و المعنى: إن المتقين-يوم القيامة-ثابتون فى محل ذى أمن من إصابه المكروه مطلقا.

و بذلك يظهر أن نسبة الأمن الى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز فى النسبه.

قوله تعالى: فِي جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ بيان لقوله: «فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» و جعل العيون طرفا لهم باعتبار المجاوره و وجودها فى الجنات التى هى ظرف، و جمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنه أو أكثر.

قوله تعالى: يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ السندس الرقيق من الحرير و الإستبرق الغليظ منه و هما معرّبان من الفارسيه.

و قوله: مُتَقَابِلِينَ أى يقابل بعضهم بعضا للاستيناس إذ لا شرّ و لا مكروه عندهم لكونهم فى مقام أمين.

قوله تعالى: كَذَلِكَ وَ زَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ أى الأمر كذلك أى كما وصفناه و المراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهم من الزوج بمعنى القرين و هو اصل التزويج فى اللغه، و الحور جمع حوراء بمعنى شديده سواد العين و بياضها أو ذات المقله السوداء كالظباء، و العين جمع عيناء بمعنى عظيمه العينين، و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخله فى الجنه.

قوله تعالى: يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ أى آمين من ضررها.

قوله تعالى: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ أَيِ إِنَّهُمْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَحْيَاءٌ بِحَيَاةِ أَبَدِيهِ لَا يَعْتَرِيهَا مَوْتٌ.

و قوله: وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره، فالمعنى: و حفظهم من عذاب الجحيم، و ذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفى الموت عنهم تميم لقسمه المكاره أى إنهم مصونون من الانتقال من دار الى دار و من نشأه الجنه الى نشأه غيرها و هو الموت و مصونون من الانتقال من حال سعيده الى حال شقيه و هى عذاب الجحيم.

قوله تعالى: فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ حال مما تقدم ذكره من الكرامه و النعمه، و يمكن أن يكون مفعولا مطلقا أو مفعولا-له، و على أى حال هو تفضل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقا يوجب عليه تعالى و يلزمه على الإثابه فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شىء، و إنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، و قد تقدم تفصيل القول فى هذا المعنى فى الأبحاث السابقه.

و قوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزا عظيما لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ تفريع على جميع ما تقدم من أول السوره الى هنا و فذلكه للجميع، و التيسير التسهيل، و الضمير للكتاب و المراد بلسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم العربيه.

و المعنى: فإنما سهلنا القرآن- أى فهم مقاصده- بالعربيه لعلهم- أى لعل قومك- يتذكرون فتكون الآيه قريبه المعنى من قوله: إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (الزخرف ٣).

و قيل: المراد من تيسير الكتاب بلسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم إجراؤه على لسانه و هو أمى لا يقرأ و لا

يكتب ليكون آيه لصدق نبوته، و هو بعيد من سياق الفذلكه.

قوله تعالى: فَأَرْتَبْنَا لَهُمْ مِزْنَ تَقْبُونَ كَأَنَّهُ مَتَفْرَع عَلَى مَا يَتَفْرَع عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، و مَحْصِيلُ الْمَعْنَى أَنَا يَسْرِنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ رَجَاءُ أَنْ يَتَذَكَّرُوا فَلَمْ يَتَذَكَّرُوا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ و يَنْتَظِرُونَ الْعَذَابَ الَّذِي لَا مَرَّةَ لَهُ مِنَ الْمَكْذِبِينَ فَانْتَظِرِ الْعَذَابَ إِنَّهُمْ مَنْتَظِرُونَ لَهُ.

فإطلاق المرتقيين على القوم من باب التهكم، و من سخييف القول قول من يقول إن في الآيه أمرا بالمتاركة و هي منسوخه بآيه السيف.

ص: ٤٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَيْدِثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بَعْدَ آيَاتِهِ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (١١) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

غرض السوره دعوه عامه على الإنذار تفتتح بآيات الوجدانيه ثم تذكر تشريع الشريعه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و تشير الى لزوم اتباعها له و لغيره بما أن أمامهم يوما يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحه من الإيمان و اتباع الشريعه و اجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين، ثم تذكر ما سيجرى على الفريقين فى ذلك اليوم و هو يوم القيامه.

و فى خلال مقاصدها إنذار و وعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله و الذين اتخذوا إلههم هواهم و أضلهم الله على علم.

و من طرائف مطالبها بيان معنى كتابه الأعمال و استنساخها.

و السوره مكيه بشهاده سياق آياتها و استثنى بعضهم قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةُ، و لا شاهد له.

قوله تعالى: حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الظاهر أن «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» من إضافه الصفه الى الموصوف و المصدر بمعنى المفعول، و «مِنَ اللَّهِ» متعلق بتنزيل، و المجموع خبر لمبتدأ محذوف.

و المعنى: هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم، و قد تقدم الكلام فى مفردات الآيه فيما تقدم.

قوله تعالى: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ آيه الشىء علامته التى تدلّ عليه و تشير اليه، و المراد بكون السماوات و الأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات و الأرض و سائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آيه دالّه عليه تعالى.

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها فى كلامه تعالى فتاره يذكر أن فى الشىء آيه له و أخرى يعدّه بنفسه آيه كقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ (آل عمران ١٩٠)، و قوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الروم ٢٢)، و نظائرهما كثيره، و يستفاد من اختلاف التعبير الذى فيها أن معنى كون الشىء فيه آيه هو كونه بنفسه آيه كما يستفاد من اختلاف التعبير فى مثل قوله: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ، و قوله: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ الْآيَةُ؛ أن المراد من خلق السماوات و الأرض نفسها لا غير.

و العناية فى أخذ الشىء ظرفاً للآيه مع كونه بنفسه آيه اعتبار جهات وجوده و أن لوجوده جهه أو جهات كل واحده منها آيه من الآيات و لو أخذت نفس الشىء لم يستقم إلا- أخذها آيه واحده كما فى قوله تعالى: وَ فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (الذاريات ٢٠)، و لو أخذت الآيه

نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: و الأرض آيه للموقنين و ضاع المراد و هو أن فى وجود الأرض جهات كل واحده منها آيه وحدها.

فمعنى قوله: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْخَبْرَ؛ أن لوجود السماوات و الأرض جهات داله على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتيه الى من يوجد لها و عظمه خلقتها و بداعه تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائله و اندراج أنظمتها الجزئيه الخاصه بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقا هو وحده ربها المدبر أمرها فلو لا أن هناك من يوجد لها لم توجد من رأس، و لو لا أن مدبرها واحد لتناقضت النظمات و تدافعت و اختلف التدبير.

قوله تعالى: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ البث التفريق و الإثارة و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال فى خلق الإنسان: ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم ٢٠).

و معنى الآيه: و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرقه من دابه من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

و خلق الإنسان على كونه موجودا أرضيا له ارتباط بالماده نوع آخر من الخلق يغير خلق السماوات و الأرض لأنه مركب من بدن أرضى مؤلف من مواد كونه عنصريه تفسد بالموت بالتفرق و التلاشى و أمر آخر وراء ذلك علوى غير مادى لا يفسد بالموت بل يتوفى و يحفظ عند الله، و هو الذى يسميه القرآن بالروح قال تعالى: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي (الحجر / ٢٩)، و قال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفه ثم من علقه ثم مضغه ثم تتميم خلق بدنه: ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ (المؤمنون ١٤)، و قال: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (الم السجده ١١).

فالناظر فى خلق الإنسان ناظر فى آيه ملكوته وراء الآيات الماديه و كذا الناظر فى خلق

الدواب و لها نفوس ذوات حياه و شعور و إن كانت دون الإنسان فى حياتها و شعورها كما أنها دونه فى تجهيزاتها البدنيه ففى الجمع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له فى ربوبيته و ألوهيته.

قوله تعالى: **وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ** الى آخر الآيه هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء و الأرض.

و قوله: **«وَ اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ»** يريد به اختلافهما فى الطول و القصر اختلافا منظما باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفه و يتكرر بتكرر السنين يدير سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض و يرببهم بذلك تربيته صالحه قال تعالى: **وَ قَدَّرَ فِيهَا اَقْوَاتَهَا فِي اَرْبَعَةِ اَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** (حم السجده ١٠/).

و قوله: **«وَ اَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَاَحْيَا بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** المراد بالرزق الذى ينزله الله من السماء هو المطر تسميه للسبب باسم المسبب مجازا أو لأن المطر أيضا من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، و المراد بالسماء جهه العلو أو السحاب مجازا، و إحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ فى الرشد و النمو، و لا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح الى المعاد.

و قوله: **وَ تَصْيِيرِ الرِّيحِ** أى تحويلها و إرسالها من جانب الى جانب، لتصريفها فوائد عامه كثيره من أعمها سوق السحب الى أقطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات و الروائح الممتنه.

و قوله: **«آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»** أى يميزن بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح بالعقل الذى أودعه الله سبحانه فيهم.

قوله تعالى: **تِلْكَ آيَاتُ اللّٰهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَىٰ حَيْدِثٍ بَعْدَ اللّٰهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملا فلو لم يلتزم لم يكن إيمانا و إن

كان هناك علم، قال تعالى: وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)، و قال:

وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ (الجاثية ٢٣).

و الآيات هي العلامات الداله قآيات الله الكونيه هي الامور الكونيه الداله بوجودها الخارجى على كونه تعالى واحدا فى الخلق متصفا بصفات الكمال منزها عن كل نقص و حاجه، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلالاتها عليه تعالى و لازمه الإيمان به تعالى كما تدلّ هي عليه.

و الآيات القرآنيه آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونيه الداله عليه سبحانه أو على معارف اعتقاديه أو أحكام عمليه أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر بها فإن مضامينها داله عليه و من عنده، و الإيمان بهذه الآيات أيضا إيمان بدلالاتها و يلزمه الإيمان بمدلولها.

و الآيات المعجزه أيضا إما آيات كونيه و دلالتها دلالة الآيات الكونيه و إما غير كونيه كالقرآن فى إعجاز و مرجع دلالتها الى دلالة الآيات الكونيه.

و قوله: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الإِشَارَةُ إِلَى الآيات القرآنيه المتلوّه عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ، و يمكن أن تكون إشاره الى الآيات الكونيه المذكوره فى الآيات الثلاث السابقه بعنايه الاتحاد بين الدالّ و المدلول.

و قوله: فَبَأَى حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ قِيلَ: هو من قبيل قولك:

أعجبني زيد و كرمه، و إنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد و زيد من حيث كرمه، فمعنى الآية فبأى حديث بعد آيات الله يعنى الآيات القرآنيه يؤمنون؟ يعنى إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأى حديث بعده يؤمنون؟

قوله تعالى: وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ الويل و الهلاك، و الأفاك مبالغه من الإفك و هو الكذب، و الأثيم من الإثم بمعنى المعصيه و المعنى: ليكن الهلاك على كل كذاب ذى معصيه.

قوله تعالى: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسْمَعُهَا الخ؛ صفه لكل أفاك أثيم، و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي و تفيد معنى الاستبعاد، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه.

و المعنى: يسمع آيات الله- و هي آيات القرآن- تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى: وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا الخ؛ ظاهر السياق أن ضمير «اتَّخَذَهَا» للآيات، و جعل الهزاء متعلقا بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، و المعنى: و إذا علم ذلك الأفاك الأثيم المصّر المستكبر بعض آياتنا استهزأ بآياتنا جميعا.

و قوله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ أى مذل مخز، و توصيف العذاب بالاهانه مقابله لاستكبارهم و استهزائهم، و الاشاره باولئك الى كل أفاك، و قيل فى الآيه بوجوه آخر أعرضا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى: مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ الخ؛ لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين الى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها.

و قيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال فى المجمع: وراء اسم يقع على القدام و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك. انتهى. و فى قوله: «مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ» قضاء حتم.

و قوله: وَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا المراد بما كسبوا ما حصلوه فى الدنيا من مال و نحوه، و تنكير «شَيْئًا» للتحقير أى و لا يغنى عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار فى الدنيا شيئا يسيرا حقيرا.

و قوله: «وَ لَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ» «مَا» مصدرية و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أربابا آلهه و زعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

وقوله: **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** تأكيد لوعيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أولاً بقوله:

«**وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ**» الخ؛ و ثانياً بقوله: «**فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**» و ثالثاً بقوله: «**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**» و رابعاً بقوله: «**مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ**» الخ؛ و خامساً بقوله: «**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**»، و وصف عذابهم فى خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى: **هَذَا هُدًى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ** الإشاره بقوله: «**هَذَا هُدًى**» الى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغه نحو زيد عدل و الرجز - كما قيل - أشد العذاب و أصله الاضطراب.

و الآيه فى مقام الردّ لما رموا به القرآن و عدّوه مهانا بالهزاء و السخرية و خلاصه و عيد من كفر بآياته.

قوله تعالى: **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُ لَيْلٍ فِيهِ بِأَمْرِهِ** الخ؛ لما ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم و الاستهزاء بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشد العذاب رجع اليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن و يكفر، و ذكر بعض آيات ربوبيته التى فيها من عظيم عليهم و ليس فى وسعهم إنكارها فذكر أولاً تسخير البحر لهم ثم ما فى السماوات و الأرض جميعاً فيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطره الإنسانيه و نسى التفكير الذى هو من أجلى خواص الإنسان.

فقوله: **الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ** اللام فى «**لَكُمْ**» للغايه أى سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجرى فيه فينتفع به الإنسان، و يمكن أن تكون للتعديه فيكون الانسان يسخر البحر بإذن الله.

و قوله: **لَتَجْرِيَ أَلْفُ لَيْلٍ فِيهِ بِأَمْرِهِ** غايه لتخسير البحر، و جريان الفلك فيه بأمره، هو إيجاد الجريان بكلمه كن فأثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبه اليه تعالى و قوله:

«**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**» أى و لتطلبوا بركوبه عطيته تعالى و هو رزقه.

و قوله: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى رجاء أن تشكروه تعالى قبل هذه النعمة التي هي تسخير البحر.

قوله تعالى: وَ سَيَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ الخ؛ هذا من الترقى بعطف العام على الخاص، و الكلام فى «لَكُمْ» كالكلام فى مثله فى الآيه السابقه، و قوله: «جَمِيعاً» تأكيد لما فى السماوات و الأرض أو حال منه.

و قوله: «سَيَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» معنى تسخيرها للانسان أن أجزاء العالم المشهود تجرى على نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض و يربط الجميع بالإنسان فينتفع فى حياته من علويها و سفليها و لا يزال المجتمع البشرى يتوسع فى الانتفاع بها و الاستفادة من توسيطها و التوسل بشتاتها فى الحصول على مزايا الحياه فالكل مسخر له.

و قوله: «مِنْهُ» من للابتداء، و الضمير لله تعالى و هو حال مما فى السماوات و الأرض، و المعنى: سخر لكم ما فى السماوات و الأرض جميعاً حال كونه مبتدأً منه حاصلًا من عنده فذوات الأشياء تبتدئ منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصها و آثارها بخلقه و من خواصها و آثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المرتبط بالانسان قال تعالى: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (الروم ١١)، و قال: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (البروج ١٣).

و قد ذكروا لقوله: «مِنْهُ» معانى أخر لا يخلو شىء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها.

و قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ١٤ الى ١٩]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ التَّوْرَةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦) وَ آتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرْهٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ الْخِ؛ أمر منه تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْفِرُوا لِلْكَفَّارِ فِيصِيرُ تَقْدِيرُ الْآيَةِ: قُلْ لَهُمْ: اغْفِرُوا يَغْفِرُوا فَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ (إبراهيم ٣١).

وَالْآيَةُ مَكِّيَّةٌ وَقَعَهُ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الْوَاصِفَةِ لِحَالِ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْمَهْدَدَةِ لَهُمْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ وَكَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا إِذَا رَأَوْا هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ يَبَالِغُونَ فِي طَعْنِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ وَاسْتَهْزَاءِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَمْ يَتِمَّالِكُوا أَنْفُسَهُمْ دُونَ أَنْ يَدَافِعُوا عَنِ كِتَابِ اللَّهِ وَ مِنْ أَرْسَلَهُ بِهِ وَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَفْضِ مَا هُمْ فِيهِ وَ الْإِيمَانَ مَعَ كَوْنِهِمْ

ممن

حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنْهُمْ وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِحَالِهِمْ فَإِنَّ وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ سِيلْحَقُ بِهِمْ وَجَزَاءُ مَا كَسَبُوهُ سِينَالِهِمْ.

وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالْمَغْفِرَةِ فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا» الصَّفْحُ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ بِتَرْكِ مَخَاصِمَتِهِمْ وَمَجَادَلَتِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ فَإِنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِلَّهِ أَيَّامًا لَا حُكْمَ فِيهَا وَلَا مَلِكًا إِلَّا لَهُ تَعَالَى كِيَوْمِ الْمَوْتِ وَالْبَرْزَخِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَوْمِ عَذَابِ الْاِسْتِثْصَالِ.

وَقَوْلِهِ: لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ أَوْ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ وَمَحْصَلُهُ لِيَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَلَا يَتَعَرَّضُوا لَهُمْ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَتَكُونُ الْآيَةُ نَظِيرَهُ قَوْلِهِ: وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا إِنْ لَمَدِينَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (المزمل ١٢/١)، وَقَوْلِهِ: ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأنعام ٩١/٩١)، وَقَوْلِهِ: فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (المعارج ٤٢/٤٢)، وَقَوْلِهِ: فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٩/٨٩).

وَمَعْنَى الْآيَةِ: مَرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَعْفُوا وَيَصْفَحُوا عَنْ أَوْلِيئِكَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَيَوْمَ الْجَزَاءِ يَوْمَ مِنْ أَيَّامِهِ أَيْ لِيَصْفَحُوا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِأَيَّامِ اللَّهِ حَتَّى يَجْزِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» وَضَعُ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، وَكَانَ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَقَالَ:

لِيَجْزِيَهُمْ، وَالنَّكْتَةُ فِيهِ مَعَ كَوْنِ «قَوْمًا» نَكْرَهُ غَيْرِ مَوْصُوفِهِ تَحْقِيرِ أَمْرِهِمْ وَعَدَمِ الْعِنَايَةِ بِشَأْنِهِمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ لَا يَعْرِفُ شَخْصَهُمْ وَلَا يَهْتَمُّ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فِي مَوْضِعِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» السَّخِّ؛ وَ لِذَا لَمْ يَعْطَفَ وَ لَيْسَ مِنْ

و محصل المعنى: ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر بل من عمل صالحا انتفع به و من أساء العمل تضرر به ثم الى ربكم ترجعون فيجزىكم حسب أعمالكم إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ التَّوْبَةَ الخ؛ لما بين أن للأعمال آثارا حسنه أو سيئه تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم إذ كان على الله سبحانه أن يهدى عباده الى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِزٌ (النحل ٩/).

فنبه على ذلك بقوله الآتى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيْعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ» الخ؛ و قدّم على ذلك الإشارة الى ما آتى بنى إسرائيل من الكتاب و الحكم و النبوه و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم و إيتائهم البيئات ليؤذن به أن الإفاضه الإلهيه بالشريعه و النبوه و الكتاب ليست بيدع لم يسبق اليه بل لها نظير فى بنى إسرائيل و هم بمرآهم و مسمعهم.

فقوله: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ التَّوْبَةَ المراد بالكتاب التوراه المشتمله على شريعه موسى عليه السلام و أما الانجيل فلا يتضمن الشريعه و شريعته شريعه التوراه، و أما زبور داود فهى أدعيه و أذكار، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراه و الإنجيل و الزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق فى القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعه.

و المراد بالحكم بقرينه ذكره مع الكتاب ما يحكم و يقضى به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اٰخْتَلَفُوا فِيْهِ (البقره/ ٢١٣)، و قال فى التوراه: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا لِلَّذِيْنَ هَادُوا وَ الرَّبَّائِيُونَ وَ الْأَعْلَبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ (المائده/ ٤٤)، فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوه من

و المراد بالنبوه معلوم و قد بعث الله من بنى إسرائيل جمعا كثيرا من الأنبياء كما فى الأخبار و قص فى كتابه جماعه من رسلهم.

و قوله: وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَى طيبات الرزق و من ذلك المن و السلوى.

و قوله: وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ إِنْ كَانَ المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيره الظاهره من أنبيائهم، و إِنْ كَانَ المراد عالمى زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ المراد بالبينات الآيات التى تزيل كل شك و ريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفریع قوله: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» .

و المراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و «مِنْ» بمعنى فى و المعنى: و أعطيناهم دلائل بينه فى أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى عليه السلام.

و قيل: المراد به أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المعنى: آتيناهم آيات من أمر النبى و علامات مبينه لصدقه كظهوره فى مكه و مهاجرته منها الى يثرب و نصره أهله و غير ذلك مما كان مذكورا فى كتبهم.

و قوله: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ يشير الى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف فى الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهه أو جهل و إنما أوجدها علماؤهم بغيا و كان البغى دائرا بينهم.

و قوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إشاره الى أن اختلافهم الذى لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

قوله تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَ يشاركه فيه أمته، و الشريعة طريق ورود الماء و الأمر أمر الدين، و المعنى: بعد ما آتينا بنى إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقه خاصة من أمر الدين الالهى و هى الشريعة الاسلاميه التى خص الله بها النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أمته.

و قوله: فَاتَّبِعْهَا الخ؛ أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم باتباع ما يوحى اليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفه للدين الالهى.

و يظهر من الآيه أولا: أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم مكلف بالدين كسائر الامه.

و ثانيا: أن كل حكم عملى لم يستند الى الوحي الالهى و لم ينته اليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب الى العلم.

قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا الخ؛ تعليل للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، و الاغناء من شىء رفع الحاجه اليه، و المحضيل: أن لك الى الله سبحانه حوائج ضروريه لا يرفعها إلا هو و الذريعه الى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغنى عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئا إليها الحاجه أو لا يغنى شيئا من الاغناء.

و قوله: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذى يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهى عن اتباع أهواء الجاهلين، و أن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعه و بالمتقين المتبعون لدين الله.

و المعنى: أن الله ولى الذين يتبعون دينه لأنهم متقون و الله وليهم، و الذين يتبعون أهواء الجهله ليس هو تعالى وليا لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون و الظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليا و لا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئا.

و تسميه المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: أَنْ لَّغْنَهُ اللَّهُ عَلَىٰ

الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (الأعراف / ٤٥).

[سوره الجاثيه (٤٥): الآيات ٢٠ الى ٣٧]

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِمَن لَّمْ يَلْحَقِ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَخْلَاهُمْ وَ مِمَّا تُهْمُ سَاءٌ مَا يُحْكُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَمْ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُ يَوْمَئِذٍ يُخَسِرُ الْمُنْطَلِقُونَ (٢٧) وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كُنَّا نَسِيحًا نَسِيحًا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ مَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ (٣٢) وَ بَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَا أَوْكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ عَزَّيْتُمْ الْآيَاتِ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

قوله تعالى: هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ الإِشَارَةُ بِهَذَا إِلَى الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ الَّذِي هُوَ الشَّرِيعَةُ أَوْ إِلَى الْقُرْآنِ بِمَا يَشْمَلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَبِالصَّائِرِ جَمْعَ بَصِيرَةٍ وَهِيَ الْإِدْرَاكُ الْمَصِيبُ لِلْوَاقِعِ، وَ الْمَرَادُ بِهَا مَا يَبْصُرُ بِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ بِصَائِرٍ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ أَحْكَامًا وَ قَوَانِينِ كُلِّ مِنْهَا يَهْدِي إِلَى وَاجِبِ الْعَمَلِ فِي سَبِيلِ السَّعَادَةِ.

والمعنى: هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكل منها الناس و يهتدون إلى السبيل الحق و هو سبيل الله و سبيل السعادة، فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة: «هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» كقوله بعد ذكر آيات الوجدانية في أول السورة: «هَذَا هُدًى وَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا» الخ.

و قوله: وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ أى دلالة واضحة و إفاضة خير لهم، و المراد قوم يوقنون الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود في القرآن تعلق الإيقان بالأصول الاعتقادية.

و تخصيص الهدى و الرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر الناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر، و بالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتقى و آن برسوله بعد الإيمان بالله، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ (الحديد ٢٨)، و قال:

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (البقرة ١٧٤)، و للرحمة درجات كثيرة تختلف سعة و ضيقا ثم للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضا مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها.

و أما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن مما يشتمل على الشريعة رحمة

للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمه لهم جميعا، قال تعالى: ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّنْ حَيَاتِهِمْ وَمَمَاتِهِمْ﴾ الخ؛ قال في المجمع: الاجترح الاكتساب، يقال: جرح و اجترح و كسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن لذلك تأثيرا كتأثير الجراح. قال: السيئه الفعله القبيحه التي يسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها.
انتهى.

و الجعل بمعنى التصيير، وقوله: ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في محل المفعول الثاني للجعل، و التقدير كائنين كالذين آمنوا، الخ.

و جزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في «كَالَّذِينَ» اسما بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: «نَجْعَلَهُمْ»، و قوله: «سَوَاءً» بدلا منه.

و قوله: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب على القراءه الدائره و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أى مستويا أو تساويا، و قوله: «مَحْيَاهُمْ» مصدر ميمي و فاعل «سَوَاءً» ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين، و «مَمَاتُهُمْ» معطوف على «مَحْيَاهُمْ» و حاله كحال.

و الآيه مسوقه سوق الإنكار و «أَمْ» منقطعه، و المعنى: بل أحسب و ظنّ الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم و مماتهم أى تكون حياه هؤلاء كحياه أولئك و موتهم كموتهم فيكون الإيمان و التشرع بالدين لغوا لا أثر له في حياه و لا موت و يستوى وجوده و عدمه.

و قوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ردّ لحسبانهم المذكور و حكمهم بالمماثله بين مجترحي السيئات و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و مساءه الحكم كناية عن بطلانه.

فالفريقان لا يتساويان في الحياه و لا في الممات.

قوله تعالى: وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الظاهر أن المراد بالسموات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء في «بِالْحَقِّ» للملابسه فكون خلق العالم بالحق كونه حقا لا باطلا و لعبا و هو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غايه ثابتة باقيه وراءه.

و قوله: وَ لِيُجْزَى السَّخِّ عَطْفٌ عَلَى «بِالْحَقِّ» و الباء في قوله: «بِمَا كَسَبَتْ» للتعديه أو للمقابله أى لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعه فالثواب و إن كان معصيه فالعقاب، و قوله:

«وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» حال من كل نفس أى و لتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل.

فيقول معنى الآيه الى مثل قولنا و خلق الله السموات و الأرض بالحق و بالعدل فكون الخلق بالحق يقتضى أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات و كون الخلق بالعدل يقتضى أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا و المسيء يجزى جزاء سيئا و إذ ليس ذلك في هذه النشأه ففي نشأه أخرى.

و بهذا البيان يظهر إن الآيه تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أشير اليه بقوله:

«وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» و يسلك من طريق الحق، و الثانيه ما أشير اليه بقوله:

«وَ لِيُجْزَى السَّخِّ» و يسلك من طريق العدل.

فتقول الحجتان الى ما يشتمل عليه قوله: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا ذَلِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨).

و الآيه بما فيها من الحججه تبطل حسابانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاه بالثواب و العقاب على الطاعه و المعصيه يوم القيامه ينفي تساوى المطيع و العاصي في الممات، و لازم ذلك إبطال حسابانهم أن المسيء كالمحسن في الحياه فإن ثبوت المجازاه يومئذ يقتضى

وجوب الطاعة في الدنيا و المحسن على بصيره من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى و ضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ظاهر السياق أن قوله: «أَفَرَأَيْتَ» مسوق للتعجب أى ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟

و المراد بقوله: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» حيث قدم «إِلَهَهُ» على «هَوَاهُ» أنه يعلم أن له إلها يجب أن يعبده-و هو الله سبحانه-لكنه يبدله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه،و لذلك عقبه بقوله: «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ» أى إنه ضال عن السبيل و هو يعلم.

و معنى اتخاذ الإله العبادة و المراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدّ الطاعة عباده كما فى قوله:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس ٦١)، و قوله: اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُحَبَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (التوبة ٣١)، و قوله: وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ (آل عمران ٦٤).

و الاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أَرَادَهُ و رضيه معبوده فمن أطاع شيئا فقد اتخذها إلها و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه و لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أى أ لا- تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته و اتباعه و هو يعلم أن له إلها غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنه يجعل معبوده و مطاعه هو هواه.

و قوله: وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ أى هو ضال بإضلال منه تعالى يضلّه به مجازاه لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقرا على علم هذا الضال،و لا- ضير فى اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما فى قوله تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ (النمل ١٤)، و ذلك أن العلم لا يلزم الهدى و لا الضلال يلزم الجهل بل الذى يلزم الهدى هو العلم مع

التزام العالم بمقتضى علمه فيتعبه الاهتداء و أما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لا تباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال و إن كان معه علم.

و قوله: وَ خَتَمَ عَلَيَّ سَمْعِي وَ قَلْبِي وَ جَعَلَ عَلَيَّ بَصَرِي غِشَاوَةً كَالعطف التفسيري لقوله: «وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَيَّ عِلْمًا» و الختم على السمع و القلب هو أن لا- يسمع الحق و لا- يعقله، و جعل الغشاوه على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله و محصل الجميع: أن لا يترتب على السمع و القلب و البصر أثرها و هو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه و اتباع للهوى، و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

و قوله: فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه و التفرغ على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال و قد أضله الله على علم، الخ؛ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (البقره ١٢٠) و قال: وَ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (المؤمن ٣٣).

و قوله: «أَفَلَا تَدَكَّرُونَ» أي أفلا تتفكرون في حاله فتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم الى الهدى مع اتباع الهوى فتعظوا.

قوله تعالى: وَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ الى آخر الآيه، قال الراغب: الدهر في الأصل اسم لمدته العالم من مبدأ وجوده الى انقضائه، و على ذلك قوله تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَعْبُرْ بِهِ عَنْ كُلِّ مَدَّةٍ كَثِيرَةٍ، و هو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدته القليله و الكثيره. انتهى.

و الآيه على ما يعطيه السياق- سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد- حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجودا و عدما الى الدهر المنكرين للمبدأ و المعاد جميعا إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقه.

فقولهم: **مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا** الضمير للحياه أى لا حياه لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياه وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهى من البعث و الحياه الآخره، وهذا هو القرينه المؤيده لأن يكون المراد بقوله: **«نَمُوتُ وَ نَحْيَا»** يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنسانى بموت الأسلاف و حياه الأخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده:

«وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» المشعر بالاستمرار.

فالمعنى: و قال المشركون: ليست الحياه إلا حياتنا الدنيا التى نعيش بها فى الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان-الذى بمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حى-فليس الموت انتقالا من دار الى دار منتهيا الى البعث و الرجوع الى الله.

و قوله: **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** أى إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفى المعاد مع ما هناك من الأدله على ثبوته.

قوله تعالى: **وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا لِإِِبَابِنَا** **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** تأكيد لكون قولهم بنفى المعاد و حصر الحياه فى الحياه الدنيا قولاً بغير علم.

و المراد بالآيات البينات الآيات المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و كونها بينات و صوح دلالتها على ثبوته بلا شك، و تسميه قولهم: **«اتَّبَوْنَا لِإِِبَابِنَا** **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»** مع كونه اقتراحا جزافيا بعد قيام الحجه إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حججهم إلا اللاحجه.

و المعنى: و إذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتمله على الحجج المثبته للمعاد و الحال أنها واضحات الدلاله على ثبوته ما قبلوها إلا بجزاف من القول و هو طلب الدليل

على إمكانه بإحياء آباؤهم الماضين.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ -الى قوله- وَ الْمَأْرُضِ مَا ذَكَرَ مِنْ اقْتِرَاحِهِمْ الْحِجَةَ عَلَى مَطْلُوبِ قَامَتِ عَلَيْهِ الْحِجَةُ وَ إِنْ كَانَ اقْتِرَاحًا جَزَافِيَا لَا يَسْتَدْعِي شَيْئًا مِنَ الْجَوَابِ لَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ أَمْرَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَنْ يَجْبِيَهُمْ بِإِثْبَاتِ إِمْكَانِهِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْبُدُونَهُ.

و محصله: أن الذي يحييكم لأول مره ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه و لله ملك السماوات و الأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس اليه و يتصرف فيكم بجمعكم الى يوم القيامة و القضاء بينكم ثم الجزاء، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدِ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ قَالَ الرَّابِعُ:

الخسر و الخسران انتقاص رأس المال و ينسب ذلك الى الإنسان فيقال: خسر فلان، و الى الفعل فيقال: خسرت تجارتك، قال تعالى: تَلْمِكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ وَ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْمَقْتِنِيَّاتِ الْخَارِجِيَّةِ كَالْمَالِ وَ الْجَاهِ فِي الدُّنْيَا وَ هُوَ الْأَكْثَرُ، وَ فِي الْمَقْتِنِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ كَالصِّحَّةِ وَ السَّلَامَةِ وَ الْعَقْلِ وَ الْإِيمَانِ وَ الثَّوَابِ وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْخَسْرَانَ الْمُبِينِ.

قال: و كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية و التجارات البشرية.

و قال: و الإبطال يقال في إفساد الشيء و إزالته سواء كان ذلك الشيء حقا أو باطلا قال تعالى: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ» و قد يقال فيمن يقول شيئا لا حقيقه له نحو: وَ لَيْسَ جِئْتَهُمْ بِمَا يَهْتَفُونَ لِذِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ، و قوله تعالى: خَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ أَي الَّذِينَ يَبْطِلُونَ الْحَقَّ. انتهى.

و الأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعليه ما يقع فيها من البعث و الجمع و الحساب

و الجزء و ظهوره، و بذلك صح جعل الساعه مظلوا لليوم و هما واحد، و الأشبه أن يكون قوله: «يَوْمَئِذٍ» تأكيداً لقوله: «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» .

و المعنى: و يوم تقوم الساعه و هى يوم الرجوع الى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق و عدلوا عنه.

قوله تعالى: وَ تَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الخ؛ الجثو البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

و الخطاب عام لكل من يصح منه الرؤيه و إن كان متوجها الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المراد بالدعوه الى الكتاب الدعوه الى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادته قوله بعده:

«الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» .

و المعنى: و ترى أنت و غيرك من الرائين كل امه من الامم جالسها على الجثو جلسها الخاضع الخائف كل امه منهم تدعى الى كتابها الخاص بها و هى صحيفه الأعمال و قيل لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون.

و يستفاد من ظاهر الآيه أن لكل امه كتابا خاصا بهم كما أن لكل إنسان كتابا خاصا به قال تعالى: وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (الإسراء ١٣).

قوله تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِذَا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ قال فى الصحاح: و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى، و النسخه اسم المنتسخ منه. انتهى، و قال الراغب: النسخ إزالة الشىء بشىء يتعقبه كنسخ الشمس الظل راسخ الظل الشمس و الشيب الشباب- الى أن قال- و نسخ الكتاب نقل صورته المجرده الى كتاب آخر و ذلك لا يقتضى إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثلها فى ماده اخرى كاتخاذ نقش الخاتم فى شموع كثيره، و الاستنساخ التقدم بنسخ الشىء و الترشح للنسخ.

انتهى.

و مقتضى ما نقل أن المفعول الذى يتعدى اليه الفعل فى قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه، و لازم ذلك أن تكون الأعمال فى قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» كتابا و أصلا و إن شئت فقل: فى أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو اريد به ضبط الأعمال الخارجيه القائمه بالإنسان بالكتابه لقليل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكته تستدعى فرض هذه الأعمال كتابا و أصلا يستنسخ، و لا دليل على كون «يستنسخ» بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجيه بما أنها فى اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ و تكون صحيفه الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ، و يكون معنى كتابه الملائكه للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخه اللوح على الأعمال.

و هذا هو المعنى الذى وردت به الروايه من طرق الشيعة عن الصادق عليه السّلام و من طرق أهل السنه عن ابن عباس، و سيوافيك فى البحث الروائى التالى.

و على هذا فقوله: «هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» من كلامه تعالى لا من كلام الملائكه، و هو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامه يحكيه لنا فيكون فى معنى «و يقال لهم هذا كتابنا» الخ.

و الإشاره بهذا-على ما يعطيه السياق-الى صحيفه الأعمال و هى بعينها إشاره الى اللوح المحفوظ على ما تقدم و إضافه الكتاب اليه تعالى نظرا الى أنه صحيفه الأعمال من جهه أنه مكتوب بأمره تعالى و نظرا الى أنه اللوح المحفوظ من جهه التشرىف و قوله: «يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ» أى يشهد على ما عملتم و يدل عليه دلالة واضحه ملابسا للحق.

و قوله: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لعل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحق أى إن كتابنا هذا دالٌّ على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية.

و لو لا- أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك و لا يحتمل منهم التكذيب لكذبوه، قال تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (آل عمران ٣٠).

قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة و الشقاء و الثواب و العقاب، و السعداء المشابون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و الأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين.

و المراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها و منها الجنة، و الفوز المبين الفلاح الظاهر، و الباقي واضح.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهادة قوله: «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ» الخ.

و الفاء فى «أَفَلَمْ تَكُنْ» للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرع عليه هو جواب لما، و التقدير:

فيقال لهم: أ لم تكن آياتى تتلى عليكم، و المراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاه اليهم عن وحى و دعوته، و المجرم هو المتلبس بالإجرام و هو الذنب.

و المعنى: و أما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخا و تقرّيعا: أ لم تكن حججى تقرأ و تبين لكم فى الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوما مذنبين.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ الخ؛ المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث

و الجزاء فيكون قوله: «و السَّاعَةُ لَأَرْيَبَ فِيهَا» من عطف التفسير، و يمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدرى.

و قولهم: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ معناه أنه غير مفهوم لهم و الحال أنهم أهل فهم و درايه فهو كناية عن كونه أمرا غير معقول و لو كان معقولا لدروه.

و قوله: إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيَقِينَ أى ليست مما نقطع به و نجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففى قولهم: «مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ» الخ؛ غب ما تليت عليهم من الآيات البينه أفحش المكابره مع الحق.

قوله تعالى: وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ إضافة السيئات الى ما عملوا بيانيه أو بمعنى من، و المراد بما عملوا جنس ما عملوا أى ظهر لهم أعمالهم السيئه أو السيئات من أعمالهم فالآيه فى معنى قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ (آل عمران ٣٠).

فالآيه من الآيات الداله على تمثل الأعمال، و قيل: إن فى الكلام حذفاً و التقدير: و بدأ لهم جزاء سيئات ما عملوا.

قوله: وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ أى و حل بهم العذاب الذى كانوا يسخرون منه فى الدنيا إذا أنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل.

قوله تعالى: وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَأُكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَاؤَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم فى شدائده و أهواله، و نسيانهم لقاء يومهم ذاك فى الدنيا إعراضهم عن تذكّره و تركهم التأهب للقائه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا نَكُنتُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَ غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الخ؛ الإشاره بقوله: «ذَلِكَ» الى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول

العذاب و الهزء السخرية التى يستهزئ بها و الباء للسببية.

و المعنى: ذلكم العذاب الذى يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزءون بها و بسبب أنكم غرتكم الحياه الدنيا فأخذتم إليها و تعلقتم بها.

و قوله: فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ صرف الخطاب عنهم الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و يتضمن الكلام خلاصه القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود فى النار و عدم قبول العذر منهم.

و الاستعتاب طلب العتبى و الاعتذار، و نفى الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم فى السوره من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبر لأمر الجميع و من بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتب ليوم الرجوع اليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعى لجعل الشرائع التى تسوق الى السعاده و الثواب و يتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع على الرحمه و العدل بإعطاء كل شىء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً و لا يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله.

و قد كرر «رَبِّ» فقال: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ ثم أبدل منهما قوله: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» لىأتى بالتصريح بشمول الربوبيه للجميع فلو جىء برب العالمين و اكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصه رب آخر و للأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنيه، و كذا لو اكتفى بالسماوات و الأرض لم يكن صريحاً فى ربوبيته لغيرهما، و كذا لو اكتفى بإحدهما.

قوله تعالى: وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الكبرياء على ما عن الراغب: الترفع عن الانقياد، و عن ابن الأثير: العظمه و الملك و فى المجمع السلطان القاهر و العظمه القاهره و العظمه و الرفعه.

و هي على أى حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل فى العظمه غير الحسيه و مرجعه الى كمال وجوده و لا تناهى كماله.

و قوله: **وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ** أى له الكبرياء فى كل مكان فلا يتعالى عليه شىء فيهما و لا يستصغره شىء و تقديم الخبر فى **«لَهُ الْكِبْرِيَاءُ»** يفيد الحصر كما فى قوله: **«فَلِلَّهِ الْحَمْدُ»**.

و قوله: **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** أى الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير فى الدنيا و الآخره و البانى خلقه و تدبيره على الحكمه و الإتقان (١).

ص: ٦٨٧

١- (١). الجاثيه ٢٠-٣٧: بحث روائى فى: من اتخذ الهه هواه؛ الدهر؛ اللوح و القلم؛ استنساخ اعمال الانسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنِّي نَوَيْتُ بِلِكْتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكِرٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

غرض السوره إنذار المشركين الرادين للدعوه الى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من

أليم العذاب لمنكره المعرضه عنه، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» ثم يعود إليه عوده بعد عوده كقوله: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ»، وقوله: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ»، وقوله: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ»، وقوله في مختتم السوره: «كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغِ الْآيَةِ».

و فيها احتجاج على الوجدانيه و النبوه، و إشاره الى هلاك قوم هود و هلاك القرى التى حول مكه و إنذارهم بذلك، و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم الى قومهم منذرين لهم.

و السوره مكيه كلها إلا- آيتين اختلف فيهما سنشير اليهما فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله، قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» الخ؛ وقوله: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْآيَةُ».

قوله تعالى: «حَمِ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» تقدم تفسيره.

قوله تعالى: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى الخ؛ المراد بالسماوات و الأرض و ما بينهما مجموع العالم المشهود علويه و سفليه، و الباء فى «بِالْحَقِّ» للملابسه، و المراد بالأجل المسمى ما ينتهى اليه أمد وجود الشئ، و المراد به فى الآيه الأجل المسمى لوجود مجموع العالم و هو يوم القيامة الذى تطوى (1) فيه السماء كطى السجل للكتب و تبدل الأرض (2) غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار.

ص: ٤٩٠

١-١. اشاره الى الآيه ١٠٤ من سوره الأنبياء.

٢-٢. اشاره الى الآيه ٤٨ من سوره ابراهيم.

و المعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلويه و السفليه إلا- ملابساً للحق له غايه ثابتة و ملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده و إذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله و كانت مع ذلك له غايه ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء و هو المعاد الموعود، و قد تكرر الكلام فيما تقدم فى معنى كون الخلق بالحق.

و قوله: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآيه التاليه لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد، و «ما» فى «عَمَّا» مصدرية أو موصوله و الثانى هو الأوفق للسياق و المعنى: و المشركون الذين كفروا بالمعاد عما أنذروا به- و هو يوم القيامه بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله- معرضون منصرفون.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ «أَرَأَيْتُمْ» بمعنى أخبرونى و المراد بما تدعون من دون الله الأصنام التى كانوا يدعونها و يعبدونها و إرجاع ضمائر اولى العقل إليها بعد لكونهم ينسبون اليه أفعال اولى العقل و حججه الآيه و ما بعدها مع ذلك تجرى فى كل إله معبود من دون الله.

و قوله: أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَرُونِي بِمَعْنَى أَخْبِرُونِي و «مَا» اسم استفهام و «ذَا» بعده زائده و المجموع مفعول «خَلَقُوا» و من الأرض متعلق به.

و قوله: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَى شركه فى خلق السماوات فإن خلق شىء من السماوات و الأرض هو المسئول عنه.

توضيح ذلك أنهم و إن لم ينسبوا إليها إلا- تدبير الكون و خصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: وَ لَيْسَ سَيِّئُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزمر ٣٨)، و قال: وَ لَيْسَ سَيِّئُهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (الزخرف ٨٧)، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم فى الخلق و لذلك أمر تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن

يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق.

وقوله: **إِنِّي نَزَّلْتُ كِتَابًا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَهُ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** الإشارة بهذا الى القرآن، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوى كالتوراه نازل من عند الله يذكر شركه آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض.

و الاثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل و الروايه قال: و أثرت العلم رويته أثره أثرا و أثاره و أثره و أصله تتبعت أثره انتهى. و عليه فالاثارة فى الآيه مصدر بمعنى المفعول أى شىء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركه فى شىء من السماوات و الأرض، و فسرّه غالب المفسرين بمعنى البقيه و هو قريب مما تقدم.

و المعنى: ائتوني للدلاله على شركهم لله فى خلق شىء من الأرض أو فى خلق السماوات بكتاب سماوى من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشىء منقول من علم أو بقيه من علم اورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين فى دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى: **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَشْتَجِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْخ: الاستفهام إنكارى، و تحديد عدم استجابتهم الدعوه بيوم القيمه لما أن يوم القيامه أجل مسمى للدنيا و الدعوه مقصوره فى الدنيا و لا دنيا بعد قيام الساعه.**

وقوله: **وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** صفه اخرى من صفات آلهتهم مضافه الى صفه عدم استجابتهم و ليس تعليلا لعدم الاستجابه فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا

يوم القيامة فيعادونهم و يكفرون بعبادتهم.

و فى الآيه دلالة على سرايه الحياه و الشعور فى الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد و قد نسب إليها الغفله و الغفله من شئون ذوى الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر.

قوله تعالى: وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَ كَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ الحشر إخراج الشىء من مقره بإزعاج، و المراد بعث الناس من قبورهم و سوقهم الى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبادهم بالتبزي منهم كما قال تعالى:

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ (فاطر ١٤)، و قال حكاية عنهم: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (القصص ٦٣)، و قال: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (يونس ٢٩).

و فى سياق الآيتين تلويح الى أن هذه الجمادات التى لا تظهر لنا فى هذه النشأة أن لها حياه لعدم ظهور آثارها سيظهر فى النشأة الآخرة أن لها حياه و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الكلام فى هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى: قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (الم السجده / ٢١).

قوله تعالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ الآيه و التى بعدها مسوقتان للتوبيخ، و المراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدلها من الحق الذى جاءهم حيث قال: «لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» - و كان مقتضى الظاهر أن يقال: «لها» للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوغ لرميها بأنها سحر مبين و هم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح.

قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا الخ؛ «أم» منقطعه أى بل يقولون افترى القرآن على الله فى دعواه أنه كلامه.

وقوله: قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أَى إِنْ افتريت القرآن لأجلكم آخذنى بالعذاب أو عاجلنى بالعذاب على الافتراء و لستم تقدررون على دفع عذابه عنى فكيف أفتريه عليه لأجلكم،و المحصل أنى على يقين من أمر الله و أعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل فى عقوبته و أنكم لا تقدررون على دفع ما يريد فـكيف أفترى عليه فأعرض نفسى على عذابه المقطوع لأجلكم؟أى لست بمفتر عليه.

وقوله: هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ الإفاضة فى الحديث الخوض فيه و«ما» موصوله يرجع اليه ضمير «فيه» أو مصدرية و مرجع الضمير هو القرآن،و المعنى:الله سبحانه أعلم بالذى تخوضون فيه من التكذيب برمى القرآن بالسحر و الافتراء على الله أو المعنى:هو أعلم بخوضكم فى القرآن.

وقوله: كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ احتجاج ثان على نفى الافتراء و أول الاحتجاجين قوله: «إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» و قد تقدم بيانه آنفاً،و معنى الجملة:أن شهادة الله سبحانه فى كلامه بأنه كلامه و ليس افتراء منى يكفى فى نفى كونى مفترىا به عليه،و قد صدق سبحانه هذه الدعوى بقوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦)،و ما فى معناه من الآيات،و أما أنه كلامه فيكفى فى ثبوته آيات التحدى.

وقوله: وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفى ما يتضمنه تحكّمهم الباطل من نفى رساله كأنه قيل:إِنْ قولكم «افتراء» يتضمن دعويين:

دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان رساله-و الوثنيون ينفونها مطلقا- أما الدعوى الاولى فيدفعه أولا:أنه إِنْ افتريته فلا تملكون،الخ؛و ثانيا:أن الله يكفينى شهيدا على كونه كلامه لا كلامى.

و أما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم،و من الواجب فى حكمته أن

يعامل خلقه بالمغفرة و الرحمة و لا تشملان إلا التائبين الراجعين اليه الصالحين لذلك و ذلك بأن يهديهم الى صراط يقربهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السيئات و الاستقرار في دار السعادة الخالده، و كونه واجبا في حكمته لأن فيهم صلاحيه هذا الكمال و هو الجواد الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء ٢٠)، و قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل ٩)، و السبيل الى هذه الهدايه هي الدعوه من طريق الرساله فمن الواجب في الحكمة أن يرسل الى الناس رسولا يدعوهم الى سبيله الموصله الى مغفرته و رحمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ الخ؛ البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله و أفعاله و لذا فسره بعضهم بأن المعنى: ما كنت أول رسول أرسل اليكم لا رسول قبلي، و قيل: المعنى: ما كنت مبدعا في أقوالى و أفعالى لم يسبقنى إليها أحد من الرسل.

و المعنى الأول لا يلائم السياق و لا قوله المتقدم: ﴿وَهُوَ الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ﴾ بالمعنى الذى تقدم توجيهه فتانى المعنيين هو الأنسب، و عليه فالمعنى: لست أخالف الرسل السابقين فى صورته أو سيره و فى قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فى آثار البشريه ما فيهم و سيبلهم فى الحياه سببلى.

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ (الفرقان ٨).

و قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ نفى لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ﴾ (الأعراف ١٨٨)، و الفرق بين الآيتين أن قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الخ؛ نفى للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له

بمسّ السوء و عدم الاستكثار من الخير، و قوله: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» نفى للعلم بغيب خاص و هو ما يفعل به و بهم من الحوادث التي يواجهونها جميعا، و ذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوه لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالما في نفسه بالغيوب ذا قدره مطلقه غيبه كما يظهر من اقتراحاتهم المحكيه في القرآن فامر صلى الله عليه و آله و سلم أن يعترف- مصرّحا به- أنه لا- يدرى ما يفعل به و لا بهم فينفى عن نفسه العلم بالغيب، و أن ما يجرى عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره و ليس له في شيء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه.

فقوله: «وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» كما ينفى عنه العلم بالغيب ينفى عنه القدره على شيء مما يصيبه و يصيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

و نفى الآيه العلم بالغيب عنه صلى الله عليه و آله و سلم لا ينافى علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله: ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (آل عمران / ٤٤)، (يوسف / ١٠٢)، و قوله: تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ (هود / ٤٩)، و قوله:

عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ (الجن / ٢٧)، و من هذا الباب قول المسيح عليه السلام: وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ (آل عمران / ٤٩)، و قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: لَا- يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا (يوسف / ٣٧).

وجه عدم المنافاه أن الآيات النافيه للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشريه بمعنى أن تكون لهم طبيعه بشريه أو طبيعه هي أعلى من طبيعه البشر من خصائصها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع و دفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب و هذا لا ينافى انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدره نفسه فيهم يملكونها لأنفسهم بل

يَاذَنُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَ أَمْرٍ، قَالَ تَعَالَى: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء/ ٩٣)، جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات، و قَالَ: قُلْ إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (العنكبوت ٥٠/)، و قَالَ: وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ (المؤمن ٧٨/).

و يشهد بذلك قوله بعده متصلاً به: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ» فإن اتصاله بما قبله يعطى أنه في موضع الإضراب، و المعنى: إنى ما أدرى شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسى و إنما أتبع ما يوحى إلي من ذلك.

و قوله: «وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» تأكيد لجميع ما تقدم فى الآيه من قوله: «مَا كُنْتُ بِدَعَا» الخ؛ و «وَ مَا أَدْرِى» الخ؛ و قوله: «إِنْ أَتَّبِعُ» الخ (١).

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ الخ، ضمائر «كَانَ» و «بِهِ» و «مِثْلِهِ» على ما يعطيه السياق للقرآن، و قوله: «وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ؛ معطوف على الشرط و يشاركه فى الجزاء، و المراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه فى المعارف الإلهيه و هو كتاب التوراه الأصيله التى نزلت على موسى عليه السلام، و قوله: «فَأَمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» أى فآمن الشاهد الإسرائيلى المذكور بعد شهادته.

و قوله: إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، و الظاهر أنه أ لستم ضالين لا ما قيل: إنه أ لستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هدايه الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم و إن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً.

و المعنى: قل للمشركين: أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله و الحال أنكم كفرتم به

ص: ٦٩٧

و شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثل ما فى القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم أ لستم فى ضلال؟ فإن الله لا يهدى القوم الظالمين.

و الذى شهد على مثله فآمن على ما فى بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود، و الآيه على هذا مدنيه لا مكيه لأنه ممن آمن بالمدينه، و قول بعضهم: من الجائر أن يكون التعبير بالماضى فى قوله: «و شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيَّ مِثْلَهُ فَأَمَّنَ» لتحقق الوقوع و القصة واقعه فى المستقبل سخيّف لأنه لا يلائم كون الآيه فى سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي صلى الله عليه و آله و سلم صدقه فيما يخبرهم به من الامور المستقبليه.

قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» للآيه قيل: اللام فى قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» للتعليل أى لأجل إيمانهم و يثول الى معنى فى، و ضمير «كَانَ» و «إِلَيْهِ» للقرآن من جهة الإيمان به.

و المعنى: و قال الذين كفروا فى الذين آمنوا- أى لأجل إيمانهم- لو كان الإيمان بالقرآن خيرا ما سبقونا- أى المؤمنون- اليه.

و قوله: «و إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُ قَدِيمٌ ضَمِيرٌ بِهِ» للقرآن و كذا الإشاره بهذا اليه و الإفك الافتراء أى و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أى الذين كفروا هذا أى القرآن إفك و افتراء قديم، و قولهم: هذا إفك قديم كقولهم:

أساطير الأولين.

قوله تعالى: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا نَخِ الظاهر أن قوله: «وَمِنْ قَبْلِهِ» الخ؛ جملة حالیه و المعنى: فسيقولون هذا إفك قديم و الحال أن كتاب موسى حال كونه إماما و رحمه قبله أى قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لسانا عربيا ليكون منذرا للذين ظلموا و هو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكا؟

و كون التوراه إماما و رحمه هو كونها بحيث يقتدى بها بنو إسرائيل و يتبعونها فى أعمالهم و رحمه للذين آمنوا بها و اتبعوها فى إصلاح نفوسهم.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ رَبَّنَا اللَّهُ إِقْرَارُهُمْ وَ شَهَادَتُهُمْ بِانْحِصَارِ الرَّبُوبِيَّةِ فِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَوْحِيدِهِ فِيهَا، وَ بِاسْتِقَامَتِهِمْ ثَبَاتِهِمْ عَلَىٰ مَا شَهِدُوا بِهِ مِنْ غَيْرِ زَيْغٍ وَ انْحِرَافٍ وَ التَّرَامُهُمْ بِلِوَاظِمِهِ الْعَمَلِيَّةِ.

و قوله: فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ أَيْ لَيْسَ قِبَالِهِمْ مَكْرُوهٌ مُحْتَمَلٌ يَخَافُونَهُ مِنْ عِقَابٍ مُحْتَمَلٍ، وَ لَا مَكْرُوهٌ مُحَقَّقٌ يَحْزَنُونَ بِهِ مِنْ عِقَابٍ أَوْ هَوْلٍ، فَالْخَوْفُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُمَكَّنٍ الْوُقُوعِ، وَ الْحُزْنُ مِنْ مَكْرُوهٍ مُحَقَّقٍ الْوُقُوعِ، وَ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: «فَلَا خَوْفٌ» الْخ؛ لِتَوْهَمٍ مَعْنَى الشَّرْطِ فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي مَعْنَى مَنْ قَالَ رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامَ فَلَا خَوْفَ، الْخ.

قوله تعالى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الْمُرَادُ بِصَحَابِهِ الْجَنَّةِ مَلَازِمَتُهَا، وَ قَوْلُهُ: «خَالِدِينَ فِيهَا» حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى الصَّحَابَةِ.

و المعنى: أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون فى الدنيا من الطاعات و القربات (١).

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ١٥ الى ٢٠]

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَىٰ وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَ عَدَّ الْبُصْدِقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ لِلَّذِيهِ أَفِّ لَكُمْ أَوْ تَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَ قَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَتِغِيثَانِ اللَّهَ وَ يَلْتَكِمُ آمِنٌ إِنْ وَ عَدَّ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوقَفِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ النَّارِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حَيَاتِكُمْ دَلِيلًا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

ص: ٦٩٩

قوله تعالى: وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا الى آخر الآية، الوصيه على ما ذكره الراغب هو التقدم الى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ و التوصيه تفعيل من الوصيه قال تعالى: وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ (البقره ١٣٢/)، فمفعوله الثانى الذى يتعدى اليه بالباء من قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصيه بالوالدين التوصيه بعمل يتعلق بهما و هو الإحسان اليهما.

و على هذا فتقدير الكلام: و وصينا الإنسان بوالديه أن يحسن اليهما إحسانا.

و فى إعراب «إِحْسَانًا» أقوال أخر كقول بعضهم: إنه مفعول مطلق على تضمين «وَصَيْنَا» معنى أحسنًا، و التقدير: وصينا الإنسان محسنين اليهما إحسانا، و قول بعضهم: إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أى إيضاء ذا إحسان، و قول بعضهم: هو مفعول له، و التقدير: وصيناه بهما لإحساننا اليهما، الى غير ذلك مما قيل.

و كيف كان فيرّ الوالدين و الإحسان اليهما من الأحكام العامه المشرعه فى جميع الشرائع كما تقدم فى تفسير قوله تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (الأنعام ١٥١/)، و لذلك قال: «و وَصَيْنَا الْإِنْسَانَ» فعممه لكل إنسان.

ثم عقبه سبحانه بالإشاره الى ما قاسته أمه فى حمله و وضعه و فصاله إشعارا بملاك الحكم و تهييجا لعواطفه و إثارة لغريزه رحمته و رأفته فقال: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فَصَلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» أى حملته أمه حملا ذاكره أى مشقه و ذلك لما فى حمله من الثقل، و وضعته و ضعا ذاكره و ذلك ما عنده من ألم الطلق.

و أما قوله: وَ حَمَلُهُ وَ فَصَلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا فقد اخذ فيه أقل مداه الحمل و هو ستة أشهر، و الحولان الباقيان الى تمام ثلاثين شهرا مداه الرضاع، قال تعالى: وَ الْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ (البقره ٢٣٣/)، و قال: وَ فَصَلَتْهُ فِي عَامَيْنِ (لقمان / ١٤).

و الفصل التفريق بين الصبى و بين الرضاع، و جعل العامين ظرفا للفصال بعنايه أنه فى آخر الرضاع و لا يتحقق إلا بانقضاء عامين.

و قوله: حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سِنِيهِ بَلَغَ الْأَشَدَّ بَلَغَ زَمَانٍ مِنَ الْعُمُرِ تَشْتَدُّ فِيهِ قُوَى الْإِنْسَانِ، و قد مرّ نقل اختلافهم فى معنى بَلَغَ الْأَشَدَّ فى تفسير قوله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا (يوسف ٢٢/)، و بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ ملازم عاداه لكمال العقل.

وقوله: قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ الإيزاع الإلهام، وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: وَ نَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا (الشمس ٨/٨)، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث و الدعوه الباطنيه الى فعل الخير و شكر النعمه و بالجمله العمل الصالح.

و قد أطلق النعمه التي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهريه كالحياه و الرزق و الشعور و الإراده، و الباطنيه كالإيمان بالله و الإسلام و الخشوع له و التوكل عليه و التفويض اليه ففي قوله: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَيْكَ» الخ؛ سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً و فعلاً: أما قولاً فظاهر، و أما فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه و ليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبوديه و المملوكيه من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً.

و تفسير النعمه بقوله: «الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ» يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمه و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما.

و قوله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ عطف على قوله: «أَنْ أَشْكُرَ» الخ؛ سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلّى ظاهر الأعمال، و الصلاحيه التي يرتضيها الله تعالى تحلّى باطنها و تخلّصها له تعالى.

و قوله: وَ أَصِيلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي الإصلاح في الذريه إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح و ينجزّ الى إصلاح نفوسهم، و تقييد الإصلاح بقوله: «لِي» للدلاله على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في برّه و إحسانه كما كان هو لوالديه.

و محضّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته و صالح العمل و أن يكون بارًا محسنًا بوالديه

و يكون ذريته له كما كان هو لوالديه، وقد تقدّم (١) غير مرّه أن شكر نعمه تعالى بحقيقه معناه هو كون العبد خالصاً لله فيثول معنى الدعاء الى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل.

و قوله: إِيَّيْ تَبْتُ إِلَيْكَ وَ إِيَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَي الَّذِينَ يَسْلَمُونَ الْأَمْرَ لَكَ فَلَا تَرِيدُ شَيْئاً إِلَّا أَرَادُوهُ بَلْ لَا يَرِيدُونَ إِلَّا مَا أَرَدْتَ.

و الجملة في مقام التعليل لما يتضمّنه الدعاء من المطالب، و يتبين بالآيه حيث ذكر الدعاء و لم يرده بل أيده بما وعد في قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ» الخ؛ أن التوبه و الإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين-بفتح اللام-ذاتا و المخلصين-بكسر اللام-عملا أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشارة إليه آنفاً، و أما إخلاص العمل فلاذن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ (الزمر/٣).

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ تَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ الخ؛ التقبل أبلغ من القبول، و المراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات و المندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة و أما المباحات فإنها و إن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة، كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيده مقابله تقبل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل: إن أعمالهم طاعات من الواجبات و المندوبات و هي أحسن أعمالهم فتقبلها و سيئات فتجاوز عنها و ما ليس بطاعه و لا حسنه فلا شأن له من قبول و غيره.

و قوله: فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ متعلق بقوله: «تَتَجَاوَزُ» أَي تَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي جَمَلِهِ مِنْ تَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، فهو حال من ضمير «عَنْهُمْ» .

ص: ٧٠٣

وقوله: وَعِدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعِدُونَ أَي يَعِدُهُمُ اللَّهُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعِدُونَهُ إِلَى هَذَا الْحِينِ بِلِسَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، أَوِ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَنْجِزُ لَهُمْ بِهَذَا التَّقْبِلِ وَالتَّجَاوُزِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا.

قوله تعالى: وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي لِمَا ذَكَرَ الْإِنْسَانُ الَّذِي تَابَ إِلَى اللَّهِ وَاسْلَمَ لَهُ وَسَأَلَهُ الْخُلُوصَ وَالْإِحْلَاصَ وَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَإِصْلَاحَ أَوْلَادِهِ لَهُ قَابِلُهُ بِهَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمَعَادِ وَيَعْقُّ وَالِدَيْهِ إِذَا دَعَا إِلَى الْإِيمَانِ وَأَنْذَرَاهُ بِالْمَعَادِ.

فقوله: وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا الظاهر أنه مبتدأ في معنى الجمع و خبره قوله بعد: «أُولَئِكَ الَّذِينَ» الخ، و «أُفٍّ» كلمه تبرم يقصد بها إظهار التسخط و التوجع و «أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ» الاستفهام للتوبيخ، و المعنى: أتعدانني أن أخرج من قبري فاحيا و أحضر للحساب أي أتعدانني المعاد «وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» أي و الحال أنه هلكت امم الماضون العائشون من قبلي و لم يحي منهم أحد و لا بعث.

و هذا على زعمهم حجه على نفى المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء و بعث لا حيي بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عددا في أزمنه طويله لا- أمد لها و لا خبر عنهم و لا أثر و لم يتنبهوا أن القرون السالفه لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثا لهم و إحياء في الدنيا و الذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياه الآخره و القيام لنشأه اخرى غير الدنيا.

وقوله: وَهُمَا يَشْفِئَانِ اللَّهَ وَيَلْكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ الاستغاثه طلب الغوث من الله أي و الحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما و يعينهما على إقامة الحججه و استمالته إلى الإيمان و يقولان له: ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

و منه يظهر أن مرادهما بقولهما: «آمِنْ» هو الأمر بالإيمان بالله و رسوله فيما جاء به من عند

اللَّهِ، وَقَوْلُهُمَا: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» المراد به المعاد، وتعليل الأمر بالإيمان به لغرض الانذار والتخويف.

وقوله: فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ الإشارة بهذا الى الوعد الذى ذكرناه و أنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه اليه و المعنى: فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذى تنذراننى به أو ليس هذا الذى تدعواننى اليه إلا خرافات الأولين و هم الامم الأوليه الهمجيه.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الْخَبِيثُ؛ تقدم بعض الكلام فيه فى تفسير الآيه ٢٥ من سوره حم السجده.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ أَى لِكُلِّ مِنَ الْمَذْكُورِينَ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْبَرَّةَ وَ الْكَافِرُونَ الْفَجْرَةَ مَنَازِلَ وَ مَرَاتِبَ مُخْتَلِفَةً صَعُودًا وَ حُدُورًا فَلِلَّجَنَةِ دَرَجَاتٌ وَ لِلنَّارِ دَرَكَاتٌ.

و يعود هذا الاختلاف الى اختلافهم فى أنفسهم و إن كان ظهوره فى أعمالهم و لذلك قال:

«لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا» فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم.

وقوله: وَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ اللام للغايه و الجملة معطوفه على غايه أو غايات اخرى محذوفه لم يتعلق بذكرها غرض، و إنما جعلت غايه لقوله: «هم درجات» لأنه فى معنى و جعلناهم درجات، و المعنى: جعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفيهم أعمالهم و هم لا يظلمون.

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال، و قيل: الكلام على تقدير مضاف و التقدير و ليوفيهم اجور أعمالهم.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ الْخَبِيثُ؛ عرض الماء على الدابه و للدابه وضعه بمرأى منها بحيث إن شاءت شربته، و عرض المتاع على البيع وضعه موضعا لا

مانع من وقوع البيع عليه.

و قوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ قيل: المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم: عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع.

و فيه أن قوله في آخر السوره: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبِّنَا قَال فَذُوقُوا الْعَذَابَ لَا يلائمه تلك الملاءمه حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

و قوله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا عَلَى تَقْدِيرِ الْقَوْلِ أَى يَقَال لَهُمْ: «أَذْهَبْتُمْ» الخ؛ و الطيبات الامور التى تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذ بها الإنسان، و اذهاب الطيبات اِنفادها بالاستيفاء لها، و المراد بالاستمتاع بها استعمالها و الانتفاع بها لنفسها لا للآخره و التهيؤ لها.

و المعنى: يقال لهم حين عرضهم على النار: أنفذتم الطيبات التى تلتذون بها فى حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شىء تلتذون به فى الآخره.

و قوله: فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ تَفْرِيعَ عَلَى إِذْهَابِهِمُ الطيبات، و عذاب الهون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى.

و المعنى: فاليوم تجزون العذاب الذى فيه الهوان و الخزى قبال استكباركم فى الدنيا عن الحق و قبال فسقكم و تولىكم عن الطاعات، و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد و هو الاستكبار عن الحق و الثانى متعلق بالعمل و هو الفسق (1).

ص: ٧٠٦

وَ أَذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَ لَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَا أَبْصَارُهُمْ وَ لَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ حَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَ صَيَّرْنَا آيَاتٍ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ اَخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ النّخ؛ أخو القوم هو المنسوب اليهم من جهة الأب، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه السّلام، والأحفاف مسكن قوم عاد و المتيقن أنه في جنوب جزيره العرب و لا أثر اليوم باقيا منهم، و اختلفوا أين هو؟ فقيل: واد بين عمان و مهرة، و قيل رمال بين عمان الى حضر موت، و قيل: رمال مشرفه على البحر بالشجر من أرض اليمن و قيل غير ذلك.

و قوله: وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ النّذر جمع نذير و المراد به الرسول على ما يفيدته السياق، و أما تعميم بعضهم النذر للرسول و نوابهم من العلماء ففي غير محله.

و فسروا «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» بالذين كانوا قبله و «مِنْ خَلْفِهِ» بالذين جاءوا بعده و يمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه، و من خلفه من كان قبله، و الأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كناية عن مجيئه اليهم و إنذاره لهم على فتره من الرسل.

و قوله: أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ تفسير للإنذار و فيه إشارة الى أن أساس دينه الذي يرجع اليه تفاصيله هو التوحيد.

و قوله: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ تعليل لدعوتهم الى التوحيد، و الظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتى من قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» و قوله: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا النّخ؛ جواب القوم له قبال إنذاره، و قوله: «لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا» بتضمين الإفك و هو الكذب و الفريه معنى الصرف و المعنى: قالوا

أَجئنا لتصرفنا عن آلهتنا إفاكا و افتراء.

و قوله: فَأَتْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ أمر تعجيزى منهم له زعما منهم أنه عليه السلام كاذب فى دعواته آفك فى إنذاره.
قوله تعالى: قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ الخ؛ جواب هود عن قولهم ردا عليهم، فقوله: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» قصر العلم بنزول فيه تعالى لأنه من الغيب الذى لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه، و هو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو؟ و لا- كيف هو؟ و لا- متى هو؟ و لذلك عقبه بقوله: «وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ» أى إن الذى حمّلتة و أرسلت به اليكم هو الذى أبلغكموه و لا علم لى بالعذاب الذى أمرت بإنذاركم به ما هو؟ و كيف هو؟ و متى هو؟ و لا قدره لى عليه.

و قوله: وَ لَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه، و المعنى: لا علم لى بما تستعجلون به من العذاب و لكنى أراكم قوما تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم و خيركم من شركم حين تردون دعوه الله و تكذبون بآياته و تستهزون بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا الخ، صفة نزول العذاب اليهم بادئ ظهوره عليهم.

و العارض هو السحاب يعرض فى الافق ثم يطبق السماء و هو صفة العذاب الذى يرجع اليه ضمير «رَأَوْهُ» المعلوم من السياق، و قوله: «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ» صفة اخرى له، و الأودية جمع الوادى، و قوله: «قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» أى استبشروا ظنا منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا: هذا الذى نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

و قوله: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رد لقولهم: «هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا» بالإضراب عنه الى بيان الحقيقة فىبين أولا على طريق التهكم أنه العذاب

الذى استعجلتم به حين قلم «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» و زاد فى البيان ثانيا بقوله:

«رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

و الكلام من كلامه تعالى و قيل: هو كلام لهود النبى عليه السلام.

قوله تعالى: تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ التدمير الإهلاك، و تعلقه بكل شىء و إن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصه بنحو الإنسان و الدواب و الأموال، فالمعنى: إن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرّت عليه من إنسان و دواب و أموال.

و قوله: فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ بيان لنتيجه نزول العذاب، و قوله:

«كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» إعطاء ضابط كلى فى مجازاه المجرمين بتشبيه الكلى بالفرد الممثل به و التشبيه فى الشده أى إن سنتنا فى جزاء المجرمين على هذا النحو الذى قصصناه من الشده فهو كقوله تعالى: وَ كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود ١٠٢).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ الْخ؛ موعظه لكفار مكه مستنتجه من القصة.

و التمكين إقرار الشىء و إثباته فى المكان، و هو كناية عن إعطاء القدره و الاستطاعه فى التصرف و «ما» فى «فِيهَا» موصوله أو موصوفه و «إِنْ» نافية، و المعنى: و لقد جعلنا قوم هود فى الذى-أو فى شىء-ما مكناكم معشر كفار مكه و من يتلوكم فيه من بسطه الأجسام و قوه الأبدان و البطش الشديد و القدره القوميه.

و قوله: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ أَبْصَارًا وَ أَفْئِدَةً أى جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرهم و هو السمع و الأبصار و ما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَيِّئُهُمْ وَلَا أَبْصَلَٰرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ مَا فِي «فَمَا أَغْنَىٰ» نافية لا استفهامية، و«إِذْ» ظرف متعلق بالنفي الذى فى قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ» .

و محصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره و الانتقاء من الحوادث المهلكه المبيده لكن لم يغن عنهم و لم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئده شيئاً عند ما جحدوا آيات الله فما الذى يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله.

و قوله: ﴿وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ عطف على قوله: «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ تَذَكْرَةً لِئَذَارِهِ مُتَفَرِّعَةً عَلَى الْعِظَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ» الخ؛ فهى معطوفه عليه على ما يفيد السباق لا على قوله:

﴿وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ .

و قوله: ﴿وَصَيَّرْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أَى و صَيَّرْنَا الْآيَاتِ المختلفه من معجزه أيدنا بها الأنبياء و وحى أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نقم ابتليانهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عباده غير الله سبحانه الى عبادته.

و الضمير فى «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» راجع الى القرى و المراد بها أهل القرى.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْ لَا نَصَّيْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الخ؛ ظاهر السياق أن آلهه مفعول ثان لاتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع الى الموصول و «قُرْبَانًا» بمعنى ما يتقرب به، و الكلام مسوق للتهكم، و المعنى: فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهه حال كونهم متقربا بهم الى الله كما كانوا يقولون «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ» .

وقوله: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أَى ضَلَّ الْآلَهُه عن أهل القرى و انقطعت رابطة الالوهيه و العبوديه التى كانوا يزعمونها و يرجعون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد و المكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعتهم.

وقوله: وَ ذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْسُرُونَ مبتدأ و خبر و الإشاره الى ضلال آلهتهم، و المراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و «ما» مصدرية، و المعنى: و ذلك الضلال أثر إفكهم و افترائهم.

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوز و الإشاره الى إهلا-كهم بعد تصريح الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك، و محصل المعنى: أن هذا الذى ذكرناه من عاقبه أمرهم هو حقيقه زعمهم أن الآلهه يشفعون لهم و يقربونهم من الله زعمهم الذى أفكوه و افتروه، و الكلام مسوق للتهكم.

[سوره الأحقاف (٤٦): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

وَ إِذْ صَبَرْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِزْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مِن لَّا-يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوْ لَعَمْرُؤُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

قوله تعالى: وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ الصَّافِيَّ الرَّافِعِيُّ من حالة الى حالة أو من مكان الى مكان، والنفر-على ما ذكره الراغب-عده من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثة من الرجال و النساء و الإنسان و على الجن كما فى الآية «يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» صفة نفر، والمعنى: و اذ كر إذ وجهنا اليك عده من الجن يستمعون القرآن.

و قوله: فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَبْ تَوْأَمِنَ ضَمِيرٍ «حَضَرُوهُ» للقرآن بما يلحق اليه من المعنى الحداثى و الإنصات السكوت للاستماع أى فلما حضروا قراءه القرآن و تلاوته قالوا أى بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

و قوله: فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ضَمِيرٍ «قُضِيَ» للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته، و التولية الانصراف و «مُنْذِرِينَ» حال من ضمير الجمع فى «وَلَوْ» أى فلما أتمت القراءه و فرغ منها انصرفوا الى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله.

قوله تعالى: **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَجِغْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصِدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** الخ؛ حكاية دعوتهم قومهم و إنذارهم لهم، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، وفي الكلام إشعار بل دلاله على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام و كتابه، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراه أو جميع الكتب السماويه السابقه.

وقوله: **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ** أى يهدى من اتبعه الى صراط الحق و الى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق فى الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ** المراد بداعى الله هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** (يوسف ١٠٨/١)، وقيل: المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد.

و الظاهر أن «مِنْ» فى **يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ** للتبعيض، والمراد مغفره بعض الذنوب و هى التى اكتسبها قبل الإيمان، قال تعالى: **إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** (الأنفال / ٣٨).

قوله تعالى: **وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ** الخ؛ أى و من لم يؤمن بداعى الله فليس بمعجز لله فى الأرض بردّ دعوته و ليس له من دون الله أولياء ينصرونه و يمدّونه فى ذلك، و المحصل: أن من لم يجب داعى الله فى دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا- مستقلا و لا بنصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله، و لذلك أتم الكلام بقوله: **«أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»**.

قوله تعالى: **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ مَا بَعْدَهَا** الى آخر السوره متصله بما تقدم من قوله تعالى:

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ الخ؛ و فيها تتميم القول فيما به الإنذار فى هذه

السوره و هو المعاد و الرجوع الى الله تعالى كما أشرنا اليه فى البيان المتقدم.

و المراد بالرؤيه العلم عن بصيره، و العى العجز و التعب، و الأول أفصح على ما قيل، و الباء فى «بِقَادِرٍ» زائده لوقوعها موقعا فيه شائبه حيز النفى كأنه قيل: أليس الله بقادر.

و المعنى: أو لم يعلموا أن الله الذى خلق السماوات و الأرض و لم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى - و هو تعالى مبدأ وجود كل شىء و حياته - بلى هو قادر لأنه على كل شىء قدير، و قد أوضحنا هذه الحجه فيما تقدم غير مره.

قوله تعالى: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تأييد للحجه المذكوره فى الآيه السابقه بالإخبار عما سيجرى على منكرى المعاد يوم القيامه، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تفرير على حقيقه المعاد على ما دلّت عليه الحجه العقلية و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه.

و المعنى: فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اولو العزم من الرسل و لا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم ببعيد و إن استبعدوه.

و قوله: كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا - سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تبيين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هتئى لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث فى الأرض إلا ساعه من نهار.

و قوله: بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ أى هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوه فهل يهلك بهذا الذى بلغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون

وقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يصبر كما صبر اولو العزم من الرسل وفيه تلويح الى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منهم فليصبر كصبرهم، ومعنى العزم هاهنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ** إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (الشورى ٤٣/)، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوح اليه قوله: **وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (طه ١١٥/)، وإما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة.

وعلى المعنى الثالث وهو الحق الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام هم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعليهم لقوله تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** (الشورى ١٣/)، وقد مر لقريب معنى الآية (١).

ص: ٧١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ / الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ
آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا
أَخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَإِمَّا قَدِيدٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا
بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦)

تصف السوره الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثه و الأعمال السيئه و تصف الذين آمنوا بصفاتهم و أعمالهم الحسنه ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمه و الكرامه و صفات اولئك من النقمه و الهوان و على الجملة فيها المقايسه بين الفريقين فى صفاتهم و أعمالهم فى الدنيا و ما يترتب عليها فى الاخرى، و فيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

و هى سورہ مدنيه على ما يشهد به سياق آياتها.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله و هو الإسلام كما عن بعضهم، و فسر بالمنع و هو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يدعوهم اليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

و ثانى التفسيرين أوفق لسياق الآيات التاليه و خاصه ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم و غيرهم.

فالمراد بالذين كفروا كفار مكه و من تبعهم فى كفرهم و قد كانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و يفتنونهم، و صدوهم أيضا عن المسجد الحرام.

و قوله: أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ أى جعل أعمالهم ضاله لا تهتدى الى مقاصدها التى قصدت بها و هى بالجملة إبطال الحق و إحياء الباطل فالجملة فى معنى ما تكرر منه تعالى من قوله:

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (البقره ٢٦٤/)، و قد وعد سبحانه بإحياء الحق و إبطال الباطل كما فى قوله: لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (الأنفال ٨/).

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول الى الغايه، و عد ذلك ضلالا من الاستعمار بالكنايه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَالْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ الخ؛ ظاهر إطلاق صدر الآيه أن المراد بالذين آمنوا، الخ؛ مطلق من آمن وعمل صالحا فيكون قوله: «وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ الخ» تقييدا احترازيا لا تأكيدا وذكرا لما تعلق به العناية في الإيمان.

وقوله: وَالْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ جملة معترضة والضمير راجع الى ما نزل.

وقوله: كَفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ قال في المجمع: البال الحال والشأن والبال القلب أيضا يقال: خطر ببالي كذا، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن.

انتهى.

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآيه السابقه بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآيه فمعنى ذلك هدايه إيمانهم وعملهم الصالح الى غايه السعاده، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعه من الوصول الى السعاده، ولذلك ضم تكفير السيئات الى إصلاح البال.

والمعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفره، وأصلح حالهم في الدنيا والآخره أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذى يوافق ما تقتضيه الفطره الإنسانيه التى فطر الله الناس عليها، والفطره لا تقتضى إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففى الإيمان بما أنزل الله من دين الفطره والعمل به صلاح حال المؤمنين فى مجتمعهم الدنيوى، وأما فى الآخره فلأنها عاقبه الحياه الدنيا وإذا كانت فاتحتها سعيده كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه ١٣٢).

قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِمَا أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ الخ؛ تعليل لما فى الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

و فى تقييد الحق بقوله: «مِنْ رَبِّهِمْ» إشاره الى أن المنتسب اليه تعالى هو الحق ولا نسبه

للباطل اليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بان المؤمنين لما ينتسب اليه طريق الحق الذى اتبعوه، و أما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أما انتساب ضلالهم اليه فى قوله: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها الى غايات صالحه سعيده.

و فى الآيه إشاره الى أن الملاك كل الملاك فى سعادته الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل و السبب فى ذلك انتساب الحق اليه تعالى دون الباطل.

و قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلدَّاسِ أَمْثَالَهُمْ أَي يبيّن لهم أوصافهم على ما هى عليه، و فى الإتيان باسم الإشاره الموضوعه للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالى: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ إِلَى آخِرِ الآيه، تفرّيع على ما تقدم فى الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل: إذا كان المؤمنون أهل الحق و الله ينعم عليهم بما ينعم و الكفار أهل الباطل و الله يضلّ أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيا الحق الذى عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذى عليه الكفار.

فقوله: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ المراد باللقاء اللقاء فى القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه، و التقدير: فاضربوا الرقاب- أى رقابهم- ضرباً و ضرب الرقبه كناية عن القتل بالسيف، لأن أيسر القتل و أسرع ضرب الرقبه به.

و قوله: حَتَّى إِذَا أَثخنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوُثَاقَ فى المجمع: الإثخان إكثار القتل و غلبه العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتدّ عليه و أثخنه الجراح. انتهى. و فى المفردات:

و ثقّت به أثقّ ثقّه سكنت اليه و اعتمدت عليه، و أوثقتّه شدّدته، و الوثاق- بفتح الواو- و الوثاق- بكسر الواو- اسمان لما يوثق به الشئ. انتهى. و «حَتَّى» غايه لضرب الرقاب، و المعنى: فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق و إحكامه فالمراد بشد

الوثاق الأسر فالآيه فى ترتب الأسر فيها على الاثخان فى معنى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال ٦٧).

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنَّا بَعِيدٌ وَإِمَّا فِتْدَاءٌ أَى فأسروهم و يتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم منا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

وقوله: حَتَّىٰ تَصْعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا أوزارها الحرب أثقالها و هى الأسلحة التى يحملها المحاربون و المراد به وضع المقاتلين و أهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال.

وقوله: ذَلِكْ أَى الأمر ذلك أى إن حكم الله هو ما ذكر فى الآيه.

وقوله: وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصِرَ مِنْهُمْ الضمير للكفار أى و لو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم و تعذيبهم من غير أن يأمرهم بقتالهم.

وقوله: وَ لَكِنْ لِيُبْلُوا بِبَعْضِ كُمْ بِبَعْضٍ استدراك من مشيه الانتصار أى و لكن لم ينتصر منهم بل أمرهم بقتالهم ليمتحن بعضهم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصيين و يمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبه من الباطل و الرجوع الى الحق.

وقد ظهر بذلك أن قوله: «لِيُبْلُوا بِبَعْضِ كُمْ بِبَعْضٍ» تعليلاً للحكم المذكوره فى الآيه و الخطاب فى «بَعْضِ كُمْ» لمجموع المؤمنين و الكفار و وجه الخطاب الى المؤمنين.

وقوله: وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ الكلام مسوق سوق الشرط و الحكم عام أى و من قتل فى سبيل الله و هو الجهاد و القتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحه التى أتوا بها فى سبيل الله.

قوله تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بِأَلْهِمُ الضمير للذين قتلوا فى سبيل الله فالآيه و ما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهاده أى سيهديهم الله الى منازل السعاده و الكرامه و يصلح حالهم

بالمغفرة و العفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة.

و إذا انضمت هذه الآية الى قوله تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (آل عمران ١٦٩)، ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحياءهم حياه يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

و قال فى المجمع: و الوجه فى تكرير قوله: «بِالْهُم» أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم فى الدين و الدنيا، و بالثانى أنه يصلح حالهم فى نعيم العقبى فالأول سبب النعيم و الثانى نفس النعيم.

انتهى. و الفرق بين ما ذكره من المعنى و ما قدمناه أن قوله تعالى: «و يُصْلِحْ بِالْهُم» على ما ذكرنا كالعطف التفسيرى لقوله: «سَيَهْدِيهِمْ» دون ما ذكره، و قوله الآتى: «و يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ» على ما ذكره كالعطف التفسيرى لقوله: «و يُصْلِحْ بِالْهُم» دون ما ذكرناه.

قوله تعالى: «و يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَها لَهُمْ غايه هدايته لهم، و قوله: «عَرَفَها لَهُمْ» حال من إدخاله إياهم الجنة أى سيدخلهم الجنة و الحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدينوى من طريق الوحى و النبوه و إما بالبشرى عند القبض أو فى القبر أو فى القيامة أو فى جميع هذه المواقف هذا ما يفيدته السياق من المعنى.

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٧ الى ١٥]

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يُبَيِّتْ أَعْداءَكُمْ (٧) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩) أَلَمْ يَسِيرُوا فى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِها الْأَنْهَارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَشْوَى لَهُمْ (١٢) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَناهُمْ فَلَا ناصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كانَ على بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهَارٌ مِنْ مِاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فى النَّارِ وَ سِيقُوا مِاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (١٥)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصِرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصرُوا اللَّهَ تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييدا لدينه و إعلاء لكلمه الحق لا يستعملوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمه أو ليظهروا نجده و شجاعه.

و المراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضيه لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كالقاء

ص: ٧٢٣

الربع فى قلوب الكفار وإداره الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبيت الأقدام، و هو كناية عن التشجيع و تقويه القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم.

و التعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش و هو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: «فَتَعَسَا لَهُمْ» أى تعسوا تعسا و هو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله:

قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤَفِّكُونَ (التوبه ٣٠)، قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (عبس ١٧)، و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمُ المراد بما أنزل الله هو القرآن و الشرائع و الأحكام التى أنزلها الله تعالى على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و أمر بإطاعتها و الانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها.

و الآيه تعليل مضمون الآيه السابقه، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهُمْ التدمير الإهلاكي، يقال: دمره الله أى أهلكه، و يقال: دمر الله عليه أى أهلك ما يخصه من نفس و أهل و دار و عقار قد مر عليه أبلغ من دمره كما قيل، و ضمير «أَمْثَالُهُمْ» للعاقبه أو للعقوبه المدلول عليها بسابق الكلام.

و المراد بالكافرين الكافرون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و المعنى: و للكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبه أو العقوبه و إنما اوعدوا بأمثال العاقبه أو العقوبه و لا يحلّ بهم إلا مثل واحد لأنهم فى معرض عقوبات كثيره دنيويه و اخرويه و إن كان لا يحلّ بهم إلا بعضها، و يمكن أن يراد

بالكافرين مطلق الكافرين، و الجملة من باب ضرب القاعدة.

قوله تعالى: ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ لِهُمُ الْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَقْتِ الْكَافِرِينَ وَ سَوْءِ عَاقِبَتِهِمْ، وَ لَا يَصْغَى إِلَى مَا قِيلَ: إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ عَاقِبَةِ أَوْ عَقُوبَةِ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ لَهُؤُلَاءِ، وَ كَذَا مَا قِيلَ: إِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ مُتَعَرِّضَةً لِحَالِ الطَّائِفَتَيْنِ: الْمُؤْمِنِينَ وَ الْكَافِرِ جَمِيعًا.

و المولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفى فهو بمعنى الولي و لذلك يطلق على سيد العبد و ماله له لأن له ولايته التصرف في أمور عبده، و يطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية و التأييد و الله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراطه التكوين و يدبرها كيف يشاء، قال تعالى مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا شَفِيعٍ (الم السجده ٤)، و قال وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ (يونس ٣٠)، و هو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم و الجنة و يوفقهم للصالحات و ينصرهم على أعدائهم، و المولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين، لأنهم هم الداخلون في حظيره العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار.

و للمؤمنين مولى و ولي هو الله سبحانه كما قال «ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا»، و قال اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (البقرة ٢٥٧)، و أما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ (البقرة ٢٥٧)، و نفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال:

«وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» ثم نفى ولايتهم مطلقا تكوينا و تشريعا مطلقا فقال: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (الشورى ٩)، و قال: إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ (النجم ٢٣).

فمعنى الآية: أن نصره تعالى للمؤمنين و تثبيتته أقدامهم و خذلانه الكفار و إضلاله أعمالهم

و عقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين و وليهم، و أن الكفار لا مولى لهم فينصرهم و يهدى أعمالهم و ينجيهم من عقوبته.

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ مقايسه بين الفريقين و بيان أثر ولايه الله للمؤمنين و عدم ولايته للكفار من حيث العقابه و الآخره و هى أن المؤمنين يدخلون الجنة و الكفار يقيمون فى النار.

و قد أشير فى الكلام الى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلا من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار الى صفه المؤمنين بقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» و الى صفه الكفار بقوله: «يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ» فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابله أن المؤمنين راشدون فى حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله و عملوا الأعمال الصالحه فسلكوا سبيل الرشد و قاموا بوظيفه الإنسانيه، و أما الكفار فلا عناية لهم بإصابه الحق و لا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانيه، و إنما همهم بطنهم و فرجهم يتمتعون فى حياتهم الدنيا القصيره و يأكلون كما تأكل الأنعام لا منيه لهم إلا ذلك و لا غايه لهم وراءه.

فهؤلاء أى المؤمنون تحت ولايه الله حيث يسلكون مسلكا يريد منهم ربهم و يهديهم اليه و لذلك يدخلهم فى الآخره جنات تجرى من تحتها الأنهار، و أولئك أى الكفار ما لهم من ولى و إنما وكلوا الى أنفسهم و لذلك كان مثوهم و مقامهم النار.

و إنما نسب دخول المؤمنين الجنات الى الله نفسه دون إقامه الكفار فى النار قضاء لحق الولايه المذكوره فله تعالى عناية خاصه بأوليائه، و أما المنسلخون من ولايته فلا يبالى فى أى واد هلكوا.

قوله تعالى: وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكِنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ الْمَرَادُ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ: «أَهْلُكِنَاهُمْ» الخ؛

و القرية التي أخرجته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هِيَ مَكَّة.

و فِي آيَةِ تَقْوِيَةِ لِقَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَهْدِيدِ لِأَهْلِ مَكَّة وَتَحْقِيرِ لِأَمْرِهِمْ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ قَرْيَ كَثِيرَةً كُلَّ مِنْهَا أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِهِمْ وَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ يَنْصُرُهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ السِّيَاقُ الْجَارِي عَلَى قِيَاسِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَالِ الْكُفَّارِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَالْمُرَادُ بِكُونِهِمْ عَلَى بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِمْ كُونِهِمْ عَلَى دَلَالِهِ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّهِمْ تَوْجِبُ الْيَقِينَ عَلَى مَا اعْتَقَدُوا عَلَيْهِ وَ هِيَ الْحُجَّةُ الْبِرْهَانِيَّةُ فَهَمَّ إِنَّمَا يَتَّبَعُونَ الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى مَا هُوَ الْحُرَى بِالْإِنْسَانِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ وَ يَتَّبِعَ الْحَقَّ.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَدْ شَغَفَهُمْ أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ الَّتِي زَيَّنَّا لَهُمْ الشَّيْطَانُ وَ تَعَلَّقَتْ بِهَا أَهْوَاؤُهُمْ وَ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ، فَكَمْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ فَرْقٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ يَفْرُقُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ بَيَانُ مَا لَ أَمْرُهُمَا وَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَوْضِيحٌ مَا مَرَّ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَهَذِهِ آيَةُ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْصِيلُ تِلْكَ الْآيَةِ.

فَقَوْلُهُ: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ الْمَثَلُ بِمَعْنَى الصِّفَةِ - كَمَا قِيلَ - أَيْ صِفَةُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ أَنْ يَدْخُلَهُمْ فِيهَا، وَرَبَّمَا حَمَلَ الْمَثَلُ عَلَى مَعْنَاهِ الْمَعْرُوفِ وَ اسْتِفِيدَ مِنْهُ أَنَّ الْجَنَّةَ أَرْفَعُ وَ أَعْلَى مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهَا الْوَصْفُ وَ يَحْدُهَا اللَّفْظُ وَ إِنَّمَا تَقَرَّبَ إِلَى الْأُذْهَانِ نَوْعَ تَقْرِيْبٍ بِأَمْثَالٍ مُضْرُوبَةٍ كَمَا يَلُوحُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (السَّجْدَةُ ١٧).

وَ قَدْ بَدَّلَ قَوْلُهُ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ قَوْلِهِ:

«الْمُتَّقُونَ» تَبْدِيلُ اللَّازِمِ مِنَ الْمَلْزُومِ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ وَ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ.

و قوله: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أى غير متغير بطول المقام، و قوله:

«وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ» كما فى ألبان الدنيا، و قوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» أى لذينه للشاربين، و اللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، و إما مصدر وصفت به الخمر مبالغه، و إما بتقدير مضاف أى ذات لذه، و قوله: «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» أى خالص من الشمع و الرغوه و القذى و سائر ما فى عسل الدنيا من الأذى و العيوب، و قوله: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» جمع للتعميم.

و قوله: وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ينمحي بها عنهم كل ذنب و سيئه فلا تتكدر عيشتهم بمكدر و لا يتنقص بمنغص، و فى التعبير عنه تعالى بربهم إشاره الى غشيان الرحمة و شمول الحنان و الرأفة الإلهيه.

و قوله: كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ قِياس محذوف أحد طرفيه أى أ من يدخل الجنة التى هذا مثلها كمن هو خالد فى النار و شرابهم الماء الشديد الحرارة الذى يقطع أمعاءهم و ما فى جوفهم من الأحشاء إذا سقوه، و إنما يسقونه و هم مكرهون كما فى قوله: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»، و قيل: قوله: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ» الخ؛ بيان لقوله فى الآيه السابقه: «كَمَنْ زَيْنٌ» الخ؛ و هو كما ترى.

[سوره محمد (٤٧): الآيات ١٦ الى ٣٢]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّاهَمُ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَاكِمٍ (١٩) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَاِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صِدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَ أَعْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ (٣٢)

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا الخ؛ آنفا اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولا- فيه، ومعناه الساعه التي قبيل ساعتك، وقيل: معناه هذه الساعه وهو على أى حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحه.

وقوله: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ الضمير للذين كفروا، والمراد باستماعهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إصغائهم الى ما يتلوه من القرآن و ما يبين لهم من اصول المعارف و شرائع الدين.

وقوله: حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده فى «يَسْتَمِعُ» باعتبار اللفظ.

وقوله: قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا المراد بالذين أُوتوا العلم العلماء

بالله من الصحابه، و الضمير فى «مَا ذَا قَالَ» للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و الاستفهام فى قولهم: «مَا ذَا قَالَ آتِئاً» قيل: للاستعلام حقيقه لأن استغراقهم فى الكبر و الغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى ﴿مَا لَهُمْ لَهَا لِقَوْمٍ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء ٧٨)، و قيل: للاستهزاء، و قيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع الى معنى محصّل، و لكل من المعانى الثلاثه وجه.

و قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» تعريف لهم، و قوله: «وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير، و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أماره الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقى على طهاره الفطره الأصلية لا يتوقف فى فهم المعارف الدينيه و الحقائق الإلهيه.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ اتَّهَمُوا تَقْوَاهُمْ» المقابله الظاهره بين الآيه و بين الآيه السابقه يعطى أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدى اليه الفطره السليمه و اتباع الحق، و زياده هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجه إيمانهم، و قد تقدم أن الهدى و الإيمان ذو مراتب مختلفه، و المراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله و التجنب عن ارتكاب المعاصى.

قوله تعالى: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا» الخ؛ النظر هو الانتظار، و الأشرط جمع شرط بمعنى العلامه، و الأصل فى معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشئ لأن تحققه علامه تحقق الشئ فأشرط الساعه علاماتها الداله عليها.

و سياق الآيه سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم، و إما أن ينتظروا الساعه حتى إذا أيقنوا بوقوعها و أشرفوا عليها تذكروا و آمنوا و اتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجه أو بموعظه أو عبره، و أما انتظارهم

مجىء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغته ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكري وإذا وقعت لم ينفعهم الذكري لأن اليوم يوم جزاء لا- يوم عمل قال تعالى يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى يَقُولُ يَا كَيْفَ أَتَى (الفجر ٢٤).

مضافاً إلى أن أشراتها وعلاماتها قد جاءت وتحققت، ولعل المراد بأشراتها خلق الإنسان وانقسام نوعه إلى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجار المستدعى للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة، وقيل: المراد بأشراط الساعة ظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية.

هذا ما يعطيه التدبر في الآيه من المعنى وهي - كما ترى - حجه برهانيه في عين مسوقه سوق التهكم.

و عليه فقوله: «بَغْتَهُ» حال من الإتيان جىء به لبيان الواقع ولتفرغ عليه قوله الآتى:

«فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ» وليس قيماً للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغته، ولدفع هذا التوهم قيل «إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهُ» ولم يقل: إلا أن تأتيهم الساعة بغته.

وقوله: فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ أى خبر مقدم و «ذِكْرُهُمْ» مبتدأ مؤخر و «إِذَا جَاءَتْهُمْ» معترضه بينهما، والمعنى: فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟ أى كيف ينتفعون بالذكري في يوم لا ينفع العمل الذى يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء.

قوله تعالى: فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ الْخ؛ قيل: هو متفرغ على جميع ما تقدم فى السوره من سعاده المؤمنين و شقاوه الكفار كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعاده هؤلاء و شقاوه أولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحديته الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

و يمكن أن يكون تفرّعا على ما بينه في الآيتين السابقتين أعنى قوله: «وَ مِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ - إلى قوله - وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الذين اهدوا إلى توحيده و الإيمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانيه الإله و اطلب مغفره ذنبك و مغفره امتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا- تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه، و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَاكُم» .

فقوله: فَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله، و قوله: «وَ اسْتَغْفِرْ لِدُنْبِكَ» تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و سيأتي أيضا في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى.

و قوله: وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ أَمْرٌ بَطَّلَ الْمَغْفِرَةَ لِلأَمَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ حَاشَا أَنْ يَأْمُرَ تَعَالَى بِالِاسْتِغْفَارِ وَ لَا يُوَجِّهَهُ بِالْمَغْفِرَةِ أَوْ بِالِدَعَاءِ وَ لَا يَقَابِلُهُ بِالِاسْتِجَابَةِ.

و قوله: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مُتَوَاكُم تعليل لما في صدر الآية «فَاعْلَمَ أَنَّهُ» الخ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال، و كذلك المثوى بمعنى الاستقرار و السكون، و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير و ثابت و حركة و سكون فاثبتوا على توحيده و اطلبوا مغفرته، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم.

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لَوْ لَا تَحْضِيضِيهِ أَى هَلَّا نُزِّلَتْ سُورَةٌ يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيتهم بتكاليف جديدة يمتثلونها، و المراد بالسورة المحكمه المبينه التي لا تشابه فيها، و المراد بذكر القتال الأمر به.

و المراد بالذين في قلوبهم مرض، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية

صريحه فى أن الذين أظهروا الرغبه فى نزولها هم الذين آمنوا، ولا يعمّ الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهله غير اللائقه بكلام الله تعالى فالآيه كقوله تعالى فى فريق من المؤمنين:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ الدَّاسِ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً (النساء ٧٧).

والمغشى عليه من الموت هو المحتضر، يقال: غشيه غشاوه إذا ستره وغطاه و غشى على فلان-بالبناء-للمفعول-إذا نابه ما غشى فهمه، ونظر المغشى عليه من الموت إشخاصه ببصره اليك من غير أن يطرف.

وقوله: فَأُولَىٰ لَهُمْ لعله خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أولى لهم ذلك أى حرى بهم أن ينظروا كذلك أى أن يحتضروا فيموتوا، وعن الأصمعى أن قولهم: «أولى لك» كلمه تهديد معناه وليك و قارنك ما تكرهه، والآيه نظيره قوله تعالى: أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ (القيامه ٣٥).

و معنى الآيه: يقول الذين آمنوا هلا- أنزلت سوره فإذا أنزلت سوره محكمه لا- تشابه فيها و امروا فيها بالقتال و الجهاد رأيت ضعفاء الإيمان منهم ينظرون اليك من شده الخشيه نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

قوله تعالى: طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ عزم الأمر أى جد و تنجز.

وقوله: «طَاعَهُ وَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ» كأنه خبر لمبتدأ محذوف و التقدير أمرنا- أو أمرهم و شأنهم- أى إيمانهم بنا طاعه و ائقونا عليها و قول معروف غير منكر قالوا لنا و هو إظهار السمع و الطاعه كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ -الى أن قال- وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا (البقره ٢٨٥).

و على هذا يتصل قوله بعده: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» بما قبله

اتصالا- بينا،و المعنى: أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم:سمعنا و أطعنا فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطاعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيرا لهم.

و يحتمل أن يكون قوله: «طَاعَهُ» الخ؛خبرا لضمير عائد الى القتال المذكور و التقدير القتال المذكور فى السوره طاعه منهم و قول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فى إيمانهم و أطاعوه به لكان خيرا لهم.أما كونه طاعه منهم فظاهر،و أما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال و الأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل و العقلاء.

قوله تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُثَابِقُونَ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،و قد التفت اليهم بالخطاب لزياده التوبيخ و التقرير،و الاستفهام للتقرير،و التولى الإعراض و المراد به الإعراض عن كتاب الله و العمل بما فيه و العود الى الشرك و رفض الدين.

و المعنى:فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله و العمل بما فيه و منه الجهاد فى سبيل الله أن تفسدوا فى الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و هتك الأعراض تكالبا على جيفه الدنيا أى إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ الْإِشَارَةُ إِلَى الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُقْطَعِينَ لِلْأَرْحَامِ وَ قَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ لَعَنَهُمْ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَذْهَبَ بِسَمْعِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ الْحَقَّ وَ أَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ فَلَا يَرُونَ الرَّأْيَ الْحَقَّ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

قوله تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا الْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَ ضَمِيرُ الْجَمْعِ رَاجِعٌ إِلَى الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ،و تنكير «قُلُوبٍ» كما قيل للدلاله على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم.

قال في مجمع البيان: وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع. انتهى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمُ الْارْتِدَادَ عَلَىٰ الْأَدْبَارِ الرَّجُوعَ إِلَىٰ الْإِسْتِدْبَارِ بَعْدَ الْإِسْتِقْبَالِ وَهُوَ اسْتِعَارُهُ أُرِيدَ بِهَا التَّرِكَ بَعْدَ الْأَخْذِ، وَالتَّسْوِيلُ تَزْيِينُ مَا تَحْرُضُ النَّفْسَ عَلَيْهِ وَتَصْوِيرُ الْقَبِيحِ لَهَا فِي صُورِهِ الْحَسَنِ، وَالْمَرَادُ بِالْإِمْلَاءِ الْإِمْدَادُ أَوْ تَطْوِيلُ الْأَمَالِ.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ الْإِشَارَةَ بِذَلِكَ إِلَىٰ تَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ وَإِمْلَائِهِ وَبِالْجُمْلَةِ تَسْلَطَهُ عَلَيْهِمْ، وَالْمَرَادُ «لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ» هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْأَعْمَالُ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ (الآية ٩ من السورة).

وقوله: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ مَقُولٌ قَوْلُهُمْ وَوَعْدٌ مِنْهُمْ لِلْكَفَّارِ بِالطَّاعَةِ وَهُوَ كَمَا يُلُوحُ مِنْ تَقْيِيدِ الطَّاعَةِ بِبَعْضِ الْأَمْرِ عَلَىٰ نَحْوِ الْإِجْمَالِ كَلَامٍ مِنْ لَا يَقْدَرُ عَلَىٰ التَّظَاهِرِ بِطَّاعَةٍ مِنْ يَرِيدُ طَاعَتَهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ لِكَوْنِهِ عَلَىٰ خَطَرٍ مِنَ التَّظَاهِرِ بِالطَّاعَةِ الْمَطْلُوقَةِ فَيَسْرُّ إِلَىٰ مِنْ يَعِدُهُ أَنَّهُ سَيُطِيعُهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَفِيمَا تيسَّرَ لَهُ ذَلِكَ ثُمَّ يَكْتُمُ ذَلِكَ وَيَقْعُدُ مَتْرَبِصًا لِلدَّوَائِرِ.

وَيَسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَسْرَوْا إِلَىٰ الْكُفَّارِ مَا حَكَاهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَوَعَدَهُمُ الطَّاعَةَ لَهُمْ مَهْمَا تيسَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ».

قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ مُتَفَرِّعًا عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ، وَالمَعْنَى: هَذَا حَالُهُمُ الْيَوْمَ يَرْتَدُّونَ بَعْدَ تَبْيِينِ الْهُدَىٰ لَهُمْ فَيَفْعَلُونَ مَا يَشَاءُونَ

فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة و هم يضربون وجوههم و أدبارهم.

قوله تعالى: ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويات الشيطان المستتبعه للمعاصي و الذنوب الموبقه كما قال تعالى «وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»، و قال «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى لَهُمْ».

و السخط و الرضا من صفاته تعالى الفعلية و المراد بهما العقاب و الثواب.

و الإشارة فى قوله: «ذَلِكْ» الى ما ذكر فى الآيه السابقه من عذاب الملائكة لهم عند توفيتهم أى سبب عقابهم أن أعمالهم حابطه لاتباعهم ما أسخط الله و كراحتهم رضوانه، و إذا لا عمل لهم صالحا يشقون بالعذاب.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ قال الراغب: الضغن-بكسر الضاد-و الضغن-بضمها- الحقد الشديد و جمعه أضغان انتهى. و المراد بالذين فى قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلمهم الذين آمنوا أولا على ضعف فى إيمانهم ثم مالوا الى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان، فالتدبر الدقيق فى تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوما ممن آمن بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم كانوا على هذه الصفة كما أن قوما منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا الى آخر عمرهم، و على هذا فعدهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظه بادئ أمرهم.

و المعنى: بل ظن هؤلاء المنافقون الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ السيماء العلامة، و المعنى: و لو نشاء لأريناك اولئك المرضي القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التى أعلمناهم بها.

وقوله: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً لِأَنَّ كَيْدَ الْإِنْسَانِ وَمَكْرَهُ لَا يَرْجِعُ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا إِيَّاهُ، وقوله: «وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ» أى مساعيهم لهدم أساس الدين و ما عملوه لإطفاء نور الله، وقيل: المراد إحباط أعمالهم و إبطالها فلا يثابون فى الآخرة على شىء من أعمالهم، و المعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين و تشجيعهم على قتال المشركين و تطيب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيدہ الآيات التالية (١).

[سوره محمد (٤٧): الآيات ٣٣ الى ٣٨]

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِن تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمْهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَٰذَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)

ص: ٧٣٩

١- ١). محمد صلى الله عليه و آله و سلم ١٦-٣٢: بحث روائى حول الساعة و اشراطها؛ الاستغفار؛ حب على عليه السلام.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ الْآيَةَ و إن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقه في معناها حتى استدلل الفقهاء بقوله فيها: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» على حرمه إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضه لأمر القتال، وكذا الآيات اللاحقه الجاربه على السياق و خاصه ما في ظاهر قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ من التعليل و ما في قوله: «فَلَا تَهْتُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» الخ؛ من التفریع، و بالجمله الآيه بالنظر الى سياقها تدل على إيجاب طاعه الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرع من الحكم و إيجاب طاعه الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه، و فيما يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، و على تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلى به اولئك الضعفاء الإيمان المائلون الى النفاق الذين انجز أمر بعضهم أن ارتدوا بعد ما تبين لهم الهدى.

فالمراد بحسب المورد من طاعه الله طاعته فيما شرع و أنزل من حكم القتال، و من طاعه الرسول طاعته فيما بلغ منه و فيما أمر به منه و من مقدماته بما له من الولاية فيه و بإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون و أهل الردّه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّأ وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآيه السابقه فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله و كراهه رضوانه أذاكم ذلك الى اللحوق بأهل الكفر و الصد و لا مغفره لهم بعد موتهم كذلك أبدا.

و المراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٣٩).

قوله تعالى: إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَ لَهُوَ وَ إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ تَرْغِيبَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ تَزْهِيدَ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا بِيَانِ حَقِيقَتِهَا وَ هِيَ أَنهَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ - وَ قَدْ مَرَّ مَعَنَا كَوْنُهَا لَعْبًا وَ لَهُوَ -.

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنْ تُوْمِنُوا الْخ؛ أَي إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا بِطَاعَتِهِ وَ طَاعَةِ رَسُوْلِهِ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ بِإِزَاءِ مَا أَعْطَاكُمْ وَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْأَمْوَالِ جَمِيعَ أَمْوَالِهِمْ وَ يُؤَيِّدُهُ أَيْضًا الْآيَةُ التَّالِيَةُ.

قوله تعالى: إِنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْهَا فَيَخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ الْإِحْفَاءَ الْإِجْهَادَ وَ تَحْمِيلَ الْمَشَقَّةِ، وَ الْمَرَادُ بِالْبَخْلِ - كَمَا قِيلَ - الْكِفِّ عَنِ الْإِعْطَاءِ، وَ الْأَضْغَانَ الْأَحْقَادَ.

وَ الْمَعْنَى: إِنْ يَسْأَلُكُمْ جَمِيعَ أَمْوَالِكُمْ فَيَجْهَدُكُمْ بِطَلْبِ كُلِّهَا كَفَفْتُمْ عَنِ الْإِعْطَاءِ لِحُبِّكُمْ لَهَا وَ يَخْرُجُ أَحْقَادَ قُلُوبِكُمْ فَضَلَلْتُمْ.

قوله تعالى: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْقَائِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بِمَنْزِلَةِ الْإِسْتِشْهَادِ فِي بَيَانِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّهُ إِنْ يَسْأَلُ الْجَمِيعَ فَيَخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يَشْهَدُ بِذَلِكَ أَنْكُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْقَائِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَ هُوَ بَعْضُ أَمْوَالِكُمْ - فَبَعْضُكُمْ يَبْخُلُ فَيُظْهِرُ بِهِ أَنَّهُ لَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ جَمِيعَكُمْ بَخَلْتُمْ.

وَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّهُ يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ أَي يَمْنَعُ الْخَيْرَ عَنِ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْأَلُ مَا لَهُمْ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَ هُوَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ الْمُنْفِقُونَ فِيمَا فِيهِ خَيْرٌ دُنْيَاهُمْ وَ آخِرَتُهُمْ فَامْتِنَاعُهُمْ عَنِ إِنْفَاقِهِ امْتِنَاعٌ مِنْهُمْ عَنِ خَيْرِ أَنْفُسِهِمْ، وَ إِلَيْهِ يُشِيرُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: «وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» وَ الْقَصْرَانِ لِلْقَلْبِ أَي اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ دُونَكُمْ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ دُونَ اللَّهِ.

وَ قَوْلُهُ: وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ قِيلَ:

عطف على قوله: «وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا» والمعنى: إن تؤمنوا و تتقوا يؤتكم أجوركم و إن تولوا و تعرضوا يستبدل قوما غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون و يتقون و ينفقون في سبيل الله.

ص: ٧٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا (٧)

مضامين آيات السوره بفصولها المختلفه ظاهره الانطباق على قصه صلح الحديبيه الواقعه فى السنه السادسه من الهجره و ما وقع حولها من الوقائع كقصه تخلف الأعراب و صدّ المشركين، و بيعه الشجره على ما تقصّله الآثار و سيجىء شطر منها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

فغرض السوره بيان ما امتنّ الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم بما رزقه من الفتح المبين فى هذه السفره، و على المؤمنين ممن معه، و مدحهم البالغ، و الوعد الجميل للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات، و السوره مدنيه.

قوله تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** كلام واقع موقع الامتنان، و تأكيد الجملة بـ **يَا** و نسبه الفتح الى نون العظمه و توصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى يمتنّ به.

و المراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم من الفتح فى صلح الحديبيه.

و ذلك أن ما سيأتى فى آيات السوره من الامتنان على النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و مدحهم و الرضا عن بيعتهم و وعدهم الجميل فى الدنيا بمغانم عاجله و آجله و فى الآخره بالجنته و ذمّ المخلفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم فلم يخرجوا معه، و ذمّ المشركين فى صدّهم النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم و من معه، و ذمّ المنافقين، و تصديقه تعالى رؤيا نبيه صلّى الله عليه و آله و سلّم، و قوله: **«فَعَلِمَ مَا لَمَّ تَعَلَّمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا»** - و كاد يكون صريحا - كل ذلك معان مرتبطه

بخروجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَانْتِهَاءِ ذَلِكَ إِلَى صَلْحِ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا كَوْنُ هَذَا الصَّلْحِ فَتَحَا مَبِينَا رِزْقَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَظَاهِرٌ بِالتَّدْبِيرِ فِي لِحْنِ آيَاتِ السُّورَةِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَدْ كَانَ خُرُوجَ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذِهِ الْبَغْيَةِ خُرُوجًا عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ لَا يَرْجَى مَعَهُ رِجْوَعَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ عَادَةً كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيَّ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا** وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَمَنْ يَتَّبِعُهُمْ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ وَالْقُوَّةِ وَالْعِدَاوَةِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَتَوَسَّطْ بَيْنَهُمْ مِنْذُ سَنِينَ إِلَّا السَّيْفُ وَلَمْ يَجْمَعْهُمْ جَامِعٌ غَيْرُ مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ كَغَزْوَةِ بَدْرٍ وَأَحَدٍ وَالْأَحْزَابِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا شَرْدَمُهُ قَلِيلُونَ - أَلْفٌ وَارْبَعَمِائَةٌ - لَا قَدْرَ لَهُمْ عِنْدَ جَمُوعِ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ.

وَلَكِنَّ اللهُ سَبَّحَانَهُ قَلَّبَ الْأَمْرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَفَرَضُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ مَطْمَوعًا فِيهِ مَتَوَقَّعًا مِنْهُمْ فَسَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَصَالِحَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ عَشْرَ سَنِينَ، وَعَلَى تَأْمِينِ كُلِّ مَنْ الْقَبِيلِينَ أَتْبَاعَ الْآخَرِ وَمَنْ لِحَقِّ بِهِ، وَعَلَى أَنْ يَرْجِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَامَهُ هَذَا ثُمَّ يَقْدَمُ إِلَى مَكَّةَ الْعَامَ الْقَابِلَ فَيَخْلُؤَ لَهُ الْمَسْجِدَ وَالْكَعْبَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

وَهَذَا مِنْ أَوْضَاحِ الْفَتْحِ رِزْقَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مِنْ أَمْسِّ الْأَسْبَابِ بِفَتْحِ مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ فَقَدْ آمَنَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي السَّنَتَيْنِ بَيْنَ الصَّلْحِ وَفَتْحِ مَكَّةَ، وَفَتْحَ فِي أَوَائِلِ سَنَةِ سَبْعٍ خَيْرٌ وَمَا وَالَاهُ وَقَوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَاتَّسَعَ الْإِسْلَامُ اتِّسَاعًا بَيْنًا وَكَثُرَ جَمْعُهُمْ وَانْتَشَرَ صَيِّتُهُمْ وَأَشْغَلُوا بِلَادًا كَثِيرَةً، وَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِفَتْحِ مَكَّةَ فِي عَشْرِ آلَافٍ أَوْ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَقَدْ كَانَ خَرَجَ إِلَى حَدِيثِهِ فِي أَلْفٍ وَارْبَعَمِائَةٍ عَلَى مَا تَفَصَّلَهُ الْآثَارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **لِيُغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيمًا** اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: «لِيُغْفِرَ» لِلتَّلْعِيلِ عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ فَظَاهِرُهُ أَنْ الْغُرُضَ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ الْمُبِينُ هُوَ مَغْفِرُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنْ لَا رَابِطَةَ بَيْنَ الْفَتْحِ وَبَيْنَ مَغْفِرَةِ الذَّنْبِ وَلَا مَعْنَى مَعْقُولًا لِتَلْعِيلِهِ

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال: إن اللام المكسوره فى «لِيَغْفِرَ» لام القسم و الأصل ليغفرنّ حذف نون التوكيد و بقى ما قبلها مفتوحا للدلاله على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

و كذا قول بعض آخر فرارا عن الإشكال «إن العله هو مجموع المغفره و ما عطف عليه من إتمام النعمه و الهدايه و النصر العزيز من حيث المجموع فلا- ينافى عدم كون البعض أى مغفره الذنب فى نفسه عله للفتح» كلام سخيّف لا- يغنى طائلا- فإن مغفره الذنب لا- هى عله أو جزء عله للفتح و لا- مرتبطه نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها فى ضمن عله فلا مصحح لذكرها وحدها و لا مع العلل و فى ضمنها.

و بالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب فى الآيه هو الذنب المعروف و هو مخالفه التكليف المولوى، و لا المراد بالمغفره معناها المعروف و هو ترك العقاب على المخالفه المذكوره فالذنب فى اللغه على ما يستفاد من موارد استعماله هو العمل الذى له تبعه سيئه كيفما كان، و المغفره هى الستر على الشىء، و أما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظى الذنب و المغفره الى أذهاننا اليوم أعنى مخالفه الأمر المولوى المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزمهما بحسب عرف المتشرعين.

و قيام النبى صلّى الله عليه و آله و سلّم بالدعوه و نهضته على الكفر و الوثنيه فيما تقدم على الهجره و إدامته ذلك و ما وقع له من الحروب و المغازى مع الكفار و المشركين فيما تأخر عن الهجره كان عملا منه صلّى الله عليه و آله و سلّم ذا تبعه سيئه عند الكفار و المشركين و ما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة و مقدره، و ما كانوا لينسوا زهوق ملتهم و انهدام سنتهم و طريقتهم، و لا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه و إمعاء اسمه و إعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه صلّى الله عليه و آله و سلّم هذا الفتح و هو فتح مكه أو فتح الحديبيه المنتهى الى فتح مكه فذهب

بشوكتهم و أحمدهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الذَّنْبِ وَآمَنَهُ مِنْهُمْ.

فالمراد بالذنب-والله أعلم-التبعية السيئه التي لدعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (الشعراء/ ١٤)، وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكة قبل الهجرة، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ -الى أن قال- وَ يُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» .

وفي قوله: لِيَغْفِرَ لِمَكَ اللَّهُ الْحَقُّ؛ بعد قوله: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ» التفات من التكلم الى الغيبه و لعل الوجه فيه أن محصل السوره امتنانه تعالى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينه والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجارى فى السوره سياق الغيبه ويذكر تعالى فيها فاسمه وينسب اليه النصر بما يعبده نبيه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون وإنما يعبدون آلهه من دونه طمعا فى نصرهم ولا ينصرونهم.

□
و أما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمه فى الآيه الاولى فلمناسبتة ذكر الفتح فيها ويجرى الكلام فى قوله تعالى الآتى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا» الآيه.

□
وقوله: «وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» قيل: أى يتمها عليك فى الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك، وفى الآخرة برفع درجاتك، وقيل: أى يتمها عليك بفتح خير ومكة والطائف.

□
وقوله: وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا قيل: أى ويثبتك على صراط يؤدى بسالكه الى الجنة، وقيل: أى ويهديك الى مستقيم الصراط فى تبليغ الأحكام وإجراء الحدود.

□
وقوله: وَ يُنْصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل

جبار عنيد و عات مرید، و قد فعل بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ إِذْ جَعَلَ دِينَهُ أَعَزَّ الْأَدْيَانِ وَ سُلْطَانَهُ أَعْظَمَ السُّلْطَانِ، وَ قِيلَ: الْمَرَادُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ مَا هُوَ نَادِرُ الْوُجُودِ قَلِيلُ النَّظِيرِ أَوْ عَدِيمُهُ وَ نَصْرُهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ كَذَلِكَ كَمَا يَظْهَرُ بِقِيَاسِ حَالِهِ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ إِلَى حَالِهِ فِي آخِرِ أَيَّامِ دَعْوَتِهِ.

وَ التَّدْبِيرُ فِي سِيَاقِ الْآيَتَيْنِ بِالْبِنَاءِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ» يَعْطَى أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» هُوَ تَمْهِيدُهُ تَعَالَى لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لِتَمَامِ الْكَلِمَةِ وَ تَصْفِيَتِهِ الْجَوْ لِنَصْرِهِ نَصْرًا عَزِيزًا بَعْدَ رَفْعِ الْمَوَانِعِ بِمُغْفَرِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَ مَا تَأَخَّرَ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» هُدَايَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بَعْدَ تَصْفِيَتِهِ الْجَوْ لَهُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي سَلَكَهَا بَعْدَ الرَّجُوعِ مِنَ الْحَدِيثِيِّهِ مِنْ فَتْحِ خَيْبَرَ وَ بَسْطِ سُلْطَةِ الدِّينِ فِي أَقْطَارِ الْجَزِيرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى فَتْحِ مَكَّةِ وَ الطَّائِفِ.

وَ قَوْلُهُ: «وَ يُنْصِرُكَ اللَّهُ نَصِيرًا عَزِيزًا» نَصْرُهُ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ ذَاكَ النَّصْرَ الظَّاهِرَ الْبَاهِرَ الَّتِي قَلِمَا يَوْجَدُ-أَوْ لَا يَوْجَدُ- لَهُ نَظِيرٌ إِذْ فَتَحَ لَهُ مَكَّةَ وَ الطَّائِفَ وَ انبَسَطَ الْإِسْلَامُ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَ انْقَلَعَ الشَّرْكَ وَ ذَلَّ الْيَهُودُ وَ خَضَعَ لَهُ نَصَارَى الْجَزِيرَةِ وَ الْمَجُوسَ الْقَاطِنُونَ بِهَا، وَ أَكْمَلَ تَعَالَى لِلنَّاسِ دِينَهُمْ وَ أَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ وَ رَضِيَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» الظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرَادَ بِالسَّكِينَةِ سَكُونُ النَّفْسِ وَ ثَبَاتُهَا وَ اطْمَئِنَانُهَا إِلَى مَا آمَنَتْ بِهِ، وَ لَذَا عُلِّلَ انْزَالُهَا فِيهَا بِقَوْلِهِ: «لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» وَ قَدْ تَقَدَّمَ الْبَحْثُ عَنِ السَّكِينَةِ فِي ذَيْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» (البقرة ٢٤٨/٢٤٨) فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْكِتَابِ وَ ذَكَرْنَا هُنَا أَنَّهَا تَنْطَبِقُ عَلَى رُوحِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَ أَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (المجادله ٢٢/٢٢).

وَ الْمَرَادُ بِانْزَالِ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِهِمْ إِيجَادُهَا فِيهَا بَعْدَ عَدْمِهَا فَكثِيرًا مَا يَعْبُرُ فِي الْقُرْآنِ عَنِ

الخلق و الإيجاد بالإنزال كقوله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦/٦)، وقوله:

وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ (الحديد ٢٥/٢٥)، وقوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١/٢١). وإنما عبّر عن الخلق و الإيجاد بالإنزال للإشارة الى علو مبدئه.

و المراد بزياده الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العمليه، و من المعلوم أن كلا من العلم و الالتزام المذكورين مما يشتد و يضعف فالإيمان الذى هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد و يضعف.

فمعنى الآية: الله الذى أوجد الثبات و الاطمئنان الذى هو لازم مرتبه من مراتب الروح فى قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذى كان لهم قبل نزول السكينه فيصير أكمل مما كان قبله (١).

وقوله: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم، و السياق يشهد أن المراد بجنود السماوات و الأرض الأسباب الموجوده فى العالم مما يرى و لا يرى من الخلق فهى وسائط متخلله بينه تعالى و بين ما يريد من شيء تطيعه و لا تعصاه.

و إيراد الجمله أعنى قوله: «وَ لِلَّهِ جُنُودٌ» الخ؛ بعد قوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» الخ؛ للدلاله على أن له جميع الأسباب و العلل التى فى الوجود فله أن يبلغ الى ما يشاء بما يشاء و لا يغلبه شيء فى ذلك، و قد نسبت الى زياده إيمان المؤمنين بانزال السكينه فى قلوبهم.

وقوله: «وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» أى منيعا جانبه لا يغلبه شيء متقنا فى فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته و الجمله بيان تعليلى لقوله: «وَ لِلَّهِ جُنُودٌ» الخ؛ كما أنه بيان تعليلى لقوله: «هُوَ

ص: ٧٥٠

الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ» الخ؛ كأنه قيل: أنزل السكينة لكذا و له ذلك لأن له جميع الجنود و الأسباب لأنه العزيز على الإطلاق و الحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تعليل آخر لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» على المعنى كما أن قوله: «لِيَزِدُوا إِيمَانًا» تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل: خص المؤمنين بإنزال السكينة و حرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم و حقيقته ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة و يعذب أولئك فيكون قوله: «لِيُدْخِلَ» بدلا أو عطف بيان من قوله: «لِيَزِدُوا» الخ.

و في متعلق لام «لِيُدْخِلَ» الخ؛ أقوال آخر كالقول بتعلقها بقوله: «فَتَحْنَا» أو قوله:

«لِيَزِدُوا» أو بجميع ما تقدم الى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده.

و ضم المؤمنات الى المؤمنين فى الآية لدفع توهم اختصاص الجنة و تكفير السيئات بالذكر لوقوع الآية فى سياق الكلام فى الجهاد، و الجهاد واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل.

و ضمير «خَالِدِينَ» و «يُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» للمؤمنين و المؤمنات جميعا على التغليب.

و قوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» بيان لكون ذلك سعادة حقيقه لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحق.

قوله تعالى: وَ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ معطوف على قوله: «لِيُدْخِلَ» بالمعنى الذى تقدم، و تقديم المنافقين و المنافقات على المشركين و المشركات فى الآية لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك و لأن عذاب أهل النفاق أشد، قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

و قوله: «الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ» السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح و السوء

بالضم اسم مصدر، و ظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و قيل: المراد بظن السوء ما يعم ذلك و سائر ظنونهم السيئه من الشرك و الكفر.

و قوله: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أى ليستضرروا بدائره السوء التى تدور لتصيب من تصيب من الهلاك و العذاب.

و قوله: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ معطوف على قوله:

«عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ» الخ؛ و قوله: «وَ سَاءَتْ مَصِيرًا» بيان مساءه مصيرهم، كما أن قوله: «وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» بيان لحسن مصير أهل الإيمان.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ تقدم معناه، و الظاهر أنه بيان تعليلي للآيتين أعنى قوله: «لِيُدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ إِلَى قَوْلِهِ- وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» على حدو ما كان مثله فيما تقدم بيانا تليليا لقوله: «أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» (١).

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ٨ الى ١٠]

إِذَا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مَبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَفَّقُوهُ وَ تَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أُصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

ص: ٧٥٢

(١-١). الفتح ٧-١: بحث روائى فى: صلح الحديبيه؛ عصمه الانبياء؛ نزول السكينه فى قلوب المؤمنين، معنى ذنب رسول الله.

قوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** المراد بشهادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شهادته على الأعمال من إيمان و كفر وعمل صالح أو طالح، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة، وهي شهادته حمل في الدنيا، وأداء في الآخرة.

و كونه مبشرا تبشيره لمن آمن و اتقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه، و كونه نذيرا إنذاره و تخويله لمن كفر و تولى بأليم عذابه.

قوله تعالى: **لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** القراءه المشهوره بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، و قرء ابن كثير و ابو عمرو بياء الغيبه في الجميع و قراءتها أرجح بالنظر الى السياق.

و كيف كان فاللام في «لِتُؤْمِنُوا» للتعليل أى أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله.

و التعزير-على ما قيل-النصر و التوقير التعظيم كما قال تعالى **لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** (نوح ١٣)، و الظاهر أن الضمائر في «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ» جميعا لله تعالى و المعنى: إنا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظموه و يسبحوه-و هو الصلاة-بكره و أصيلا أى غداه و عشيا.

و قيل: الضميران في «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و ضمير «تُسَبِّحُوهُ» لله تعالى و يوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** الى آخر الآيه. البيعه نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى، و الكلمه مأخوذه من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم

أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البائع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك التصرفات التي يتحقق معظمها باليد الى المشتري بالتصفيق، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعه ببيعه و مبايعه، و حقيقه معناه إعطاء المباع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء.

فقوله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ تَنْزِيل بِيَعْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلَهُ بِيَعْتَهُ تَعَالَى بِدَعْوَى أَنهَآ هِيَ مَا يُوَاجِهُونَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِهِ مِنْ بَذْلِ الطَّاعَةِ لَا يُوَاجِهُونَ بِهِ إِلَّا اللَّهَ سُبْحَانَهُ لِأَنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةُ اللَّهِ ثُمَّ قَرَّرَهُ زِيَادَةً تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا بِقَوْلِهِ: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حَيْثُ جَعَلَ يَدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَ اللَّهِ كَمَا جَعَلَ رَمِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَمَى نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال ١٧).

و فِي نَسَبِهِ مَا لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشَّأْنِ إِلَى نَفْسِهِ تَعَالَى آيَاتٌ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠)، وَ قَوْلِهِ: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (الأنعام ٣٣)، وَ قَوْلِهِ: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨).

وَ قَوْلِهِ: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ النكث نقض العهد و البيعه، و الجملة تفريع على قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ» وَ الْمَعْنَى: فَإِذَا كَانَ يَبْعَتُكَ بِيَعَهُ اللَّهُ فَالْناكثُ الناقض لها ناقض لبيعه الله و لا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غنى عن العالمين.

وَ قَوْلِهِ: وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَعَدَ جَمِيلًا عَلَى حِفْظِ الْعَهْدِ وَ الْإِيْفَاءِ بِهِ.

وَ الْآيَةُ لَا تَخْلُو مِنْ إِيمَاءِ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ الْبَيْعَةِ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ فَكَانَتْ يَدُهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ لَا بِالْعَكْسِ.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسَدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسِينًا وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ مَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

قوله تعالى: سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَجِزْنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قال في المجمع: المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد، وهو مشتق من الخلف و ضده المقدم. انتهى. و الأعراب-على ما قالوا-الجماعه من عرب البادية و لا يطلق على عرب الحاضره، و هو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

و قوله: سَيَقُولُ لِمَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و في اللفظ دلالة ما على نزول الآيات في رجوعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ من الحديبيه الى المدينة و لما يردھا.

و قوله: شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا فَاسْتَجِزْنَا أَي كَانَ الشَاغِلَ الْمَانِعَ لَنَا عَنْ صَحَابَتِكَ وَ الْخُرُوجِ مَعَكَ هُوَ أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَا مِنْ يَقُومُ بِأَمْرِنَا فَخَفْنَا ضَيْعَتَهَا فَلَزِمْنَا مَا فَاسْتَجْفَرْنَا لَنَا اللهُ تَعَالَى يَغْفِرُ لَنَا تَخْلِفْنَا عَنْكَ، و في سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلهم الأموال و الأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب.

و قوله: يَقُولُونَ بِاللَّسِيَّتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي جَمِيعِ مَا أَخْبَرُوا بِهِ وَ سَأَلُوهُ فَلَا أَنْ الشَاغِلَ لَهُمْ هُوَ شُغْلُ الْأَمْوَالِ وَ الْأَهْلِينَ، و لا أنهم يهتمون باستغفاره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ، و إنما سألوه ليكون ذلك جنه يصرفون بها العتاب و التوبيخ عن أنفسهم.

و قوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا جَوَابٌ حَلِيٌّ عَمَّا اعْتَذَرُوا بِهِ مِنْ شُغْلِ الْأَمْوَالِ وَ الْأَهْلِينَ مَحْضِيَةً أَنْ اللهُ سَبْحَانَهُ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ وَ هُوَ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ لَا رَبَّ سِوَاهُ فَلَا ضَرَّ وَ لَا نَفْعَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَ مَشِيَّتِهِ فَلَا يَمْلِكُ

أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريد هذا القاهر من الخير، وإذا كان كذلك فانصرفكم عن الخروج مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نصره للدين و اشتغالكم بما اعتلتكم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً.

فقوله: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ الْخَبْرَ؛ جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر و جلب الخير بظاهر الأسباب و منها تدبيركم و القعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراد الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» .

و التمسك بالأسباب و عدم إلغائها و إن كان مشروعاً مأموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهل منها كالدفاع عن الحق و إن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع و السعي.

و قوله: بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم: «شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَ أَهْلُونَا» .

قوله تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ زُيِّنَ ذَلِكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ الْخَبْرَ؛ بيان لما يشير إليه قوله: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» من كذبهم في اعتذارهم، و المعنى: ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال و الأهلين بل ظننتم أن الرسول و المؤمنين لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً و أن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع و البأس الشديد و الشوكه و القدره و لذلك تخلفتم.

و قوله: وَ زُيِّنَ ذَلِكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ أَي زَيْنَ الشَّيْطَانِ ذَلِكَ الظَّنُّ فِي قُلُوبِكُمْ فَأَخَذْتُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الظَّنُّ الْمَزِينُ وَ هُوَ أَنْ تَتَخَلَّفُوا وَ لَا تَخْرُجُوا حَذْرًا مِنْ أَنْ تَهْلِكُوا وَ تَيْبَدُوا.

وقوله: وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا البور-على ما قيل-مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أى كنتم قوما فاسدين أو هالكين.

قيل:المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون الى أهلهم أبدا و لا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله و لا يظهر دينه كما مرّ فى قوله فى الآيه السادسه من السوره: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ» بل هو أظهر.

قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا الجمع فى هذه الآيات بين الإيمان بالله و رسوله للدلاله على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله،و فى الآيه لحن تهديد.

و قوله: فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا كان مقتضى الظاهر أن يقال:أعدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للاشاره الى عله الحكم بتعليقه على المشتق،و المعنى:أعدنا و هيأنا لهم لكفرهم سعيرا أى نارا مسعّره مشتعله،و تنكير سعيرا للتهويل.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا معنى الآيه ظاهر و فيها تأييد لما تقدم،و فى تذييل الملك المطلق بالاسمين:الغفور الرحيم إشاره الى سبق الرحمة الغضب و حتّى على الاستغفار و الاسترحام.

قوله تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ الى آخر الآيه إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوه فيرزقون الفتح و يصيبون مغانم و يسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعا فى الغنيمه،و تلك غزوه خيبر اجتاز النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنون اليه ففتحوه و أخذوا الغنائم و خصها الله تعالى بمن كان مع النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم فى سفره الحديبيه لم يشرك معهم غيرهم.

و المعنى:أنكم ستنتقلون الى غزوه فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون:اتركونا

نتبعكم.

وقوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قِيلَ: المراد به وعده تعالى أهل الحديبيه أن يخصهم بغنائم خبير بعد فتحه كما سيجيء من قوله: وعدكم الله مغانم كثيره تأخذونها فعجل لكم هذه الآيه، ويشير اليه في هذه الآيه بقوله: «إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا» .

وقوله: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أمر منه تعالى للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يمنعهم عن اتباعهم استنادا الى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

وقوله: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا أى سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوه من الاتباع «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» وقوله: «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا - قَلِيلًا» جواب عن قولهم: «بَلْ تَحْسُدُونَنَا» لم يوجه الخطاب اليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث و لذلك وجه الخطاب بالجواب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقال «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا» .

و ذلك أن قولهم: بَلْ تَحْسُدُونَنَا إضراب عن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لهم بأمر الله «لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت و من معك من المؤمنين أهل الحديبيه أن نشارككم فى الغنائم و تريدون أن تختص بكم.

و هذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل و تمييز رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المعصوم الذى لا يرد و لا يصدر فى شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطه العقل و بلاده الفهم فهذا القول الذى واجهوا به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هم مدعون للإيمان و الإسلام أدل دليل على ضعف عقلهم و قله فقههم.

و من هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا - قليلا - بساطه عقلهم و ضعف فقههم للقول لا - أنهم يفقهون بعض القول و لا يفقهون بعضه و هو الكثير و لا أن بعضهم يفقه القول و جلهم لا يفقهونه كما فسر به بعضهم.

قوله تعالى: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْدَعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسِّ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ الخ؛ اختلفوا في هذا القوم من هم؟ فقيل: المراد به هوازن، وقيل: ثقيف، وقيل: هوازن و ثقيف، وقيل: هم الروم غزاه مؤته و تبوك، وقيل: هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحله، وقيل: هم الفارس، وقيل: أعراب الفارس و أكرادهم.

و ظاهر قوله: سِتْدَعُونَ أنهم بعض الأقسام الذين قاتلهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف و الروم في مؤته، وقوله تعالى سابقاً: «قُلْ لَنْ تَبْعُونَا» ناظر الى نفى اتباعهم في غزوه خيبر على ما يفيدته السياق.

وقوله: تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ استئناف يدل على التنوع أى إما تقاتلون أو يسلمون أى أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

و لا يصح أخذ «تَقَاتِلُونَهُمْ» صفة لقوم لأنهم يدعون الى قتال القوم لا الى قتال قوم يقاتلونهم، وكذا لا يصح أخذ حالا من نائب فاعل «سِتْدَعُونَ» لأنهم يدعون الى قتال القوم لا أنهم يدعون اليهم حال قتالهم، وكذا قيل.

ثم تم سبجانه الكلام بالوعد و الوعيد على الطاعة و المعصية فقال «فَإِنْ تُطِيعُوا» أى بالخروج اليهم «يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا» أى بالمعصية و عدم الخروج «كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ» و لم تخرجوا فى سفره الحديبيه «يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» أى فى الدنيا كما هو ظاهر المقام أو فى الدنيا و الآخرة معا.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوى العاهه الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه و هو الحرج.

ثم تم الآيه أيضا بإعاده نظير ذيل الآيه السابقه فقال «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا .

[سوره الفتح (٤٨): الآيات ١٨ الى ٢٨]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لَتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّهَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهَ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَيْدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصَةً يَبَيِّنُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلِهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مَقْصِرِينَ لِأَنْ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَّلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)

قوله تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الرضا هيئه تطراً على النفس من تلقى ما يلائمها و تقبله من غير دفع، و يقابله السخط، و إذا نسب الى الله سبحانه كان المراد بالإثابه و الجزاء الحسن دون الهيئه الطارئه و الصفه العارضه الحادثه لاستحاله ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

و الرضا- كما قيل- يستعمل متعدياً الى المفعول بنفسه و متعدياً بعن و متعدياً بالباء فإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات نحو: رضيت زيدا، و على المعنى نحو: رضيت أماره زيد، قال تعالى: وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا (المائدة ٣)، و إذا عدى بعن دخل على الذات

كقوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (السيئه ٨) وإذا عدى بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: «أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» .

و لما كان الرضا المنسوب اليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة و الجزاء، و الجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى الى الذات و عدى بعن كما فى الآيه «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ» نوع عنايه استدعى عد الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقا بالذات و هو أخذ بيعتهم التى هى متعلقه الرضا ظرفا للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقا بهم أنفسهم.

فقوله: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ تحت الشجره.

و قد كانت البيعه يوم الحديبيه تحت شجره سمره بها بايعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ من معه من المؤمنين و قد ظهر به أن الظرف فى قوله: «إِذْ يُبَايِعُونَكَ» متعلق بقوله: «لَقَدْ رَضِيَ» و اللام للقسم.

قوله تعالى: فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا تفریع على قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ» الخ؛ و المراد بما فى قلوبهم حسن النيه و صدقها فى مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضيا عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النيه و إخلاصها.

و المراد القريب فتح خبير على ما يفيدہ السياق و كذا المراد بمغانم كثيره يأخذونها، غنائم خبير.

و قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أى غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه.

قوله تعالى: وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْخَبْرَ؛ المراد بهذه المغانم الكثيره المغانم التى سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبيه أعم من مغانم خبير و غيرها فتكون الإشارة بقوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» الى المغانم المذكوره فى الآيه السابقه

و هي مغانم خيبر نزلت منزله الحاضره لاقتراب وقوعها.

هذا على تقدير نزول الآيه مع الآيات السابقه، و أما على ما قيل: إن الآيه نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشاره فى قوله: «فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» ظاهر لكن المعروف نزول السوره بتمامها فى مرجع النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الحديبيه بينها و بين المدينه.

و قوله: وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ قِيلَ: المراد بالناس قبيلتا أسد و غطفان هموا بعد مسير النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينه فقاذ الله فى قلوبهم الرعب و كف أيديهم.

و قوله: وَ لَتَكُونَ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عطف على مقدر أى وعدهم الله بهذه الإثابه إثابه الفتح و الغنائم الكثيره المعجله و المؤجله لمصالح كذا و كذا و لتكون آيه للمؤمنين أى علامه و أماره تدلهم على أنهم على الحق و أن ربهم صادق فى وعده و نبههم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صادق فى إنباؤه.

و قد اشتملت السوره على عده من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا الْخَيْبُ» و قوله: «سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ» الخ؛ و قوله: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَيُدْعُونَ الْخَيْبُ؛ و ما فى هذه الآيات من وعد الفتح و المغانم، و قوله بعد:

«وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» الخ؛ و قوله بعد: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا» الخ.

و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا عطف على «لَتَكُونَ» أى و ليهديكم صراطا مستقيما و هو الطريق الموصل الى إعلاء كلمه الحق و بسط الدين، و قيل: هو الثقه بالله و التوكل عليه فى كل ما تأتون و تدرتون، و ما ذكرناه أوفق للسياق.

قوله تعالى: وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا أى و غنائم أخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها إحاطه قدره و كان الله على كل شىء قديرا.

فقوله: وَ أُخْرَى مُبْتَدَأُ وَ «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا» صَفْتُهُ وَ قَوْلُهُ: «قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا» خَبْرُهُ الثَّانِي وَ خَبْرُهُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ، وَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: وَ ثَمَّ غَنَائِمٌ أُخْرَى قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا.

وَ الْمُرَادُ بِالْأُخْرَى فِي الْآيَةِ-عَلَى مَا قِيلَ-غَنَائِمٌ هَوَازِنٌ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ غَنَائِمُ فَارِسٍ وَ الرُّومِ، وَ قِيلَ: الْمُرَادُ فَتْحُ مَكَّةَ وَ الْمَوْصُوفُ مَحْذُوفٌ، وَ التَّقْدِيرُ: وَ قَرِيْبُهُ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا أَى عَلَى فَتْحِهَا، وَ أَوَّلُ الْوَجْهِ أَقْرَبُهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا خَبْرٌ آخِرٌ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ضَعْفُ الْكُفَّارِ عَنِ الْقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَ لَا نَصِيرٌ يَنْصُرُهُمْ، وَ يَتَخَلَّصُ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا يَقْوُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَلَى قِتَالِكُمْ وَ لَا نَصِيرٌ لَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ يَنْصُرُهُمْ، وَ هَذَا فِي نَفْسِهِ بَشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: سُنَّهَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللَّهِ تَبْدِيلًا «سُنَّهَ اللَّهِ» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَقْدَرٍ أَى سَنَ سَنَهُ اللَّهِ أَى هَذِهِ سَنَهُ قَدِيمَهُ لَهُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَظْهَرَ أَنْبِيََاءُهُ وَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ إِذَا صَدَقُوا فِي إِيمَانِهِمْ وَ أَخْلَصُوا نِيَّاتِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي (المجادله ٢١). وَ لَمْ يَصِبِ الْمُسْلِمُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ إِلَّا بِمَا خَالَفُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ بَعْضَ الْمَخَالَفَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ السَّخُّ؛ الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفتنتين بالحديبية و هي بطن مكة لقربها منها و اتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم و ذلك أن كلا من الفتنتين كانت أعدى عدو للأخرى و قد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم و من الأحابيش، و بايع المؤمنون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى أَنْ يَقَاتِلُوا، وَ عَزَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَى أَنْ يَنَاجِزَ الْقَوْمَ، وَ قَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْكُفَّارِ حَيْثُ دَخَلُوا أَرْضَهُمْ وَ رَكَزُوا أَقْدَامَهُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ لِيَتَوَهَّمُ بَيْنَهُمْ إِلَّا الْقِتَالُ لَكِنَ اللَّهُ

سبحانه كفّ أيدي الكفار عن المؤمنين و أيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم و كان الله بما يعملون بصيرا.

قوله تعالى: هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَيْدَىٰ مَكْرُوهًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ الْعُكُوفِ عَلَىٰ أَمْرٍ هُوَ الْإِقَامَةُ عَلَيْهِ، وَ الْمَعْكُوفِ - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب الى جهة بالإقامة في مكانه، و منه الاعتكاف و هو الإقامة في المسجد للعبادة.

و المعنى: المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا و منعوكم عن المسجد الحرام و منعوا الهدى - الذي سقتموه - حال كونه محبوبا من أن يبلغ محله أى الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه و هو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدى العمرة كما أن هدى الحج ينحر أو يذبح في منى، و قد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و من معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هديا لذلك.

قوله تعالى: وَ لَوْلَا - رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُنَّ أَنْ تَطَّوَّهُنَّ فَتَصَيَّبِكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ الْوَطْءِ الدُّوسِ، وَ الْمَعْرَةُ الْمَكْرُوهَةُ، وَ قَوْلُهُ:

«أَنْ تَطَّوَّهُنَّ» بدل اشتمال من مدخول لولا، و جواب لولا محذوف، و التقدير: ما كفّ أيديكم عنهم.

و المعنى: و لولا - أن تدوسوا رجالا - مؤمنين و نساء مؤمنات بمكة و أنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم و إهلاكهم مكروه لما كفّ الله أيديكم عنهم.

و قوله: لِيُدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ اللَّامُ متعلق بمحذوف، و التقدير:

و لكن كفّ أيديكم عنهم ليدخل في رحمته اولئك المؤمنين و المؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل و إياكم بحفظكم من إصابه المعرّه.

و قيل: المعنى: ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

و قوله: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الترييل التفرق

و ضمير «تَزَيَّلُوا لَجَمِيعٍ» من تقدم ذكره من المؤمنين و الكفار من أهل مكة أى لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابا أليما لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ إِلَى آخِرِ آيَةِ» قال الراغب: و عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت و كثرت بالحمية فيقال: حميت على فلان أى غضبت عليه قال تعالى: «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» و عن ذلك استعير قولهم: حميت المكان حمى انتهى.

و الظرف فى قوله: «إِذْ جَعَلَ» متعلق بقوله سابقا: «وَصَدُّوْكُمْ» و قيل: متعلق بقوله:

«لَعَلَّيْذُنَّا» و قيل «متعلق باذكر المقدر، و الجعل بمعنى الإلقاء و «الَّذِينَ كَفَرُوا» فاعله و الحميه مفعوله و «حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» بيان للحميه و الجاهليه وصف موضوع فى موضع الموصوف و التقدير المله الجاهليه.

و لو كان «جَعَلَ» بمعنى صيّر كان مفعوله الثانى مقدرا و التقدير إذ جعل الذين كفروا الحميه راسخه فى قلوبهم و وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله: «جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» للدلاله على سبب الحكم.

و معنى الآية: هم الذين كفروا و صدوكم إذ ألقوا فى قلوبهم الحميه حميه المله الجاهليه.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ تفریع على قوله:

«جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و يفيد نوعا من المقابله كأنه قيل: جعلوا فى قلوبهم الحميه فقابله الله سبحانه بإنزال السكينه على رسوله و على المؤمنين فطمأنت قلوبهم و لم يستخفهم الطيش و أظهروا السكينه و الوقار من غير أن يستفزهم الجهاله.

و قوله: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى» أى جعلها معهم لا تنفك عنهم، و هى على ما اختاره جمهور المفسرين كلمه التوحيد و قيل: المراد الثبات على العهد و الوفاء به و قيل: المراد

بها السكنيه و قيل: قولهم: بلى فى عالم الذر، و هو اسخف الأقوال.

و لا- يبعد أن يراد بها روح الإيمان التى تأمر بالتقوى كما قال تعالى: **أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ** (المجادله ٢٢)، و قد أطلق الله الكلمه على الروح فى قوله: **وَ كَلِمَتَهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٍ مِنْهُ** (النساء ١٧١).

و قوله: **وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلُهَا** أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقى هذه العطيه الإلهيه بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم، و أما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد فى غيرهم و أهل الشئ خاصته.

و قيل: المراد و كانوا أحق بالسكنيه و أهلها، و قيل: إن فى الكلام تقديمًا و تأخيرًا و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى.

و قوله: **وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** تذييل لقوله: **«وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلُهَا»** أو لجميع ما تقدم، و المعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** **إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤْسِهِمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ** الخ؛ قيل: إن صدق و كذب مخففين يتعديان الى مفعولين يقال: صدقت زيدا الحديث و كذبت الحديث، و الى المفعول الثانى بنى يقال: صدقته فى الحديث و كذبت فيه، و مثقلين يتعديان الى مفعول واحد يقال: صدقته فى حديثه و كذبت فى حديثه.

و اللام فى **«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ»** للقسم، و قوله: **«لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ»** جواب القسم.

و قوله: **بِالْحَقِّ** حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسه، و التعليق بالمشيه فى قوله: **«إِنْ شَاءَ اللَّهُ»** لتعليم العباد و المعنى: أقسم لقد صدق الله رسوله فى الرؤيا التى أراه لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون المشركين.

وقوله: **فَعَلِمَ** مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا «ذَلِكَ» إشاره الى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، والمراد بقوله: «مِنْ دُونِ ذَلِكَ» أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحه فى دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه و لم تعلموه، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك.

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب فى هذه الآيه فتح الحديبيه فهو الذى سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين و ييسر لهم ذلك و لو لا- ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا- بالقتال و سفك الدماء و لا عمره مع ذلك لكن صلح الحديبيه و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين فى العام القابل.

و سياق الآيه يعطى أن المراد بها إزاله الريب عن بعض من كان مع النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من دخولهم المسجد آمنين محلّقين رءوسهم و مقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك فى عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكه معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبيه و صدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم فى الرؤيا فأزال الله ريبهم بما فى الآيه.

و محصله: أن الرؤيا حقه أراها الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و قد صدق تعالى فى ذلك، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخره و قدّم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبيه ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلّقين رءوسكم و مقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ الْخَيْرُ**؛ تقدم تفسيره فى سوره التوبه الآيه ٣٣، و قوله: **«وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا»** أى شاهدا على صدق نبوته و الوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقه،

فالجمله تذييل ناظر الى نفس الآيه أو الآيه السابقه (١).

[سوره الفتح (٢٨): آيه ٢٩]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

بيان:

قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ الى آخر الآيه؛ الظاهر أنه مبتدأ و خبر فهو كلام تام، وقيل «مُحَمَّدٌ» خبر مبتدأ محذوف و هو ضمير
عائد الى الرسول في الآيه السابقه و التقدير: هو محمد، و «رَسُولُ اللَّهِ» عطف بيان أو صفيه أو بدل، وقيل «مُحَمَّدٌ» مبتدأ و «رَسُولُ
اللَّهِ» عطف بيان أو صفيه أو بدل و «الَّذِينَ مَعَهُ» معطوف على المبتدأ و «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» الخ؛ خبر المبتدأ.

وقوله: وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ مبتدأ و خبر، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه و الشده و الرحمه
المذكورتان من نعوتهم.

و تعقيب قوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» لدفع ما يمكن أن يتوهم أن

ص: ٧٧٠

كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشده فيما بينهم فدفع ذلك بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» و أفادت الجملتان أن صفتهم مع الكفار الشده و مع المؤمنين فيما بينهم الرحمه.

و قوله: «تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا الرَّكْعُ وَ السَّجْدُ جَمْعًا رَاكِعٌ وَ سَاجِدٌ، و المراد بكونهم ركعا سجدا إقامتهم للصلاه، و «تَرَاهُمْ» يفيد الاستمرار، و المحصل: أنهم مستمررون على الصلاه، و الجملة خبر بعد خبر للذين معه.

و قوله: «يَتَتَّعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا لِابْتِغَاءِ الطَّلَبِ، و الفضل العطيه و هو الثواب، و الرضوان أبلغ من الرضا.

و الجملة إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الركوع و السجود كان الأنسب أن تكون حالا من ضمير المفعول في «تَرَاهُمْ» و إن كانت مسوقه لبيان غايتهم من الحياه مطلقا كما هو الظاهر كانت خبرا بعد خبر للذين معه.

و قوله: «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ السَيِّمَةُ العلامه و «سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» مبتدأ و خبر و «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للسيمه أى إن سجودهم لله تدللا و تخشعا أثر في وجوههم أثرا و هو سيمه الخشوع لله يعرفهم به من رآهم، و يقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاه (1).

و قيل: المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنما يسجدون على التراب لا على الأثواب.

و قيل: المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقا مستنيرا.

و قوله: «ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الْمَثَلُ هو الصفه أى الذى وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، الخ؛ و صفهم الذى وصفناهم به فى

ص: ٧٧١

(١ - ١). رواه الصدوق فى الفقيه و المفيد فى روضه الواعظين مرسلا عن عبد الله بن سنان عنه عليه السلام.

فقوله: وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ مَعْطُوفٍ عَلَى قَوْلِهِ: «مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ» وقيل: إن قوله: «وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» الخ؛ استئناف منقطع عما قبله، و هو مبتدأ خبره قوله: «كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» الخ؛ فيكون وصفهم في التوراه هو أنهم أشداء على الكفار، الى قوله: «مِنْ أَثَرِ الشُّجُودِ»، و وصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه، الخ.

و قوله: كَزَّرَعَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَأَزْرَهُ فَاشْتَتَلَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ شِطَاءَ النَّبَاتِ أَفْرَاخَهُ الَّتِي تَتَوْلَدُ مِنْهُ وَ تَنْبِتُ حَوْلَهُ، وَ الْإِيزَارَ الْإِعَانَةَ، وَ الِاسْتِغْلَاظَ الْأَخْذِ فِي الْغَلْظَةِ، وَ السُّوقَ جَمْعَ سَاقٍ، وَ الزُّرَّاعَ جَمْعَ زَارِعٍ.

و المعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزراعين بوجوده رشده.

و فيه إشارة الى أخذ المؤمنين في الزيادة و العده و القوه يوما فيوما و لذلك عقبه بقوله:

«لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» .

و قوله: وَ عَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا ضَمِيرٌ «مِنْهُمْ» لِلَّذِينَ مَعَهُ، وَ «مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ عَلَى مَا هُوَ الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة و الأجر العظيم بالإيمان حدودا و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلا كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير اليه قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (التوبه ١٠١/١)، أو آمن أولا ثم أشرك و كفر كما في قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - وَ لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ (سوره محمد ٣٠/١).

أو آمن و لم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك (١) و آيه التبين في نأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشمله وعد المغفره و الأجر العظيم.

ص: ٧٧٣

١ - ١). فمن أهل الإفك من هو صحابي بدرى و قد قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (النور ٢٣/)، و من نزل فيه «إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا» (الحجرات ٦/)، و هو الوليد بن عقبه صحابي و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (التوبه ٩٦).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩